
تأليف
ابراهيم أسعد محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه قصة أساسها حقيق ، أشخاصها التاريخيون لا فضل لى فى ابتداعهم ، ووقائعها الأصلية ثابتة، ولم استعمل الخيال إلا في ملء بعض الثغرات .

فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٦١ سقطت جوا فى أيدى الجيش الهندى . وقامت قيامة البرتغال ، ولبس أهلها السواد حزنا . لقد سقط آخر معقل للبرتغال فى الهند .

وقبل ذلك بثلاثين عاما، تزيد ثلاثة، قال الدكتور انطونيودى اوليفيرا سالازار ، استاذ الاقتصاد، فى خطاب ألقاه فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٤ « إن البرتغال لا تحتاج إلى الحروب والغزو » .

وحق له أن يقول هذا ، فالحرب والغزو قام بهما برتغاليون آخرون سبقوه منذ حوالى خمسة قرون . وهذا له قصة .

فى يوليو سنة ١٤٩٧ ابحر اسطول صغير من أربع سفن من ميناء لشبونه بقيادة فاسكودى جاما . وفى أوائل مارس سنة ١٤٩٨ وصل الأسطول إلى مرفأ موزمبيق (الساحل الشرقى لأفريقيا) .

لم يكن الساحل الشرقى مجهولا قبل هذا ، بل أن قدماء المصريين قد عرفوه تحت اسم بلاد بونت منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام على الأقل قبل هذا التاريخ .

وكان العرب ، خاصة عرب جنوب الجزيرة العربية ، اليمن ، ومسقط ، وعمان ، يعرفونه قطعا قبل أن يرد إليه البرتغال بألف سنة على الأقل .

جابت مراكبهم وسفنهم الصغيرة المحيط الهندى . مراكب وسفن شتى اسموها

أسماء غربية . البغلة والزاروق ، والغراب ، والحاجيزة ، والسامبوك ، والبدان. تبادلوا البضائع مع أهل الساحل الشرقي ونقلوها إلى فارس ، والهند ، والصين . استغلوا الرياح الموسمية الشمالية في الإبحار إلى الشاطئ الأفريقي ، والجنوبية في العودة .

تبادلوا مع السكان الأصليين التجارة ، وتزاوجوا منهم ، وأقاموا معهم . بنوا المستعمرات الصغيرة أضحى بعضها مدنا . وحينما جاء الإسلام ، أسلموا . وأسلم معهم معظم السكان الأصليون . وشيئاً فشيئاً مع مرور الزمن نشأ جنس من هذا التزاوج ، هو خليط في سماته بين السامي والحامي . هؤلاء هم من يطلق عليهم السواحليون .

من هذه المستعمرات الصغيرة ، نشأت المدن لتكون على طول الساحل ماعرف في التاريخ بإسم مملكة الزنج ، وهي في الواقع سبعة وثلاثين مدينة لكل منها حاكمها ، سلطانها ، أو شيخها . برزت منها مدن مثل كلوه ، وبمبا ، وزنجبار ، وسفاله وممباسا ، وباتي ، ومالندي ، ومقديشيو .

هذه المملكة هي التي زارها المسعودي في القرن العاشر ، وكتب عنها في مروج الذهب . هي أيضاً التي زارها الرحالة الأشهر ابن بطوطة في القرن الرابع عشر ، أو على وجه التحديد سنة ١٣٣١ ميلادية . ووجد كل من الاثنين تقسيمها في مملكة بين الأخوة المسلمين يجرى في دمائهم الأصل العربي ، لهم ملامح عربية واضحة ، وحضارة عربية أصيلة .

لن نأخذ وصف هذه الحضارة من ابن بطوطة الذي قال عن كلوه إنها من أحسن المدن التي زارها . ولن نأخذ أقوال المسعودي أو ابن حوقل ، أو الادريسي ، أو أبو المحاسن ، فكلهم مسلمون ، لكننا سنأخذ وصفا لأحد السادة البرتغاليين الذي ارتحل إلى كلوه لأول مرة في سنة ١٥٠٠ ، التاريخ نفسه تقريباً الذي ذهب إليها فيه فاسكو دي جاما .

يقول دوارت باربوزا . « هنالك جزيرة قريبة من الشاطئ تسمى كلوه ، فيها مدينة عربية بها كثير من المنازل المبنية من الحجارة ، والملاط . لها نوافذ كثيرة على نمط منازلنا ، وطرقات مرتبة ترتيبا حسنا جدا ، ذات اسطح منبسطة . الأبواب

من الخشب . حسنة النحت ، وذات مفصلات بديعة . حولها توجد الجداول ، وأزهار الأوركيد ، وحدائق الفاكهة ، تتخللها قنوات كثيرة من الماء المذب ....

« .. .. .. وبعض العرب بيض الوجوه ، وبعضهم سود ، يرتدون ملابس أنيقة غنية بالذهب والحرير ، والقطن . وكذلك النساء يرتدين هذه الثياب ، ويتزين بأساور من الذهب ، والفضة فى أيديهن وأرجلهن ، والعديد من الأقراط المزينة بالجوهرات .. .. .. »

وسرد باربوزا الأقوال نفسها عن مقديشيو ، وماليندى ، وممباسا .. .. ويضيف بالنسبة إلى الأخيرة « .. .. .. وممباسا أرض مليئة جدا بالطعام . توجد خراف جميلة كثيرة ذات أذيال .. مستديرة ، ويوجد البقر وأنواع أخرى من الأنعام بأعداد هائلة ، كما يوجد الدجاج . وجميعها سمينه جداً . يوجد كثير من الأذرة ، والأرز ، والبرتقال السكرى ، والمالح ، والليمون ، والتين الهندى ، والرمان وأصناف متعددة من الخضروات ، والكثير من الماء المذب .. .. .. » .

ومن رحلات بدرو الفاريز كابرال وقد زار هو أيضاً الساحل الشرقى الأفريقى سنة ١٥٠٠ يأتينا هذا الوصف عن كاوه « .. .. مبانيها عالية مثل تلك التى فى أسبانيا .. .. وبها تجار أثرياء ، ويوجد بها كثير من الذهب والفضة ، والعنبر والمسك ، والدر . وأهل البلدة يرتدون ملابس من القطن الرقيق ، والحرير وأشياء أخرى جميلة .. .. »

وحينما نتكلم عن عراقة المنطقة واتصالها بجيرانها والبلاد الواقعة على المحيط الهندى نجد أن ماعثر عليه من نقود يرجع ارتباطها بالصين مثلا إلى أسر تانج ، وسونج ، ومنج ، وشنج ، بل ربما هان أيضا . كما نجد الكثير من النقود الأغريقية ، والرومانية ، والساسانية ، والبهمنية ، والدولة الأميرية ، والعباسية ، والسلجوقية ، والماليك بل والمغول .

هذه هى المملكة التى جاءها فاسكودى جاما فى مارس سنة ١٤٩٨ ، وحضارتها توازى على الأقل حضارة البرتغال أن لم تفق عليها ، وهى قطعا أقدم منها بكثير .

لـكن هذه الحضارة كان ينقصها شيء واحد كان الفيصل بين الحضارتين . البارود .

لم يكن البارود قد تطور لدى كل السواحل الشرقية ولا حتى فى اليمن ، وعمان . صحيح أنه كان معروفا فى الصين . بل أن أوروبا لم تعرفه إلا منها عن طريق ماركو بولو . لـكن الصين لم تـكن قد طورت استعماله ، فى حين أن اوروبا طورته إلى الأسلحة النارية ، والمدافع ، والبنادق ، والمسدسات . وما كان يمكن للسهام والحراب ، والمنجانيق وغيرها من الأسلحة البدائية أن تقاوم المدافع والبنادق .

تم إنشاء الامبراطورية البرتغالية فى المحيط الهندى فى السنوات من ١٥٠٥ إلى ١٥١٣ . في سنة ١٥٠٥ أبحرت من البرتغال ثلاث وعشرون سفينة تحت قيادة فرانسيسكو دالميدا . وفى هذه السنة استولى البرتغال على سفاله ،وموزمبيق. أحرقت كلوه ، ونهبت ، وقتل رجالها واغتصبت نساؤها . وتلتها ممباسا التى دمرت عن آخرها . وسقطت مدن الساحل الشرقى الأفريقى الواحدة تلو الأخرى . زنجبار ، ومالندى ولامو ، وغيرها .

وتقدم البرتغال فاستولوا على جزيرة سوقطرة ، ثم إلى الساحل الجنوبى من شبه الجزيرة العربية . دخلوا البحر الأحمر ، وحاولوا الاستيلاء على عدن لـكنهم أخفقوا ، استولو على زيلع ، وتقدموا نحو جدة .

وبدأ الأسطول المصرى فى التدخل . ارسل السلطان قنصوه الغورى سفناحربية تحت قيادة حسين باشا ، وحدثت عدة معارك ، انتصر فى آخرها البرتغال. على أنهم كانوا قد تحملوا من الخسائر ما يفوق قدرتهم فاضطروا إلى الانسحاب من البحر الأحمر .

اتجهوا إلى جنوب شبه الجزيرة العربية واستولوا على الساحل الجنوبى . فتحوا مسقط وعمان ، واستولوا على جزيرة هرمز وتوغلوا فى البحر العربى إلى البحرين . استولى على الساحل الغربى للهند ، مقصدهم الأصلى ، فاستولوا على جزيرة ديو فى

شمال الساحل الغربي ، وأسسوا مستعمرة برتغالية في جوا ، إلى الجنوب من كالكتا لتكون هي مقر نائب الملك .

على أن العرب لم يقابلوا هذا الغزو بالخضوع فقد سبق أن قلنا إن كاوه وممباسا حاولتا المقاومة في سنة ١٥٠٥ فدمرتا ، ونهبتا وأحرقت الأخيرة منهما في ١٥٠٥/٨/١٥ . وحاول أهالي ممباسا مرة ثانية في سنة ١٥٢٩ فأحرقت مرة ثانية ، ونهبت . ومرة ثالثة طلب أهالي البلدة النجدة من الأتراك ، وكانوا وقتئذ قد فتحوا اليمن فأرسلوا لهم سنة ١٥٨٥ حملة بقيادة الأمير على بك استولت على كل الساحل الشرقي حتى ممباسا ، ثم طرده منها البرتغال .

وعاود الكرة سنة ١٥٨٩ فوصل إلى ممباسا واستعان بقبيلة زيمبا من الداخل . لكن هذه القبيلة كانت من آكلي لحوم البشر ، وبمجرد دخولها إلى ممباسا انقلبت على الأمير على بك ، وعلى أهل المدينة . وفقد الأمير حياته وكذلك الكثيرين من رجاله ، ومن أهل المدينة .

وفي سنة ١٥٩٣ قرر البرتغاليون اقامة حصن في المدينة نظرا لموقعها الجغرافي الهام ، ولكثرة الاضطرابات فيها ، فأقاموا واحدا من امنع حصونهم وأسموه حصن يسوع ، فورت جيسوس .

في حدود سنة ١٦١٣ حاول سلطان ممباسا القيام بثورة داخلية وطرد البرتغال . إلا أن محاولته اكتشفت ، وقتل جزاء له على هذا . وكان على ابنه في سنة ١٦٣١ أن يقوم بالمحاولة ، ونجح فيها . استولى على حصن يسوع ، فورت جيسوس ، وطرد البرتغاليين ، وكان هذا هو المسمار الثالث في نعش الامبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي .

في سنة ١٦٢٢ كان الصفويون قد انتزعوا منهم جزيرة هرمز ، ثم سقطرى في السنة نفسها ، واستولى العمانيون على سحار ومسقط سنة ١٦٤٨ وباقي عمان سنة ١٦٥٠ .

* * *

هذه لمحة سريعة عن تاريخ الساحل الشرقى لأفريقيا ، وعلاقته بالبرتغاليين . وقد اخترت لهذه القصة ، وأرجو أن تليها قصص أخرى ، المحاولة الناجحة التى قام بها سلطان ممباسا سنة ١٦٣١ .. للاستيلاء على حصن المسيح ، واخترت بطلها السلطان نفسه يوسف بن حسن .

ومما يؤسف له أن المستندات التاريخية التى تحت يدنا ضئيلة جداً لا تتجاوز ثلاثة مستندات كتب اثنين منها برتغاليان أحدهما شخص مجهول ، والثانى رجل معاصر للحوادث يدعى مانويل دى فاريا اى سوزا . أما المستند الثالث فهو مخطوط ناقص كتبه واحد من العرب السواحليين ، وهو أيضاً مجهول الاسم .

على أن المعلومات التى حوتها هذه الوثائق الثلاثة ، وإن لم تكن تكفى لاشباع غليل مؤرخ ، إلا أنها تكفى لأن نتبين منها حقائق لا شك فى صحتها ، وأن نستنتج من ورائها حقائق أخرى لنبنى من المجموع قصة لا تخرج فى مجموعها عن إطار الوقائع التاريخية . وسأذكر النصوص الأصلية .

ومن الغريب أن هذه المستندات الثلاثة قد وصفت السلطان يوسف بأوصاف تتفق مع بعضها . هذا بالرغم من أن اثنين كما قلنا كتبهما برتغاليان ، والثالث سواحيلى مسلم ، وكان من المتصور عقلا أن تختلف وجهات النظر طبقا لاختلاف الدين ، والبيئة ، والأهداف .

فلا يتصور مثلا أن يقول عنه البرتغاليون إنه خائن وأن يقول عنه العرب المسلمون كذلك إنه خائن . لمن كان ولاؤه إذا ؟ .

قال عنه المؤرخ المسلم إنه نشأ مع البرتغاليين ، وطعم من طعامهم وأكل لحم الخنزير . ابتدأ حكمه يوم السبت السابع من محرم فى الساعة العاشرة من سنة ١٠٤٠ هجرية (١٥ أغسطس ١٦٣٠) وحينما تولى السلطة كان طاغيا ، اضطر شعبه أن يأكل من لحم الخنزير ، وكان خبيثا وكافرا . كان تبعا لسلطان

البرتغال ، لكنه اختلف معهم على السلطة ، وتمرد فاعلن سلطان البرتغال الحرب عليه وطرده من الحصن[١] .

وقال عنه المؤرخان البرتغاليان أنه خائن ، ومرتد عن دينه وطاغيه مستبد ، ومتمرد ، وأحقر من أذل العبيد ، وعدو المسيحية ... ...[٢] !

---

(١) من مخطوط باللغة السواحيلية لكاتب مجهول تمت فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٣٩ ، ٢٩ من ابريل سنة ١٨٢٤ .

(٢) سنورد ترجمة لنص الوثيقتين البرتغاليتين فى آخر الكتاب .

الفصل الأول

ممباسا سنة ١٦١٣

تقع ممباسة على خط عرض ٤° جنوب خط الاستواء . هى جزيرة طولها ثلاثة أميال وعرضها ميلان ونصف ، قريبة جدا من الشاطئ الشرقى لأفريقيا ، لايفصلها عنه سوى مساحة صغيرة جدا من البحر حتى أنه الآن توجد ثلاثة كبارى تصل الجزيرة بالقارة .

وتتدرج الجزيرة من الشاطئ بمرتفعات تكسوها الغابات من الناحية الغربية حتى تصل إلى القمة حيث توجد المساكن . ومن هذه الناحية ، بنى الأهالى ، وهم من الأعراب والفرس والزنوج ، واخلاطهم سورا ضخما لحمايتها من غارات القبائل التى تهاجمهم من القارة ، أو غارات ملك مالندى الذى كانت الحروب بينه وبين سلطان ممباسا مستمرة .

من الناحية الشرقية تطل المدينة على البحر مباشرة وتنقسم إلى قسمين . أحدهما للأهالى ، وبه قصر السلطان ويضم حوالى ستمائة منزل يقطنها عشرة آلاف نسمة . والمنازل مبنية بالحجارة والملاط وإلى جوار كثير منها حظائر للأغنام والمواشى . طرقاتها ضيقة جدا حتى أنه يصعب على اثنين أن يسيرا جنبا إلى جنب . ومما زاد من ضيقها أن أمام الكثير من منازلها مقاعد حجرية يجلس عليها الأهالى بعد الفراغ من أعمالهم للتسامر .

ويفصل هذا القسم عن القسم الآخر مساحة كبيرة خالية من المنازل ، وان يكن بها غيضات وأشجار ثم سور عال لايمكن تخطيه إلا عن طريق باب ضخم يقوم عليه الحرس .

ويقطن البرتغاليون القسم الثانى الذى يضم حوالى سبعين منزلا مصطفة

على جانبي شارع واحد عريض يسمى رابوتزيريا ، كما يضم ديرالرهبان الأوغسطينيين . في نهاية هذا الشارع يوجد حصن يسوع ، فورت جيسوس ، الذي بناه البرتغال ليشرف على أحد مينائي الجزيرة .

والمدينة ميناءان ، أحدهما هو الذي ألممنا إليه ، الذي يشرف على حصن يسوع ، وهو في الناحية الشرقية من الجزيرة وقد أطلق عليه اسم الحصن ، ولنا عودة إلى وصفه في حينه ، أما الآخر إلى الغرب قريبا من الشاطىء الأفريقي واسم الميناء طوقه(١) .

* * *

على أنني لابد أن أذكرك بأن الوصف المتقدم كان لمباسه سنة ١٦١٣ ، منذ أكثر من ثلاثمائة وستين عاما . إذا ذهبت اليوم فسوف تجد مدينة حديثه بكل مافي هذه الكلمة من معنى، يصلها بالشاطىء الأفريقي ثلاثة كباري ، وتعدادها الذي كان عشرة آلاف نسمة أضحى طبقا لتعداد سنة ١٩٦٢ ١٧٨٫٤٠٠ نسمة ، وطرقاتها الضيقة أضحت شوارع عريضة ، ممهدة ومبانيها ذات الطابقين ، أو الثلاثة صارت تصورا ، وعمارات حديثة شاهقة ، ومرفأها إزداد عمقا ، وبنيت له أرصفة تستقبل أكبر السفن . فهي الآن الميناء الأول لكينيا .

صحيح لازال الحصن القديم في مكانه قايما بوحشته ، لكن إستعماله تغير من حصن إلى سجن ثم أخيرا إلى متحف ، يؤمه السياح . لازلت ترى أيضا بقايا المدينة القديمة ، مجرد آثار اندثرت أكثر معالمها . لن ترى قصر السلطان كما كان في مجده يطل على الميناء من أعلى مكان في الجزيرة . لن ترى حدائقه الواسعة التي حوت أصنافا متعددة من الأزهار والفاكهة ، لن ترى مبانيه ذات الطوابق الثلاثة التي كسيت جدرانها بالملاط الأبيض . لن ترى القصر يتلألأ كل ركن فيه وقد أضاءته مصابيح مستوردة من الهند ، والصين وفارس ، وجنوب الجزيرة العربية ، وفرشت أرضياته بأفخر الأبسطة الإيرانية .

---

(١) من وصف جاسبر دى سانت برنادنيو عن رحلته ١٦٠٦

مثل تلك الليلة التى احتفل فيها السلطان ببلوغ ابنه يوسف السابعة من عمره ، حينما جاءه شيخه ومعلمه يقرر أن الصبى قد أتم حفظ القرآن الكريم . لقد أقام السلطان حفلة بهذه المناسبة ، ودار فى المدينة رجال يعلنون موعدها وسببها .

فى تلك الليلة توافد على القصر رؤساء العشائر ، والقبائل والأمراء ، وعليه القوم ، والتجار ، مهنئين حتى امتلأت بهم قاعات ، وردهات الطابق الأرضى جميعة . كنت ترى خليطا غريبا من الأشخاص والملابس . فأولا هنالك السلطان نفسه وقد جلس على الأرض ، فوق بساط إيرانى ، وحوله وسائد من حرير هندى ، وصينى متعدد الألوان .

كان السلطان فى الحلقة الرابعة من عمره ، رفيعا ، ضئيل الجسم ، جميل الملامح يميل لونه إلى السمرة الخفيفة الضاربة إلى الصفار . أسود شعر الرأس واللحية ، عسلى العينين ، مستقيم الأنف ، متسع الفم فى شفتيه غلظة طفيفة ، كما تبدو على ملامحه الطيبة والرزانة ، لكنك كنت أيضا ترى فى ذقنه المربعة قوة إرادة وشخصية .

كانت تعلو وجه السلطان وهو يتصدر القاعة الكبرى مسحة من السعادة الممزوجة بالحزن بينما ظلت إحدى يديه تسبح ، والأخرى تربت بفخر من وقت إلى آخر على كتف نجله المحتفى به ، يوسف الذى جلس إلى جوار أبيه فى وقار الشيوخ ، تظهر على وجهه الصغير علامات الشرف ، ونبل المحتد .

لم تكن سماته تختلف كثيرا عن والده ، وإن كانت سمرته أخف قليلا . نفس الأنف المستقيم والفم العريض والشفتان اللتان بهما غلظـــة ، والعينان العسليتان الواسعتان ، والشعر الأسود ، والذقن المربعة ، والوجه النحيل ، والجبهة العريضة البارزة . على أن ما كان يميز الصغير هى تلك النظرة الثابتة المتفحصة التى أعطته رزانة تفوق عمره بسنوات . ولو أنك مكثت تراقبه لرأيت تلك النظرة الصارمة لاتتغير حتى والصبى يبتسم فى أدب وهو يتلقى التهانى .

إلى يمين السلطان تربع ابن عمـــه ، ووزيره ، ومستشاره ، الأمير سالم . هو أيضا فى الحلقة الرابعة من عمره ، فى أوائلها ، وهو أيضا نحيل القامة . وتنطق

ملامحه بصلة القربى الوثيقة . وإلى هنا يقف الشبه . بدلا من عينى السلطان الطيبتين، وفمه الباسم ، يرى المرء عينين ضيقتين لاتستقران فى محجريهما ، وفما رقيقا قاسيا . ترددت الإشاعات بأنه كان يرى نفسه أحق بالملك من ابن عمه . وأنه دائما يسعى لاعتلائه ، ووصلت الشائعات إلى السلطان فنحاها جانبا . لم يقبل قلبه الطيب أن يصدقها .

هنالك أيضا الشيخ على الحضرمى ، شيخ الأمير الصغير ، واستاذه . رجل من أهل السنة ، شافعى المذهب ، أصله من حضرموت . كان فى هذا الوقت فى الحلقة الخامسة ، وقد بدأت شعيرات بيضاء تتخلل شعره ، ولحيته . ضخم الجثة ، لاتفارق الابتسامة شفتيه ، تدل ملامحه على الذكاء مع البساطة ، وسماحة الخلق . إلى يسار الأمير سالم ، جلس أحمد ابنه ، جميل الصورة طويل القامة تختلف نظراته الصريحة عن نظرات والده . غير هؤلاء كان يوجد مشايخ المدينة وتجارها . وليس أقلهم شأنا رؤساء القبائل المجاورة ويجو ، ونيسكا ، وجيرياما ، وبونى ، وسيجوجو ، وموزونجاو . لم يكن الرؤساء مسلمين ، ولم تكن قبائلهم مسلمة ، فيما عدا قلة نادرة ، لكنهم كانوا يعيشون فى الشاطىء الأفريقى على أراض تابعة للملك ، على الأقل إسما .

قدموا الهدايا ، كل على قدره . جلد الغزال والزراف ، للنعال والأحذية والسيور . جلد النمر ، بساط يطرح على الأرض . العاج ، والعسل البرى من قلب الغابات . الثيران ، والأبقار ، من المراعى . الحرير من الهند والصين ، اللؤلؤ من الخليج ، الذهب من سفالة إلى الجنوب . كان السلطان حاكما عادلا متسامحا ، كريما محبوبا من رعيته ، فلم يبخلوا عليه فى يوم فرحه بنجله الوحيد .

مدت الموائد تحمل خيرات البلاد من لحوم ، وطيور وأسماك وخضروات وفاكهة . ووقف العبيد يخدمون ويصبون أنواع الشراب المحلى بالعسل . وفى أقصى الصالة الكبرى جلس منشد يطرب الموجودين بأحسن القصص يصاحبه جوقة ، من حاملى دف ، وأرغول ، وناى .

في أجنحة القصر الأخرى ، في الحريم ، كانت النساء يطلقن الزغاريد من وقت لآخر . مدت لهن الموائد ، تماما مثل الرجال . ووقفت الاماء يخدمن ، ويلبين الأوامر . كانت ليلة العمر ، فما في كل ليلة يختم ابن السلطان حفظ القرآن الكريم .

إنتهى العشاء ، وفرغ الضيوف من غسل أيديهم ، وحمل الخدم والعبيد بقايا المأكولات والأطباق وحانت الساعة المرتقبة ، حين يتلو الصبي بعض الآيات . كان على الوالد أن يختار جزءا ، أو سورة ، وعلى الصبي أن يتلو ، ولايتوقف إلا إذا أشار إليه الوالد .

إختار الأب سورة . واعتلى الصبي مقعدا خاصا تربع عليه في جلسته ، غير هياب ولا وجل . اتخذ مجلسه في وقار ، وارتفع صوته الصغير الرفيع يرتل السورة في كلمات واضحة جلية . غير مخطىء ولا ملحن .

إرتفعت هتافات الاستحسان كلما توقف الصبي عن الترتيل . حتى رؤساء القبائل ، ومنهم من لم يكن يتكلم العربية أو يفهمها ، كانوا يهتفون طربا . فالقرآن له وقع خاص ، ولكلماته موسيقى محببة إلى القلب ، دون حاجة إلى فهمها .

اختتم الصبي السورة ، وعلت أصوات المستمعين مدحا ، واعجابا . إلتفت إلى والده ينتظر أوامره . كان الملك طربا ، فخورا بابنه ، ولو ترك الأمر له لجلس يستمع إلى ترتيله إلى الصباح دون ملال . لكنه كان حصيفا لم يرد أن يثقل على أضيافه فأشار إلى الطفل بأن ما فات الكفاية . تعالت أصوات الاحتجاج ، وطالب الكثيرون بتلاوة أخرى نزل على رأيهم ، وأمر نجله بأن يبقى ليتلو سورة القلم .

بدأ الصبي التلاوة . علا صوته الرفيع يرتل الآيات . وخيم السكون على الحاضرين يستمعون . تمايلت رؤوسهم ، وأطرقوا تمعنا في كلمات الله . ولاحت الغبطة على وجه الشيخ على . لقد أتم الجزء الأكبر من مهمته ، وقطع الصبي خطوته الأولى نحو التفقه في الدين .

ظل السكون مخيما لايقطعه سوى صوت الصبي يرتل ، وكلمات استحسان يطلقها بعض الحاضرين ثم تناهت إلى الأسماع أصوات لغط فى الحديقة تبعتها صرخة ، اقتحم الباب على أثرها شخص جميل المحيا .. طويل القامة ، عريض المنكبين يرتدى صدرية من حديد ، يقبض على سيف ماتزال الدماء تقطر منه .

كان الداخل هو الضابط البرتغالى سيمادل ميلو بريرا قائد الحصن ، يتبعه عدد من الجنود البرتغاليين فى كامل سلاحهم ، وعدتهم الحربية . وقف برهات ينظر حوله فى قحه واحتقار ، وتحد . أدار نظره في الجمع ببطء كأنما ليتذكر كل وجه رآه حتى استقر نظره على السلطان الجالس فى صدر القاعة ، فارتسمت على وجهه نظرة كلها ازدراء واستخفاف .

بمنتهى الاستهتار ، ودون أن يحيد بنظره عن السلطان ، قبض على أقرب الموجودين إليه ، ومسح سيفه من الدماء العالقة في ملابسه ، ثم أغمده ببطء فى غمده ، وارتسمت الابتسامات على وجوه الجنود البرتغاليين .

تفاوتت الأحاسيس التى علت وجوه الحاضرين ، وتباينت معها تصرفاتهم . هب معظمهم واقفا حين رأوا قائد الحصن وجنوده . وبان الذعر على وجوه الكثيرين . تراجعوا جميعا نحو الحائط بعيدا عن طريق الضابط والجنود . منهم من أنسل خفية بعيدا عن الصالة الرئيسية ، ولعله أنسل كذلك بعيدا عن القصر ، ومنهم من كان يرتعد فرقا ، كالأمير سالم الذى هب واقفا وأمسك بذراع نجله أحمد يجره إلى الخلف . حاول ولده التملص برهات كأنما يبغى الهجوم على الضابط ، لكن يد أبيه ظلت قابضة عليه لم تدعه حتى هدأ . ومنهم من اكتسى وجهه مسحة من الغضب حاول أن يخفيها ، أو يكتمها . وقليلون هم الذين ظلوا على حالهم لايتحركون ، ولم يظهر على وجوههم انفعال .

منهم كان مفيتو ، زعيم قبيلة موزونجلو ، الذى كان قد وقف حين دخول الضابط وجنوده لكنه ظل فى مكانه ، فارعا فى قامته ، تظهر عضلات جسمه واضحة إذ لم يكن يستره سوى ما اعتادت قبيلته ارتداءه ، مجرد ستره للجزء الأسفل

من الجسد ، وبضعة ريشات نعام ، على تاج حلى به رأسه ، وحليات ذهبية تطوق بها ذراعيه . كانت نظراته للضابط ثابتة لاتغيير فيها ، واستمرت قسمات وجهه جامدة لاتوحى بأى شعور أو إحساس داخلى .

لم يتحرك السلطان من مكانه ، وظل ينظر إلى الضابط كأنما هو يشاهد تمثيلية لأطفال ، يتسلى بها . ولم يقف الشيخ على ، ولا اختلفت قسمات وجهه ، لكن الصبى الصغير ، ولى العهد ، كان هو محط أنظار الجميع .

كان قد توقف عن التلاوة حينما علت الصرخة فى الحديقة ، واستمر صامتا حينما دخل الضابط يتبعه جنوده بعد ذلك . لكنه انتهز فرصة الثوانى القليلة التى مسح فيها البرتقالى حسامه ، واستمر فى التلاوة بصوت هادىء لاتهدج فيه أو حشرجة . لقد أمره والده أن يتلو سورة القلم ، وما كان ليقف، إلا أن يأمره والده ، أو يختتم .

تفاوتت النظرات الموجهة إليه ، من إعجاب شديد إلى تعجب ، وتوقع ، إلى دهشة وحيرة ، إلى خوف ورهبة فى عيون زائغة أخذت تنتقل بسرعة بينه وبين الضابط .

تقدم الضابط بريرا بخطوات سريعة حتى توقف أمام الصبى ، ودون تمهل ، ارتفعت يده لتهبط بقوة وقسوة على الوجه الصغير . ألقت الصفعة الصبى الجالس على الأرض ، وانبثقت الدماء من جرح فى جانب فمه .

علت تمتمات الغضب من الموجودين ، لكنهم كانوا قد أتوا إلى حفلة تلاوة القرآن ، ولم يكن مع أحدهم سلاحا فى حين صوب الجنود بنادقهم إليهم ، فلم يكن لديهم حيلة .

على أن الصبى لم يكن فى حاجة لأن يدافع عنه أحد . كان من الجلى أن الصفعة آلمته . أغرورقت عيناه بالدموع فظل برهات يغالبها ألا تنحدر على خديه ، ثم اعتدل فى جلسته ، على الأرض ، واستمر فى التلاوة .

جاء صوته فى هذه المرة متقطعا يكشف عما يعتمل فى نفسه من انفعالات ، لكن كان من الجلى أنه يجاهد فى كبح جماحه .

لم يطق الضابط صبرا ، تحركت ساقه بسرعة لتلتقى قدمه بجسد الصبى فى ركلة لم يتمالك الصغير معها من إصدار أنة ألم . وعلا صوت الضابط مخاطبا السلطان .

— إصمت هذا الصبى وإلا فسوف أقتله .

تكلم بالبرتغاليـــة التى يفهمها السلطان ، ويعرفها الكثير من الموجودين . وتكلم الأخير بالعربية موجها كلامه إلى الصبى .

— كفى الآن يايوسف . لعلنا نستمع إليك فيما بعد .

لابد أن النساء فى هذه الأثناء شعرن فى مبدأ الأمر بأن شيئا غير عادى قد حدث . لم يسمع منهن صوت الزغاريد ، وتوقف الصخب . تجمعن فى الشرفة الداخلية للقصر ينظرن بهلع، إلى مايحدث، وحينما ركل الضابط الصبى ندت صرخة ألم لم تستطع الأم الولهى أن تكتمها ، ثم عم السكون .

إرتفع صوت بريرا حادا كالسياط موجها كلامه إلى السلطان .

— لقد حاول أحد حرسك منعى من الدخول حتى يستأذن ، ويمكنك أن ترسل من يدفن جثة .

لم ينتظر ردا ، واستمر فى حديثه .

— لقد صدرت لى أوامر نائب الملك أن أرسل إليه الصبى ليتلقى تعليمه فى جوا ، واعتقد أنك سعيد بهذا الشرف الذى سيضفيه عظمته عليكم .

هذا وعليك أن ترسل إلى السادة البرتغاليين المزارعين أربعمائة رجل من الأشداء ليعملوا فى الحقول ابتداء من الساعة السادسة صباح الغد ، وسيدفع لكل منهم ربع اكسرافين يوميا كالعادة بالاضافة إلى طعام الغذاء .

أخيرا فإن محاصيل الأرز والفاكهة ، والأفيون ، الوارد من الداخل، عليكم البدء بتشوينها لأن السفن قد أرسلها فخامة نائب الملك لكى تشحنها إلى جوا .

لم يكن الضابط يطلب أو يلتمس ، وإنما كانت لهجته آمرة وقحة كمن يخاطب عبدا أدنى منه . مع هذا لم يفقد السلطان سيطرته على أعصابه . وحينما تكلم جاء صوته واضحا لا أثر فيه للأحاسيس التى تعتمل فى داخله .

— لاشك أننا سعداء بهذا الشرف الذى أسبغه علينا نائب الملك لكن الصغير لم يتم تعليمه هنا حتى الآن .

وحينما يفعل سوف نرحب بارساله .

أما من ناحية الرجال فنحن لانمنع أى شخص من العمل كيفما شاء ، ومع ذلك ... ، كما أننا سوف نرسل إلى جوا كافة المحاصيل المطلوبة بعد أن تأخذ البلدة كفايتها .

أطلق الضابط ضحكة عالية ساخرة ، والتوت شفتيه استهتارا وازدراء وقال فى هزء واضح .

— يبدو أن جلالتك لم تفهم ماقلت . انى لاأسألك رأيك ، وإنما أبلغك أوامر وليس عليك إلا تنفيذها . لقد جاءتنى الأخبار أخيرا أنك تتآمر علينا ، ويبدو من أقوالك أن هذه الأخبار صحيحة .

لم يتمهل الضابط بعد هذا ، وإنما تقدم وقبض على كتف الصبى بعنف وأراد أن يدفعه نحو جنوده . وجرت الحوادث بسرعة . لم يستطع السلطان والشيخ أن يتحملا أكثر من هذا فهبا واقفين . ولوى الصبى رقبته ثم غرز أسنانه بأقصى مايستطيع من قوة فى اليد القابضة عليه . صرخ الضابط من الألم ، وسحب يده ، وامتدت يده الأخرى لتضرب الصبى ضربة رفعته من مكانه ، وألقته على الأرض .

اندفع السلطان لنجدة ابنه ، لكن الشيخ على كان أسرع منه ، جرى نحو الجسد الملقى ورفعه إليه يضمه إلى صدره ، ودوت طلقة نارية من بندقية أحد الجنود سقط الشيخ على أثرها ، ومعه حمله الثمين .

علت صيحات الصراخ من النساء ، وأصوات الغضب من الرجال . حاول الصبى أحمد ، نجل الأمير سالم أن يتملص من قبضة والده لكن هذا قبض بيديه كلتيهما عليه لم يدعه . وفقد السلطان عقله تماما فتحول إلى الضابط وأطبق على عنقه بيديه المجردتين . وفى اللحظة التالية كان خنجر الضابط يمزق أحشاءه ليسقط متهالكا على الأرض مضرجا بدمائه .

من الدرج الجانبي المؤدي إلى شرفات النساء اندفعت المسكة . لم يكن في مظهرها مايدل على أصلها أو نسبها . أضحت نمرة هائجة أصابها خبال . هجمت على الضابط الواقف فوق جثة زوجها ، وغرزت أظافرها في وجهه تبغي فقأ عينيه . ومن ناحية أخرى تمكن أحمد من الافلات من قبضة والده فاندفع يتسلق ظهر الضابط .

تراجع الرجل مذعورا فاقد بذلك العينين . وللمرة الثانية في دقائق قليلة تحرك الخنجر ليهبط بعنف وغضب في صدر المرأة المسكومة ، مثنى، وثلاثا ، ورباعا . انبثقت الدماء حمراء قانية تسربل الثوب الأبيض الناصع ، وتهاوت المرأة ، التي كانت ملكة ، إلى جوار جثة زوجها تلفظ أنفاسها الأخيرة . وتقدم أحد الجنود ليضرب أحمد على رأسه بقبضة البندقية ضربة أسقطته على الأرض ، وشجت جمجمته فبقي مكانه بلاحراك .

شاهد الصبي يوسف هذه الأحداث وكأن كابوسا مزعجا قد احتواه . كان ما زال ملقى على الأرض إلى جوار أستاذه . أحس بدماء الشيخ فسرت في جسده الصغير رعدة كأنما ينتفض من البرد .

رأى والده وقد شقت بطنه ، وتدلت منها أحشاؤه . أراد أن يهرع إليه ، لكن الرعب شل حركته . فتح فاه ليصرخ ولم تخرج الصرخة . حاول أن يتقي النظر ، ويغمض عينيه ، إلا أنهما ظلتا محدقتين على الجثة الملقاة ، والأحشاء الساقطة ، والدماء التي تسيل على الأرض .

انتابه فزع جديد حينما رأى أمه تندفع نحو الضابط . أبصر الخنجر وهو يرتفع ليهبط على صدرها . وهنا انطلقت من حنجرته صرخة عالية مناديا أمه . حاول الوقوف ليعدو لنجدتها لكن يدين من حديد قبضتا على كتفه تسمرانه في مكانه ، وطرق أذنيه صوت أستاذه يأتي إليه كأنما هو في حلم .

— لاتنظر يابني .... لاتنظر .

حاول أن يطيع ، لكنه لم يستطع . امتدت يد الشيخ إلى رأسه ترغمه

على أن يتحول إلى الصدر المريض إلى جانبه . أراد التملص . فاشتد ضغط اليد بقوة لاتخلو من حنو وعطف . وتناهى إليه الصوت رقيقا عطوفا .

— إبك يا بنى .. إبك .. لكن لاتنتظر .

دفعة واحدة أصابت الصبى نوبة هستيرية وانخرط فى بكاء مر . راح جسده جميعه يرتعش كمن أصابته الحمى . أحس باليد الضاغطة على رأسه تخفف من ضغطها ، وبأصابع رقيقة تتخلل شعره وتمسح عليه . وجاءه الصوت الرقيق .

— استمع يابنى .. سوف يأخذونك الآن إلى جوا وسوف يحولونك إلى مسيحى لهذا لم يبق وقت طويل وعليك أن تعدنى بشئ .

لم يستطع الصبى أن يجيب . كانت أذناه تسمعان ، لكنه لم يكن واثقا من أنه التقط المعانى التى وراء الكلمات . كان مايزال يجهش بالبكاء ، ومايزال جسمه ينتفض ، ويرتعد من الأحاسيس التى تعتمل داخله ومع هذا فقد هز رأسه ، لشيخه إيجابا . جاءته الكلمات متقطعة إلا أنها واضحة قوية النبرات .

— عدنى أن لاتنام ليلة أبدا مهما كانت الظروف إلا بعد أن تختم جزءا من القرآن . سايرهم كيفما شاءوا ، وافعل مايرضيهم لكن كل ليلة ، بلاصوت ، كرر آيات القرآن ، وسورة ثم انتظر . لاتتعجل ، وسوف يحين الوقت الذى تستطيع فيه أن تتحرر . هل فهمت يايوسف .

لم يكن الصبى قد توقف عن البكاء ، والنشيج لهذا لم يستطع أن يجيب على أستاذه سوى بإيماء من رأسه . تراخت اليد القابضة على كتفه ، وتوقفت الأصابع عن التربيت على رأسه . كانت الرصاصة قد أصابت الشيخ فى كتفه ؛ ولم تكن الاصابة فى حد ذاتها قاتلة ، إلا أنه فقد كثيرا من الدماء فابتدأ الارهاق يدب فى جسده القوى .

امتدت يد قاسية لتنتزع الصبى بوحشية من صدر الشيخ . ورفع الصبى رأسه ليتطلع فى وجه بشع . تجمدت الدماء على وجنتيه . وسمع فحيحا مخيفا يصدر من شفتين أصابتهما بعض الخدوش .

— تعالى أيها الكلب العربى . لولا أننى أمرت أن أرسلك إلى جوا لقتلتك الآن لأنتهى من هذه العائلة اللعينة دفعة واحدة .

لم يعط الصبى فرصة السير ؛ إنما جرجره وراءه وهو متجه بسرعة إلى باب القصر ولم تفلح حركات الصغير فى التملص من قبضة الرجل فراح يصرخ ويبكى . وافترق الجنود صفين ليفسحوا له طريقا بينهم . تطلعت عيونهم ترقب الموجودين وهم على استعداد لأن يطلقوا النيران عند أية حركة مريبة . وعم السكون إلا من أصوات نشيج النساء ووقع خطوات الضابط بحذائه الثقيل .

وفى وسط هذا السكون . وقبل أن يبلغ الضابط الباب سمع الصبى صوت أستاذه يعلو .

— لاتنس يايوسف .. القرآن .. عليك بالقرآن .

* * *

الفصل الثانى

جوا ١٦٢٢

على الساحل الغربى للهند ، وعلى بعد مائتين وخمسين ميلا جنوب بومباى ، تقع مستعمرة جوا . مساحتها كمقاطعة برتغالية ١٣٩٤ ميلا مربعا يحدها من الشمال نهر تيراخل وتليه منطقة راتنجيرى من مقاطعة ماهاراشترا . وإلى الشرق منها توجد ماتسمى بالممرات الغربية . أما فى الجنوب فتوجد منطقة كانارا الشمالية ، وفى الغرب المحيط .

كانت جوا فى ذلك التاريخ تسكون مع داموا ، وجزيرة ديو ، مستعمرة ادارية واحدة يحكمها حاكم برتغالى عام وتتبع رئيساً روحانياً واحدا ، وأطلق على الجميع اسم المستعمرات القديمة ، وهى التى غزتها البرتغال حتى سنة ١٥١٠ .

توجد عدا هذا سبع مناطق تم غزوها بعد ذلك واطلق عليها المستعمرات الجديدة على طول الشاطئ الهندى بامتداد اثنين وستين ميلا بما فى ذلك جزيرة انجيديفا .

والمستعمرة شاطئها عموما جبلى يصل فى بعض المناطق ، خاصة عند الممرات الغربية إلى أربعة آلاف قدم ، كما أن أكبر انهارها هما تزى ماندافى ، وجوارى الذى يحيط بجوا ليجعل منها جزيرة تعدادها حوالى عشرين ألفاً ، تتبعها ثلاثين قرية .

كانت جوا قبلا أهم ميناء لترحيل الحجاج من الداخل إلى شبه الجزيرة العربية ، كما أنه كان بها أهم سوق للجياد العربية لا ينافسها فى ذلك سوى ميناء كوتزهكود (كالسكتا) .

ولما اتسعت فتوح البرتغال فى أوائل القرن السادس عشر أصبحت جوا عاصمة المستعمرات البرتغالية فى المحيط الهندى ومنح قاطنوها نفس حقوق قاطنى لشبونة ، وعين بها نائب ملك ، كما أصبح رئيس الأساقفة فيها هو المسيطر على كل الكنائس

فى المنطقة . وفد إليها بعض الاخوان الدومينيكان سنة ١٥١٠ ، والفرنسيسكان سنة ١٥١٧ . وعين بها أول رئيس أساقفة سنة ١٥٣٨ .

فى سنة ١٥٤٢ استولى فرانسيس اكسافير على كلية سانتا فيه لتمرين المبشرين من الأهالى ، وأعيد تسميتها إلى كلية سانت بول ، واضحت مركز ارسالية الجزويت فى الشرق الذين اطلق عليهم اسم باوليستاس . وفى ٤ فبراير سنة ١٥٥٧ صدر قرار بابوى أضحت جوا بمقتضاه اشبيليه اختصاصها الشرق كله ، كما دخلتها محاكم التفتيش فى سنة ١٥٦٧ .

وهنالك ثلاث مدن فى جوا . مدينة جوا القديمة . وقد عرفها العرب تحت اسم سندابور ، طرقاتها ضيقة ، ومبانيها ذات طابق واحد فى أغلب الأحوال ولا يوجد بها من المبانى البرتغالية إلا الكتدرالية التى بناها البوكيرك سنة ١٥١١ وأعيد بناؤها سنة ١٦٢٣ ، ودير سانت فرانسيس الذى كان جامعا ثم حوله البرتغاليون إلى دير سنة ١٥١٧ ، وكنيسة سانت كاترين التى بنيت سنة ١٥٥١ ، ثم كنيسة يسوع الطيب بوم جيسوس ، سنة ١٦٠٣ ودفن فيها سانت فرانسيس اكسافير ، ودير الرهبان والراهبات سانت مونيكا ، وسانت كاجيتان ، وأخيراً كلية سانت بول .

وعلى الشاطىء الأيسر لنهر ماندافى بنى البرتغاليون مدينة بانجيم ، أو جوا الجديدة . وكانت فى الأصل احدى ضواحى جوا القديمة ، ويوجد بها قصر رئيس الأساقفة ، ودور الحكومة ، وثكنات الجيش ، وقصور الأعيان ، وكبار موظفى الحكومة البرتغالية .

أخيراً هنالك مورموجاو ، وهى مرفأ يعتبر من أحسن المرافىء على الشاطىء الغربى للهند وربما لا يفوقه أو يضاهيه إلا كلكتا إذ أن الجزيرة نفسها مثلثة ، رأس المثلث فيها صخرى يقسم ميناء جوا إلى مرفأين : أجوادا على مصب نهر ماندافى فى الشمال ، ومورموجاو عند مصب نهر جوارى إلى الجنوب .

كانت جوا مدينة غنية يبدو ثراؤها فى القصور ، والحدائق ، والمتنزهات التى تمتلىء بها ، خاصة فى القسم البرتغالى ، أعنى ما اطلقوا عليه ضاحية بانجيم ، جوا الجديدة

كانت جزءاً من لشبونة ، بل لعلها فاقتها جمالا ، وروعة ، بطرقاتها الواسعة ، ومبانيها الجميلة ، والثراء البادى فى حوانيتها .

هى عاصمة المستعمرات البرتغالية فى الشرق كله ، من اليابان ، والصين ، إلى الهند والخليج العربى وجنوب شبه الجزيرة العربية ، فالساحل الشرقى لافريقيا . إليها ترد جميع البضائع والمحاصيل التى تصدر إلى أوروبا لتباع هناك بأضعاف ثمنها حتى أنه يقال إن أرباح بيع التوابل كان يغطى خمسة أضعاف تكاليف الرحلة . أجل ، كانت مدينة غنية ، مرحة جمعت بين سحر الشرق ، وأناقة الغرب . تتلكأ فى طرقاتها الواسعة السيدات البرتغاليات الانيقات تتفحصن أحدث البضائع الواردة ، ويقفن بين الوقت والآخر يتبادلن التحية مع رجال أنيقين يرتدون أحدث الملابس الاوروبية ، وأبدع ماصنعته أيدى الحائكين الهنود . مدينة صباحها تجارة ، وعمل ، ومساؤها لهو ، ومجون .

على أنها لم تكن كذلك فى صباح ذلك اليوم الحار من فبراير سنة ١٦٢٢ . بدت علامات غير عادية تشير إلى أن أحداثا هامة قد وقعت . إمتلأت الطرقات بالضباط ، والجنود ، فى ملابسهم الرسمية وهم يروحون ويجيئون فى حركات عصبية جادة . كان الفرسان يقطعون المسافة بين قصر الحاكم ، والثكنات بسرعة وكأنهم يحملون أوامر هامة مستعجلة . حتى الميناء لم تكن حركة شحن البضائع وتفريغها فى السفن التجارية هى السائدة كالعادة ، وإنما لاح أن الحركة قد تركزت على السفن الحربية وحدها .

ترددت الشائعات فى المدينة . قال قائل إن الهولنديين يهاجمون المستعمرات البرتغالية فى الساحل الشرقى لإفريقيا ، وادعى آخر أن الانجليز هم الذين يهاجمون ، وهمس ثالث بأنهم المسلمون فى عمان ، أو لعلهم العثمانيون فى عدن ، أو البصرة .

لم يكن فى كل ذلك سوى شئ من الحقيقة التى أتت أخبارها السيئة مع السفن التى ألقت مراسيها فى مساء اليوم السابق بعد أن أتمت رحلتها الموسمية .

فى القاعة الرئيسية بقصر الحاكم ،نائب الملك ، اجتمع قواد الجيش ، والأسطول

يتشاورون . هنا كان النبأ الحقيقى . لقد سقطت هرمز فى يد ملك الفرس ، الشاة عباس . لم تكن المسألة مجرد فقد تلك المدينة الصغيرة ، وما جاورها من جزر ، لكن المصيبة كانت افدح من ذلك كثيرا ، أو كما لخصها أمير البحر « إن سقوط هرمز فى أيدى المسلمين معناه فتح الخليج العربى أمام تجارتهم . ومعناه تهديد قراصنة البحر من البحرين لتجارة البرتغال مع الهند ، وإضعاف مركز الحامية البرتغالية فى مسقط » .

لقد أفلح المماليك ، وبعدهم العثمانيون ، فى سد الطريق فى البحر الأحمر أمام البرتغال ، واحتفظوا به بحيرة اسلامية سواء فى عدن ، والساحل الشرقى كله أو فى الحبشة ، وسائر الشاطئ الغربى ، وها هم الآن يفتحون الطريق فى الخليج العربى ، كما يقوم العثمانيون بتطهير الجيوب البرتغالية على طول الساحل الجنوبى . وفى عمان تصدى لهم السلطان ناصر بن مرشد فى الداخل وأخذ يطردهم من المدن الواحدة تلو الأخرى . ثم ماذا بعد ذلك .. .. ؟

ماذا عن هذا التزايد فى الخطر الاسلامى ..؟ إن كل الجهود التبشيرية على ساحل الشاطئ الغربى لأفريقيا لم تنتج كثيرا ، ولم تحول الأغلبية الساحقة من المسلمين عن دينهم ، كما لم تفلح مع القبائل الأفريقية . ثم ماذا عن تجارة البرتغال ؟ قد ظهرت فى المحيط الهندى الأساطيل الهولندية ، والبريطانية ، بل والفرنسية ؟

والأدهى من ذلك أنه كان من الجلى أن هنالك تعاونا بين الانجليز ، وشاه فارس . والا فمن أين أتى الشاه بالذخيرة اللازمة لمهاجمة الحصون البرتغالية المنيعة ؟ كلا .. لا يجوز أن يحدث أى تهاون فى معالجة الأمر .. يجب أن تسترد هرمز بأى ثمن . يجب أن يضرب الفرس ، والمسلمون عامة ، ضربة قاضية لا يفيقون منها . يجب أن تستعيد البرتغال هيبتها قبل أن يستفحل الأمر ، ويستهين كل ثائر بالقوة البرتغالية الضاربة .

بمثل هذه الألفاظ ، وبمثل هذه الحجج ، أدلى الأميرال برأيه . ولم يكن من شك فى أنه على حق . واتخذ المجلس قرارا اجماعيا باسترداد هرمز بأى ثمن ،

وباستعادة ماقد فقد في جنوب شبه الجزيرة العربية . ولعل الاحلام القديمة فى القضاء على الإسلام بالهجوم على موانى البحر الاحمر ، ثم تدمير مكة ، قد عاودت بعض الحاضرين .

انفض المجلس بعد أن إتخذ قراره الحاسم . وانصرف القواد إلى مراكزهم للعمل على تنفيذ الخطة ، كل فيما يخصه . لم يكن البحارة في ذلك الوقت هم القوة المقاتلة على ظهر السفن الحربية ، وإنما كانوا مجرد بحارة يقومون بمهمة تسيير المراكب حسب . أما القتال فان الجنود هم الذين يمارسونه ، لهذا كان العبء الاكبر من الخطة الحربية يقع على قادة الجيش .

• • •

سار الكابتن روى فرير داندرادى بخطواته العسكرية الرشيقة وسط الثكنات متجها إلى حجرته . كان رجلا فى منتصف العقد الرابعة من عمره مديد القامة ، وسيم الملامح تدلى شعره الاسود الكثيف تحت قبعته الانيقة ، لينهدل على كتفين عريضين . أبيض البشرة ، واسع العينين له شارب رفيع ولحية مدببة على ماجرى عليه المألوف بين الفرسان .

بالرغم من صغر سنه نسبيا فانه كان قد كسب تقدير رؤسائه واحترام زملائه الضباط ، ومحبة جنده نظراً لما كان يبديه دائما من صفات جندية ممتازة ، ولعدم مهادنته في قتال المسلمين . كان عسكريا بكل مافى الكلمة من معنى . فى هيئته الصارمة وفى مشيته المستقيمة ، حتى فى كراهيته التقليدية لرجال البحر . لم يستطع فى يوم من الايام أن يتقبلهم كمقاتلين ، وإنما انحصر نظره إليهم كشر لابد منه .

ولعل هذه الافكار كانت تدور فى رأسه وهو يتجه إلى حجرته فى الثكنات بعد أن انفض الاجتماع لدى نائب الملك . لم يكن هنالك بد من أن يتعاون مرة أخرى مع رجال الاسطول ، ولهذا بدا ساخطا متبرما . عبر الساحة أمام المبنى الرئيسى فى الثكنات ، حيث القيادة العامة لجيش الامبراطورية فى الشرق ، ورد تحيات الجنود ، والضباط الذين قابلوه بحركات آلية لا ترحيب فيها . لم يتوقف

مرة ليخاطب أحد زملائه في ممرات المبنى ، وصعد الدرج إلى الطابق الثاني حيث حجرته .

فتح له الجندي المنوط بخدمته الباب ، بعد أن أدى التحية العسكرية . وارتفعت يد الضابط بحركة سريعة يرد التحية ، ثم دلف إلى الداخل . أغلق عليه الجندي الباب ، فقد كان يعلم من اخلاق ضابطه ، وعاداته ماجعله يتفادى الحديث معه .

جلس الكابتن إلى مكتبه ، ووضع أمامه أوراقا عديدة مضى يقرأ فيها . كانت الاوراق تمثل جرد المخازن للأسلحة النارية ، والذخائر الموجودة في الثكنات ، وما هو موجـــود في حصون الامبراطورية على طول الشواطئ المستعمرة ، وطلبات قواد الحصون منها ، وما هو مخزون بالسفن الحربية .

كانت عملية طويلة مملة . لكن لم يكن هنالك مناص من القيام بها . أن المسلمين ينقصهم دائماً البارود حتى مع مساعدات الإنجليز ، والهولنديين لهم في الآونة الأخيرة فانهم سوف لايستطيعون استكمال النقص لديهم . كان يعلم أن الإنجليز والهولنديين ، لن يعطوا المسلمين الأسلحة والذخائر إلا بكميات تكفي فقط لمعركة مع البرتغال ، فلم يكونوا من الغفلة بحيث يزيد عطاؤهم إلى درجة تسمح بتهديد كيانهم أنفسهم في الشرق . كلا إن عطاءهم لن يزيد عن الضروري ، بل لعله سينقص حتى يستمر المسلمون دائماً في حاجة إليهم .

هذه هي نقطة ضعف المسلمين . نقص الأسلحة النارية ، والذخائر . وإذا أرادت البرتغال هزيمتهم فلا مناص لها من أن تتفوق عليهم بدرجة كبيرة في كمية الذخائر والأسلحة . لكن البرتغال نفسها لم تكن ترسل الذخائر إلا بكميات محدودة . كانت الحرب دائرة في البلاد نفسها إذ تريد أن تستقل عن أسبانيا . لقد ضم ملكها فيليب الثاني عرش البرتغال إلى ملكه أثر زواجه من الملكة بعد أن انعدم الوارث الذكر في الأسرة المالكة البرتغالية سنة ١٥٨٠ .

تنهد الضابط وهو يفكر في كل هذا وعلم مقدار خطورة المهمة الملقاة على عاتقه . لهذا كان يجب أن تكون حساباته دقيقة . ولهذا يجب أن يستغل كل مخزون

من الضخيرة أحسن استغلال . ومضت الساعة تلو الأخرى وهو مازال منكبا على أوراقه دون أن يشعر بمضى الوقت . كان يعلم أن العمل أمامه لن ينتهى فى ساعات ولا حتى فى أيام قليلة ، لكن حيويته الفياضة ، ورغبته الجامحة فى أن يقضى على ما أسماه تمرد المسلمين كان يدفعه إلى أن يستمر فى العمل .

سمع طرقات خفيفة ، فأذن للطارق بالدخول دون أن يرفع رأسه من أوراقه . فتح الباب وظهر منه الجندى يسأله .

— سيدى الضابط إن الساعة الثالثة . ألن يذهب سيدى للغذاء ؟

رفع داندرادى رأسه ليتفرس فى الجندى كأنما يراه لأول مرة .

— كلا ياجرونيمو اذهب أنت وتناول طعامك ثم عد ثانية .

أدى الجندى التحية العسكرية ، وأنسحب من الغرفة مغلقا الباب وراءه فى هدوء . ومضت مدة أخرى والضابط مازال على حاله . وللمرة الثانية تناهت إلى أذنه طرقات خفيفة فأذن بالدخول . فى هذه المرة دخل الجندى حاملا صينية عليها بعض الأطباق . وبصوت متردد خجول تكلم .

— سيدى الضابط لقد سمحت لنفسى أن أحضر لكم بعض الطعام .

زالت بعض الجهامة من وجه الضابط وهو ينظر إلى الجندى ، وحينما تكلم خالط صوته رقة غير معهودة .

— حسنا ياجيرونيمو . ضع الاطباق على المائدة ولسوف آكل بعد قليل . هل تناولت طعامك ؟ .

— كلا ياسيدى .

— إذا فاذهب لتناوله ثم عد إلى فقد احتاج إلى خدماتك .

— حسنا ياسيدى .

ظل داندرادى ينظر إلى الباب بعد أن أغلقه الجندى وراءه . سرح بأفكاره قليلا بعيداً عن عمله ، ثم صدرت منه تنهيدة ، وقام من مجلسه وجلس إلى المائدة يتناول طعامه .

مضت الأيام تترى والضابط منكب على حساباته ، وأرقامه . كان يعلم أن لديه متسعا من الوقت ، فالرياح الموسمية مازالت تهب على شواطىء الهند ، ولن تتغير اتجاهها ويستطيع الأسطول الابحار إلى الخليج العربى إلا فى شهر اغسطس ، أى بعد قرابة خمسة شهور . لكنه كان يريد أن ينتهى من العملية الشاقة ، ويريد أن يطمئن ، حتى إذا ما تشاور مع رؤسائه فى أمر الحملة ، وخطتها قدم إليهم حسابات دقيقة عما يحتاجه الجيش من مؤن ، وذخيرة ، وسفن .

كانت البيانات تأتى إليه كل يوم ، عما ورد إلى المخازن ، وما صرف منها وما زال فى السفن ، وما يفرغ منها على أرصفة الميناء ، فيضيف ، وينقص ، ويعدل . لم يكن يكتفى بالبيانات فقط ، لكنه كثيرا ما كان يذهب بنفسه ليعاين الأسلحة والذخائر ويقارن نوعياتها ، وكمياتها بما لديه من بيانات .

وجد فى الجندى ، جيرونيمو ، أكبر معاون . لم يكن جيرونيمو فى الواقع جنديا بالمعنى المعروف ، وإنما كان يتم تدريبه ليكون ضابطا فى الجيش البرتغالى الظافر ولهذا رأى فيه داندرادى معينا جيدا ورفيقا يمكن الركون إليه . كان سريع الحفظ ، والتقاط المعلومات ، قوى الذاكرة ، صامتا لا يتكلم الا حينما يوجه إليه سؤال ، أو حينما يلاحظ شيئا فات على رئيسه أثناء التفتيش .

مع مرور الأيام والأسابيع ، ازداد اعتماد الضابط عليه دون شعور بهذا الاعتماد . ولم يحاول الجندى من ناحيته أن يزهو ، أو يدل على قائده ، وإنما كان يبدو أنه لا يتحرك أو يفعل شيئا إلا بأمره . حتى إذا أبدى ملاحظة أو رأيا كان يصيغه بحيث يبدو أنه تنفيذ لأمر ، أو تكملة لرأى . لم يكن هنالك شىء لا يفعله لراحة ضابطه ، سواء فى الثكنات ، أو فى المنزل - درس طباعه ، وعاداته فكان دائما يلبيها قبل أن يسأله القائد ، كما لم يكن يظهر عليه التعب ، أو الكلال ، أو الملل أيا كانت الأعباء التى تلقى عليه .

مضى شهر فبراير ثم مارس وأبريل ، وتلاه مايو ، ويونيو وهلت طلائع يوليو والبيانات تتراكم مشيرة إلى زيادة فى الاسلحة والذخائر . وفى العاشر من الشهر

وردت آخر السفن تحمل احتياجات الجيش . وكان دندرادي جالسا في مكتبه مساء وهو يضيف آخر البيانات التي وصلته حينما دخل عليه الجندي مستأذنا في دخول القبطان . دوم اندروفيلو ، قائد ثلاث سفن حربية(١) .

رحب الضابط بالقبطان فقد كانا أصدقاء طفولة . ومع أن أحدهما اتخذ الجيش مهنة ، في حين اتجه الآخر إلى ، البحر ، وبالرغم من العداء التقليدي بين رجال الجيش والأسطول ، فان الاثنين ظلا على صداقتهما لم يحيدا عنها . وابتدر الضابط صديقه مادا يده .

— أهلا اندرو ومرحبا . متى وصلت ؟ .

شد القبطان بحرارة على اليد الممدودة ، وقال وهو يخلع قبعته ويلقيها على أحد المقاعد .

— اليوم صباحا ، أف لهذا الحر . هل لديك شيئا من المشروبات ؟

— طبعا .. .. ماذا تريد ؟

— نبيذ .

التفت الضابط إلى الجندي الذي كان ما يزال واقفا منتظرا الأوامر ، فانحنى الأخير ، وانسحب من الحجرة مغلقا الباب وراءه . ألقى القبطان بعض الأوراق على مكتب الضابط باهمال ثم اتجه إلى أحد المقاعد وقال وهو يجلس .

— قبل أن تتذكر الحوادث هاك آخر البيانات عن الأسلحة ، والذخائر التي وصلت اليوم . آخر شحنة سوف تتلقونها هذا الموسم .

تناول الضابط الأوراق وألقى عليها نظرة سريعة . ثم زم شفتيه دليلا على الرضى .

— أهذا كل ماعندكم ؟

— لقد ظننت أنك ستكون سعيدا بها . أن ممتلكاتنا في الساحل الغربي لافريقيا

---

(١) كان هنالك في الأسطول البرتغالي قبطان سفينة . وقائد ثلاث سفن . وست سفن . وقائد أسطول . وأميرال بحر .

لم تحط بنصف ما جئناك به . لا تنس أن بلادنا فى حاجة إلى الاسلحة والذخائر ليس فقط فى أمريكا الجنوبية ، وإنما أيضاً فى بلادنا نفسها . وعليك أن تدبر نفسك .

طرق الباب ، ثم فتح بعد أن اذن الضابط وظهر الجندى يحمل صينية بها أباريق النبيذ وكوبان . راح القبطان يراقب الجندى وهو يتقدم بخطوات سريعة ثابتة ليضع الاشياء على المنضدة أمام الضيف فى حين تكلم الضابط وكأنه لم يلاحظ وجود الجنـــدى .

— احسب أن علينا أن نقنع وندبر أنفسنا بهذا القدر . ولم يبق أمامنا الآن إلا أن نضع الخطط لاستعادة هرمز .

لم يرد القبطان فى مبدأ الامر . واستمر يراقب الجندى وهو ينسحب من الحجرة بهدوء . وحينما تكلم جاء حديثه بعيدا عن موضوع المناقشة .

— هذا الجندى . إنه عربى أليس كذلك ؟

— جيرونيمو ؟ أجل كان ابن سلطان احدى بلاد شرق افريقيا ، ممباسة فيما أعتقـــد لكنه نشأ منذ طفولته فى دير ســانت أوغسطين وأضحى مسيحيا مخلصا .

— إنه صغير السن لا أحسبه يجاوز العشرين .

— لا .. بل أنه لم يجاوز السابعة عشر .

— لكن ياروى أليس من الخطر أن يكون معك مثل هذا الشخص ؟! إن الاعراب لا يؤمن جانبهم .

انفجرت شفتا الضابط عن ابتسامة خفيفة .

— لا تقلق يابدرو . إن جيرونيمو كما قلت لك مسيحى مخلص ، ولا اعتقد أنه فاته قداس مطلقا ، سواء فى صلوات الآحاد ، أو الأعياد والمواسم . ثم أنه كان طفلا لا يجاوز السابعة من عمره حينما جاءوا به إلى هنا ولا أحسبه يذكر شيئاً عن أهله أو دينه القديم . أنه خير مساعد لى فى هذه العملية المملة .

تناول الضابط الأبريق وصب لنفسه وضيفه بعض النبيذ ثم عاد فى كلامه إلى الموضوع الأول .

— لا أظن أنه يُوجد ما يدعو إلى تفريغ هذه الشحنة فاننا سنبدأ هجومنا بمجرد أن تغير الرياح الموسمية اتجاهها في أقل من شهر .

تنهد الضابط وهو يستطرد .

— إن على الآن أن أقوم بالتفتيش على الأسلحة فى المراكب ثم أضيف البيانات إلى ماعندى لأقدم النتيجة إلى مجلس القيادة ليضعوا الخطط على ضوئها . لكن دعنا من . العمل وحدثنا عن أخبار لشبونة ورحلتك إنك لا شك سوف تأتى معى إلى المنزل لتقدم تحياتك إلى زوجتى وتتناول العشاء . إن ماريا سوف يسرها أن تسمع منك أنباء الفضائح وآخر تطور الأزياء .

هز القبطان رأسه موافقا ، وتناول كأسه وراح يحتسى منه ببطء وهو يفكر وتركه الضابط إلى تفكيره ريثما يصب لنفسه كأسا آخر . حينما فرغ التفت إليه وسأله .

— خبرنى كيف كانت رحلتك ؟

— لا بأس بها ، وفى آخرها صادفنا حظ حسن إذ التقينا مصادفة بمركب تحمل بعض التجار العرب فاغرقناها بعد أن إستولينا على البضائع وقتلنا بعض البحارة ، وأسرنا آخرين مع التجار وسوف نقدمهم غدا إلى السيد نائب الملك ليرى شأنه . وقد احتفظت لنفسى بفتاة عربية صغيرة لا تجاوز السادسة عشر من عمرها .

تضاحكا ثم انتقل الحديث بين الصد... إلى مسائل شخصية وهما يحتسيان الخمر . فرغ النبيذ من الأبريق وتناول الضابط الجرس من مكتبه وهزه ، وفى لحظات كان الباب يفتح ليظهر الجندى ، صامتا منتظرا الأوامر .

— آتنا بأبريق آخر ثم اذهب إلى المنزل واخطر السيدة بأن لدينا ضيفا عزيزا على العشاء . لا تذكر اسمه سوف تكون هذه مفاجأة .

خرج الجندى ليعود بعد دقائق حاملا إبريقا فخاريا مليئا استبدله بالفارغ ثم انسحب فى صمت من الحجرة تتابعه عينا القبطان .

وخارج الحجرة رأى الجندى أحد الخدم الهنود منحنيا على الأرض يمسحها فلم يعره التفاتا . وظل الرجل منحنيا يخفى وجهه حتى مر به الجندى فرفع رأسه ونظر إلى الظهر المختفى ، نظرة ملؤها الكراهية . لم يكن الخادم هنديا وإنما كان عربيا فى نحو العشرين من عمره . أحمد بن الأمير سالم .

* * *

الفصل الثالث

المتشح بالسواد

كانت الساعة الثانية عشر صباحا ، وقد خيم السكون على المدينة الهاجعة . خلت الطرقات من المارة وعم الظلام . حتى القمر لم يكن قد ظهر بعد . تحرك إلى جدران المنازل شبح يتشح بالسواد . كانت خطواته خفيفة سريعة ، لايصدر منها صوت . خطوات واثقة تعرف أين تتجه .

من بعيد جاء صوت وقع أقدام الحراس يجوبون المدينة في دورياتهم المسائية . ولم يتنبه المتشح بالسواد القلق . كان يعلم تماما ماذا يفعل ، وكان يعلم خط سير الحراس ومواعيدهم ، وانتقى وقته بحكمة . توارى في أحد الأزقة والتصق بالجدار . اقترب وقع الخطوات ، وبدأت أشعة المصابيح التي يحملها الجنود تنير دياجير الظلام . ومن مكان ما ارتفع نباح كلب ، يؤكد مدى السكون المطبق على المدينة .

أضحى الحراس أمام الزقاق مباشرة . رفع أحد الجنود مصباحه ، وألقى نظرة سريعة بإهمال . ولم يتحرك المتشح بالسواد . كان هدوء أعصابه يفوق حد الوصف . حتى قلبه لم يزد من ضرباته . انتظر في صبر وثقة ، وبعد برهة هبط المصباح مع يد الجندي ، واستمر الجنود في سيرهم مبتعدين .

تحرك المتشح بالسواد ، وخرج من مخبئه إلى الطريق . سار متتبعا خطوات الجنود . كان يعلم أنهم متجهون نحو السجن في دورتهم المسائية ، وسوف يمرون أمامه بعد دقائق ، ليلقوا بالتحية إلى الحارسين المنوط بهما بابه ، ثم يستمرون بعد ذلك في جولتهم .

سار بخفة الهرة وهو يتتبعهم حتى وصلوا إلى السور المرتفع لمبنى السجن

فى أقصى المدينة . التصق بالجدران ، فلم يكن فى الإمكان أن يراه أو يلاحظ وجوده أحد . كان قطعة من الظلام تتحرك . تناهت إلى أذنه أصوات الجنود يتبادلون الحارسين التحية . تلكأ قليلا . شق سكون الليل ضحكات وعاد الجنود إدراجهم ، ثم ساد السكون . وعلم أن الوقت قد أزف ليضرب ضربته .

مكث فى مكانه دقائق يرقب الحارسين . رآهما وهما يقفان تحت ضوء المصباح عند الباب يتكلمان ، ثم تحرك أحدهما متجها نحوه يقوم بجولة تفتيشية . سار الجندى بخطى متئدة ، وتطلعت عيناه فى اتجاه واحد فى الظلمة الداكنة . خيل للمتشح بالسواد أن بصر الحارس قد استقر عليه ، فازداد التصاقا بالجدار وتحفز . لكن الجندى لم يصل إلى مكانه . توقف على بعد خطوات منه وسرح ببصره فى الطريق الممتد الخالى ، ثم دار على عقبيه .

لم يتعجل الشبح المختبىء ، وبقى يرتب وينصت . اتجه الجندى ثانية نحو الباب ، ومر به بعد أن ألقى بضعة كلمات إلى رفيقه ، واتجه إلى الناحية الأخرى من السور . ومرت دقائق أخرى عاد بعدها الحارس إلى الباب ، ووقف الجنديان يتكلمان . وانتقى الشبح القابع هذا الوقت للحركة .

كان السجن يقع فى أطراف المدينة . ويحتل مساحة تزيد عن ثلاثة أفدنة يحيط به من جوانبه الأربعة سور عال يتجاوز ارتفاعه خمسة أمتـــار ، يتوسطه برج المراقبة . وبداخل الأسوار يوجد مبنى السجن نفسه . وهو بناء ضخم كئيب المنظر يتكون من طابقين بهما المكاتب وثكنات الحراس ، وبعض الغرف للسجناء المتازين ، فى حين كان سائر النزلاء يحبسون فى غرف مظلمة رطبة تحت الأرض ، لا توجد بها منافذ سوى كوات صغيرة فى أعلى كل غرفة ، تتوازى مع سطح الأرض وقد سدت بقضبان حديدية متينة تجعل الخروج منها مستحيلا . وبداخل الأسوار أيضا منزلان أحـــدهما مخصص لقائد السجن ، والآخر من طابقين لسكن ضابط طابق .

انهار المتشح بالسواد ركن السور الذى يقف إلى جواره . فتح العباءة فظهر

تحتها كيس جلدي قيد إلى منطقة الرجل . في لحظات خرج منه حبل طويل ينتهى بكلابة . كان يعلم أن هذه أخطر اللحظات ، ولهذا تأنى فى كل خطوة . تحرك قليلا ليستوثق من أن الحارسين مازالان فى مكانهما ، ولما تأكد عاد ودفع الحبل بأقصى قوته إلى أعلى . طار الحبل فى الهواء واستقرت الكلابة صادقة فى أعلى السور ، واخترق السكون صوتها وهى ترتطم بالحجارة .

تراجع الشبح بسرعة ، وابتعد تاركا الحبل المدلى ، ومضى يقلب ناظريه بين الحارسين والبرج . مضت دقيقتان . ولم يبد على أى من الحراس أنه قد سمع شيئا ، فعاد إلى مكانه وجذب الحبل بشدة ليتأكد من قوة احتماله . ثوان قليلة كفت لأن يعتلى مستعينا بالحبل ، وثوان أخرى لكى يهبط به إلى الناحية الأخرى .

سحب الحبل ، وتلصص السير إلى جوار الجدار متجها إلى البرج القريب ، وعند أسفل الدرج المؤدى إلى أعلى البرج تركه . أضحى من العسير على العين أن ترقب حركاته أو تتابع خطواته بعد هذا . كان يعلم أن وردية الليل تتغير كل أربع ساعات ، أى أن أمامه زهاء الثلاث ساعات ونصف لاتمام ماجاء من أجله . لم يكن بطلا فلم يحاول أن يجازف إلا حينما يقتضى الأمر . زحف صعدا الدرج . ببطء ودون أدنى صوت . ومضت دقائق قبل أن يتم ارتقاء العشرين درجة أو تزيد . وكاد أن يضحك . حينما وصل كان الحارس نائما .

خطوة واحدة حملته إلى حيث يستند الحارس إلى الجدار . ولحظة كانت كافية لأن يغمد الخنجر فى الرقبة المنكسة على الصدر . وفى لحظة أخرى تهاوى الجسد ، وكادت البندقية أن تقع على الأرض لولا أن تداركتها يده ، وسندت فى الوقت نفسه الجسد المتهاوى أن يسقط ، وأراحته على الأرض .

استل الخنجر ومسحه فى ملابس القتيل . ثم انسحب بعيدا عن الدماء المتدفقة . لم يصدر من الجندى أى صوت ، ولعله قد مات قبل أن يتهاوى . كانت الطعنة قد فصلت الرأس عن الجسد .

لم يضع المتشح بالسواد وقتا . هبط الدرج زحفا كما صعد . لم يكن يريد أن تلتقط حركاته عين تتطلع مصادفة . ما أن وصل إلى الارض حتى عاود التصاقه بالجدار ، واتجه إلى نقطة من مبنى السجن. فى ثوان كان جسده قد التصق بالمبنى ، وبعد دقيقة واحدة وصل إلى بابه . عالجه بحذر وبطء ، ولم يستغرق الأمر مدة حتى علم أنه مغلق من الداخل ، ولن يستطيع فتحه دون جلبة .

كف عن المحاولة فورا إذا أيقن عدم جدواها . كان قد لاحظ أن إحدى النوافذ مفتوحة ، وان نورا ينبعث منها فتفاداها فى مبدأ الأمر ، أما الآن فلم يكن لديه مندوحة إلا أن يتجه إليها . اقترب منها وتناهت إلى أذنيه أصوات رجلين يتحادثان . التصق بالجدار أسفل النافذة تماما ، وأراد أن يجازف ليلقى نظرة إلى الداخل ليعلم عدد الجنود ، لكن صوتا صدر من رجل يقف فى النافذة جعله يزداد انكماشا على نفسه .

كان الجو شديد الحرارة بالرغم من أن الساعة قاربت الواحدة صباحا . ارتكز الجندى على حافة النافذة المفتوحة وراح يكلم من بالداخل ، يروى له إحدى مغامراته الغرامية . وتتالت الدقائق ، شعر القابع أثناءها أن مفاصله قد تصلبت ، ومع هذا لم يجرؤ على الحركة .

أخيرا تباعد الصوت إذ تحرك صاحبه إلى الداخل . وتنهد الشبح ارتياحا ، وتراخت عضلاته المشدودة ، ومع هـــذا فلم يتحرك . كانت الأصوات ما زالت تتناهى واضحة إلى أذنيه ، وقدر أن عدد الموجودين لا يزيد عن اثنين ، وربما ثلاثة . رفع رأسه بحذر شديد حتى استطاع أن يرى جزءا من الحجرة .

رأى جنديا واقفا يوليه ظهره وهو نصف عار ، وجلس آخر على مقعد واضعا ساقيه فوق مكتب صغير وقد أمسك بكوب شراب يتحسى منه . كان الجالس يواجهه ، وخيل للشبح أن عينيه قد استقرتا عليه فهبط بسرعة إلى أسفل النافذة . وصله صوت حركة سريعة داخل الحجرة . وفى اللحظة التالية كان أحد الجنديين يطل من النافذة وهو يقول لصاحبه .

— ألم تر شيئا ؟

— كلا .. وماذا يمكن أن أرى ؟

— لا أدرى .. خيل إلى شخصا كان يتلصص من النافذة .

— ماهذا الهراء ؟ ومن الذى يأتى إلى هنا ؟ انك أسرفت فى الشراب يابدرو .

— لا .. لا .. انى أكاد أجزم بأننى رأيت شيئا يتحرك .

— دعك من هذه الخيالات .. انى ذاهب لألقى نظرة على المساجين .. هل أتيت ؟

— كلا .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ إذهب أنت وسأقوم بالجولة التالية نيابة عنك .

ساد السكون بعد هذا . ثم صدر صوت كأن باب الحجرة يفتح ثم يغلق . لم يتحرك القابع فى الظلام من مكانه . كان يعلم أن الجندى الذى قال إنه سيخرج للتفتيش على المساجين غير مرتد ثيابه كاملة . ولم يكن يتصور أنه سوف يذهب دون إرتدائها ، كما لم تكن قد مضت فترة كافية من السكون ليفعل ذلك . إذاً فهو لم يخرج من الحجرة ، وإذاً فالجنديان يشكان فعلا فى وجوده وأرادا أن ينصبا له فخا يتصيدانه . لكن هذا الخطأ اليسير كشف عن نواياهما .

تحقق صدق حدسه بعد دقائق إذ صدرت ضحكة ساخرة ووصل إلى أذنيه صوت الجندى .

— ألم أقل لك ياصديقى أنك واهم .. هيا انهض وارتد ملابسك حتى نقوم بجولتنا .

ووصل صوت الحارس الآخر مترددا ، متشككا .

— هذا غريب .. أكاد أقسم بأن عينى التقتا بعينى رجل وأننى رأيت جزءا من وجهه .

فى هذه المرة جاءت أصوات حركات تدل على أن الجنديين فعلا يكملان ارتداء ملابسهما . وتحرك القابع فى الظلام . لم يكن هنالك وقت لمهاجمة شخصين

أحسن من هذا . قبضت يده على خنجره ، وبخفة متناهيـــة قفز من مكانه إلى داخل الحجرة . كان أحد الجنديين مازال يحاول ارتداء سرواله فى حين كان الآخر يزرر سترته .

اختار الثانى لضربته الأولى جاءت الطعنة قوية صادقة . فى الرقبة حتى تمنع أية صرخة ، وحتى يمكن سحب الخنجر بسهولة . وسقط الرجل دون أن يصدر منه صوت . فى اللحظة التالية كان المهاجم يولى الحارس الآخر اهتمامه . لم يكن الرجل قد انتبه إليه حين دخل إذ كان منحنيا على الأرض وهو يحاول ارتداء سرواله ، ومضت ثوان ثمينة قبل أن ينتبه . وتردد ثوان أخرى بين أن يكمل ارتداء السروال أو أن يتخلص منه . وفى هذه الثوانى كان زميله قد سقط على الأرض وكان حذاء المهاجم قد التقى بشدة بوجهه فى ركلة ألقته على ظهره وهو فيما يشبه الغيبوبة .

جاء هجوم المتشح بالسواد سريعا خاطفا حتى أن الجندى لم تكن لديه فرصة لأن يدرك تماما ماحدث . وجاءته الركلة فى وجهه فأصابت صدغه وذقنه . أحس وهو يسقط على ظهره بأن شرارات من نار قفزت متراقصة أمام عينيه . واندفع سهم ملتهب يحمل آلاما هائلة إلى عقله . لم يكن لديه متسع من الوقت لأن يفعل شيئا ، أو أن يصرخ طالبا النجدة .

إرتطم فى سقوطه بمقعد فأحدث صوتا عاليا . وأصابه المقعد فى كتفه فشل حركة ذراعيه ، وقبل أن يستجمع نفسه كانت يد من حديد تطبق على حنجرته تحبس عنها الهواء ، وتمنع الصيحة التى أعتزم أن يطلقها . فى اللحظة التالية أحس بجسم صلب يدفع فى صدره وكأنه لهيب يحترق . وشعر بسائل لزج ينساب على جلده فعلم أنها دماؤه .

حاول أن يبعد الجاثم عن صدره ، أو أن يزيح قبضته الخانقة عن حنجرته ، لكن محاولاته باءت بالفشل . للمرة الثانية إندفع الجسم الصلب فى صـــدره ، لينسحب ويهبط مرة أخرى . ولم يكن الجندى فى حاجة إلى طعنة رابعة .

وقف المتشح بالسواد ينتفض من أثر الانفعالات التى اعتملت فى نفسه . ثوان معدودات كفته لأن يتمالك أعصابه ، ويعود إليه هدوؤه . ظل ساكنا فى مكانه يتسمع خشية أن يكون صوت العراك قد أيقظ بعض الجنود ، لكن الدقائق توالت دون أن تلتقط أذناه أى صوت غير عادى .

نظر حوله إلى الغرفة وقد بدت فى حالة مريعة من الفوضى . إستقرت عيناه على مجموعة من المفاتيح فتناولها . خلع رداءه الأسود فبدت من تحته سترة جندى. لقد جاء مستعدا لأى احتمال . خلع قبعته السوداء ليجرب إحدى القبعتين الموجودتين فى الحجرة ، واختار أنسبهما ليضعها على رأسه ، ويدلف من الحجرة حاملا حاجياته .

بجرأة عجيبة سار فى الردهات ، وهبط الدرج إلى السجون . لم يصادف أحدا فى طريقه ، ولم يحاول حتى أن يخفف من صوت وقع أقدامه . لم يكن يعرف أين مكان الغرفة المسجون بها الأسرى ، لكن هذا لم يكن بالأمر العسير . وحالفه الحظ الحسن إذ سمع بعض الكلمات من أحد السجون فاتجه إليه .

كانت اللغة التى يتكلم بها السجين عربية ، وإن لم يتبين الجندى كلماتها تماما . وقف عند الباب الحديدى وأطل من كوته . وسكت المتكلم . وكان عليه أن يسأل هامسا .

— هل أنتم الأعراب الذين أسروا من الركب ؟

صدرت منه الكلمات بلغة سليمة ، ويبدو أن الموجودين قد دهشوا حينما سمعوا السؤال ، فلم يصدر منهم صوت لفترة قصيرة . أخيرا تكلم واحد منهم لم ينتبه الجندى فى ظلام السجن .

— أجل .. من أنت ؟ وماذا تريد ..؟

لم يزد الجندى على أن قال .

— صديق .

وبدأ يعبث فى القفل بالمفاتيح يجربها حتى عثر أخيرا على بغيته . أدار المفتاح ، وجذب الباب .. وقال هامسا .

— اخرجوا .. لاتحدثوا أصواتا .. كم رجلا أنتم ؟

— ثمانية ..

— اتبعــونى ..

دون أن يعطيهم فرصة أخرى عاد من الطريق الذى سلكه فى مجيئه ، ووصل الجمع إلى حجرة الحارسين ، وحينما دخلوا كان الجندى قد ارتدى رداءه الأسود ووضع قبعته بدلا من الأخرى مسدلا حافتها العريضة بحيث تخفى ملامح وجهه .

ذعر الأعراب حينما رأوا المنظر فى الحجرة ، لكن المتشح بالسواد تقدم بهدوء من المصباح فأطفأه وساد الظلام . أمرهم هامسا بالهبوط من النافذة إلى الأرض ، وتسلل بهم إلى حيث برج المراقبة ، ثم طلب منهم أن يزحفوا الدرج صعدا فى أسرع وقت .

تناول الحبل ، وابتدأ يزحف أمامهم ، وتبعه الآخرون . وحينما وصل إلى البرج أحكم وضع الكلابة ودلى الحبل ، ثم أمر أول القادمين أن يهبط وألا يتحرك من جوار الجدار ، وحينما هبطوا جميعا تعلق بالحبل ولم تمض ثوان حتى كان إلى جوارهم .

أشار إليهم أن يتبعوه ، وسار ملتصقا بالجدار إلى المزروعات ، والنهر . كان يعلم أن عليهم أن يتحركوا بسرعة إذ لن تمضى ساعتان ، على أقصى تقدير ، وإلا يكون قد اكتشف أمر هروبهم وسوف يجد الجنود فى البحث عنهم لهذا يجب أن يبتعدوا عن المنطقة بأسرع مايستطيعون .

وصل الجميع إلى النهر ، وسار أمامهم المتشح بالسواد حتى شاهد شجرة ضخمة تميل أغصانها نحو المياه . إتجه إليهامباشرة ، وتحت الأغصان كشف لهم عن قارب ذى مجدافين .

— إليكم القارب .. اتجهوا إلى داخل البلاد ، وليس إلى الميناء أو البحر . هل منكم من يتكلم البرتغالية أو إحدى اللهجات الهندية .

تقدم من الجماعة رجل كبير السن ذو لحيـــة بيضاء حتى وقف مباشرة أمام المتشح بالسواد . حاول لحظات أن يرى ملامح الوجه ، لكنه لم يفلح . أخيرا تكلم .

— أنا يابنى أتكلم عدة لغات . واعتقد أيضا أن الشيخ محمد هنا يعلم اللغتين فهو تاجر مثلى .

— حسنا . اتجهوا إلى الداخل ، وسافروا عن طريق البر . وحينما تذهبون إلى فارس أبلغوا الشاه أن أمامه عاما كاملا لن يستطيع البرتغاليون فيه أن يقاتلوه . وأبلغوا بذلك سلطان عمان .

— سنفعل إن وصلنا ، لكن من أنت يابنى ؟ ومن أين لك هذه المعلومات ؟

— لايهمك هذا فى كثير أو قليل وستتأكدوا من صدق أقوالى أن تبتعدوا كثيرا ، اذهبوا على بركة الله .

إستدار المتشح بالسواد ليترك الجماعة ، لكن فتى فى نحو الثامنة عشر من عمره اعترض طريقه .

— إنتظر ياسيدى لحظة . إننا مدينون لك بحياتنا ، ونرجو أن نعلم اسم منقذنا .

— لاداعى لهذا .. اذهبوا فإن لكل دقيقة حسابها .

وهم بالانصراف . لكن الفتى اعترض طريقه مرة أخرى .

— لابأس عليك إن لم ترد أن تكشف عن شخصيتك لكن هذا لاينفى أننا مدينون لك بحياتنا . وأنا من ناحيتى أود على الأقل أن أعرفك بنفسى . اننى عمر بن الشيخ على فقيه عباسا فإن احتجت إلى شىء فى أى وقت أرجو ألا تتردد فى طلبه .

ظل المتشح بالسواد واقفا برهات وكأنما سمرت قدماه فى الأرض . بان

كأنما يجهد نفسه فى التفكير ، ويحارب رغبة تسيطر على كيانه ، وفجأة استدار بحركة آلية كأنما هو يرغم نفسه على الفرار . سار سريعا فى اتجاه المدينة دون أن ينطق بكلمة .

* * *

لم يخط خطوات إلا وجد شخصا آخر إلى جانبه فوقف متسائلا .

— أين تظن أنك ذاهب ؟

— إلى المدينة معك .

— هل جننت ؟ انك لن تعيش فيها ساعات .. وعلى أى الأحوال ماذا تبغى فى المدينـــة ؟

— لقد كانت زوجتى معنا فى الرحلة وقبضوا عليها أسيرة ولن أدعها فى أيديهم فإما أن آخذها أو أقتلها وأموت معها .

ساد الصمت برهة بين الإثنين . وراح المتشح بالسواد يتفرس فى الرجل الواقف أمامه ، وكله عزم وإصرار . كان شابا فى منتصف الحلقة الثالثة من عمره ، نحيل الجسم ، أسمر البشرة غير داكنها ، أقرب إلى قصر القـــامة . وحينما تكلم المتشح بالسواد جاء صوته هادئا كمن يخاطب طفلا .

— انك لن تفعل شيئا . وإنما ستعرض حياة رفاقك للخطر . هلا ذهبت معهم ؟!

— لا .. ليس قبل أن أبحث عن زوجتى . وعلى أى الأحوال فقد طلبت من رفاق الرحيل دونى وإذا نظرت ستعرف أنهم ارتحلوا .

التفت المتشح بالسواد خلفه بحركة سريعة ، وفعلا رأى أن القارب قد ابتدأ يختفى فى الظلام حاملا معه باقى الجماعة . لم يضع وقته فى الوقوف والمناقشة . استدار ثانية بسرعة نحو المدينة يتبعه الرجل . هنالك مهمة أخرى تنتظره ، ويجب أن ينتهى منها الليلة ، ولم يبق وقت طويل على انبلاج الفجر .

سار بخطوات سريعة ساعدته عليها ساقاه الطويلتان حتى وجد الرجل الآخر صعوبة فى ملاحقته . لم يأخذ الطريق الذى أتى منه ، وإنما سلك طريقا آخر يذهب رأسا إلى حيث مهمته التاليـــة ، عند الثكنات . وسأل رفيقه .

— ما اسمك ؟

— سعيد بن عثمان .

— هل تعلم من الذى أخذ زوجتك ؟

— قبطان قائد ثلاث سفن اسم فيلو .

— هل تعلم أن يقطن ؟

— كلا .

— هل تتكلم البرتغالية ، والهندية ؟

— قليل من كليهما .

— هل جئت إلى جوا قبل ذلك أو تعرف أحدا فيها ؟

— كلا .

— بحق الله ماذا تظن أنك تستطيع أن تفعل ؟ أنك ستكون لقمة سائغة سهلة فى أفواه شرهة شرسة . سوف يقبض عليك بمجرد بزوغ ضوء الفجر ، إن لم يكن قبل ذلك ولن تقترب من مكان فيلو . هل تعلم ماذا يعنى وقوعك فى أيديهم ؟ إنها محاكم التفتيش والتعذيب الذى لا تتصور كيف يتفننون فيه . مهما كانت قوة مقاومتك لن تستطيع أن تصمد وسوف تعترف بما يريدون ، وتعرض حياة زملائك للخطر ، ولن تستطيع حتى أن تموت قبل تعترف .

كانت هذه خطبة طويلة جدا بالنسبة له لم يكن اعتادها فى حياته العادية ، لكن الوقت كان محدودا فتدفقت الكلمات من شفتيه فى سرعة . لم يرد عليه سعيد ، وربما رأى لأول مرة عبث المحاولة التى كان ينوى القيام بها . إلا أنه كان رجلا عنيدا . زم شفتيه ، وخرجت الكلمات من فمه ثقيلة متأنية .

— لست أطلب منك شيئا سوى أن تقودنى إلى منزل هذا القبطان اللعين إن كنت تعرفه ، وإلا فدعنى وشأنى عند أطراف المدينة .

— سأقودك إلى المنزل فقد عرفته اليوم مصادفة ، وهو فى طريقى على أى الأحوال . لكننى سوف أعطيك نصيحة وإن كنت لا أحسبها تنفعك كثيرا .

أمام المنزل توجد كنيسة ، انتظر فيها حتى طلوع الفجر ، ولا تتحرك أثناء الليل فالحراسة نهارا أخف وطأة ويمكنك أن تختفى بين جماهير الهنود . أن أمامى مهمة لابد أن أؤديها الآن ، وربما استطعت بعد ذلك أن أعود إليك . لكن استحلفك الله أن تقتل نفسك إذا كنت ترى أنك سوف تقع فى قبضة البرتغاليين وإلا فلا مناص من أن تعترف وترشد عن الاتجاه الذى سلكه رفاقك .

أحنى سعيد رأسه موافقا . ولم يداخل المتشح بالسواد أى شك فى أنه سوف يقتل نفسه إذا لزم الأمر . كانا قد وصلا إلى أطراف المدينة وهما يتحادثان . عرج الإثنان فى الطرقات الهادئة محاذرين أن يحدثا صوتا . ومضت حوالى ربع ساعة قبل أن يصلا إلى بغيتهما .

تمنى المتشح بالسواد لرفيقه حظا حسنا بعد أن أشار إلى منزل القبطان ، واطمأن إلى أنه عرفه . دفع به بعد ذلك إلى داخل الكنيسة ثم سار إلى حال سبيله .

لم تكن الثكنات تبعد بأكثر من عشرين دقيقة عن المنزل ، لكنه لم يكن يقصدها ذاتها ، وإنما اتجه جنوبا حين وصلها ، إلى حيث مخازن الأسلحة والذخائر .

* * *

الفصل الرابع

رسالة إلى الشاه

تقع الثكنات فى الطرف الجنوبى الغربى من المدينة ، فى منطقة صخرية تكون رأس مثلث قاعدته المدينة ، والميناء ، وتحتل مساحة واسعة من الأرض تضم مركز القيادة ، ومنازل بعض الضباط ، وثكنات الجنود ، واستراحة كبيرة وأرض فضاء للتدريب ، كما توجد فى أقصى طرفها الجنوبى ، مبانى حجرية ضخمة ، هى مخازن الأسلحة ، والذخائر .

لم يكن لها طريق معبد سوى المؤدى إلى داخل الثكنات ، أما جهاتها الأخرى فقد اعتنى بانوها أن تكون على قمة صخور وعرة لا يسهل إرتقاؤها ، فهى بعيدة عن مرمى مدافع أى أسطول غازى من ناحية ، وهى حصينة منيعة يسهل الدفاع عنها ضد أى جيش مهاجم من الداخل من ناحية أخرى .

على أن المتشح بالسواد لم يكن جيشا مهاجما ، وإنما كان مجرد فرد . ولسنا نحسب أن من أنشأ المبانى تصور أن شخصا قد يصل به الجنون إلى حد أن يخطر فى باله أن يهاجمها . كانت حركات المهاجم خفيفة فكأنه جزء من الظل يتحرك . ترك الطريق المعبد قبل أن يصل إلى الثكنات بمدة كافية حتى لا يراه أحد الحراس وراح ينتقل بين الصخور ، وهو ينتقى طريقه بحذر وسط الليل .

ظهر القمر فى السماء يرسل ضوءا باهتا يزيد من وحشة الظلام ، لكنه ضوء كاف لأن يميز الرجل طريقه . لم يكن فى الواقع يخشى كثيرا أن يراه الحراس ، فقد كان بعيدا عنهم ، كما أنهم لم يكونوا ينظرون مطلقا إلى ناحية الصخور ، إطمئنانا منهم إلى حصانتها الطبيعية . كان ما يخشاه أن ينزلق قدمه فيصاب ، وأيا كانت درجة الإصابة فسوف تعوقه عن عمله . لهذا تنقل بحذر ، وحيطه .

داعبت رداءه نسمة هواء ، وتحسست وجهه كأنما لتذكره بأن الفجر وشيك الانبلاج ، وأن عليه أن يسرع فى تحركاته إن كان يريد أن ينتهى من مهمته . ومع هذا فلم يتعجل . فى تأن متعمد إنتقى مواطئ قدميه ، وبصبر يكاد يصل إلى حد التكاسل تحركت ساقاه .

إشتد الطريق وعورة كلما أوغل . تحولت الأحجار إلى صخور ضخمة ، حتى إضطر أن يستعمل يديه فى تسلقها ، كما اضطر أن يقفز من صخرة إلى أخرى بين الحين والآخر . بصبر متناه إتخذ سبيله ، وبخفة القطط كانت خطواته وقفزاته . لقد تدرب على هذا أياما وشهورا أتت ثمارها ، فكان يضارع الماعز الجبلى فى تنقلاته .

أصابت يداه خدوش ، وكاد يفقد توازنه مرة ليسقط من صخرة عالية ، لكنه تماسك نفسه فى اللحظة الأخيرة . ومع هذا فقد إستمر يتقدم بهدوء ، ودون مبالاه . كان هدوؤه الظاهرى يخفى قلقا متزايدا ، إذ كان يعلم أنه لن تمضى أكثر من ساعة إلا ويكون ضوء النهار قد بدأ فى الظهور ، ولن يستطيع أن يفعل شيئاً ، بل ربما تعرض هو نفسه للقبض عليه .

تطلع من مكانه إلى أعلى ، حيث تطاولت جدران المخازن تناطح السماء ، سوداء رهيبة . نظر إلى برج المراقبة ثم راح ينقل النظر منه إلى البقعة التى اختارها هدفا له . كان الكثير من نجاح خطته يتوقف على مدى يقظة الحارس . وعما إذا كان النعاس غالبه فى الساعات الأخيرة من الليل .

لم ينتظر أكثر من هذا ، وتلفت إلى ناحية الصخور . دارت عيناه حتى استقرتا على مكان لا يبعد عنه كثيراً حيث إشتدت الظلمة . وخيل إليه أن بالمكان تجويفا ، لكنه لم يكن متأكدا . انتقل ناظراه ثانية إلى جدار المخزن ، وراح عقله يعمل ويقيس المسافة ، حتى إطمأن إلى هدفه ، ثم تحرك من مكانه .

مضت دقائق قبل أن يجد نفسه تحت الجدار مباشرة . تحسست يداه الأحجار وكاد أن يفقد الأمل . كان الذى شيد المخزن قد قدر أنه ربما يضرب بالمدافع ،

لوضع أحجارا صلدة قوية تتحمل الطلقات . حتى بين الأحجار وبعضها كان الملاط شديدا متماسكا لا أثر فيه لتشقق أو تكسر .

لأول مرة داخله الشك فى نجاح خطته . فكر لحظة فى التراجع ، لكن الاصرار عاوده ، وحمله على أن يستمر فى بحثه عسى أن يكتشف مكانا ضعيفا . كانت المساحة التى يبحث فيها محدودة ، وكان يقف على حافة صخرة عالية ، لو إنزلقت منها قدمه لهوى عشرات الأمتار وما كان يمكن ألا أن يصاب ، أو ربما يقتل . كانت بعض مواطىء القدم ضعيفة خطرة ، ومع هذا فإنه تمالك أعصابه ، واستمر فى البحث .

أخيرا عثر على بغيته فى شكل تشقق خفيف فى الملاط بين حجرين . كاد قلبه أن يقفز من بين ضلوعه من الفرح . عاود النظر بين المكان وبين التجويف الصخرى الذى خيل إليه أنه رآه قبلا ، ومضت عيناه تتبعان الطريق إليه ، خطوة إثر أخرى ، ثم لم يتوقف عن العمل بعد ذلك .

أخرج خنجره ، وراح يحفر فى الملاط يهشم منه قطعا صغيرة . لم يهتم كثيراً بألا يحدث صوتا ، إذ أن مكان الحارس كان بعيدا بدرجة كافية . مضت أكثر من ربع ساعة ، وهو يعمل بسرعة دون هوادة ، ويعمق فى الثغرات التى أحدثها فى الملاط حول الأحجار حتى تيقن من أنه أتم ما يكفى لغرضه .

كان يعلم أن الدقائق التالية هى التى سوف يتحدد فيها مدى نجاح خطته ، ومصيره . خلع عباءته السوداء فبان تحتها زى رسمى لجندى برتغالى ، كما ظهر كيسان جلديان . مد يده داخل أحد الكيسين وأخرج حبلا نحاه جانبا ، ثم بحث داخله حتى وجد بغيته فى شكل شريط قطنى طويل ، وعليه ثقلب .

مد يده إلى الكيس الثانى ، وأخذ يفرغ محتوياته من البارود فى الشقوق التى أحدثها . فى دقائق فرغ من مهمته ، ووضع الفتيل حيث إنتقى ثم أشعله ، وتنحى بعيدا عنه قدر إستطاعته وإنبطح على أرض الصخرة ملتصقا بالجدار ومتشبثا به .

راح الشريط القطنى يتآكل ببطء حتى خيل للقابع أنه لن ينتهى إلا بعد ساعات

كان الأمل يراوده من ناحية ، ويتجاذبه اليأس من أخرى . توالت على رأسه أسئلة حيارى ، فى إجاباتها نجاحه أو فشله ، حياته أو موته . هل رأى الحارس فى البرج شيئاً ؟ هل هو نائم أم متيقظ ؟ هل وضع هو كمية كافية من البارود لتحدث الثغرة فى الحائط ؟ هل ستكون الثغرة كافية لأن يدلف إلى الداخل ؟ أم تراه وضع كمية أكثر مما يجب فيقذف به الانفجار بعيدا ليسقط من الصخرة ؟ أو ربما تتساقط عليه حجارة تصيبه اصابات جسيمة أو مميتة !!

تشبثت يداه دون وعى بالجدار . وتصلب جسده على الأرض كأنما يريد أن يلتصق بها ، فى حين راحت عيناه ترقبان الشريط وهو يحترق ويزداد اقترابا من البارود .

من العسير على المرء أن يتصور إلى أى اتجاه ينحى العقل البشرى فى مثل هذا الموقف . ربما يشله الخوف ، وربما يدفعه إلى حركات فجائية ، كمحاولة الابتعاد ، والهرب ، وربما يفكر فى النتائج المباشرة ، أو البعيدة أمده ، أو غير ذلك من الاتجاهات اللانهائية . على أن عقل القابع لم يكن يفكر فى أى من هذا ، وإنما إتجه يرود عجيب نحو سعيد بن عثمان ، ذلك الذى تركه فى الكنيسة . مضى يتساءل عما تطله ، وهل إكتشف أحد أمره ؟ وماذا يستطيع هو أن يقدمه للرجل إن قدرت له النجاة من موقفه الحالى ؟

ظلت عيناه ثابتتين على الشريط القطنى وهو يفكر فى مصير الشاب . مرت الثوانى ببطء ، والنار تلتهم معها الشريط ، وتقترب من البارود . وفجأة دوى فى سكون الليل صوت الانفجار . لم يكن بالصوت المروع الذى كان يظنه القابع ، ومع هذا فقد كان عاليا بدرجة كافية لأن تنبه معظم الحراس المستيقظين فى الثكنات .

تناثرت فى الهواء قطع صغيرة من الأحجار ، والملاط . سقط قليل منها عليه . لم يتحرك لثوان حتى أيقن من أن أثر البارود قد انتهى . فى اللحظات التالية تناهت إلى أذنيه أصوات عالية مختلطة لعلها تتساءل عن مصدر الانفجار وسببه ، وأخرى تصرخ لعلها كانت تصدر الأوامر جنود الحراسة .

أمل أن الحارس على البرج كان نائما، وبالتالى لم ينتبه إلا على صوت الانفجار. لو كان كذلك فإنه سوف تمضى دقائق ثمينة حتى يستطيع من بداخل الثكنات أن يقرروا أن الانفجار أتى من الخارج، وبالتالى أن يحددوا مكانه. وفى هذه الدقائق يكون هو قد انتهى من مهمته. هذا إذا كان الانفجار قد أتى ثماره !!

قام من موضعه غير متعجل، وتقدم ملاصقا بالحائط حتى وصل إلى المكان. وقفز قلبه فرحا. حيثما كانت الأحجار متماسكة، رأى ثغرة تكفى لأن يدخل منها جسده. لم يتردد. دلف إلى داخل المخزن، ووقف لحظات وسط ظلام دامس حتى اعتادته عيناه، واستطاع الرؤية على الضوء اليسير الذى يدخل من الثغرة.

تراصت أمامه مئات البراميل التى كان يعلم أنها مليئة بالبارود. تقدم خطوات قليلة نحو إحداها، وأخرج خنجره ليشق به الأخشاب، ثم ندت منه ضحكة خافتة إذ أنه رأى أن البرميل قد أصابته احدى الأحجار المتطايرة وكسرت جزءا منه، فأغنته عن العمل.

تناول كمية من البارود وبدأ يمد خطا على الأرض نحو الثغرة التى دخل منها. ثم على الجدار إلى الخارج. كرر مافعله عدة مرات حتى يتقن من أنه إن اشتعل فلن يوقفه شىء. كانت أصوات الجنود والضباط مازالت تأتيه عالية، واضحة وإن كانت مختلطة. لم يعبأ بها، واستمر فى عمله بهدوء.

أخرج خنجره، وراح يشق به بعض البراميل الأخرى ليتساقط منها البارود على الأرض. اقتربت أصوات الجنود، وبدأ القلق ينتابه إذ لاحظ أنهم وقد أيقنوا أن الانفجار لم يأت من الداخل بدأوا يفتحون المخازن. ولا بد أنهم قد ضاعفوا الحرس على الأبراج، وربما أيضا على أسطح المخازن، وفى هذه الحالة لن يستطيع الابتعاد بدرجة كافية قبل أن تلتقطه طلقات بنادقهم.

ودلو أنه كان قد مد شريط البارود لمسافة أطول مما فعل حتى يستطيع الابتعاد بدرجة كافية قبل أن يضطر إلى اشعاله مما سيجعلهم حتما يحددون مكانه. خطر فى باله

أنه مازال يستطيع أن يمده ، ولو قليلا فى الإتجاه الذى اختطه لنفسه . خلع سترته وملأها بالبارود ما استطاع ، ثم سار خارجا من الثغرة .

جاءته الأصوات واضحة من أعلى اسطح المخازن . لم يكونوا قد حددوا مكان الانفجار تماما حتى ذلك الوقت ، بل لقد سمع أحدهم يقول إنه يعتقد أنها طلقة مدفع لم تصب شيئا ، لكنه لم يشك فى أن الدقائق التالية كانت كفيلة بأن يرمقه أحدهم .

فجأة هبط قلبه بين ضلوعه . من ناحية باب الثكنات جاءته أصوات بعيدة جعلت الدم يتجمد في عروقه . كانت أصوات نباح كلاب تقترب بسرعة . وفهم المغزى . لم يكتف القائمون فى الثكنات بوضع حرس فوق أسطح المخازن ، وأرسلوا ثلة من الجند إلى الخارج ومعهم كلاب الحراسة المدربة ، تطارد المعتدين .

كان يعرف هذه الكلاب ، ويعرف مدى ذكائها وشراستها . رآها ذات مرة تخرج واحدا من بين عشرات الأهالى ، سرق بعض الطعام من مطعم الضباط ، ورآهم يقهقهون وهم يتسلون على المسكين بأن اطلقوها عليه . رأى الرجل يجرى مذعورا ، ثم إندفعت وراءه الوحوش لتقفز عليه ، وتطرحه أرضا . راقبها وهى تمزق جسده بأنيابها ومخالبها . سمع زمجراتها الوحشية مختلطة بصراخ الرجل ، وضحكات الضباط البرتغاليين .

راقب أشباحها وهى تقفز على الأحجار ، والصخور غير متوانية ، وتقترب من مكانه بسرعة رهيبة . وصل إلى أذنيه أصوات نباحها ، وتشجيع مدربيها ، فتولاه الفزع للحظات جعله ينسى الحراس على سطح المخزن ، ويندفع نحو المأوى الذى إنتقاه حاملا البارود فى سترته . وحينما وصل إلى نهاية الصخرة بعثر البارود على الأرض . وراحت يداه تعبثان فى عصبية عن علبة الثقاب حتى وجدها .

بشكل مالم يلحظه الحراس على أسطح المخازن فى اثوانى الأولى . ولم يعد هو يعبأ بأن يروه ، فقد كان رعبه من الكلاب أشد من خوفه من البنادق .

أشعل ثقابا فى البارود القريب . أمسكت النيران ، وبدأ خط من اللهب يتلوى بسرعة نحو المخزن . وفى اللحظة التالية علت أصوات الجنود ، وبدأت طلقات النيران تصفر حوله .

لم ينتظر ليرى اللهب وهو يصل إلى بغيته ، ولم يعبأ بالطلقات تدور حوله ، ولا بأصوات الجنود تهتف مرشدة زملاءهم نحوه ، وأنما ركز كل تفكيره فى الابتعاد قدر جهده عن المخزن .

ظل يقفز بين الصخور دون محاوله الإختباء . واندفعت نحوه ثلاثة أشباح ضخمة ترسل نباحا وحشيا . خيل إليه أن صوت الطلقات قد إنقطع ، وتناهت إلى أذنيه صرخات مذعورة أطلقها الجنود على سطح المخزن وعلم أنهم حينما رأوا لهب النار يندلع متجها إلى البارود أدركوا خطورة موقفهم فراحوا يتزاحمون مندفعين هاربين .

ألقى بعضهم بنفسه من أعلى السطح ليقع على الصخور . وجرى آخرون فى حلقات دائرية وقد أفقدهم الرعب شعورهم وأحساسهم بالاتجاه ، وسمر الخوف غيرهم فقبعوا فى أماكنهم لا يستطيعون حراكا ، وانطلقت صرخات هستيرية من أفواه جفت .

على أن الشبح لم يكن فى حالة تسمح له بأن يشاهد أو ينصت . كان مازال يقفز من صخرة إلى أخرى وقد أمسك سترته فى يده . كان يفر من الموت تمزيقا بين أنياب الوحوش الهائجة التى تقتفى أثره . ولم يبق بينها وبينه إلا أمتـــار معدودات .

بدأت الطلقات تأتى من اتجاه آخر غير المخازن . كانت ثلة الجنود ، ومدربو الكلاب قد اقتربت بدرجة كافية ، فراحوا يطلقون النيران . لم يكونوا قد رأوا البارود يحترق متجها صوب المخزن فلم يتوقفوا فى اقتفاء أثر الكلاب وإذا كانوا قد لاحظوا الهرج الذى ساد زملاءهم فانهم لم يعيروه انتباها ، وربما ارجعوه لسبب أو آخر فظلوا فى اندفاعهم وراء فريستهم .

وصل إلى المكان الذى إنتقاه كمأوى فى اللحظة نفسها التى مرق فيها جسد ضخم فى الهواء ليسقط عليه ، ويسقطه بدوره على الأرض . واندفع على الصخور الأخيرة جسدان آخران ليشتركا فى الوليمة . وأنقذته السترة من الموت . حينما أطبق الفكان القويان على الرقبة ، دفع بها بين الأنياب الحادة ، وتدحرج بجسده إلى حماية التجويف الصخرى .

هذا حدث الانفجار الأول . لم يكن مهولا كما اعتقد . ظن أن كل أمانيه ، وخططه قد فشلت فانتابه يأس مرير ، لكن هذا لم يدم أكثر من برهة . فجأة ملأ الجو دوى هائل حتى خيل إليه أن أذنيه لابد أنهما سوف يصيبهما الصمم ، وارتفعت الأرض من تحته لتقذف به إلى ، ويسقط ثانية على الصخر الصلد .

تطايرت الأحجار والصخور وأشلاء الجنود إلى عنان السماء ، لتهبط ثانية على الأرض حتى كأن السماء تمطر أحجارا وصخورا . لم يعلم ما حدث للكلاب وما كان يفكر فيها ، وإنما قصر جهده على أن ينكمش ما أمكنه فى حمى التجويف من الموت المتساقط .

توالت الانفجارات ، وأضحت الأرض ترتج كأنما هى فى زلزال مريع . انسابت بعض الصخور من أماكنها فاندفعت إلى أسفل محدثة دويا عاليا . قفزت إحداها فوق التجويف الذى يقبع تحته . شاهدها سوداء ضخمة تطير فى الهواء إلى جوار أحجار صغيرة ، وقطع من الأخشاب والملاط المتساقط ، وارتفعت إلى عنان السماء سحب من الدخان والغبار .

ارتجت المنازل فى المدينة . وتهدمت بعض البيوت القديمة واحترقت أخرى ، ووصل من عنف الانفجار أن قذف بالأحجار مسافات هائلة بلغت الميناء من ناحية وأطراف المدينة من ناحية أخرى . سمع صوت الانفجار من بعد أميال حتى ظن الناس أن الآخرة قد حلت لا ريب فيها . ترك الكثيرون منازلهم ، وخرجوا إلى الطرقات بملابس النوم فزعين ، وانطلقت الحيوانات من مرابضها تعدو هائمة ،

وتطأ من يلقيه سوء حظه فى طريقها . وظلت السماء غمامة كثيفة من الأحجار المتطايرة والغبار والدخان .

لم يبق فى الثكنات زجاج إلا تحطم . لم تبق قطعة أثاث واحدة فى مكانها . قذف الانفجار بالنائمين بعيدا عن أسرتهم ، وقتلت الأحجار المتساقطة كل جندى كان فى الحراسة ، أو لم يكن فى حماية المبانى ، بل إن بعض الذين كانوا بالداخل أصيبوا إصابات مختلفة سواء من الأحجار المتطايرة أو من جراء سقوطهم أو سقوط أشياء عليهم .

بعد أكثر من خمس دقائق من الجحيم هدأ الكون . اضحت مخازن الذخيرة وما جاورها من مبانى أثرا بعد عين . وفى مكانها كانت فجوة كبيرة ، وأحجار متناثرة ، وقطع من الأخشاب صغيرة وبعض الحديد الملتوى .

* * *

على بعد أميال عديدة من مكان الانفجار توقف قارب وسط النهر يحوى جماعة من العرب . وصل إليهم صوت الإنفجار ، وشاهدوا ، على بعدهم ، نيرانا تطاول السماء . وفهم شيخ بينهم معنى ماحدث . وفهم فى الوقت نفسه الرد على سؤال وجهه إلى المتشح بالسواد ، كيف عرف أن البرتغاليين لن يستطيعوا قتال الشاة والسلطان سنة كاملة ؟ لقد أرسل إليه الرد فى صيغة الانفجارات ، وادرك الرسالة التى سوف يبلغها إلى الشاه والسلطان .

* * *

قام الشيخ من مكانه ، وارتدى سترته ، وأخذ ينفض عنها الغبار ويصلح من شأن نفسه على قدر ما تسمح به الظروف ، ثم إتجه بهدوء إلى ناحية المدينة . كانت الطرقات تعج بالجماهير المذعورة المتسائلة . علا الشحوب الوجوه ، وشاهد الكثير من الضباط والجنود وهم يهرعون من الثكنات وإليها . لم يلتفت إلى

كل هذا واتجه من فوره إلى حيث الكنيسة ليراها وقد غصت بالناس يصلون ، ويبتهلون ظانين أن يوم الدين قد حان ، وأن منيتهم وشيكة .

نظر في الوجوه بحثاً عن سعيد بن عثمان . مر بالصفوف المتراصة بتأن وتمهل ، ولم يعثر لصاحبه على أثر . عاد يتلفت في الواقفين الذين لم يجدوا مكانا للجلوس ، لكن بحثه ذهب سدى .

أيقن عدم جدوى البحث وسط الجموع الغفيرة التى تملأ الطرقات ، وشعر بتعب شديد إثر مابذله من مجهود طوال الليل ، فاتجه لتوه نحو المعسكر . كانت الشمس قد بزغت تملأ الكون دفئاً حينما وصل ليرى جلياً مدى الدمار الذى أحدثه الانفجار . كان كل من بالمعسكر إيقاظاً وهم يروحون ، ويجيئون لمعاينة مدى الخسائر . حينما وصل إلى عنبره رآه خالياً من قاطنيه ورأى أن أثاثها قد انقلب فلم يعتن سوى بإصلاح فراشه . مدد جسده عليه مرهقا وأخذ يتمتم بصوت غير مسموع . ولم تمض دقائق حتى كان قد نام .

* * *

الفصل الخامس

قتل المسلم

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشر حينما دخل الكابتن روى فريرِ داندرادى إلى مكتبه . بدا الإرهاق جليا على محياه . لقد ظل فى الليلة السابقة يحتسى الخمر مع صديقه القبطان دوم فرنسيسكو دى مـورا حتى الساعة الثانيـة صباحا . ولم يكد ينام حتى حدث الانفجار فألقاه من فراشه وطرحه أرضا . تناثرت قطع الزجاج تملأ الحجرة ، وأصابته إحداها فى وجنته فأسالت الدماء .

تملكت زوجته حالة هستيرية فأخذت تصرخ ، وتولول وهى تظن أن المسلمين قد هاجموا المدينة وأنها لاشك قد وقعت فى قبضتهم ، ولم تكف عن الصراخ حتى هدأ زوجها من ثائرتها مقررا أنه سوف يذهب لاستطلاع ماحدث ، واعدا إياها أن يطمئنها بمجرد أن يعرف الحقيقة . ولم تمض دقائق بعد هذا إلا وكان قد ارتدى بزته الرسمية ، واندفع فوق جواده يخترق الطرقات الغاصة بالأهالى متجها إلى المعسكر حيث أتى الانفجار .

•

علم ماحدث من زملائه ، وهالته من أول نظرة الخسائر ، والأضرار التى لحقت بالثكنات كما قرر عقله السريع مدى حرج موقف القوات البرتغالية ، وقد ذهب الشطر الأكبر من ذخائرها من البارود .

اتجه إلى القيادة العامة حيث وجد الضباط العظام مجتمعين ، ومنذ ذلك الوقت لم ينل دقيقة واحدة من الراحة حتى حصر الخسائر . وطلب منه القائد أن يكتب تقريرا سريعا عن الموقف الحالى فتحامل على نفسه ومضى إلى مكتبه وهو يجر ساقيه جرا .

توقع وهو متجه إلى الغرفة أنه سيجـد أسافلها أعاليها ، لكنه

حينما دلف إليها دهش إذ رأى أن كل شىء فى مكانه ، ولولا أن زجاج النافذة لم يكن له أثر لظن أن الحجرة لم يمسها الانفجار بسوء .

رأى جيرونيمو ، يضع اللمسات الأخيرة فى الحجرة ، مزيلا بعض التراب من المنضدة . ألقى إليه التحية ، واتجه من فوره إلى مقعده ، ودهش إذ رأى أن أوراقه ومستنداته فى مكانها تماما حيث تركها ، فالتفت إلى الجندى الذى كان قد انتهى من مهمته ووقف منتظرا أوامره ، وخاطبه قائلا :

— شكرا لك ياجيرونيمو . هل تعلم مدى الخسائر التى لحقت بنا ؟

لم يتكلم الجندى ووقف صابرا فى انتظار كلمات رئيسه .

— ضابطان واثنان وخمسون قتيلا من الجنود ، وسبعة من الأهالى هذا عدا عشرات الجرحى ولاأحسبك .. تجهل مدى الخسائر المادية ، أعنى الذخائر التى كانت فى مخزن البارود والمخازن المجاورة له . وهذا حصر مبدئى سريع .

توقف الضابط عن الكلام ، ونظر إلى الجندى ، إلا أن الأخير لم يبد على وجهه الجامد أى تغير وحينما تكلم كان صوته هادئا لا أثر فيه للانفعال .

— وهل عرفوا سبب الحادث ياسيدى ؟ هل قضاء وقدرا ؟ أم هل هو بفعل فاعل ؟

— إن هنالك لجنة للتحقيق ، وإن كنت أظن أنهم لن يصلوا إلى شىء .
كل مانعلمه هو أن الانفجار قد تسبب فيه مجموعة من المخربين وذلك بشهادة الضباط الذين أرسلوا الجنود إلى التحرى عن سبب الانفجار الأول أما الجنود أنفسهم ، والضابطان معهم فقد قتلوا جميعا ، بل إن بعض جثثهم أضحت أشلاء متناثرة قذف بها الانفجار إلى مسافات بعيدة ، وبالتالى فما رأوه وا كتشفوه أضحى فى علم الغيب .

ظل الجندى صامتا بعد أن انتهى الضابط من حديثه كله ، وحينما رأى أن نظره قد تحول منه إلى الأوراق أمامه انسحب من الحجرة بهدوء ،

وغاب دقائق عاد بعدها يحمل صينية عليها بعض الشراب ومأكولات خفيفة . وجد أن ضابطه مازال منكبا على أوراقه ، فوضع الأشياء على المنضدة وانسحب .

***

كان سعيد بن عثمان نائماً على إحدى الأرائك الخشبية فى الكنيسة حينما حدث الانفجار . لم يدر ماحدث تماما ، وإنما شعر بنفسه كأنما قذفته يد جبارة فى الهواء لتلقيه على الأرض وسط أرائك الكنيسة التى راحت تتناثر بدورها . سمع صوت الزجاج وهو يتحطم وتتناثر قطعه فى كل مكان ، وتساقطت الصور المعلقة ، وانكفأ تمثال ضخم عند المحراب .

مكث فى مكانه حيث سقط وهو يتصور أنه فى حلم مزعج ، ثم تنبهت حواسه . كان أول شعور انتابه هو الذعر . أراد أن يجرى . وما كان يعلم أو يهمه إلى أين . على أنه سرعان ماتمالك نفسه حينما تناهت إلى سمعه صرخات الناس فى الطرقات وفى الدقائق التالية امتلأت الكنيسة بالفارين من الموت إلى الله .

فكر أن هذا الاضطراب هو فرصته فى النجاة ، وانقاذ زوجته ، فتحرك من مكانه يزاحم الخضم البشرى المندفع إلى الكنيسة . كان يحاول الخروج بينما سدت الأجساد مدخل الكنيسة تماما . ظل يدفع الناس بمنكبيه ويديه دون جدوى . ووجد أنه يكاد أن يحمل حملا إلى الداخل .

ربما كانت خطته تنجح لو أنه استطاع أن يخرج فى الوقت المناسب ، إلا أنه لم يستطع . مضت مدة طويلة قبل أن يهدأ الجمع وتمتلىء الكنيسة . هنا فقط تمكن من أن يتحرك إلى الخارج . لكن الوقت فات . ومما يؤسف له أن سعيدا كان من أولئك الأشخاص الذين إذا ما تملكتهم فكرة أقدم على تنفيذها دون النظر إلى تغيير الظروف .

أخيرا أحس بهواء الفجر المنعش خارج الكنيسة ورأى منزل القبطان أمامه . كان للمنزل من طابقين لايزيد ارتفاع اسفلهما من سطح الطريق عن قامة الرجل .

رأى سعيد من مكانه أن الانفجار قد فتح الكثير من نوافذ المنزل . وتهشم الزجاج جميعه فكأنها كانت دعوة صريحة للدخول .

عبر الطريق ، ووقف تحت المنزل ينظر فى ضوء الفجر الباهت إلى الناس وهى ما تزال تجرى وتدور تبحث عن مفقودين ، أو سعيا وراء معونة طبية . كانت الجماهير كالمذهولة تسير فى الطرقات دون هدف أو عقل . وانتهز بعض الغوغاء الفرصة فراحوا يقتحمون المنازل ، والمتاجر بغرض السرقة والنهب . ولم يعره أحد التفاتا .

بحركة خفيفة قفز إلى حافة النافذة ، وإذا كان قد رآه أحد فقد حسبوه من الغوغاء يبغى السرقة ، فلم يعيروه اهتماما . فى خطوة أخرى كان داخل الحجرة . كانت خالية . أجال الطرف حوله ، ورأى أنها تستعمل كمكتب لصاحب الدار . لاحظ أن لها بابا يفتح على داخل المنزل ، لكنه كان مغلقاً .

تناهت إلى أذنيه أصوات من الداخل ، جلية واضحة لم يفهم منها شيئاً إذ كانت بلغة لا يعرفها . تردد فى خطوته التالية . كان لا بد له أن يتحرك سريعاً ففى كل دقيقة تزداد قوة الضوء ولن تمضى مدة طويلة حتى يسهل اكتشافه .

سار بسرعة نحو باب الحجرة ، وأطل منه محاذرا . رأى صالة واسعة يتوسطها درج يؤدى إلى الطابق العلوى . لم يكن بها أحد ، وإن كانت الأصوات قد ازدادت وضوحا بحيث أمكن أن يحدد أن مصدرها حجرة أخرى تقابل تلك التى هو فيها .

تراجع فى اللحظة المناسبة حينما رأى رجلا وإمرأة تتقدمه وهى تحمل مصباحا يخرجان من الغرفة وتقف المرأة لتخاطب الرجل وهو يغلق الباب وراءه . ألقى على الحجرة نظرة سريعة أكدت له أن أحسن مكان يمكن الاختباء به خلف المكتب . ولم يتردد وهو يتخذ سبيله إليه محاذرا إحداث أدنى صوت .

ما كاد أن يستقر فى مخبئه حتى دخل الرجل والمرأة واتجها من فورهما إلى النافذة . . . وصلت إلى أذنيه أصواتهما يتكلمان ، والمرأة تنظف مكان الزجاج

الستائر على الأرض . كان من الواضح أنهما زوجان هنديان يعملان فى خدمة صاحب المنزل .

إستمرت المرأة تتكلم وهى تنظف الأرض فى حين وجه الرجل اهتمامه إلى النافذة يحاول اغلاقها . مضت دقائق والمختبئ يخشى أن يكتشف مكانه . أتم الاثنان عملهما ، وتنهد الرجل خلف المكتب وهو يسمع خطواتهما تتجه نحو الباب ، ثم وهما يوصدانه خلفهما .

خرج من مخبئه ، واتجه من فوره إلى الباب ، وظل يتصنت . كانت الأصوات قد بعدت وأضحت كأنما تأتى من الطرف الآخر للمنزل . فتح الباب بحذر وأطل منه . كان ضوء النهار قد بدأ يتسرب حتى اضحى من اليسير عليه ان يلم بجميع اركان الصالة . لم ير احدا . تسلل بخفة نحو الدرج وصعد إلى الطابق الثانى . خيل إليه انه لا يوجد احد فى الحجرات الثلاث التى رأى ابوابها ، لكن صوت بكاء مكتوم وصل إلى اذنيه .

قفز قلبه فرحا واتجه من فوره نحو مصدر البكاء . فتح باب الحجرة ووقف ينظر إلى زوجته طريحة على الفراش تبكى .

رفعت المرأة رأسها فزعا حينما أحست بوجود شخص غريب . توقف بكاؤها وبدت فى عينيها نظرة من لا يصدق ماتراه ، ثم دون وعى ، هتفت باسمه والقت نفسها بين ذراعيه ، وعاودها نشيج عصبى .

تلقاها سعيد بين احضانه ، وراح يربت على رأسها ، وكتفيها ويمسح شعرها بيد امتلأت حنوا وعطفا ، ومن الغريب ان تنتابه شكوك فى هذه اللحظة . شكوك الحب الغيرة فى قلبه . وكأنما احست المرأة بما يعتمل فى نفسه فقالت بين نشيجها ودموعها .

— كلا ياسعيد .. لم يمسنى . أتى مخمورا منذ اكثر من ساعتين او ثلاث ، وحاول .. لكن الخمر كانت قد لعبت برأسه فكان من اليسير على ان ادفعه ، ولو قرب منى لقتلت نفسى .

هز الرجل رأسه وهو مازال يربت عليها .

— لا عليك يافاطمة .. لا عليك .. لن يمسك أحد بسوء .

مضت دقائق والزوجان متشبثان ببعضهما كأنما يخشيان الفراق ثانية . ثم تنبه سعيد إلى أن ضوء النهار قد دخل من النافذة المفتوحة ، وأن الشمس بدأت تبزغ فكان عليهما أن يتحركا بسرعة .

برفق أبعد زوجته عنه ، وأخبرها أن عليهما أن ينتهزا فرصة الهرج الذى كان مازال سائدا فى المدينة والذى أثبتته الأصوات تصل من الطريق . وسألها :

— أين القبطان الملعون ؟

— لا أعلم وإن كنت أحسب أنه خرج إذ سمعت صوته يخاطب خادمة بعد الانفجار بدقائق .

— هذا حسن إذاً فليس فى المنزل سوى الخادم والخادمة ؟

— أعتقد هذا فلم أر سواهما .

— هل لديك ملابس ؟

— هنا .. لقد أتى بها القبطان من المركب . وهى فى هذا الصندوق .

— إرتدى بعض الملابس على ان تكون قريبة الشبه من ملابس الهنديات ، وربما يمكننا ان نختفى وسط الجموع .

اسرعت المرأة تمتثل لأوامر زوجها ، واغلق هو الباب ثم جلس على اريكة ينتظر . شعر بالتعب يحل به وود لو اسلم نفسه للنوم ، لكنه كان يعلم ان عليه ان يغالب الارهاق والجوع .

فرغت المرأة من ابدال ملابسها ثم انتقت عباءة واسعة من الحرير . قبل ان ترتديها وصل إلى سمعهما وقع خطوات فى الردهة . فى سرعة خاطفة كان الرجل قد انسل مختبئا تحت الفراش ، واعادت فاطمة العباءة مكانها فى الصندوق واغلقته ، ولم تكاد تلقى بنفسها على اريكة قريبة حتى فتح الباب ، ودخلت المرأة الهندية تحمل بعض الطعام .

وضعت المرأة الطعام على منضدة أمام الأريكة ، ووقفت تخاطب فاطمة ، أولا بالهندية ، وثانيا ببرتغالية ركيكة . ولم تكن فاطمة تعرف اللغتين فأشارت إليها أنها لم تفهم ، وبعد عدة محاولات يئست منها المرأة فأشارت إليها أن تأكل ، وأن عليها إعادة ترتيب الحجرة ، ثم تركتها موصدة الباب خلفها .

مكث سعيد مختبئا حتى إنقطع صوت وقع أقدام المرأه ثم خرج من مخبئه ، وجلس إلى جوار زوجته يشاركها الطعام . رأى أن أمامهما وقتا شاقا ، ولا يعلم متى سوف يستطيعان تناول وجبة أخرى فكان من المستحسن أن يزودا نفسيهما ببعض الطعام قبل أن يبدءا مغامرتهما .

لم يتعجل الفرار بعد أن فرغا من تناول الطعام . إنتظر حتى عادت الخادمة الهندية لتأخذ الأوعية الفارغة ، وإذا كانت قد دهشت حينما رأت أن الأوعية جميعا خالية فلم يظهر على وجهها شيء . كان الرجل يفكر طوال المدة التى ظل فيها مختبئا فى طريقه للهرب . لم يكن يعرف المدينة ، ولا اللغة ، ولم يكن معه سلاح أو مال ، ومعه زوجته وهى لا شك أبطأ حركة من الرجال لو صادف وطاردوهما .

ما أن خرجت المرأة الهندية حتى طلب إلى زوجته ان تفتح الباب وتتأكد من خلو الردهة ، فلما طمأنته ، طلب إليها ان تظل مكانها ، وتستعد للخروج بمجرد عودته . خرج من الحجرة إلى التى تليها فوجد انها حجرة أخرى للنوم يبدو انها للضيوف . لم يدخلها واعاد اغلاق بابها ثم اتجة إلى الثالثة . كان من الجلى انها حجرة القبطان .

دلف داخلا وأغلق الباب خلفه . بدا أن صاحب الحجرة قد تركها فى عجلة كما أن الخادمين لم يكونا قد أعادا ترتيبها . كانت النافذة مفتوحة ، وقطع الزجاج مازالت متناثرة على الأرض ، وأحد المقاعد مقلوبا ، والدولاب مفتوحا ، وبعض الملابس الداخلية ملقاة على الفراش .

بدأ تفتيشه بسرعة . عثر على أول بغيته دون عنـــاء . رأى سيفين معلقين على الحائط ، وتحتهما مباشرة وجد خنجرا يبدو أنه كان بدوره معلقا وسقط من أثر

الإنفجار . تناول الخنجر ، وخبأه فى طيات ملابسه ، واستمر فى بحثه . لم يعثر على نقود ، لكنه وجد صندوقا حديديا صغيرا ولما حاول فتحه اتضح أنه مغلق بالمفتاح . لم يجرؤ على كسره خشية أن يحدث أصواتا تنبه الخادمين ، فتركه وعاد إلى زوجته .

لم يكد يصل إلى باب الحجرة حتى طرقت أذنيه أصوات المرأة تصعد الدرج فهرع إلى مخبئه . أظهرت فاطمة بديهة حاضرة حينما أغلقت الباب ، وخلعت عباءتها وأخفتها ، ثم شرعت بتؤدة تنظف الحجرة ، وتعيد ترتيبها .

لم تأت الخادمة إليها ، وإنما اتجهت إلى حجرة سيد المنزل . سمع الزوجان صوتها وهى تغنى أثناء تنظيفها ، وإعادة ترتيبها ومضت زهاء نصف ساعة قبل أن تفرغ المرأة من عملها ، وتغلق الحجرة . سمعاها تقترب منهما ، وفتحت الباب وحينما أطلت برأسها رأت أن فاطمة تكاد أن تنتهى من التنظيف .

إنتظر سعيد حتى تأكد من أن المرأة قد هبطت الدرج . ومضت دقائق أخرى قبل أن يأخذ بيد زوجته ويدلف إلى الردهة . أطل بحذر فلم يشاهد أحدا فى الصالة . تقدم فاطمة ، وهبطا ببطء محاذرين إصدار أدنى صوت ولم يكونا فى حاجة إلى كل هذا الحذر إذا أتتهما أصوات الرجل والمرأة يتكلمان فى مكان ما إلى يسار الدرج ، ويبدو أنهما كانا فى المطبخ .

إخترقا الصالة ، ورأى سعيد أن باب المنزل كان مغلقا من الداخل بالمزلاج ففتحه ، وفى الثوانى التالية خرج الرجل ، وزوجته إلى الشمس الدافئة فى الطريق ؛ كانت الحالة قد هدأت نسبيا ، لكن الطرقات كانت ماتزال تعج بالناس . وبدا الكثير من الضباط ، والجنود البرتغاليين يفرقون الجموع المحتشدة .

حار سعيد أى اتجاه يأخذ . لم يكن يعلم شيئا عن المدينة . لم يكن قد لاحظ فى المساء السابق الطريق الذى صحبه فيه منقذه ، وكل ما أمكنه استنتاجه هو أن النهر يقع إلى الشمال من المدينة ، وأن الإنفجار حدث فى الطرف الجنوبى الغربى

منها ، وإذاً فاتجاهه يجب أن يكون إلى الأول ، وبعيدا عن الثانى حيث لاشك أن الجنود منتشرون .

هى أنه لم تكن له الخيرة تماما أى اتجاه يأخذ إذ كان الجنود البرتغاليون يسوقون الأهالى أمامهم عودا إلى مدينة جوا القديمة . ولم يكن يجرؤ أن يتخذ سبيلا آخر وهو يجهل أية لغة يستطيع بها التفاهم أو التخفى ، فأملها فى النجاة هو أن يختبئا وسط الجموع .

* * *

استمع الرجل إلى الروايات التى كان يرويها الجنود البرتغاليون ، والهنود عن حوادث اليوم . كان يتناول طعام الغذاء فى الثكنات ، شأنه كشكل من يعمل بها ، وعلى مائدة الطعام كان الحديث يدور حول الأحداث .

علم أن الجنود ساقوا أمامهم الأهالى إلى المدينة القديمة ، وأنهم منعوهم الخروج منها . علم أن بانجيم (المدينة الجديدة) قد أخليت تماما من الهنود خشية أن يقوموا بثورة أو إحداث شغب . ودار فى ذهنه سؤال . هل أخليت الكنائس أيضا ؟ علم أن خبر هروب بعض السجناء العرب قد ذاع : وأن الجنود يبحثون عنهم سواء فى المدينة ، أو الميناء أو الحقول المجاورة ، لكن أحدا لم يذكر أى شىء عن المرأة العربية .

ظل عقله طوال الوقت يعمل بهدوء . إذا كان هنالك أى أمل فى أن يعثر على العربى ففى المدينة القديمة ، ولن تكون هنالك فائدة فى البحث عنه في بانجيم . لم يسمع من أحد أنه قبض على العربى ، وبذلك فهو مازال هاربا ، تمكن بشكل أو آخر من الإفلات - ترى هل تمكن أيضا من إنقاذ زوجته ؟

لم يستمع لأية إشارة عنها فى الأحاديث الدائرة ، ولكن ذلك لم يكن يعنى أنها لم تتمكن من الفرار ، فلعل القبطان لم يكتشف بعد أنها هربت ، أو لعله إكتشف . خشى أن يبلغ عن فرارها خوفا من أن يتهم باخفائها عن سلطة محاكم التفتيش . أيا كانت الأسباب أو الأوضاع فإن على الرجل أن يذهب إلى المدينة القديمة ، ففيها وحدها سوف يعرف الإجابة على كل الأسئلة .

* * *

جلست المرأة على الأرض تستظل بجوار احد المنازل بينما وقف الرجل يتلفت حوله محاولا أن يحدد موقع النهر . كان الوقت قد جاوز منتصف النهار ، وأطبق الحر على الجو حتى أن التنفس أضحى عسيرا : لقد ظلا طوال الساعات الماضية يتنقلان من طريق إلى آخر دون هدف . لم يجرؤا على التوقف ، كما لم يستطيعا السؤال . تفرقت الجموع فتكونت جماعات تتناقش ، وتتكلم . في مبدأ الأمر ، ثم لما اشتدت الحرارة ابتدأت الجماعات تنسحب من الطريق ليدخل الأفراد إلى منازلهم حتى أضحت الطرقات خالية تقريبا إلا من أعداد يسيرة من الناس .

أخيرا حل الإجهاد ، والتعب بالمرأة ، ولم تستطع أن تواصل السير ، فأجلسها زوجها إلى أحد الجدران ووقف مترددا فيما يفعل . مر بهما رجل هندى مسن ، قال شيئا وهو يسير ، ولما لم يرد عليه سعيد ، توقف وحدق فيهما ، ثم بان عليه الإنفعال ، وأخذ يتكلم بسرعة ، ويشير بيديه إلى الناحية التى أتى منها :

لم يفهم سعيد الإشارات . علم ان الرجل قد إكتشف امره . وإنه يقول له شيئا هاما ، لكنه كان خائفا لدرجة ان إشاراته بدت متعجلة مرتبكة . ولما رأى أنها لم تجد نفعا تركه متعجلا حتى لاح كأنما يعدو ، وهو يكرر إشاراته المبهمة .

التفت إلى الناحية التى أشار إليها الهندي العجوز ولم ير شيئا . كان الطريق خاليا على امتداد البصر . كاد ان يهمل إشارات الهندى ويجلس إلى جوار زوجته ليستريح بعض الوقت حينما لمعت اشعة الشمس على شىء ظهر فى نهاية الطريق فجذب نظره مرة اخرى .

فى لحظة فهم إشارات العجوز . لقد إكتشف امرهما ، واراد ان يحذرهما ان الجنود يبحثون عنهما . لم يعلم انهم يبحثون عنه بمفرده ، او عن اى هارب عربى من السجن ، وإنما ظن ان البحث يدور عن المراة .

بديهة حاضرة استقر رأيه على أن يعرض نفسه للجنود ويبتعد بهم عن مكان

زوجته . لم تكن فاطمة في حالة تستطيع معها الجرى لاية مسافة أو مـــدة ، ولم تكن هنالك حيلة إلا أن يكشف عن نفسه ويحاول أن يلفت نظر الجنود بعيدا عنها .

أمرها أن تمسك مكانها حتى يضلل الجنود ، وان تزداد التصاقا بالحائط ، أما إذا لم يعد فحسبها الله . وقبل أن تستطيع الحركة كان قد اندفع يعدو نحو الجنود .

رأته فاطمة وهو يتجه إليهم ، ورأته وكأنما قد بدا عليه التردد حينا رآهم ، ثم رأته وهو يتخذ طريقا جانبيا يختفى فيه . سمعت صياح الجنود ، وشاهدتهم وهم يندفعون جريا وراءه ثم وهم يختفون في الطريق الجانبي . وفي ثوان إنقلب السكون حولها إلى ضوضاء وجلبة .

فتحت النوافذ ، وأطلت منها رؤوس مستفهمة ، وفتحت الأبواب وخرج منها أناس يركضون في الطرقات وراء صيحات الجنود . لم تستطع البقاء مكانها خشية إفتضاح أمرها ، ولم يكن لديها حل احسن من ان تجرى مع الجماهير وراء الجنود ، ووراء زوجها .

لكنها لم تفعل . رأت امامها شابا طويل القامة في حوالى العشرين من عمره يرتدى زى الجنود . خاطبها بلغـــة لم تفهمها ، فأعاد الخطاب بلغة أخرى ، ولم تفهمها ايضا ، حاولت ان تتركه وتعدو إلا ان يدا من حديد قبضت على معصمها ، وجاءها صوت هادىء يهمس بالعربية .

— لا تخافى .. هل كنت مع العربى الهارب ؟

غشاها خوف مميت يقبض بيد باردة على قلبها ، ويعقل لسانها عن الكلام . حاولت التملص فلم تستطع وجاءها الهمس راجيا .

— انى اسعى لانقاذك ومن كان معك .. أرجوك ان تهدئى .

وحلت عقدة لسانها .

— إنه زوجى بربك انقذه . هل انت عربى ؟

— أجل إنى أحمد بن الأمير سالم من ممبسة ، تعالى ولا تخافى ، فليس هنالك وقت نضيعه ، وإذا صادفنا أحد فأنت زوجتى الصماء البكماء .

ترك معصمها ، وسار بخطى سريعة فى اتجاه غير الذى أخذه زوجها والجنود . ترددت فى اللحاق به . لكنه عاد يأخذ يدها برفق وهو يقول :

— من الجلى أن زوجك لا يعلم شيئا عن المدينة ، ومن حسن الحظ أن الجنود تبعوه دون روية وإلا لكان من اليسير القبض عليه . أرجوك أن تثقى فى ، وأن تتبعينى وإلا فقدنا كل شىء .

للمرة الثانية ترك يدها ، وأولاها ظهره ، وفى هذه المرة تبعته . أحست بثقة فى هذا الشاب الهادىء ذى الصوت الهامس ، وأيقنت أنه إذا كان فى إستطاعة شخص أن ينقذها ، وزوجها فهو هذا .

سار فى الاتجاه الذى اتخذه أولا . كانت خطواته سريعة ، لكنه لم يجر . كان يعلم أنه لا منفذ من الطريق الذى إتخذه الهارب إلا عودا إلى حيث يتجه ، وأن الطرق الأخرى جميعها لا سبيل إلى الخروج منها ، لهذا كان واثقا . تبعته المرأة لاهثة فقد كانت ما تزال متعبة من أثر الحركة طوال النهار ، كما أن خطوات الشاب أمامها كانت أسرع من خطواتها العادية .

إنقطعت أصوات المطاردين عنهما تماما وبدأ الشك يداخل المرأة فى أهداف الرجل السائر أمامها ، لكنه لم يتوقف ، ولم يلتفت إليها ، واستمر فى سيره الواثق فلم تر مندوحة من أن تتبعه وهى تجر نفسها جرا .

أتتها الأصوات ثانية ، واستطاعت أن تحدد مكانها . على بعد أمتار قليلة ظهر أمامها منعطف فى الطريق كانت ترد منه الأصوات . عاودها الأمل ، فاسرعت وراء الشاب أمامها ، وبعد لحظات انكشف لها ماوراء انعطاف الطريق ، وتوقفت إلى جوار الشاب .

رأت زوجها يعدو وهو فى حالة يرثى لها. كان التعب قد أخذ منه كل مأخذ حتى أنه بدأ يتعثر فى خطواته. رأته مشهراً خنجراً يهدد به كل من يقترب منه، وشاهدت لفزعها أن الجنود لم يكونوا يبعدون عنه بأكثر من عشرين مترا.

كان زوجها متعبا من جراء الأحداث التى مرت به منذ فراره من السجن فى الليلة الماضية فهو لم ينل أى قسط من الراحة طوال الليل، وطوال النهار، وبدا جليا أنه إستنفذ آخر قواه.

حتى الشاب أمامها أدرك عقم محاولة انقاذه فسوف يكون عبثا يودى بحياته وحياتها معا، ولهذا وقف يشاهد الأحداث دون أن يتدخل، وقبض على ذراع المرأة إلى جواره يمنعها من الحركة.

كان واثقا من أن البرتغاليين لم يكونوا يريدون قتله، وانما كانوا يريدونه حيا، فهو يعرفهم ويعرف وسائلهم. ظلوا يتتبعونه دون محاولة القبض عليه. تماما كالهرة تلاعب الفأر قبل أن تنقض عليه، مع فارق واحد. إنهم لم يكونوا يريدون موته، وإنما كانوا يبتغون القبض عليه حيا، وتسليمه إلى محاكم التفتيش.

دون مقدمات حلت النهاية المفجعة. رأوا جنديا برتغاليا يظهر فجأة من أحد الأزقة الجانبية لينقض على العربى. ودارت معركة قصيرة تأرجح فيها الخنجر بين الاثنين، لكن كان من البدهى أن الرجل المنهك لم يكن ندا للجندى. فى لحظة إلتحم الرجلان، وفى أخرى سقط العربى مضرجا بدمائه وقد دفن الخنجر حتى نصله فى قلبه.

أطبقت يد الشاب على فم الفتاة توقف الصرخة الملتاعة التى أطلقتها. لكنه لم يحد بنظره عن الجندى البرتغالى، قاتل المسلم، الذى ظل واقفا مكانه ينظر إلى الجثة المسجاه عند قدميه.

كان وجه الجندى إلى ناحيته فرآه وعرفه . وخيل إليه أن الجندى أيضا رفع رأسه ، وأن عينيه دارتا بينه وبين المرأة ثم عادتا ثانية تنظران إلى الجثة .

ومن فم الشاب خرجت كلمات ملؤها الكراهية والغضب . كلمات بالعربية سمعتها المرأة بالرغم من أنها صدرت همسا ، بصوت لا يكاد أن يسمع .

— جيرونيمو أيها المرتد ، ياقاتل السفين ، أقسم أنك لن تفلت من يدى .

* * *

الفصل الثامن

الهـــاربان

شعرت المرأة بقبضة يد الشاب وهي تضغط بلا وعي على فمها حتى انها خافت أن تمسكها بعنف. حركت رأسها في محاولة للافلات من القبضة، وأصدرت أصواتاً مكتومة تنبهه إلى تألمها.

تراخت عضلات اليد كأنما أفاق صاحبها من حلم، وإنتقلت إلى ذراعها تجرها بعيداً عن مكان الحادث. لم تصدر منه أية كلمة. هو يسير بخطى واسعة سريعة حتى أنها كانت تجري وراءه. أحست بالانفعالات تضطرم في جانبيه، فألهاها هذا مؤقتاً عن الفاجعة التي شهدتها منذ لحظات.

إتجه بها عوداً إلى حيث كانت تستريح مستظلة، وتجاوز المكان، وبعد منزلين آخرين دلف بها من باب بيت قديم يكاد أن يتهاوى. صعد أمامها الدرج الضيق الثاني، ومنه إلى السطح، ثم أخرج مفتاحاً كبيراً أولجه في القفل، وفتح الباب.

وجدت فاطمة نفسها في حجرة ضيقة رثة الأثاث. لا يزيد ما فيها على فراش صغير، ومنضدة وموقد وبراد شاي، ووعاء ماء وبعض الأكواب، وحولها ثلاثة مقاعد خشبية، ومنضدة أخرى مستندة إلى الحائط وضعت عليها مرآة مهشمة وبضعة أشياء متناثرة.

أشار إليها أحمد أن تجلس على أحد المقاعد ففعلت، وهنا فقدت البقية القليلة من تمالكها لأعصابها فانهارت. راحت تنشج وتبكي بصوت خفيض بينما اهتز جسدها برمته من أثر الإنفعال.

تركها أحمد تبكي دون أن تحاول التسرية عنها. انشغل ببعض الأخشاب

في الموقد ومضى يعد الشاى بحركات آليه . حتى حينما فرغ منه وصبه فى كوبين ،
لم يقترب منها ، وتركها فى بكائها عسى أن يستنفذ البكاء بعض الانفعالات .
وحينما لاحظ أنها هدأت بعض الشيء . . خاطبها قائلا :

ـــ اليك كوب الشاى ، حاولى أن تشربى ، اسمعى لابد انك متعبة لكننى
اخشى أن يكون الملعون قد رآنا وفى هذا خطر عليك ويجب أن أذهب
لاعد لتهريبك من البلد .

من خلال الدموع والتشنج تساءلت .

ـــ من ؟ . . من هو قاتل زوجى . . ؟ هل تعرفه ؟

ـــ أجل . . إنه جيرونيمو تشنجوليا ، أو على الأقل هذا مايتسمى به الآن
بعد أن تنكر لدينه وآبائه ، وأضحى قابا وقالبا ملكا للبرتغاليين .

ـــ لماذا ؟ . . لماذا قتله . . ؟

ـــ لأنه يريد يظهر لسادته أنه خادم مخلص . لكن دعينا منه الآن ، إن وقته
سوف يحين . . وانى أخشى أن يكون قد رآنا وسوف يهرع لابلاغ سادته ،
ولن تمضى وقت طويل حتى يحضروا للقبض علينا . انى مضطر إلى الذهاب
إلى بعض الأصدقاء لأوفر سبيل فرارك . إننا جماعة هنا من المسلمين نعمل على قتل
البرتغاليين ، وتهريب من يقع فى قبضتهم من اخواننا . لن أغيب طويلا ، فانتهزى
الفرصة ، واستريحى فانك سوف تحتاجين لكل قواك فى الأيام التالية . إنى آسف
إذ ليس لدى طعام يليق بك ، لكنك سوف تجدين على المائدة خبزا وجبنا فكلى
ما استطعت واستريحى ، وسأعود سريعا .

كانت الكلمات تتدفق من فمه دون أن يعتنى بالنظر إليها ، أو إقناعها ،
وما أن إنتهى حتى إستدار واتجه إلى باب الحجرة ، وتركها بمفردها . ترددت
قليلا ثم مدت يدها فتناولت كوب الشاى ترتشف منه . لم تجد فى نفسها فى مبدأ
الأمر ميلا للطعام ، لكنها حينما تذكرت أقوال أحمد ارغمت نفسها على تناول
الخبز والجبن ودهشت إذ وجدت أنها تأكل بشهية لم تتوقعها .

* * *

بالرغم من أن أحمد قال إنه سوف يعود سريعا إلا أنه في الواقع لم يعد إلا بعد مضى أكثر من ثلاث ساعات ، وحينما دخل بهدوء من الباب وجـــد أن فاطمة قد تمددت على الفراش وهى مستغرقة في نوم عميق .

لم يشأ أن يوقظها . كان يعلم أن أمامها الكثير من المشاق ، والمتاعب إذا قدر لها النجاة . بحذر إتخذ مجلسه على أحد المقاعد الخشبية واغلق عينيه ، واستغرق في التفكير . كان امامهما ساعات طويلة حتى يستطيعا الحركة بشيء من الأمان ، وحتى يحين هذا الوقت لم يكن في استطاعتهما سوى الانتظار .

ذهبت به الأفكار إلى يوسف بن حسن ، ذلك السلطان الذى انحدر إلى الخدمة في الجيش بل قبل ان يكون مجرد « مراسلة » او تابعا لضابط . ذلك الذى تنكر لأهله ، وناسه ، وارتد عن دينه ، يشرب الخمر ، ويأكل لحم الخنزير . حتى اسمه تنكر له وغيره . يوسف بن حسن الذى أضحى جيرونيمو تشنجوليا ، واستبدل اللباس العربى بزى برتغالى ، ووصل به الأمر إلى قتل اخوانه السابقين في الدين .

لم يشعر بأصابعه وهى تضغط بشدة على راحته ، ولا بأسنانه وهى تصطك انفعالا حينما عاد إلى مخيلتـــه المنظر . ألفى نفسه يعاود القسم أن يقتل ذلك المرتد الخائن .

لعل الإنفعال نال منه ، أو لعله التعب الذى لقيه منذ ظهر اليوم ، على أى حال لم تمض دقائق حتى كان رأسه قد نكس على صدره وراح في سبات عميق .

هب من نومه فجأة على صوت طرقات متعجلة . رأى ان فاطمة قد إستيقظت بدورها منزعجة ، فقفز من مقعده بسرعة ، وقد امسكت يده بخنجر في منطقته . لم يفتح الباب قبل ان يسأل ، بلغة لم تفهمها المرأة ، عن الطارق . واجابه صوت هامس من الخارج . لم تسمع الإجابة لكن يبدو ان احمد قد اطمأن إلى ان الطارق صديق ، إذ تراخت يده وفتح الباب .

دلف الرجل إلى الداخل . لم تتبين فاطمة ملامحه إذ كان الظلام قد حل

ولم يكن الضوء البعيد الذى يدخل من النافذة كافيا ، لكنها علمت أنه قصير القامة نحيف البدن . كان يتكلم بسرعة بتلك اللغة التى لم تفهمها ، وإن أيقنت انه أتى بأخبار غير سارة إذ لم يحاول أحمد أن يوقد المصباح . أخذ ينصت إليه باهتمام ، ثم التفت إليها وقال :

— انى آسف يجب أن نرحل الآن .. انى حدثتك عن جماعة من إخواننا الذين يحاربون البرتغاليين فى جوا وأقدم إليك أحدهم الأخ زهير . لقد أتى بأخبار غير سارة إذ يبدو أن هنالك من وشى بك وهو يقول ان الجنود سوف يأتون للقبض علينا ، وأن خطة الفرار التى وضعناها مع الجماعة بالتالى قد عدلت وعلينـــا أن نرحل الآن . أرجوك أن تصلحى شأنك فى الدقائق القليلة القادمة .

كان يتكلم بهدوء ، لكن كلماته خرجت سريعة توحى بمدى الخطر الذى يتهددها . قفزت من الفراش والتقطت العباءة الملقاة عليه تلفها حول جسدها . فى ثوان كانت مستعدة للخروج .

تقدم زهير وفتح الباب ، وتبعه الإثنان إلى الدرج ثم الباب الخارجى للمنزل . لم يخرجوا إلى الطريق قبل أن يطل زهير برأسه ويمسح اتجاهى الطريق بناظريه ليتأكد من خلوه من الأعداء .

بدا الطريق مظلما كئيبا . لم يكن القمر قد ظهر فى السماء ، وكانت الأضواء التى تصلهم من بعض النوافذ المفتوحة باهتة بحيث لا تضىء كثيرا ، ومع هذا فإن المرأة رأت بعض الجماعات كانت تقف عند مداخل المنازل يتناقش أفرادها بأصوات عالية ، ولابد انهم مايزالون يروون تجاربهم عن الانفجار .

قادهما الرجل عبر طرقات كثيرة ملتوية ، حتى انها فقدت كل إحساس بالاتجاه . على الرغم من قصر قامته كان يسير بخطى سريعة دون مراعاة لأى اعتبار . تعثرت اكثر من مرة ، ولولا ان امسكتها يد احمد القوية لسقطت على الارض ، ومع هذا فلم يتمهل القائد :

ظل الثلاثة سائرين فى الطرقات والأزقة لأكثر من ربع ساعة لا يلوون على شىء . وفجأة توقف أحمد . كانوا على وشك دخول أحد الأزقة المظلمة ، ... قائدهما دخلها فعلا ، ثم عاد أدراجه حين لاحظ أنه يسير وحده وأن الإثنين قد تخلفا عن متابعته .

سألهما هامسا دهشا .

— لماذا توقفتما ؟

لم يرد عليه أحمد وأجابه بسؤال آخر .

— إلى أين أنت ذاهب بنا ؟

— إلى منزلى حتى يهدأ البحث عن المرأة ؟

— ولماذا لانخرج الآن من المدينة ؟ أليس ذلك أكثر أمنا ؟

— لا .. لا .. إن العيون تترصد المرأة ، وربما تترصدك أنت أيضا .. لا يمكننا الفرار الآن . دع الأمر لبضعة أيام ثم سوف نتدبر .

— إننى لم أر أحدا يتبعنا . وأرى أن نحاول الآن .

— لا . تعاليا . لاتقفا هكذا فى الطريق .

وقف أحمد مترددا لثوان معدودات ثم هز كتفيه إستسلاما . ربما كان من الأصلح أن ينتظرا حتى يمكنهما إعادة ترتيب هروبهما . مد يده إلى فاطمة مشيرا إليها أن تصحبه ، وابتدأ زهير يستدير ليقودهما ثانية إلى الزقاق .

هنا دوى صوت الطلقة النارية . أطلق زهير صرخة مروعة ، ووضع يديه على صدره فى محاولة يائسة لايقاف الدماء المنبثقة . بحركة غريزية إلتفت أحمد إلى مصدر الصوت ، وبالرغم من أن الظلام كان سائدا إلا انه رأى شبحا يتراجع ليلتصق بالحائط ويختفى فى ظله .

مع هذا وبالرغم من كل شىء فإنه تبين القاتل .. كان المرتد .

اعاد نظره بسرعة إلى صاحبه المراد يترنح ثم يستقيم قليلا ثم يسقط على الأرض . ... كان هذا الملك ... شك لديه فى انه قد لفظ الحياة . كتمت المرأة صرخة بدأت

تخرج منها . رفعت كلتا يديهـــا إلى فمها تضغط عليـــه فى حين إتسعت حدقتا عينيها رعبا وهلعـــا . ومن اعماق الظلمة فى الزقاق تعالت اصوات مختلطة تتساءل .

حدث هذا فى ثوان . وبدات نوافذ المنازل تفتح ، وتظهر منها الاضواء . لم يتوقف احمد . امسك بيد المراة المرتعبة ، وارغمها على العدو معه فى الاتجاه الآخر من الطريق . تحركت وراءه كأنما هى آله لاروح فيها ولا حياة ، حتى انه اضطر بعد لحظات ان يرفعها من الأرض ويلقيها على كتفيه .

تعالت وراءه الأصوات مختلطة ببعضها . وبالرغم من الإجهاد الذى كان فيه ، وبالرغم من حمل المرأة على كتفيه ، وبشاعة الأحداث التى مر بها فإن عقله سجل فيما يشبه الآلية ان بعض ماوصل إلى اذنيه كان باللغة البرتغالية .

إستمر يعدو فى الطريق حتى صادف اول منعطف عرج فيه . ثم رأى زقاقا لم يتردد فى دخوله ، والاحتماء بالظلمة التى تسوده . سمع اصوات مطارديه تأتى من مسافة لاتزيد على ثلاثين مترا ، وربما كانوا عند المنعطف الأول . لم تكن مضت دقائق منذ المطاردة ومع هذا فقد احس بأن جسد المراة اضحى ثقيلا يكاد ان يثبته فى الأرض .

حطها عن كتفه ورجاها لاهثا ان تحاول الجرى مقررا ان قواه بدأت تخور ، هزت المرأة رأسها إيجابا ، وراحت تعدو إلى جواره . لكن الثوانى التى مضت كانت قد اختصرت المسافة بينهما وبين مطارديهما بما لايقل عن عشرة امتار فاضحت لاتزيد على عشرين مترا ، وتصايحت الاصوات وراءه تهتف إذ رأوهما يعدوان فى الزقاق .

دفعهما الخوف إلى ان يضاعفا سرعتهما . خيل للرجل ان الأصوات قد خفت عن ذى قبل ، وانهما بدءا يستعيدان المسافة التى فقداها ، لكن قلبه سقط بين ضلوعه إذ شاهد جماعة اخرى مقبلة من الناحية المضادة تسد عليها الطريق تماما .

[illegible] صيحات الا[illegible] تتعالى ، ويبدو ان مطارديهما رأوا بدورهم الجماعة

القادمة فراحوا ينادونهم لايقاف الهاربين . قبض أحمد على خنجره وشهره فى يده مهددا ، واندفع إلى الأمام درن توقف أو تمهل .

كان الزقاق الذى هم فيه لايزيد اتساعه على مترين ، ولم يتصور أحمد فى الواقع أنهما سوف تتاح لهما النجاة . ولهذا قرر ان يبيع حياتهما غالية ، وأن يأخذ معهما بعض أعدائهما ، ثم يقتل المرأة ونفسه .

لكن شيئاً ، بدا غريباً لأول وهلة ، حدث . كانت الجماعة التى أمامه تتكون من حوالى ستة أشخاص أو سبعة يسيرون فى صفين وقد سدوا الزقاق وحينما ، اقترب الهاربان منهم تبينا أنهم من الهنود .

في لحظة كان الزقاق مسدودا، وفي التالية إنفرج أمامهما إذ التصق الهنود بجدران المنازل مظهرين فزعهم من الخنجر المشهر . لم يحاول أحدهم أن يمد يده إلى الهاربين مع أنهما إحتكا بهم فملاحق اضطر أحمد إلى التأخر قليلا عن المرأه ليتيسر لكليهما الحركة . وحينما أضحى الإثنان فى وسط الجماعة تماماً سمع صوت أحدهم يقول :

— اسرعا سنحاول تأخير البرتغاليين .

كان القادمون قد سمعوا صياح المطاردين ، وعرفوا أن من بينهم بعض البرتغال فعزموا على انقاذ الهاربين ، فاى عدو للبرتغال صديق لهم . أفسحوا الطريق أمام الهاربين مظهرين خوفهم من الخنجر المشهر ، ثم أغلقوه ثانية فى وجه المطاردين بغباء ، ووقفوا يتساءلون غير معيرين الأصوات الحانقة التى كانت تصيح فيهم إلتفاتا .

إستمر الهاربان في الجرى دون تمهل وقد إمتلأ قلبيهما شكرا وغبطة . اعطاهما الأمل المتجدد قوة دفعت الحيوية فى السيقان المتعبة ، والجسدين المنهكين . ومضت دقائق اخرى انقطعت بعدها اصوات المطاردين .

توقفا عن العدو ، ولم يتوقفا عن السير . تعمد احمد ان يبطىء من خطوته حتى يعطى المرأة إلى جواره فرصة لأن تسترد انفاسها وقوتها . مر بهما اشخاص عديدون لم يعيروهما التفاتا إذ ان الوقت كان مازال مبكرا نسبيا .

حار اى اتجاه يأخذ . فكر ان يذهب إلى صدقائه يطلب منهم المعونة ، ثم استبعد هذا الرأى . إذا كان المرتد قد علم بايوائه للمرأة فلا يستبعد ابدا ان يكون قد عرف بالخطة جميعها .. لكن كيف ؟ هل هنالك خائن بين جماعتهم ؟ ومن هو ؟

قفزت إلى عقله أصوات البرتغاليين التى سمعها تخرج من الزقاق ، حيث منزل زهير .. وتعجب . هل أعد المرتد لهما كمينا فى منزل زهير ؟ لكن كيف عرف أنهما سوف يذهبان إلى هناك ؟ لم يكن هو نفسه يعلم ، ولا علم أحد من أصدقائه الآخرين بأن خطة فرارهما قد تعدلت ، فكيف وصل هذا إلى علم المرتد حتى أنه نصب الكمين الذى كادا أن يقعا فيه ؟

دارت الأسئلة نفسها فى تفكيره مرات عديدة دون أن يجيب عليها . كان يعلم الإجابة الوحيدة الممكنة ، لكنه أبى أن يصدقها . إن زهيرا خانهما ، وهو الذى أخبر المرتد بمكانهما ، واتفق معه على إعداد الكمين .

أحس برأسه يكاد أن ينفجر ، وراح يهزها نفيا وهو سائر ينكر النتيجة التى وصل إليها ، محاولا أن يجد تعليلا آخر دون جدوى . طرأت على باله أسئلة أخرى . إذا كان زهير خائنا وعلى اتفاق مع المرتد فلماذا أطلق الأخير النار عليه ؟ هل كان يريد قتل الهاربين وأخطأ التصويب فاردى شريكه فى الخيانة ؟ لكن لماذا يريد التعجيل بقتلهما ؟ ما كان عليه سوى الانتظار قليلا حتى يطبق عليهما الكمين ويستريح من عناء التخلص منهما .

ربما أراد المرتد انقاذهما فعلا وقتل الخائن ..! واستبعد أحمد الخاطر فما كان يمكن أن يفعله .. لا ، إن التصور الصحيح أن زهيرا خائن ، وأنه لم يكن على اتفاق مع الخائن الآخر لهذا لم يعلم بخطته ، وأراد قتل المسلمين الثلاثة قبل أن يتمكنوا من الاحتماء بحلكة الليل فى الزقاق .

لعله أراد قتل أحمد ، فأصاب زهيرا . واستراح إلى هذا الرأى ، فانفرجت أساريره ، وصدرت منه ضحكة خافتة حينما تصور أن خائنا قتل آخر ، وأن أسياده البرتغاليين سوف يحاسبونه حسابا عسيرا .

شعر بمحنة لم يشعر بمثلها من قبل وسمعت المرأة ضحكته الخافتة ، وأحست نشوزه وبضغطة خفيفة من يده على ذراعها يحثها على التجلد ، والتقدم . وحينما نظرت إليه مستفهمه بادلها النظر باسما مشجعا .

سار فى الطرقات أولا على غير مقصد معين ، وان كانت الميناء هى هدفه بوجه عام . اراد ان يبتعد عن النهر إذ تصور ان مؤامرة تمت بين زهير وجيرونيمو فقطع بأن الأخير يعلم بأن اصدقاءه ينتظرونهما عنده ، وخشى إن ذهب بالمرأة ان يقبض البرتغاليون عليهم جميعا .

تلفت وراءه ، ولم يجد ان أحدا يتبعه فاطمأن قلبه . إستقر على الذهاب إلى الميناء عساه ان يجد زورقا يقلهما إلى ميناء آخر ، بعيدا عن المستعمرات البرتغالية وإذا رافقهما الحظ الحسن فربما وجدا سفينة تبحر إلى شواطىء الفرس او عدن .

شجعه الأمل الذى راوده فاسرع فى خطاه فى إتجاه الميناء . تبعته فاطمة وقد ارهقها السير ، واجهدتها احداث اليوم . حمدت الله على انها تناولت اللقيمات التى وجدتها فى حجرة احمد ، وانها نامت ساعات ، ولولا هذا لما كان فى استطاعتها الآن ان تستمر . سمعت صوته إلى جوارها يشجعها ، ويبعث موات الأمل .

— تجلدى .. لقد اصبحنا قاب قوسين من الميناء . وهناك سوف نستطيع ان نجد ما ينقلنا إلى الأمان ..

هزت رأسها موافقة وهى تحاول الإبتسام ، والتفت اليها احمد .

— على فكرة .. ما اسمك ؟ .. واين موطنك ؟

ضرجت حمرة الخجل ، وجنتيها وهى تهمس

— فاطمة ابنة عامر .. تاجر من ممباسة .

— اهلا بك .. اعتقد انى سمعت عن والدك .. انه رجل طيب كريم .

— شكرا .

وصلا عند منعطف فى الطريق ، والتفت احمد وراءه . كان القمر قد بدأ فى الظهور ، وتساقطت اشعته فضية على اجزاء كثيرة من الطريق مكنته من التحقق

ان احدا لا يتبعهما . ازداد اطمئنانا فان هى الا دقائق ويصلان الى الميناء . انعطفا مع الطريق ، وفى اللحظة التالية تسمر فى مكانه ، واطبقت قبضته بشدة على ذراع المرأة .

فى منتصف الطريق تماما ، وعلى بعد لا يزيد عن عشرة امتار ، وقف جندى وتعالى . لم يحاول الجندى ان يخفى نفسه . على العكس وقف فى مكانه حيث سقطت أشعة القمر أقوى ما تكون . وقف فارجا ما بين ساقيه ، وواضعا يده على شئ فى منطقته لم يشك أحمد لحظة فى أنه غدارة .

كانت وقفته وقحة كأنما يتحداهما أن يتقدما . ندت من المرأة صيحة مكتومة . لقد تعرفت على الجندى هى الأخرى .. ذلك المرتد الخائن الذى قتل زوجها .

سحبها أحمد إلى وراء المنعطف ، وأطلقا سيقانهما للريح . ظلا يعدوان دقائق دون عائق . كان المارة قد خفوا فى الطرقات ، حتى القلائل الذين رأوهما لم يحالوا التعرض لهما . إذا كانت هنالك اضطرابات فمن المستحسن أن يبتعد عنها كل مواطن يبغى الا يقع تحت طائلة العقاب ، وسطوة محاكم التفتيش .

إتخذ أحمد أول منعطف قابله ، وأخذ يجرى مع المرأة فى طرق متعرجة ملتوية آملا أن يضلل مطاردهما .. أخيرا إضطرا إلى التوقف ليلتقطا أنفاسهما الضائعـــة .

تسمعت آذنهما لخطوات وقع أقدام خلفهما ، فالتفتا منزعجين لكن القادم كان واحدا من الأهالى مر بعد أن ألقى عليهما نظرة تعجب . اجهد احمد ناظريه محاولا ان يرى إن كان ثمة عدو يقبع فى الظلام ، ولم ير شيئا . تتالت الدقائق ثقيلة بطيئة وهما يقفان فى ظلال احد الجدران .. ولم يسمعا او يريا ما يريب .

انتهز احمد الفرصة ، ومضى يفكر فى موقفهما . إن جيرونيمو المرتد قد سد عليهما الطريق إلى الميناء ، وهو لا شك قد اخطر اصدقاءه من البرتغاليين ليكونوا فى انتظارهما .. اذا فكرا فى العودة . ولم يكن هنالك مجال كذلك امامهما للعودة الى منزل احمد ، او زهير . فماذا بقى ؟

لم تكن هنالك مندوحة من ان يتحركا فهما لا يستطيعان البقاء فى مكانهما أكثر من هذا .. لكن إلى اين ؟ بعزم استقر رأى الرجل .. إن أصدقاءه ينتظرونهما عند النهر . وقد اضحوا الملجأ الوحيد الباقى بعد ان سدت أمامهما جميع السبل الأخرى .. لاشك ان ثمة مخاطرة كبيرة ، لكن ربما كان البرتغاليون فى ثقة من امر القبض عليهما عند زهير حتى انهم اغفلوا وضع حرس عند النهر .

استحسن الرأى فأخذ بيد المرأة المنهكة . سار بها ببطء نحو ما ظنه الملجأ الوحيد المتبقى لهما . لم يكن النهر بعيدا ، ولا كان مكان اللقاء المتفق عليه . قال بضعة كلمات يشجع بها المرأة ويطمئنها إلى قرب النجاة . بشجاعة نادرة تبسمت رغم ما تشعر به . تركا المدينة وراءهما وسارا فى الحقول .... إلتفت أحمد وراءهما أكثر من مرة ليتأكد من أن أحدا لم يتبعهما . خيل إليه ذات مرة أنه رأى شبحا يتوارى وراء شجرة ، لكنه لم يكن متأكدا ، وحينما إلتفت ثانية لم يكن هناك أحد .

وصلوا إلى المكان المتفق عليه عند طرف الغابة دون حادث . اطلق صفيرا له نغم خاص ظهر على أثره جماعة من وراء الأشجار . تساءل أحدهم عن سبب تأخرهما . وبكلمات سريعة أخبرهم احمد عما حدث . وبعد دقائق كان الرجل والمرأة يجلسان فى قارب مع شابين آخرين متجهين الى داخل الهند . وعلى بعد ، دون ان يراه او يشعر به احد ، وقف جندى برتغالى يرقب الجميع .

* * *

بعد ساعة من هذه الحوادث تمدد شخص على فراشه ، ومع ما كان يشعر به من ارهاق فانه لم ينم ، وظلت شفتاه تتمتمان مدة قبل ان يغلق عينيه .

الفصل التاسع

بينكم خائن

كانت حجرة الإجتماعات فى قصر نائب الملك غاصة برجال الجيش والبحرية .
علت أصوات الحاضرين واحتدت مناقشات جانبية بين شتى الأطراف ، كل يبدى رأيه فى حوادث اليوم وما يمكن أن يسفر عنه من نتائج . لم يكن صاحب القصر قد حضر بعد ، لهذا لم يعتن الموجودون بأن يجلسوا فى نظام أو يناقشوا بهدوء .
لكن حينما فتح باب الحجرة الواسعة ودخل نائب الملك ، وقف كل فرد فى مكانه مؤديا التحية العسكرية ، وعم السكون الجميع .

دخل نائب الملك ، كونت دى لينارس ، رجل فى منتصف الحلقة الخامسة من عمره ، مكتنز الجسم والوجه ، ضيق العينين يميل إلى القصر لكنه خفيف الحركة سريع الخطى . اشاح بيده يحيى الموجودين بلا إعتناء ، واتخذ مجلسه على رأس المائدة الطويلة ثم أشار إليهم بالجلوس ، وابتدرهم :

— هل وصلتم إلى شىء عن أحداث اليوم ياسادة ؟

عم الصمت الجميع ، وراحوا يتطلعون إلى بعضهم عسى أن يتكلم أحدهم .
انتظر الكونت قليلا ، وحينما لم يتكلم أحد ارتفع صوته حادا غاضبا :

— ما هذا ؟ ألم يقبض على أحد ؟ ألم تعرفوا من هم الذين تسببوا فى الإنفجار فى المخازن ؟ ألم تعلموا من هم الذين أفرجوا عن المساجين ؟ هل أنا محاط بشرذمة من الأغبياء والمهملين ؟ أم بخونة لبلادهم !؟

سرت تمتمة إحتجاج بين القواد ، وقام أحدهم من مجلسه غاضبا ووجه كلامه بتحد ظاهر :

— نحن لسنا خونة ، ولسنا مقصرين فى أداء واجبنا أو أغبياء ، وإذا رأيتم سموكم أن الأمر غير ذلك فإنى مستعد أن أقدم استقالتى .

لم يتراجع السكونت عن موقفه إزاء هذا التحدى ، كما لم يعر الكلام أية أهمية . قال بصوته الحاد .

— إن معنى ماحدث أن هنالك خونة بيننا ، أو مهملون ، وهؤلاء يساعدون العرب ، وبالتالى فإنها ليست مسألة إستقالة التى أتطلبها من أيكم ، وإنما هى مسألة فى رأيى من اختصاص محاكم التفتيش .

كفت أصوات الاحتجاج دفعة واحدة ، جلس القائد الذى كان يتحدى رئيسه وكأنما هو فى حلم ، كان مجرد ذكر محاكم التفيش كافيا لأن ينخلع له أكثر قلوب الرجال شجاعة . أصناف من التعذيب ابتدعوها وتفننـــوا فيها تجعلك تعترف بما يريدون سواء فعلتها أو لم تفعلها . وتعترف أيضا على شركاء لك فى الجريمة المزعومة ، سواء إشتركوا أو لم يشتركوا .

انتقلت عينا نائب الملك الضيقتان فى الموجودين ، واحدا إثر الآخر . إبتلع بعضهم ريقه بصعوبة ، وتصبب العرق على جباه آخرين،فساد الحجرة صمت رهيب حبس فيه الموجودون أنفاسهم رعبا وهلعا . كان يعلم مدى تأثير الصمت فى قلوبهم فتركهم هنيهات قبل أن يتـكلم .

— إننى أريد أن يقبض على المجرمين خلال أربع وعشرين ساعة ،ولن اقبل اعذارا .

صدرت تنهيدات لا إرادية من البعض . إذا كان هذا ما يريده نائب الملك فهو يسير . سوف يقبضون على بعض الأعراب أ الهنود إذا لزم الأمر . لايهم إذا كانوا هم المجرمـــون أم لا . وسوف يعترف المقبوض عليهم بالجريمة ، فمحاكم التفتيش ليست هى الوحيدة التى تتفنن فى التعذيب . كان الجميع يعلمون أن هذا ما سوف يحدث ، بل إن نائب الملك نفسه كان يعلم ذلك ، وما كان يعنيه أن يعذب برىء أو يعدم ، المهم أنه سوف يعطى درسا للهنود والأعراب لن ينسوه لسنوات ولن يجرؤ أحد بعد ذلك على مقاومة سلطات الاحتلال . ألم يفعل البوكيرك ذلك

فى عمان فقطع الأنوف والآذان ، لم يرحم طفلا أو إمرأة أو شيخا ؟ وساد الهدوء فى عمان بعد ذلك مائة سنة أو تزيد .

ساد الصمت مرة أخرى . كان يعلم مايدور فى خلد القادة والضباط المجتمعين .

— والآن أريد تقريرا عن الخسائر .

وقف الكابتن داندرادى وبدأ يتكلم بلغة الأرقام عن تقديره للخسائر فى الأسلحة والذخائر . واستمع إليه الموجودون فى وجوم وقد هالتهم فداحة الأرقام. وبعد أن انتهى أشار إليه الكونت بالجلوس ثم التفت إلى القادة .

— مارأيكم ياسادة ؟

تردد القائد الأعلى للجيش قليلا قبل أن يستجمع شجاعته .

— إن معناه أننا لن نستطيع مهاجمة الشاة فى هرمز واستعادتها ، على الأقل هذه السنة ، حتى ترد لنا ذخائر جديدة ولن نستطيع كبح أطماع السلطان مرشد فى عمان .

— وماذا عن مستعمراتنا فى الصين وجنوب الجزيرة العربية ، وشرق أفريقيا ؟

— إن بكل حصن مايكفيه من ذخائر وجنود حتى ترد الإمدادات .

— وماذا عن الأسطول الهولندى ؟

كانت هولاندا قد انتصرت على الأسبانيين سنة ١٥٨٨ وفازت باستقلالها ، ومن ثم بدأت تكون أسطولها التجارى ، والحربى الخاص . طورت السفن الحربية حتى بنت نوعا منها أطلقت عليه سانت لويس وهى سفن ضخمة تحمل الواحدة ستين مدفعا موزعة على طابقين فى كل جانب بكل طابق خمسة عشر مدفعا . وامتاز هذا النوع من السفن بأن له ستة شراعات ، واستغنى فيها عن جميع الزخارف التى كانت تتميز بها السفن فى ذلك العصر فجاءت خفيفة الحركة سهلة المناورة . وحينما فرغت هولندا من بناء أسطولها بدأت تتجه إلى مناوشة مستعمريها القدماء ، الأسبان ، ومعهم البرتغاليين ، فى البحار . أنشأت سنة ١٦٠٢ شركة الهند الشرقية الهولندية ، وأرسلت أسطولها لحماية تجارتها . منذ ذلك التاريخ

بدأ الاحتكاك، واستمرت المناوشات بين الأسطولين الهولندى والبرتغالى فى مياه المحيط الهندى .

للمرة الثانية وقف روى داندرادى وتطلع إلى بعض أوراقه وهو يقول :

— إذا أذن لى سيدى بالكلام . . أن من حسن الحظ أننا لم نقم بتفريغ الشحنة الأخيرة من الأسلحة والذخائر من السفن. والواقع أننا نستطيع أن نسحب منها لنعوض النقص الذى نعانيه الآن على الشاطئ . وعندى هنا أرقام الجرد الأخير الذى أجريته على الموجود فى السفن .

وبدأ يذكر أرقاما للموجودين ، وحينما فرغ قال الكونت :

— هل يمكن ترجمة هذه الأرقام ؟

هنا تولى قائد الجيش الاجابة .

— إننا بهذا يمكننا أن نقاوم الهولنديين إذا احتكوا بنا على شرط أن نبتعد عن مناوشتهم .

— أى أننا نستطيع أن نقاوم دون أن نهاجم ..!

وتمم القائد :

— أجل ياسيدى الكونت .

— ملخص كل هذا أننا يجب فى هذه السنة أن نقنع بالدفاع عن أنفسنا دون الهجوم .. ونعتبر أنفسنا سعداء الحظ إذا مضى العام وبقينا على ما نحن فيه دون أن نخسر المزيد .

— أجل ياسيدى الكونت .

— ألا نستطيع أن نطلب المزيد من الأسلحة والذخائر من الوطن ؟

— كلا ياسيدى فإنهم أرسلوا لنا كل ما يستطيعون الاستغناء عنه . وعلى أى حال فسوف تمضى أكثر من سنة على الأقل قبل أن تصلنا أية إمدادات .

— ألا نستطيع إذاً أن نسحب بعضا مما هو موجود فى الحصون ؟

— كلا .. وإلا عرضناها للسقوط فى أيدى الأعداء عند أول هجوم

وقف نائب الملك فجأة فوقف الموجودون . نظر إليهم متفرسا ثم قال وهو يسير نحو الباب .

— لامناص إذاً من الالتجاء إلى الدفاع فقط والابتهال إلى الرب ألا تزيد الأمور سوءا .

* * *

مضت أيام . وقبض البرتغاليون على عشرين شخصا أو يزيد وعذبوهم ، فاعترفوا بجرائمهم . اعترفوا بأنهم هم الذين أفرجوا عن المساجين ، واعترفوا بأنهم الذين دبروا ، ونفذوا انفجار مخازن الذخيرة والبارود . وأمام هذه الاعترافات الصريحة تم إعدامهم ، واستراح الكونت دى لينارس نائب الملك . أن هذا الدرس سوف يحفظ هيبة السلطان الحاكم ولن يجرؤ أحد على مقاومة الاحتلال لسنين قادمة .

لـكن الشعب لم يهدأ .

* * *

غصت الحانة بالرواد . عمها الصخب ، وتعالت أصوات السكارى تطغى على الآلتين الموسيقيتين الوحيدتين اللتين تـكونان كل الجوقة . راحت الراقصة الهندية تتلوى بجسدها شبه العارى تحاول عبثا أن تتابع بحركاتها صوت المزمار الذى لم يكن يصل إليها . كان كل الموجودين من المدنيين ، والضباط ، من البرتغاليين إذ لم يكن يسمح لغيرهم بارتياد الحانة . أما السقاة ، والخدم والراقصات فمن الهنود .

كانت الحانة لا تزيد سعتها على خمسين شخصا ، ومع هذا ، فإن من فيها زادوا على ثلاثة أضعاف هذا العدد ، ولذا لم يسهل على السقاة وفتيات الهوى الحركة . فى ركن قصى منها جلس شابان صغيران يحتسيان الخمر من أقداح فخارية أمامهما ، ويتبادلان أحاديث ودية ، أحدهما كان دون ديوجو دى ليما ، أما الثانى فهو جيرونيمو تشنجوليا .. تـكلم دون ديوجو .

— أقول لك ياجيرونيمو أننا بما لدينا من ذخائر نستطيع أن نهزم العرب ونسترد هرمز .

— وهل نستطيع أن نهزم الهولنديين ، والإنجليز كذلك ؟

— ربما لا ، لكننا يمكننا على الأقل أن نحد من خطورتهم .

وسأله زميله بهدوء :

— كيف ؟ وبماذا ؟

— بما هو مخزون في الحصون المتناثرة .

— ونترك الحصون بلا حماية ! ان الأسطول لايستطيع أن يبقى في البحر إلى أجل غير مسمى ، ولابد له من مرفأ للاحتماء من العواصف ، وللتموين والقافلة ، وراحة البحارة والجنود .. لاياصديقي أنهم لن يجسروا على سحب أي مخزون من الأسلحة أو البارود من الحصون .

في هذه اللحظة اقترب شابان لم يجاوز أكبرهما منتصف الحلقة الثالثة . يرتدى أحدهما زى ضابط فى الجيش البرتغالى ، ويرتدى الآخر الملابس المدنية . كان من الواضح أنهما قد احتسيا قدرا كبيرا من الخمر . ضرب الضابط دون ديوجو على كتفه وصاح بصوت مسموع :

— آه .. ها أنت ياذى لما أين كنت مختفيا ؟ .. كنت أظن أن هذه الحانة مقصور دخولها على البرتغاليين الأشراف .

قال هذا ونظر بازدراء إلى جيرونيمو . هب دون ديوجو واقفا ، ونفض عن كتفه اليد التى كانت مازالت موضوعة عليها وواجه القادم غاضبا .

— ان جيرونيمو رجل شريف ، وقد منح الجنسية البرتغالية شأنه كأى مواطن ولد فى البرتغال .. وعلى أى الأحوال فإنى لا أسمح لك أن تخاطبه بهذه اللهجة .

ظل جيرونيمو جالسا مكانه دون حركة ، فيما عدا أنه رفع رأسه قليلا ليتحقق من القادمين . عرف فى أحدهما الضابط البرتغالى بدرافاريز دى كاستلبرانكو . كان يتدرب معهما منذ أكثر من سنة ، لكنه كان يسبقهما نظرا لفارق السن . كان ضخم الجثة ، شرس الطباع ، ولم يكن يدع فرصة تفوته دون النيل ممن هم أصغر منه سنا ، أو أقل خبرة . كان يبدو أنه يرى لذة خاصة فى تعذيب الذين لم

يكونوا من أصل برتغالى ، سواء من الهنود أو من العرب ، أو الأفارقة . لم يتراجع بدرا فاريز أمام غضب ديوجو ولم يحول نظره عن جيرونيمو وهو يتكلم .

— لماذا تدافع عنه ياديوجو ؟ هل صاحبك أبكم ؟ أم هو أجبن من أن يدافع عن نفسه ؟ دعنى أخبرك ياصديقى أنك لاتستطيع أن تغير من طبيعة الأرنب بمجرد أن تدثره بفراء ذئب . كما لاتستطيع إن تغير من طبيعة عربى باعطائه الجنسية البرتغاليـــة .

لم يتحرك جيرونيمو رغم هذا الاستفزاز الشديد ، بهدوء رفع القدح إلى شفتيه ، واستمر يحتسى الخمر ، لكن ديوجو ازداد غضبه وصاح بانفعال :

— إنك ثمل .. وإذا كان صديقى لا يريد أن يحتك بك فإننى مستعد لأن أقاتلك بأى سلاح شئت .

شد دون ديوجو من قامته ، ومع هذا فقد كان الفارق بينه وبين غريمه كبيرا . وضع الأخير يده الضخمة على كتف الشاب وضغط عليه يعيـــده إلى مقعده .

— اجلس .. فليس بينى وبينك خصومة .. أما صاحبك فإننى أود أن أرى وجهه بمدفترة حينما يرى ذوى قرباه يموتون برصاص جنودنا .. تعالى يالورنسو .

التفت إلى رفيقه الثانى وهو يتحرك مبتعدا عن الشابين . وللمرة الثانية ارتفعت عينا جيرونيمو تتفحصان الرجلين . رأى الشاب الثانى الذى ظل صامتا مبتسما طوال المناقشة الماضية يتبع رفيقه بخطوات خفيفة . كان متوسط القامة أقرب إلى القصر ، جميل الصورة مسترسل الشعر حتى أنه بدا أدنى إلى الفتيات منه إلى الرجال . لم يدم نظره أكثر من ثانية أو اثنتين ارتد بعدها إلى قدحه يحتسى .

حاول ديوجو أن يقوم وراء الرجلين ، لكن يد جيرونيمو قبضت على ذراعه وجاءه صوت صديقه متلعثما من أثر الشراب .

— دعك منه .. إنه ثمل .. وسوف يأتى الوقت الذى نستطيع فيه تأديبه .

نظر إليه ديوجو دهشا فلم يكن يتصور أن صاحبه قد احتسى كمية من الخمر تكفى لأن تلعب برأسه ، وحينما رأى العينين الزائغتين ، والرأس المهتز قال باشفاق .

— لعلك أفرطت فى الشراب ياجيرونيمو .. دعنى أصحبك إلى المسكرات .

— لا لا .. أننى لست ثملا .. واستطيع أن أذهب بمفردى أكمل سهرتك وسأراك فى الغد .

قام من مجلسه دون أن ينتظر الإجابة . رآه ديوجو وهو يسير بخطوات بدت غير منتظمة متوجها إلى باب الحانة ، فكر أن يلحق به ثم خشى أن يجرح شعوره ، فتركه لحاله مصمما على ألا يبقى كثيرا فى الحانة بعد ذلك وأن يسرع للاطمئنان عليـــه .

* * *

وقف شبح ملتصقا بأحد جدران المنازل . طواه الظلام فلم يكن فى الاستطاعة رؤيته ، ضاقت عيناه ، وهو يدور بنظره جاهدا مستطلعا الطريق من الناحيتين . لم يكن باب الحانة بعيدا عنه ، وكان من اليسير عليه أن يرى أية حركة قريبة منه ، ومع هذا فلم يلحظ شيئا غير عادى .

كان واثقا أن شيئا سوف يحدث قريبا . لقد سمع الضابط البرتغالى فى الحانة يقول إنه يود أن يرى وجه جيرونيمو حينما يرى ذوى قرباه يموتون بعد دقائق برصاص الجنود البرتغاليين . ولم يكن لهذا معنى إلا أن يكون الأعراب عقدوا عزمهم على مهاجمة الحانة ، وأن خائنا منهم فضح أمرهم فأعد أعداؤهم لهم كمينا . تزايدت هواجسه حينما لاحظ أن بعض الموجودين كانوا مدججين بالسلاح ، ولم يتذوقوا خمرا .

إنتابه القلق . أحس بالوقت يمضى سريعا دون أن يستطيع أن يفعل شيئا . إذا كان هنالك كمين فلابد أنه فى هذه المنطقة . ومع هذا فإن عينيه ، على ما أجهدهما ، لم تستطيعا أن تتبينا أية حركة مريبة على طول جانبى الطريق . فجأة سنح له خاطر . أعاد النظر ثانية ، لكنه فى هذه المرة لم ينظر إلى الطريق ، وإنما رفع ناظريه إلى المنازل وأسطحها . ومالبثت أن تأكد من صحة نظريته .

فوق سطح أحد المنازل لمع شيء لعله ماسورة بندقية ، أو خوذة جندى ، ودارت عيناه ثانية . رأى أن النوافذ على الجانبين لم تكن مغلقة تماما ، بل وتحركت إحداها حركة خفيفة كأنما هزها الهواء . لكن الليل كان ساكنا ولم يكن هنالك أى أثر للرياح .

هذا هو كل ما تحتاجه ليتأكد ، وضحت أمامه الخطة كاملة ، سوف يتركون الأعراب يقتربون حتى باب الحانة ، ثم يطلق عليهم الجنود النيران من المنازل ، ويكون هذا إشارة إلى من بالداخل ليخرجوا ، ويطلقوا النيران بدورهم . بقى عليه أن يعمل سريعا لانقاذ هؤلاء الذين يسيرون إلى حتفهم دون أن يعلموا شيئا عن الموت المتربص لهم .

إزداد التصاقا بالجدار وهو يتحرك بحذر بالغ متجها نحو الحانة . شعر بأن كل دقيقة تمضى تنذر بقرب إطباق الكمين ، فراحت دقات قلبه تسابق قدميه .

لم يكن يحمل سلاحا سوى خنجر صغير . فهو لم يفكر فى أية مغامرة ليلية لكن كان من المغامرة وإلا فإن جميع الأعراب والهنود الذين يظنون أنهم سيفاجئون البرتغاليين سوف يلاقون حتفهم لامحالة .

تحرك بسرعة إلى جوار الجدار حتى صادف باب أحد المنازل وجرب فتحه ، ولما استعصى عليه لم يضغط . انتقل إلى المنزل المجاور وضغط برفق على بابه ، ولم يطاوعه بدوره . كان قد اقترب من مدخل الحانة فلم تكن تبعد عنه أكثر من منزلين أو ثلاثة حتى أن أصوات الصخب بالداخل بدأت تصل إلى أذنيه .

طاوعه الباب الثالث ، ففتحه ببطء وحذر . فى ثوان وجد نفسه فى ردهة صغيرة تضيئها شمعة تعطى ضوءا ضئيلا . أمام الباب مباشرة رأى درجا خشبيا فاتجه إليه . قبل أن يصعد أحس بحركة خفيفة فى أقصى الردهة . إلتفت منزعجا وقد إستل خنجره ثم بدت منه ضحكة خافتة إذ رأى امرأة عجفاء تحتضن طفلا لايجاوز السابعة من عمره وقد إتسعت حدقاتها من الرعب وهما ينظران إليـــه ، وإلى الخنجر المســـلول .

إبتسم لها مطمئنا وهو يحاول جاهدا أن يخفى باقى وجهه عن المرأة . كانت قبعته تظلل الجزء الأعلى من وجهه ، كما أن الضوء كان معتما ، لكنه لم يكن واثقا تماما من أنها لم تره عندما إستدار حينما شعر بالحركة وقت دخوله . هز كتفيه ، ونفض التفكير فى المرأة . على أى الأحوال إذا كانت قد رأت وجهه فليس فى إستطاعته عمل شىء الآن .

إرتقى الدرج بسرعة متناهية ، ومع هذا لم يصدر منه أى صوت . كانت المنازل جميعها متلاصقة ، وأكثرها يتكون من طابق واحد فوق الأرضى ، ونادرا ماوجد منزل يرتفع إلى طابقين . أحس بشدة الحاجة إلى السرعة . فاندفع يقفز صاعدا درجتين ، وثلاث حتى وصل إلى السطح .

تطلعت عيناه بحذر . على ضوء القمر الباهت رأى أن المنزل يتوسط منزلين فى مثل إرتفاعه ، وأن الأسطح لا يفصلها عن بعضها سوى سور صغير لايعلو على قامة الرجل العادى . رأى جنديين يربضان على السور الذى يطل على الطريق وعلى الحانة ، وقد إنحنيا فوق بندقيتيهما ، وهما على استعداد للاطلاق عند أية أشارة أو أمر .

على سطح أحد المنزلين المجاورين رأى شبحين لجنديين آخرين ، أما المنزل الثانى فلم يكن عليه أحد . كان هذا ماتوقعه إذ إستنتجه . حينما إستعصى عليه باب المنزل المجاور أيقن أن الجنود لم يدخلوه ، وإلا لتركوا الباب مفتوحا .

كانت المسافة بينه وبين أقرب الجنديين لاتزيد على مترين ، بينما جاوزت ثلاثة أمتار بين الجندى ورفيقه . علم أن كل أمل له يتوقف على خفة حركته ، وسرعة رد فعل الجندى الآخر . فى خطوتين أضحى وراء أقرب الجنديين إليه ، وأهوى بقبضتيه كليتهما بأقصى قوته على رأسه . وبسرعة متناهية أمسكت إحدى يديه بالبندقية قبل أن تنزلق إلى الطريق .

التفت الجندى الآخر دهشا وانقضت ثوان ثمينة لم يدرك فيها تماما مايحدث . قبل أن يستعيد كامل إنتباهه ، دوى صوت طلق نارى أصابه فى صدره ، وأسقطه

على الأرض مضرجا بدمائه . وفى اللحظات التالية إمتلأ السكون بأصوات طلقات تصدر من كل مبنى ، كما إندفع من باب الحانة ثلة من الجنود . وفتحت جهنم أبوابها .

توقف الشبح مكانه متوقعا أن تصيبه عشرات الطلقات النارية تمزق جسده . لكن لم يصبه شيء . أخيرا تنبه إلى ماحدث . يبدو أن أعصاب الجنود كانت فى حالة شديدة من التوتر نظرا لانتظارهم مدة طويلة وهم على أهبة الاستعداد ، وحينما سمعوا صوت الطلق النارى لم يحاولوا تحديد مصدره ، وإنما أطلقوا نيرانهم على الطريق الخالى . وسمع من بداخل الحانة صوت الطلقات فخرجوا بدورهم يشاركون زملاءهم وقد حسبوا أن الأعراب يهاجمون .

لم يتمالك الشبح نفسه فأطلق ضحكة مرحة ، واستعد لمغادرة المكان . لقد أدى مهمته ولابد أن الأعراب قد علموا الآن أن مصيدة كانت معدة لهم ، وأنهم نجوا منها لسبب أو لآخر . بدأ يتحرك حينما لاحظ أن الجندى الملقى على الأرض ينظر إليه . ويحاول أن يختلس خنجره من منطقته .

هنا إقترف خطأ كاد أن يكلفه حياته . يبدو أن الجندى لم يكن قد فقد وعيه وإنما أذهلته الضربة فقط لهذا إستعاد إدراكه أسرع مما هو مقدر ، رآه الشبح يستل خنجره ، وعلم أنه لن يستطيع أن يصل إليه قبل أن يستميد وقفته فتراجع إلى الخلف فى حركة لاشعورية .

تعثرت قدماه فى جثة الجندى القتيل فسقط على الأرض . أحس بسائل لزج يلوث يديه فعلم أنها دماء ، ورآه الجندى الآخر وقد سقط فأطلق صيحة إنتصار ، وقفز واقفا شاهرا خنجره . ودوى صوت طلق نارى ضاع بين الطلقات التى كانت مازالت تتناثر من كل مكان ، وبين أصوات آمرة بدأت تعلو .

أحس الجندى كأنما قد اصطدم فجأة بجدار غير مرئى ، ثم التهبت أحشاؤه بنيران تمزقها . سقط الخنجر من يده ، وضغط بقبضتيه كلتيهما على أحشائه فى محاولة يائسة لأن يوقف الدماء المتدفقة . اتسعت حدقتا عينيه فى دهشة غير

مصدقة وهما تنظران إلى الشبح الذى كان ما يزال راقدا على الأرض ممسكا ببندقية الجندى الآخر ، والدخان يتصاعد من فوهتها . أخيرا سقط وهو يركل الهواء بقدميه كأنما يدفع عدوا وهميا يهاجمه .

تثاقل الشبح قائما . كانت يداه ملوثتين بالدماء كما أنه لم يشك فى أن بعضها قد علق بملابسه لكنه لم يهتم بها كثيرا . تناهت إلى سمعه أصوات طلقات نارية منفردة وأصوات أخرى ساخطة آمرة بإيقاف اطلاق النيران فأيقن أنه لن تمضى لحظات إلا ويعم السكون وتتضاءل فرصته فى الاختفاء .

مسح يديه بسرعة فى قطعة جافة من ملابس الجندى إلى جواره واندفع بحذر قافزا السور إلى المنزل المجاور الذى لاحظ أنه كان خاليا من الجنود . أحنى كتفيه جهد إستطاعته وهو يتحرك فى ظل السور حتى انتقل إلى المنزل الذى يليه ، ولم يتجاسر على النزول من أحد الأسطح إلا بعد أن أيقن أنه أضحى بعيدا عن أعين الجنود فى الطريق .

* * *

هب جيرونيمو من نومه وقد شعر بقبضة تهزه من كتفيه . فتح عينيه لتلتقيان بوجه دون ديوجو الباسم وهو جالس إلى جواره وطرق اذنيه صوته وهو يقول :

— كانت تلك حيلة بارعة ياصديقى لكننى كشفتها دون عناء .

نظر إليه جيرونيمو ببلاهة غير مصدق اذنيه . ومن حلق جاف خرجت كلماته متحشرجة .

— حيلة !؟ أية حيلة !؟

— تظاهرك بأنك ثمل .. خبرنى ألم تفعل ذلك عامدا حتى تخرج من الحانة ولا ترى مذبحة اصدقائك ؟ .. أنك لم تكن ثملا حقا !

لم يتمالك جيرونيمو من أن تصدر عنه تنهيدة راحة .

— آه هذا .. أجل أننى اعترف .

— على أى الأحوال ياصديق لقد أيقظتك لكى أخبرك ألا تقلق إذ أنه يبدو أن ثمة خطأ حدث . تشاجر جنديان فقتلا بعضيهما رميا بالرصاص وعقب ذلك إنطلقت النيران من كل بندقية ، ولا شك أن المتآمرين سمعوا فهربوا . وليتك رأيت وجه بدرا فاريز وهو حانق غاضب .

ظهر التأثر على الوجه الجامد . وامتدت يد قوية تقبض على يد دون ديوجو ولم يكن الصوت الذى صدر متماسكا تماما من الانفعال .

— إنك شخص طيب ياصديق .

***

فى مكان ما من البلدة جلس شخص يقرأ على ضوء شمعة ورقة عثر عليها على فراشه حينما دخل حجرته . كانت الكتابة باللغة العربية ، والخط ركيكا ، لم يزد ماهو مسطور على أربع كلمات .

« حذار .. بينكم خائن نمام »

الفصل الثامن

النمـــــام

رفع الضابط داندرادى رأسه ، وتراجع قليلا بعيدا عن مكتبه استقر نظره على الجندى وهو يضع بعض الطعام على مائدة منعزلة فى الحجرة . وبدا عليه التفكير العميق . استمر يتابع حركات الشاب الخفيفة ، ويتفحص أجزاء جسده بعينين ثاقبتين كأنما هو يراه لاول مرة .

لاحظ الطول الفارع ، والكتفين العريضتين،والخصر النحيل ، راقب الحركات الرشيقة الخفيفة،وتبين عضلات الساقين وهى تبرز من السروال الضيق كأنما توشك أن تمزقه . رأى اليدين السمراوين الضخمتين تنقلان المنضدة بما عليها بلا مجهود ظاهر . وخطر فى باله أن الشاب لابد يتمتع بقوة بدنية خارقة . لم تكن النظرة العابرة لتكفى لكشف عن شىء من هذا إذ كان مظهره خادعا يبدو فيه كشخص طويل القامة نحيلا، أسمر الوجه دقيق التقاسيم . لكن النظرة المتفحصة كانت توضح أن هذا الجسم يكاد أن يكون كتلة من العظام والعضلات .

حينما فرغ الجندى من وضع الطعام الخفيف الذى اعتاد ضابطه أن يتناوله فى منتصف النهار واستدار ليخرج من الغرفة . استوقفه داندرادى متسائلا .

— جيرونيمو .. هل كنت فى حانة النسر الفضى مساء أول البارحة ؟

تسمر الجندى مكانه ، واعتدل يجابه ضابطه قبل أن يجيب .

— أجل ياسيدى .

— هل كان معك أحد ؟

— دون ديوجو .

— هل شاهدت ماحدث ؟

— كلا ياسيدى فقد خرجت قبل ذلك إذ أصابتنى وعكة خفيفة فعدت إلى المسكر.

— هل سمعت عما حدث ؟

— أخبرنى دون ديوجو به فى الصباح التالى .

— ماذا قال ؟

— قال إن جنديين تقاتلا فقتلا بعضهما .

— هل هذا كل ماسمعت ؟

— أجل ياسيدى ، هل هنالك شىء آخر ؟

تبسم الضابط وهو ينظر إلى الجندى .

— انى أنا الذى أسألك وليس أنت . وهل رآك أحد وأنت تدخل الثكنات ؟

— لا أحد ياسيدى وان كنت لا أذكر جيـــدا حيث أنى كنت متوعكا كما قلت هل يريد سيدى أن أستفسر عمن كان حارسا . ؟

— كلا .. سأفعل ذلك بنفسى .

ساد الصمت لحظة حتى قطعه الجندى .

— سيدى هل حدث شىء ؟ .. أو هل هنالك شبهة تقع على ؟

هز الضابط رأسه نفيا .

— كلا ياجيرونيمو إنما نحن نستفسر عن جميع من كانوا فى حانة النسر الفضى فى تلك الليلة خاصة من كان من أصل غير برتغالى .

— هل لى أن أسأل لماذا ياسيدى ؟

تردد الضابط قليلا قبل أن يجيب باقتضاب .

— يبدو أن هنالك شبهة فى أن الجنديين لم يقتلا بعضهما .

قال هذا ودفع بمقعـــده نحو المكتب إشارة إلى أن المناقشة قد إنتهت . لكن الجندى لم يتحرك من مكانه بان عليه التردد كمن يريد أن يسأل شيئا . ولاحظ قائده ذلك فأعاد نظره إليه وسأله مستوضحا .

— هل هنالك شىء ياجيرونيمو ؟

— هل يريد سيدى شيئا الليلة ؟

تبسم الضابط فقد كان يعلم أن الكثير من الجنود يبيتون خارج الثكنات سعيا وراء إمرأة وشراب لهـذا لم يكن جديدا أن يستأذن أحدهم فى قضاء ليلة فى المدينة ، بل إنه كان من الشائع أن يحتفظ بعضهم بحجرة فى أحد الأحياء الأهلية يقضى فيها لياليه الحمراء .

ـــ كلا .. وتستطيع أن تعتبر نفسك فى أجازة قصيرة منذ الآن إلى صباح الغد .. لكن عليك أن تكون هنا قبل الثامنة صباحا .

ـــ شكراً ياسيدى .

أدى التحية العسكرية ، وإستدار على عقبيه متجها نحو الباب ، لكن الضابط استوقفه قبل أن يبلغه ، وسأله بصوت عطوف .

ـــ جيرونيمو .. لحظة .. هل تريد أن تشترك فى بعض المعارك ؟

التفت الجندى إلى ضابطه مستفهما فاستمر الأخير فى كلامه .

ـــ لقد صدرت إلينا الأوامر أن نقوم بجولات تفتيشية على الحصون وسنبحر خلال أيام تحت إمرة دوم فرنسيسكو دى مورا فهل تود الابحار . ؟

ـــ شكراً ياسيدى .. لا أحب إلى من ذلك .

تفرس الضابط فى وجهه وهو يقول :

ـــ ربما يكون هنالك قتال بيننا وبين الإنجليز ، أو الهولنديين أو كليهما ، أو بعض قراصنة الخليج من البحرين .

ـــ لابأس ياسيدى .

ـــ حسنا سوف أنبئك بموعد الرحيل فيما بعد .

أدى التحية العسكرية للمرة الثانية قبل أن ينسحب من الحجرة .

* * *

فى حجرة حقيرة ، على سطح أحد المنازل المتداعية فى حى الهنود تمدد شاب على فراش لايرتفع مستواه عن المنزل . كانت الحجرة عارية من الأثاث تقريبا ، فلم يكن بها سوى الفراش ، ومنضدة خشبية ، وصندوق لحفظ الملابس ،

ومقعدان . على المنضدة كان يوجد طست فخاري . وأبريق مملوء بالماء ، وبعض أكواب الشراب الفخارية ، وفيما عدا هذا لم يكن يوجد شيء .

كانت الشمس تميل نحو الغروب ، وبدا أن الشاب نائم . لكنه في الواقع لم يكن كذلك . استغرق في التفكير حتى لم تبد منه حركة . لقد سمع أن البرتغاليين يعتقدون أن الجنديين لم يقتلا بعضهما بل قتلهما شخص أو أشخاص آخرون . راح عقله يعمل بروية محاولا التوصل إلى كيفية معرفتهم ذلك . كيف شكوا في الأمر .

إنطلق تفكيره هادئا يستعيد الحوادث . لاشك أن هنالك ثغرة نفذ منها البرتغاليون هل رآه أحد وهو يتحسس أبواب المنازل ؟ لا . لايمكن أن يكون هذا وإلا لصاح من رآه ، وأرشد عنه . قفزت إلى ذهنه المرأة تحتضن الطفل تحت الدرج ، هل هي التي اخبرت البرتغاليين ؟ استبعد هذا الفرض ايضا فبالإضافة إلى ان الهنود عموما يكرهون البرتغاليين فإنهم ايضا يخافون من الاشتراك في اى تحقيق ولو كشاكين ، او كشهود . كانوا يفضلون الابتعاد عن المغتصبين ، أيا كانت الأوضاع .

ماذا إذاً ؟ هل رآه أحد وهو يبتعد عن مكان القتال ؟ استبعد هذا الفرض فهو لم يلاحظ وجود اى شخص اثناء فراره ، وحتى لو كان رآه احد فلماذا يربط بين ماحدث وبينه ؟ ما الذى يجعله يتنى ان الجنديين قتلا بعضهما ، وان الشخص الذى رآه مصادفة قد قتلهما ؟ .. لا إن هذا الفرض مستبعد .

قفز ذهنه إلى ماجرى بعد ذلك . لقد ذهب إلى حجرة رئيس المتآمرين وترك ورقة يحذر فيها من وجود خائن تمام بينهم ولاحت على شفتيه شبه ابتسامة ، هنا الخطأ . لابد ان الزعيم واجه زملاءه بهذه الورقة ، وعرف التمام . ومن اليسير بعد تسلسل الاستنتاج ، علم التمام من الورقة ان هنالك شخصا أحاط باعتزام المتآمرين الهجوم على الحانة ، وبأن البرتغاليين اعدوا كمينا

إذ وصلتهم أنباء المؤامرة . أجل لابد أن النمام تابع ترتيب الحوادث ، ولم يكن من العسير عليه ، أو على سادته ، أن يشكوا فى أن ذلك الشخص الغامض قتل الجنديين لتنذر أصوات الرصاص المهاجمين بأن هنالك كمينا أعد لهم .

تابع عقله التفكير . إنه يعلم طبائع البرتغاليين . لن يتوقفوا . سوف يقومون باستجواب كل فرد فى المنازل المحيطة على أمل أن يكون أحدهم قد رأى أو سمع شيئاً . سوف يستعملون جميع وسائل التعذيب . لن يقفوا عند حد حتى يعترف من رأى أو سمع .

عاد إلى تذكر الحوادث . مرت فى مخيلته صورة المرأة تحت الدرج . ترى هل تحققت من شكله ؟ ان الضوء كان ضعيفاً ، كما أن عينيها لم تتطلعا إلى وجهه سوى ثوان معدودات ، فهل استطاعت فى هذه الثوانى التحقق من ملامحه ؟ على أى الأحوال فلن يطاوعه قلبه أن يترك المسكينة تحت رحمة هؤلاء الوحوش . عليه أن ينقذها والطفل معها قبل أن تمتد إليهما أيديهم .

تحرك من فراشه بخفة متجها إلى صندوق الملابس وقد عقد العزم على سرعة التصرف . فجأة ومض فى عقله خاطر جعله يتصلب فى مكانه . إن الحادثة قد مضى عليها يومان فهل أضاع البرتغاليون كل هذا الوقت دون أن يحاولوا التحقيق ؟ ماذا لو كانوا قد سألوا فعلا المرأة وأجابتهم بما رأت ولم تستطع أن تصفه وصفا كافياً ؟ إن الجيش البرتغالى به مئات ، بل آلاف من الهنود ، والملونين ولن يكون فى الاستطاعة أن يعرضوا على المرأة جميع هؤلاء ، أفليس من المنطق إذا أن يستدرجوا القاتل إليها ؟

أجل .. لاريب أن هذا هو هدفهم . أشاعوا شكوكهم حتى وصلت إلى كل من فى المعسكر . أشاعوا أن هنالك من قتل الجنديين ، وهم يعلمون أن القاتل سوف ينتابه القلق أن تكون المرأة قد تحققت من ملامحه . تصوروا أنه لابد سيعود إليها ليتخلص منها ، وأعدوا الكمين على هذا الأساس . وكادوا أن يفلحوا . لم يكن فى نيته التخلص من المرأة ، وإنما استخلاصها من براثنهم ،

لكنه كان سيذهب على أى الأحوال . والنتيجة بالنسبة لهم واحدة .

توقف أمام الصندوق ، ثم تراجع قليلا وجلس على أحد المقاعد . علم أن عليه ان يعيد حساباته على ضوء ماتوصل إليه أخيرا . هل يترك المرأة وشأنها ويبتعد عن منطقة الخطر كما يدعو العقل ؟ أم يحاول رغم ماتمله أن ينقذها وطفلها ؟ إنه يعلم أن البرتغاليين سوف يعبرون يوما أو يومين آخرين ثم إذا لم يظهر أثر للقاتل صبوا جام غضبهم على المرأة والطفل . فهل يتركهما لمصيرهما .؟

* * *

إستمع عبد الله هودارى بذهول إلى الجالس أمامه . لم يتصور أن زهيرا ، صديقه ، ورفيق كفاحه كان خائنا . لكن الوقائع التى كان يحكيها الجالس لاشك فيها . لم يصدق أن هنالك خائنا آخر مازال يمرح ، يعيث الفساد ، ويهدد كيانه ، وكيان أصحابه الذين يكافحون فى سبيل نزع الغل البرتغالى الذى يطوق عنقه ، وأعناق قومه والمسلمين أجمعين . ومع هذا فإن الجالس أمامه كان يتكلم بهدوء ويقدم البراهين ، سواء الاستدلالية أو المادية على صحة مايقول .

تتالت فى تفكيره صور أصحابه وزملاء الكفاح . من منهم يمكن أن يصل إلى هذا الحد من الانحطاط فيبيع نفسه لأعدائه ، وأعداء قومه . كريم ذو الوجه المشرق ، والابتسامة العذبة التى لاتفارق شفتيه حتى فى أشد الأوقات حرجا ؟ جادو ابن عمه ورفيق صباه !؟ حامد أكثرهم شجاعة وإقداما ؟ كيد وجو الذى يلتهب حماسة ويحتاج دائما إلى من يوقف إنفعاله ؟ أو هاشم الهادىء المفكر الذى يضع الخطط ويوجه الجماعة ؟

كانوا سبعة رؤساء ، قتل منهم زهير ، فأضحوا ستة . هم الذين يضعون الخطط وينفذونها شخصيا أو عن طريق جماعة آخرين من الشبان المتحمسين لوطنهم أو دينهم . على أن الذين يعرفون الخطط هم فقط هؤلاء السبعة ، الستة الآن ، وإذا كان هنالك خائن فهو واحد منهم . لكن من ؟ هل يمكن أن يكون هذا حقا ! أم هو مجرد حلم سيختفى بعد لحظات من إنتباهته .

لكن الماثل أمامه كان ينبض بالحياة بما لا يدع مجالا للشك فى أنه واقع لا وهم. أعاد النظر إليه. كان متشحا بالسواد من قطعة القماش على رأسه التى إنسدلت على ظهره وكتفيه من ناحية، ثم على وجهه لتكون لثاما يخفى وجهه لا تبدو منه إلا العينين، إلى العباءة الحريرية الخفيفة التى تلتف حول سائر جسده. حتى يداه كانتا داخل قفازين سوداوين. كان يخاطبه بالسواحيلية، وبالعربية أحيانا، بصوت هادىء ناعم لا شك أنه يخفى صوته الحقيق. حاول جهده أن يتعرف عليه دون جدوى، حتى لون عينيه لم يكن واضحا فى الضوء الباهت خلف القناع الأسود.

إنتهى المتشح بالسواد من سرد الوقائع ثم سأل:

— هل اقتنعت؟

— ربما.. لكن يلزم أن أعرف أولا من أنت؟

— لن تعرف.

— كيف أثق فى أقوالك وأنا لا أعلم من أنت؟ إذا كنت لا تثق بى فلماذا أثق بك؟

— لأنك تعلم أن ما أقوله هو الصدق، ولأن الحوادث جميعا تؤكده. اما انى لا أثق بك فهذا غير حقيقى وإلا لما لجأت إليك.

— إذاً لماذا لا تطلعنى على شخصيتك؟

— هل تثق فى نفسك امام محاكم التفتيش؟!

إرتد عبد الله إلى الخلف كأنما اصابته لطمة. كان يكفى ذكر محاكم التفتيش ليثير الرعب فى اكثر قلوب الرجال شجاعة. ربما كان المتشح بالسواد على حق، ولا داعى لأن يعرف شخصيته أحد آخر، فهذا أكثر أمنا، وأدنى إلى الطمأنينة. لقد لقبوه هودارى أى الشجاع، بالسواحيلية، ومع هذا فلم يتمالك نفسه من الرعدة التى سرت فى جسده لمجرد ذكر إسم محاكم التفتيش.. لعل المتشح بالسواد على حق فى كتمان شخصيته، فلا يعلم شخص

مقدار إحتماله للعذاب حتى يجربه .. وربما يكون علمه بعد فوات الأوان .. أخيرا هز رأسه موافقا .

— ماذا تريد أن أفعل ؟

— عليك أن تجمع أصحابك الخمسة الليلة .

— لا يمكن إن الساعة قد جاوزت الثامنة وليس لدى الوقت الكافي .

— لماذا ؟ أنا أعلم أنهم جميعا يقطنون فى أماكن قريبة من هنا ، وإذا أردت أن أترك رسالة منك لبعضهم فلا مانع عندى إذا تعهدت بعدم تتبع حركاتى .

نظر إليه عبد الله دهشا ثم قال :

— يبدو أنك تعلم الكثير عنا ؟!

— ربما أكثر مما تتصور .

— إذاً أنت تعلم من الخائن ؟!

لم يحر المتشح بالسواد جوابا على الاستفهام ، وبدلا من ذلك انتقل بالحديث .

— استمع فليس لدينا وقت نضيعه .. هذا ما أريدك أن تفعل .....

إستمر يتكلم بعد ذلك دقائق ، وعبد الله ينصت دون أن يقاطعه ، وحينما فرغ تناول عبد الله ورقة وقلما وكتب رسائل ناول اثنين منها المتشح بالسواد قائلا :

— يمكنك أن تسلم هاتين الرسالتين ، وسأتولى أنا تسليم الثلاثة الأخريات ، دون كلمة أخرى تناول المتشح بالسواد الرسالتين ثم خرج من الحجرة بهدوء ليحتويه ظلام الليل .

* * *

تناول جيرونيمو القدح ومضى يعب الخمر بشغف . نظر إليه ديوجو مشفقا فلم يكن رآه يحتسى الخمر بمثل هذه الكمية من قبل . كانت الحانة مليئة ، كالعادة ، بالضباط البرتغاليين . جلس هو وصاحبه مع بعض زملائهما من الضباط تحت التمرين

يتبادلون النكات وقد علت أصواتهم وضحكاتهم . قفزت الراقصة الهندية على المنضدة الطويلة تداعب بحركاتها مجموعة الشبان وكل يحاول أن يقبض عليها وهى تفلت منهم برشاقة .

داعبت الخمر رؤوس الموجودين ، وزادت تثنيات الراقصة من نشوتهم ، وربما كان أكثرهم تأثرا جيرونيمو الذى راح يلقى نظرات زائغة على الراقصة وهى تتلوى بجسدها البض فى حركات كلها فتنة وإغراء . ولعلها أعجبت بالشاب الأسمر الوسيم فاختصته بمداعباتها . تظاهرت بأنها لم تتمكن من الافلات من قبضته حينما أطبقت أصابعه على كعبها .

ربما تعثرت ، أو لعلها شاءت ، فسقطت بين أحضان الشاب . ضج الحاضرون بالضحك وعلت هتافاتهم . لكن جيرونيمو كان فى شغل عن ذلك . أطبقت شفتاه على شفتى الفتاة . بدا أنها تحاول التملص ، وتثنى جسدها شبه العارى بين يديه لتزيده إنفعالا . أخيرا تمكنت من الافلات ، أو لعله أطلقها ، فجرت متعثرة تصلح من شأنها .

صفق الموجودون طربا ، وابتسم جيرونيمو ببلاهة من لعبت الخمر برأسه . مد يده يرفع القدح عاليا ثم يفرغ مافيه فى جوفه . وضع ديوجو يده على كتفيه فى إشفاق ، وقد أدهشته تصرفات صاحبه . حاول أن يثنيه عن إحتساء مزيد من الخمر فلم يفلح ، ولم يكن هو نفسه فى حالة تسمح بأن يقاوم الإغراء كثيرا فاكتفى بأن هز كتفيه إستسلاما وتناول قدحه يرتشف .

حينما خرجوا من الحانة تسعة أشخاص أو يزيدون ، كانت الخمر قد تملكتهم تماما حتى أنه مامن واحـــد منهم إلا كان يترنح لايستطيع أن يقف مستقيما على قدميه . ساروا فى الطريق الضيق يتصايحون ويتدافعون يكاد أحدهم أن يسقط على الأرض لولا جدران المنازل يستند إليها . يحاول أحد الزملاء أن يساعد رفيقه فيترنح الإثنان ، ويتضاحكان ولا يوقف ترنحهما إلا اصطدامها بجدار .

ربما كان جيرونيمو أكثرهم ترنحا . أمسك به ديوجو محاولا أن يساعده فى الوقوف المستقيم على قدميه ، لكنه لم يكن أحسن منه حالا . أثناء محاولة من هذه المحاولات بدا أنهما لم يصطدما بجدار منزل ، وإنما ببابه . ويبدو أن الباب لم يكن مغلقا فقتح تحت عبء جسديهما فاندفعا إلى الداخل .

إرتفعت صرخة امرأة ، وعلا صياح باقى الرفاق وضجيجهم . إندفعوا جميعا حيث سقط زميلاهم يستفسرون ، وعم الهرج ثوانى . شاهدوا على ضوء شمعة جيرونيمو تحت درج المنزل وقد تعلق بامرأة عجفاء تحتضن طفلا ، كانت المرأة مرتعبة ، والطفل يصرخ . لاح أن جيرونيمو يخاطبها مهدئا . لم يسمع أحدهم ماقال . ولو كان سمع لما فهم شيئا فلم يكن منهم من يفهم اللغة التى تكلم بها .

لم ينقطع صراخ الطفل ، ولا ضحكات الشبان وتعليقاتهم حتى إرتفع من وسط الظلام صوت ذوى خشن يأمرهم بالإبتعاد عن المنطقة . وعلى ما كانوا عليه من النشوة فإنهم جميعا تعرفوا على الصوت الآمر وتوجهوا إلى الطريق . صمتوا خائفين لحظات ، ثم لفحهم نسيم الليل البارد فأعاد إليهم النشوة ، وأنساهم الصوت الآمر ، بل ونسوا المرأة والطفل ، وعادوا إلى صياحهم وضحكاتهم .

* * *

إلتقط جادو الورقة التى رآها تنزلق من تحت باب حجرته . مد يده إلى المزلاج فدفعه ثم فتح الباب لكن الردهة كانت خالية . عاد إلى الحجرة ، ومضى يقرأ ماتحتويه الورقة . لم يشك أن كاتبها هو عبد الله هوداري ابن عمه فهو يعرف خطه . كان يخبره بأن إجتماعا عاجلا ضروريا يستدعى حضوره بعد ثلاث ساعات إلى مكان عينه له خارج المدينة ، قريبا من الأدغال .

جلس على فراشه يفكر فى هذا الأمر العاجل . تردد أن يأبى الدعوة ، فهو يستطيع أن يقول إنه لم يكن موجودا فى المنزل ، وأنه نام بالخارج ، أو أنه كان مريضا . على أى الأحوال هنالك متسع من الوقت ليفكر فيه . ومضت ساعتان .

المرة الثانية رأى ورقة تدفع من تحت عقب الباب . هب من مكانه بسرعة وتخطى الحجرة فى ثوان ، وحينما دلف خارجا شاهد شخصا فى أقصى الردهة المظلمة . لم يستطع أن يتبين شيئا من ملامحه ، لكنه قطع بانه كان يرتدى بزة الجنود البرتغاليين . عاد إلى الداخل ، وأغلق الباب بحذر ؛ وحينما تناول الورقة لاحظ أنها مكتوبة بالبرتغالية . كان يتوقع هذا فلم يعجب . كانت أمرا بان يحضر إلى المنزل أمام الحانة إذ أن الضابط يريده أن يتعرف على الرجل الذى قبضوا عليه فربما كان أحد أصدقائه .

عجب من الطريقة التى أتاه بها الأمر ؛ فلم يكن من المعتاد أن يتصل به الضابط إنما كان هو الذى يذهب إذا ما إستدعى الأمر . لم يشك فى أن الأمر صادر من الضابط ؛ فهو قد رأى أن الرسول جندى برتغالى .

على أى الأحوال فلا مندوحه من الذهاب . والواقع أن السرور غالبه ؛ فإن القبض على قاتل الجنديين يعنى أنه افلح فى خدمة سادته ، وأنهم سوف يزيدون من مكافأته ، وأن مكانته لديهم سترتفع .

حبذا لو كان القاتل هو ذلك الشخص الذى ترددت الشائعات أخيراً أنه المتسبب فى كثير من الحوادث . ذلك المتشح بالسواد ، إذا لارتفعت أسهمه لدى سادته ، ولأمكنه أن يطالب بما شاء . ربما جعلوه سلطانا على إحدى المدن الساحلية فى إفريقيا . باتى مثلا ، أو حتى ممباسا . سوف تكون ثقتهم به لا نهاية لها .

داخله إحساس بالعظمة فكأنه أضحى فعلا ملكا يأمر وينهى رعاياه . وضع الأمر فى جيبه ، وهرع يستكمل إرتداء ثيابه . خطر فى باله أنه ذاهب إلى المنزل عند الحانة وبذا فان يستطيع الذهاب إلى موعد زملائه خارج المدينة ، لكن هذا لم يثن من عزمه لحظة . إن ابن عمه ، وسائر رفاقه حالمون ولن يستطيعوا أن يهزموا الامبراطورية البرتغالية ولو لبثوا مائة عام . لا .. إن الأعقل مسايرة القوى .. أما التمسك باهداب أحلام فلن يورث سوى الندم .. تردد قليلا ثم تناول الورقة التى أرسلها إليه هودارى ووضعها مع خطاب الضابط .

أكمل ارتداء ملابسه ، وأسرع خارج الدار يسير في الطرقات يترنح من نشوة الإنتصار المنتظر . أولى خطواته نحو المجد . مضت ربع ساعة قبل أن يقترب من مكان الحانة . سمع صياحا وضحكات ترد من أقصى الطريق . وابتسم . إن البرتغاليين سكارى يحتفلون بإنتصارهم بالقبض على القاتل ، هذا الإنتصار الذى أحرزه هو . إزداد إحساسه بالعظمة المنتظرة ، وشعر كأنما لا تمس قدماه الأرض .

إلتقى بجماعة السكارى قبل أن يصل إلى مقصده ببضع خطوات . إلتفوا حوله يتصايحون . جذبه بعضهم ودفعه آخرون . تقبل مداعباتهم بروح مرحة . ألم يكونوا سادته الذين سوف يدفعونه إلى الملك ، والسلطة ، والجاه ؟! تعلق به أحدهم كأنما ليحتضنه ، وتصايح الآخرون ضاحكين . لاحظ أن الذى تعلق به كان أشد سمرة من زملائه . فهو إذا أحد أولئك الذين يسايرون الركب . وليس برتغاليا .

دفعه عنه بشدة إذ كان فى عجلة أن يصل إلى مبتغاه . تراجع الضابط الصغير إلى الخلف مترنحا ليرتطم بزملائه الذين تلقفوه ضاحكين متغامزين . تركهم جادو مسرعا نحو باب المنزل . عجب أنه لم ير أحدا آخر لكنه فتح الباب ودخل .

رأى المرأة العجفاء ، والطفل السقيم منكمشين تحت الدرج . رأته المرأة فى اللحظة نفسها ، وأطلقت صرخة دوت لها أرجاء المنزل المهدم . وفى ثوان أحس بأيد من حديد تطوقه ، وتكتف حركاته .

إلتفت مذعورا ، لكن سرعان ما عادت إليه الطمأنينة حينما رأى أن أسرة من الجنود البرتغاليين . طلب منهم بلهجة شبه آمرة أن يرى قائدهم ، ولم يكن فى حاجة إلى هذا الطلب إذ فتح الباب وظهر رجل فى زى الضابط ، طويل القامة نحيل الجسد ، صارم الوجه تلوح القسوة فى كل جزء من قسماته . كان دوم انطونيودى ماروس ضابط محاكم التفتيش .

إبتسم جادو مرحبا قلقا وقد إزدادت طمأنينته ، لكن الجملة الأولى التى أطلقها الضابط زعزعت من هذه الطمأنينة .

— أنت ؟ ماذا أتيت تفعل هنا ؟

تحيرت الـكلمات على شفتيه . أحس بأن حلقه قد جف ، وحينما تمكن أخيرا من الإجابة خرجت الـكلمات قلقة متقطعة .

— إننى أتيت هنا بناء على دعوة سموكم ؟

— أنا لم أدعك .

— لـكن معى الورقة . لقد أتى بها أحد الجنود . إنها معى فى جيبى .

تفرس فيه الضابط ، ثم أشار إلى الجنديين اللذين كانا ما يزالان يقبضان على ذراعيه فتركاه . بيدين مرتعشتين أخذ يفتش فى جيوبه . ولم يجد شيئاً . إنه واثق أنه وضع الورقتين فى جيبه . ومضى عقله يراجع نفسه .. كلا لم يكن لديه شك فى أنهما معه . دارت يداه بعصبية ظاهرة تبحثان فى ثنايا الجيوب . ولم يجد شيئا . أين ذهبت الورقتان ؟ ربما سقطتا منه .. ! . كلا .. لم تسقطا .. ووافاه صوت الضابط صارما قاسيا .

— إسرع فلست أريد الانتظار طوال الليل حتى تعثر على الورقة التى تدعى أنى أرسلتها .

— سـأفعل .. أنها هنا .. فى مكان ما .. لـكننى لا أجدها .. ربما سقطت .. أو ..

وقفز فـكره فجأة إلى الشبان السكارى . إرتسم أمام عينيه الوجه الأسمر . إنه ذلك الشاب هو الذى سرق الورقتين .. لا شك فى ذلك ؟ لـكن لمـاذا ؟! وكيف عرف بوجودهما ؟ تباطأت يداه فى البحث . شعر باكتئاب شديد وكأنما توشك المصائب أن تهبط عليه . أتاه صوت الضابط متبرما ساخطا .

— أرأيت ؟ إنك لم تجد شيئا لأنى لم أرسل لك أية رسالة . والآن خبرنى لماذا أتيت إلى هنا فى هذه الساعة ؟

لسبب لايعرفه إزداد رعبه . شعر بأن الضابط القاسى يريد أن يوقع به ، وأن وراء سؤاله هدفا يقصد به الإضرار به . توقفت آماله ، وأحلامه ، وانحصرت

رغبته فى الفرار من هذا المكان والعودة إلى حجرته . كان ما يزال يعبث فى ملابسه بحثا عن الورقتين أو إحداهما ، وهو يعلم عدم جدوى البحث . قال بخنوع واضـــح .

— قلت إننى أتيت بناء على دعوة سموكم . والورقة معى .. أو كانت معى .. وأحسب أن هؤلاء السكارى سرقوها منى .. ..

إزدادت لهجة دى باروس قوة .

— أية ورقة ؟ .. وأى سكارى ؟.. لماذا تتلعثم ؟.. لماذا تحاول الكذب وأنت لا تحسنه .. ؟ومع هذا فسوف نعرف الحقيقة بعد لحظات .. تعال هنا .

قبض عليه من كتفه فى خشونة ، وأدار وجهه رغما عنه بعنف إلى حيث كانت المرأة ما زالت ترتجف قابعة فى ركن وهى تنظر حولها بهلع ثم أشار إلى الجنود فأتوا بالشمعة وأدنوها من وجهه .

— هل رأيت هذا الشخص قبل ذلك ؟ تكلمى يا إمرأة هل هو هذا الشخص الذى رأيتيه ليلة مقتل الجنديين ؟

لم تحر المرأة جوابا إذ عقد الهلع لسانها . دارت عيناها فى محجريهما قلقة غير مستقرة تنتقلان من الوجه الأسمر إلى الضابط .

— تكلمى يا امرأة .. أو لعل السوط يحل عقدة لسانك .

ازدادت المرأة إنكماشا . وهزت رأسها إيجابا . إنطلقت من حنجرة جادو صيحة رعب .. وتدفقت الكلمات من فمه .

— إنها كاذبة .. إننى لم أكن هنا فى هذه الليلة .. ولا فى أية ليلة أخرى .. إننى أنا الذى أبلغت عن إحتمال أن يكون الجنديين قد قتلا .. ألا ترى أنها كاذبة ؟! إضربوها .. إجلدوها تعترف بالحقيقة .. إنهم يريدون التخلص منى .. لقد رشوها ..

— أصمت .. إننى لا أريد عويلا .. لكن ربما كنت على حق .. أريد فقط أن تجيبنى إجابة مقنعة لماذا أتيت إلى هنا فى هذه الساعة ؟

— لقد قلت .. أتيت بناء على دعوتك .. لقد سرقها منى هؤلاء السكارى .

نظر إليه الضابط بحدة وقال بصوت صارم .

— إنك تتكلم عن ضباط جلالة الملك .. لاحظ الفاظك .

— لكننى أقول الحق .. لقد سرقوا الورقة .. بل الورقتين .

— لماذا ؟ .. وما هى الورقة الثانية ؟

— حتى لا أستطيع أن أثبت أننى أتيت بناء على دعوة سموكم ، أما الورقة الثانية فهى دعوة لمقابلة باقى المتآمرين وكان فى نيتى ان ارشدكم إليهم فأحضرتها .

— وكيف عرف الضباط بوجود هاتين الورقتين معك ؟

كان هذا هو السؤال الذى يخشاه . بان عليه التردد .. تحيرت الكلمات على شفتيه .. إن الورقتين وصلتا فى غضون ساعتين او ثلاث ولا بد ان الشبان السكارى كانوا فى هذه الاثناء جميعهم فى الحانة .. فكيف عرفوا ؟

— لا بد انهم دبروا الخطة ونفذوها .. اجل هم الذين دبروا الخطة .

لاحت شبه إبتسامة على وجه الضابط . إبتسامة خالية من المرح . وإذا أمكن القول فإنها زادت ملامحه قسوة .

— اتريد منى حقا ان اصدق هذه السلسلة من الأكاذيب انك تخرج من أكذوبة إلى أخرى ؟

أجاب جادو وقد تملكه هلع حقيقى .

— إن المتآمرين مجتمعون الآن قريبا من الأدغال .. انا اعلم مكان إجتماعهم .. سوف ارشدكم إليهم فتقبضون عليهم جميعا بضربة واحدة .. أرجوك ان تصدقنى .

بدا التفكير على وجه الضابط لحظات . هز رأسه بعدها موافقا . وقال يشير إلى جنده بأن يتبعوه .

— حسنا سوف نعطيك هذه الفرصة .. تقدمنا .. وإذا حاولت الفرار فأنت تعلم النتيجة .

ثم دحاجو بارتياح وسار أمامهم يتيمونه على بعد .. وصلوا إلى المكان المتفق عليه . ولم يروا أحدا . كاد أن يجن .. راح يصرخ بأن هذه مؤامرة حيكت ضده . وأنه مخلص للملك . والبرتغاليين .. ولم يستمع إليه الضابط أمر جنوده بالقبض عليه .. واقتادوه إلى حجراته .

فتشوها .. لم يدعوا فيها ركنا إلا نقبوا فيه ، وبعثروا محتوياته . وجدوا مبلغا وافرا من المال مخبأ في حشيات الفراش ، وداخل صندوق الملابس ، في مكان ظن أنه أمين ، عثروا على قناع أسود .. وقفاز أسود وكان هذا الدليل الدامغ الذى لارد له . نظر إليه الضابط وقد اكتسى وجهه قسوة بالغة .

— إذاً فأنت هو المتشح بالسواد . لقد وصلتنى شائعات عن نشاطك ولم أصدقها .. لكنك ماهر عرفت كيف تخفى شخصيتك.

صرخ التمس منكرا .. ردد كالمجنون أن هذه مؤامرة وأنه صديق وحليف البرتغاليين .. لكن صراخه واحتجاجته ذهبت دون جدوى .

عادوا إلى مقر المرأة ليأخذوها كشاهدة أمام محكمة التفتيش .. ولم يجدوا لها أثرا .. إختفت تماما . لابأس فإن فى أقواله ، وفي هذا الرداء الأسود الكفاية . وهنالك آلات التعـــذيب تفك عقال اللسان ، وسوف يعترف الجانى ولاشك .

وربما كان من الأصح ألا يكتب فى تقريره شيئا عن المرأة وشهادتها .. وإلا أخذ عليه رؤساؤه أنه لم يقبض عليها ، ولم يضعها فى السجن .. او حتى لم يترك حارسا معها ليتأكد من عدم فرارها . اجل إن الأوفق الا يكتب عنها شيئاً فى تقريره ، وإلا اتهموه بالإهمال .. ومن يدرى ماذا سيقوله وؤساؤه ايضاً ؟

أمر الضابط جنوده فأخذوا الرجل من ذراعيه .. جرجروه فى الطريق وهو ما يزال يصرخ كالمجنون مدعيا ان هذه مؤامرة ، وان الضابط نفسه مشترك فيها . إنهالت عليه ضرباتهم ، وركلهم ولم يكتفوا إلا بعد ان صمت تماما .. ولم يعد يتكلم او يصرخ ، وإن إرتفع نشيج بكائه من آونة لأخرى .

فى ركن مظلم من الطريق ، وقف شخص يشاهد ، ويستمع . حينما رأى الجنود ينهالون على الرجل ضربا تحول بعيدا عن المكان . رغما عنه تملكه بعض الأسى ثم لم يلبث أن نفضه عنه وتمتم لنفسه .

— لقد لاقيت ماتستحقه أيها النمام .

* * *

عند حافة النهر ، فى ظل أحد الأشجار الضخمة جلس خمسة أشخاص . كانت الساعة قد شارفت الثالثة صباحا . عمهم القلق ، فبعد قليل سوف يتبلج الفجر ، ولم يأت صاحبهم السادس . تكلم كريم بصوته المرح .

— أنا لا أعلم لماذا إستدعيتنا ياعبد الله ، وإذا كانت لك رغبة فى نزهة خلوية معنا فلست أعتقد أن هذا وقتها أو مكانها .

رد عليه عبد الله بصوت جاد .

— اننا فى انتظار جادو .. أو شخص آخر .

أضاف الجملة الأخيرة بصوت فيه أسى وحزن . كانت عيناه تدمعان ، فأطلق بصره إلى الأرض الممتدة أمامه . من ناحية المدينة رأى شبحين قادمين لم يتبينهما . رآهما أصدقاؤه أيضا فى اللحظة نفسها ، فوقفوا مستعدين بخناجرهم . إزداد دنو الشبحين وبدأ عبد الله يتبين . سقط قلبه بين ضلوعه .. ضاع منه آخر خيط من الأمل الذى كان ما يزال يراوده .. لم يكن أحد القادمين إبن عمه جادو .

دهشت الجماعة وهم يشاهدون القادمين . كان أحدهما متشحا بالسواد لا يبين منه شىء ، أما الآخر فكانت إمرأة تحمل طفلها . لم يلتفت إليهم الرجل ، وإنما تقدم حتى وقف أمام عبد الله تماما ثم قال كلمتين .

— محاكم التفتيش .

كتم عبد الله شهقة كادت أن تصدر منه وتساءل .

— ألم تكن هناك طريقة أخرى .

— لا أظن .

إلتفت المتشح بالسواد إلى المرأة التى وقفت تنتفض والطفل نائم على كتفيها . أمسكها من ذراعها وقادها برفق إلى أن جابهت عبد الله .

— عليكم الرحيل الليلة .. الآن .. خذوها معكم فلا بقاء لها فى المدينة .. لا تعودوا لفترة .. فلا أحد يدرى .

هز عبد الله رأسه إيجابا .

— ستكون فى حمانا حتى تصل إلى حيث تريد .. لقد رتبت الأمور هنا وسيتولاها غيرنا .. إليك هنا عناوينهم وأسماءهم . الا تفكر فى المجىء معنا .

— مازال أمامى طريق طويل .. وعر .. فى رعاية الله .

لم ينتظر إجابة ، وإستدار تاركا الرجال الخمسة والمرأة ، والطفل . راقبه الجميع حتى إختفى فى الظلام .

* * *

فى حجرة حقيرة ألقى جسده المنهك على الفراش . راح لسانه يتمتم ببعض الآيات القرآنية .. لكن تفكيره لم يكن بكامله فى تمتماته .. طار خياله إلى سجن مظلم كئيب. إنهصر قلبه رحمة ، وأسى على أخ مسلم حاد عن الطريق ، وينتظر الآن برعب محاكم التفتيش ، وأدوات التعذيب . رغما عن إرهاقه الشديد مضت فترة طويلة قبل أن يغلبه النوم ويضع حدا لتفكيره فى النمام .

الفصل الثامن

المعركة الحربية

الرياح هادئة ، والجو دافىء ، ونسمات لطيفة تداعب أشرعة المراكب التى كانت تشق صفحة مياه المحيط فى رشاقة وإقتدار . شارك القمر بنصيبه ليتم جمال المنظر . فأرسل أشعته تضفى الوانا وظلالا . تصبغ على السكون المنبسط حيوية أخاذه .

تتالت المراكب الست ، وقد فردت أشرعتها جميعا تلتقط النسمات الخفيفة التى تجود بها الرياح ، وتألقت المصابيح فى قمراتها فبدت وديعة لاتنبىء عما تحمله فى جوفها من سبل الموت والدمار . كانت مراكب حربية برتغالية ، إثنتان تحمل كل منهما ستين مدفعا واثنتان تحمل كل واحدة ثمان وثلاثين مدفعا ، وكل واحدة من السفينتين الباقيتين عشرين مدفعا ، فى تجوال تفتيش على المستعمرات .

لقـــد سقطت هرمز فى يد الشاه ، وتزلزلت هيبة البرتغال . كان لابد من مظاهرات حربية تبدى فيها الإمبراطورية قوتها فأرسلت أساطيلها تجوب البحار ، كل أسطول من ست مراكب .

صحيح أنهم يكونوا يستطيعون شن أى هجوم ، خاصة بعد أن فقدو جزءا كبيرا من ذخائرهم وبعد أن ظهرت بصورة قوية أساطيل هولاندا ، وانجلترا ، وفرنسا بل والدنمارك ، فى المحيط . وصحيح أيضا أن الأوامر التى ألقاها نائب الملك عليهم هى أن يبتعدوا عن إشتباك حربى قدر إستطاعتهم ، لكن هذا لم يمنعهم من إستعراض قواتهم ، ولا من التصدى لمراكب التجارة الصغيرة .

فى حجرة واسعة فى أعلى سطح مركب القيادة حول مائدة مستطيلة جلس خمسة أشخاص . دون فرنسيسكو دى مـــورا قائد فرقة الجيش ، ومساعده

الضابط روى فرير داندرادى ، وقائد المراكب الست ، دوم رودريجو بوتللو ، وقائد ثلاث مراكب اندروفيلو ، وربان مركب القيادة جاودا فوسيكا .

أمامهم وضعت أكواب الشراب وقنينة مملوءة بالنبيذ . كانوا يتناقشون عن جولتهم التفتيشية . لقد اتخذوا طريقهم من جواردا فوى إلى ممحار ، واتجهوا منها جنوبا إلى مسقط ، ثم قريات ، وأغرقوا بعض مراكب صيد العرب ، لا لشيء إلا ليدللوا على قوتهم . إختلفوا على إتجاههم بعد هذا ، فكان من رأى داندرادى أن يتجهوا نحو مالندى ثم جنوبا إلى ممبسة ، وكلوه وغيرها من المستعمرات على الساحل الشرقى لأفريقيا . إتخذ دى مورا رأيا معاكسا مقررا الاتجاه أن يكون أولا إلى الجنوب ثم تكون العودة شمالا عن طريق الساحل الشرقى عند تغير اتجاه الرياح الموسمية . قال داندرادى مدافعا عن رأيه .

— لكن ياسيدى القائد إن هذا قد يؤدى بنا الى الإلتقاء بالأسطول الهولندى فهذه المياه منطقة تجواله .

أشاح دى مورا بيده مستخفا بالرأى .

— إننا لن نهرب من الهولنديين ، وإذا أرادوا معركة فأهلا بهم .

ظهر الامتعاض على داندرادى وهو يرد .

— إننى لم أقصد أن نهرب منهم ، وإنما أوامرنا ان نتفاداهم فلاداعى لأن نتوجه إلى مياههم .

— ما رأى إخواننا رجال الأسطول ؟

تكلم دون رودريجو قائد المراكب الست .

— إننى أوافقك فالرياح تساعدنا ، ومع التيار يسهل علينا جدا الإتجاه إلى الجنوب الغربى ، وربما نستغرق وقتا لو اتجهنا إلى الغرب ثم إلى الجنوب . ما رأيك انت يافيلو ؟

— إننى معك إننا لو اتجهنا إلى الجنوب الغربى فربما يكون هذا أسرع وإن كنت أعتقد من ناحية أخرى أن رأى صديقى دوى لايخلو من وجاهة .

— وأنت ياقبطان دافوسيكا مارأيك ؟

اعتدل القبطان الشاب فى جلسته وقال بصوت قوى واضح .

— انى من رأى السيد الضابط داندرادى ياسيدى فقد سمعت أن السفن الهولندية أضحت ذات طابقين من المدافع ، وأنها تحمل سبعين مدفعا ، وذات ستة شراعات فبذلك تكون أسرع وأقوى من سفننا وربما كان يكون من المستحسن ألا نحتك بها إذا لزم الأمر .

المرة الثانية طرح دوم فرنسيسكو دى مورا بيده استخفافا بالرأى .

— آه .. هؤلاء الهولنديون ، إنهم شعب حقير لم يكد يعد يتخلص من ربقة العبودية التى فرضها عليهم إخواننا الأسبان وهم لايفقهون شيئا فى شئون الحرب أو الملاحة .

— لا أعتقد ياسيدى أنك تفيهم حقهم فقد تطوروا بسرعة مذهلة . ودعنى أذكرك أيضا ياسيدى اننا لم نزل الفطريات من قاع السفن منذ مدة ، وربما بثقلها هذا بالإضافة إلى احتمال تفتت الأخشاب[1] .

— لا أظنك تخشاهم ياقبطان !

— لاياسيدى .. لكن الأوامر الصادرة لنا ألا نحتك بهم ولعل من الحكمة ألا نفعل .

قطب قائد الحملة مابين حاجبيه ثم انهى المناقشة بلهجة صارمة .

— دعنى أذكرك ياقبطان انى هنا القائد وأوامرك إنما تصدر منى فحسب . اننا سنتجه جنوبا .

لم ينتظر إجابة ومد يده الى كأسه يرفعه الى شفتيه فى حين قام القبطان من مكانه وخرج من الحجرة ليعطى البحارة أوامره .

* * *

(١) لم يكن تبطين القاع بالنحاس قد عرف حتى هذا التاريخ ولذلك كانت الفطريات البحرية من أكثر مايشغل بال القباطنة إذ تثقل حركة السفن ، وتفتت الخشب لما يعرضها للمهالك بسهولة ولقد كان يلزم إزالة الفطريات العالقة فى أوقات متقاربة .

عند مؤخرة السفينة وقف الصديقان الصغيران . سمعا أوامر القبطان ، ولاحظا ان الاتجاه قد تغير منحرفا نحو الجنوب الغربى . كانت هذه أول رحلة بحرية لهما بعد فترة المران الطويلة فى الجيش . صادفهما جو جميل منذ بدايتها ، لهذا قضيا سويا وقتا ممتعا . لم يكونا من رجال البحر ، وإنما من جنود[1] الجيش ، فلم يكن لهما عمل طوال الأيام الماضية سوى ما يطالب منهما من مران وتدريبات .

على ان التدريبات بالنسبة للشابين كانت فى حد ذاتها متعة ، سواء أكانت تدريبات على إستعمال أنواع السلاح المختلفة ، أو المصارعة اليدوية . كان جيرونيمو يبدى إهتماما شديدا ، وجدية حتى فاق زملاءه فى جميع فنون القتال . لم يكن يمل من المبارزة ، أو المصارعة كما أضحى يعلم كل شىء عن المدافع المختلفة ، البرونزية ، والحديدية ، وكيفية إستعمالها ، وكيفية اطلاقها ، وتصويبها ، وما تحتاجه من كميات البارود للمسافات المتباينة .

أضحى يعلم كل شىء يمكن ان يتعلمه ، ولم يبق عليه إلا ان يطبق العلم على العمل فى قتال حقيقى ، لهذا كان يتلهف على أية فرصة يستطيع فيها ان يثبت مهارته . كانت حيويته فياضة إلى درجة تدعو إلى الاعجاب . كان لا يمل أو يكل وهو يبارز أترابه الواحد تلو الآخر دون أن يبدو عليه أى أثر للتعب ، وما يكاد أن ينتهى حتى اتجه إلى أحد المدافع يجلس إلى جواره يتمعن فيه ويتحسس كل جزء منه حتى أن زملاءه كانوا يتغامزون عليه ضاحكين بأنه قد وقع فى غرام المدفع .

كان الصديقان يقفان فى صمت وهما يرقبان صفحة المياه التى تنساب فى هدوء خلفهما ، وأضواء السفن الخمس تبدو على أبعاد متفاوتة . وقال دون ديوجو .

— لقد غيرنا اتجاهنا أليس كذلك ؟

هز جيرونيمو رأسه إيجابا دون أن يتكلم .

نحو الجنوب .؟

---

(١) لم يكن البحارة فى هذا العهد من القوات المقاتلة ، وانما كان عملهم ينحصر فى توجيه السفينة فقط ، وكانت السفن تحمل رجال الجيش للقتال .

ـ أجل .

ـ لكن أليس في هذا خطر ملاقاة السفن الهولندية ؟

رفع جيرونيمو نظره عن المياه وبان الاهتمام فجأة على وجهه وسأل صديقه .

ـ أتظن ذلك حقا ؟

ـ أجل فإنني أعلم أن الهولنديين لا يذهبون إلى مستعمراتهم في الهند عن طريق موانى شرق أفريقيا وإنما يتوجهون من رأس الرجاء الصالح[1] في خط يكاد أن يكون مستقيما إلى سورات وغيرها ، وهم يقولون إنهم بهذا يتفادون الرياح الموسمية .

ظهر الانشراح على وجه جيرونيمو وهو يقول .

ـ إذاً فربما نشاهد بعض الحركة !

جاء صوت من ورائهما مباشرة .

ـ لن ترى أنت شيئا أيها العربي فإننا لا نثق أن تدير المدفع في اتجاهنا لتطعننا في ظهورنا .

إلتفت الشابان مندهشين نحو المتكلم . كان الضابط بدارا فاريزدي كاستايرانكيو يقف وراءهما وقد ثبت ناظريه على وجه جيرونيمو . بدت نظراته توحي بالحقد الشديد الذي يكنه للشاب ، كما تلاعبت على شفتيه إبتسامة تشفي واحتقار ، وحينما واجه الشابان إستمر في كلامه .

ـ إنك سوف تبقى في خدمة الضابط داندراي فهذا أنسب عمل لك وأمثالك .

إتقدت عينا ديوجو غضبا وخاطب الدخيل بحدة .

ـ ما شأنك بجرونيمو يا بدار فارين ؟

هز الضابط الشاب كتفيه .

ـ لاشيء سوى انني لا أحب الأعراب ولا أثق فيمن يغير ويبدل في جلده منهم . خذ مثلا صديقك هذا . فهو من أصل عماني وربما أيضا كانت فيه دماء فارسية ،

---

(١) لم يكن هذا الاسم قد أطلق بعد وكان اسمه رأس العواصف لكن تسهيلا للأمر سايرت الاسم المعروف به الآن .

وربما هنـــدية ، وكذلك إفريقية ، وهو الآن يحاول أن يكون برتغاليا . حتى دينه غيره وبدل فيه .

كان يتكلم باحتقار . إزداد ديوجو غضبا بينما لم تتحرك عضلة واحدة فى وجه جيرونيمو واستمر ينظر إلى فاريز وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة . رأى أن ديوجو لم يعد فى استطاعته تمالك أعصابه ، لهذا تدخل قائلا بهدوء .

ـ ربما كنت محقا ياحضرة الضابط وان كنت لاأرى فى أى من الأناجيل أية تفرقة بين جميع الجنسيات التى ذكرتها وهذا يذكرنى بدوره بأنه لم يمض وقت طويل جدا منذ أن كان الأعراب يحتلون البرتغال نفسها ، ولابد أن دماءهم جرت فى كثير من الدماء البرتغالية ، هذا طبعا عدا القوزيجوت ، والفينيقيين ، والاغريق ، والرومان ، بل والأسبان أيضا .

دون مقدمات فقد بدرا فاريز أعصابه . ارتفعت يده لتهبط على وجه جيرونيمو ، لكنها توقفت فى منتصف المسافة إذ قبضت عليها يد حديدية فى حين إندفعت اليد الأخرى لتضربه بعنف فى معدته . إنحنى بدرا فاريز من أثر الضربة وقبل أن يعتدل كان جيرونيمو قد ترك المعصم الذى يقبض عليه ، وطوح قبضته فى لكمه التقت بوجه غريمه بقوة جملته يتراجع خطوات قبل أن يقع على سطح السفينة .

بقى بدرا فاريز فى مكانه لحظات ، ثم قام ببطء شديد حتى اعتدل فى وقفته وراح يمسح بيده بعض الدماء التى سالت من فمه . ومن بين أسنانه صدر صوت هو أقرب إلى فحيح الأفعى .

ـ سوف تدفع ثمن ذلك حياتك أيها العربى .

امتدت يده إلى منطقته بسرعة ، وسحب خنجره ، فى حين وقف جيرونيمو مكانه يرقبه بعين لاتغفل ، دون أن يحاول أن يسحب خنجره بدوره . تدخل ديوجو محاولا التهدئة . تقدم خطوتين وأمسك بذراع فاريز .

ـ مهلا يابدرا فاريز لاداعى للقتال ولاتنسى أنك الذى بدأت بالتحرش . دعنا نتمالك أعصابنا .

بوحشية من فقد عقله نفض بدرا فاريز ذراعه من يد ديوجو ودفعه بقوة بعيدا عنه حتى أن الشاب الصغير تراجع خطوات إلى الوراء وكاد أن يسقط على الأرض . لم يكن من شك فى أن قتالا حتى الموت سوف ينشب فى الثوانى التالية بين الإثنين لولا أن صوتا آمرا وصل إليهما فى اللحظة المناسبة . ماهذا ؟ قفا حيث أنتما التفت الاثنان إلى مصدر الصوت . أبقوا إلى أعلى الدرج المؤدى إلى حجرات القبطان الضابط داندرادى واقفا وهو ينظر إليهما . اعتدلا فى مكانهما منتظرين هبوطه نزل ببطء حتى جابههما وقال بلهجة صارمة .

— مامعنى هذا ؟ قتال بين ضابطين على سطح سفينة حربية ونحن فى مياه أعداء ! ؟ هل تعلمان معنى هـــذا ؟ إن مؤاده آن تقدما إلى محاكمة عسكرية . وأنت ياديوجو لماذا لم تمنع هذا القتال ؟

وقف الشبان الثلاثة صامتين .. ولما لم يبد على أحدهم أى استعداد للكلام استمر الضابط .

— ألا يريد أحدكم أن يخبرنى بما حدث ؟ حسنا سوف تقدمون أنتم الثلاثة إلى المحاكمة .

قال جيرونيمو بصوت هادىء .

— لعل الضابط بدرا الفاريز ياسيدى كان يريد أن يصور لنا كيف يكون القتال بالخناجر حتى نحسن لقاء الهولانديين . .

كان يتكلم بصوت لاأثر فيه لأى انفعال أو عاطفة . كان الكلام يحمل أكثر من معنى ، وانما فتح الباب أمام الضابط إن شاء أن يغض الطرف عما حدث . فهم الضابط ، وآثر أن يتناسى الموضوع فقال بلهجة من يستدرك خطأ .

— آه .. أهذا كل مافى الأمر هو تدريب إذاً .. لابأس استمرا لكن حذار أن يجرح أحد فإننا فى حاجة إلى كل ضابط .

رفع يده بالتحية العسكرية ، وسار إلى الناحية الأخرى من السفينة ، وما كاد أن يبتعد قليلا حتى التفت بدار فاريز إلى جيرونيمو وحدجه بنظرة ملؤها البغض والكراهية .

— لقد نجوت الآن بحياتك أيها العربى ، لكنك لن تفلت من يدى وسيأتى يوم تدفع فيـــه ثمن ما فات .

قال هذا وإستدار على عقبيه منصرفا إلى قمرته .

* * *

هب كل من فى السفينة من نومهم فزعين على أصوات النواقيس وهى تدق منذرة . إندفع كل منهم إلى ملابس الحرب يرتديها فقد علموا معنى النواقيس . على سطح السفينة كان الرجل فى برج المراقبة يصرخ أنه شاهد ثلاث سفن إلى اليسار وتحقق من أنها هولندية الجنسية .

قفز جيرونيمو من فراشه . في دقائق معدودة إرتدى عدة الحرب . وإلى جواره كان ديوجو قد انتهى بدوره من إرتداء عدته ، وأسرع الأثنان إلى سطح السفينة . بدا أن كل ضابط وجندى منهمك في مهمة . إتخذ الجنود مواقفهم سواء وراء المدافع ، أو على السطح . استعد كل طاقم وراء مدفعه ، وبدأوا يعدونه للاطلاق . شاهد جيرونيمو بعضهم يحمل الذخيرة ليضعها في متناول اليد ، وآخرون يعملون بسرعة لوضع القذائف ، وحشو المدافع بالبارود .

رأى البحارة وهم يهرعون فى مهماتهم المتعددة ينفذون الأوامر التى كان يصدرها الربان وضباطه . وعلى السـطح الأعلى الخاص بالربان وقف القائد دى مورا ومساعده داندرادى ، وبوتللو قائد ست سفن ، واندروفيلو قائد الثلاث سفن . أما ربان السفينة نفسها فقد كان منهمكا فى مهامه المختلفة . من برج المراقبة إرتفع صوت المراقب .

— ثلاث سفن حربية هولندية الى اليسار . لايدن ، أربعة وسبعون مدفعا ، فريد جهيد ، أربعة وسبعون مدفعا ، سوبيروس ستون مدفعا .

تـكلم دى مورا بصوت هادىء .

— هل تعتقدون يا سادة أن الهولنديين سوف يهاجموننا ؟

تولى بوتللو الرد .

— لا شك فى ذلك ياسيدى إذ أنهم يعتبرون هذه المنطقة من المحيط من مناطق نفوذهم واننا اعتدينا عليهم .

لم يبد على القائد أنه تأثر كثيرا برأى ربان السفن الست .

— هراء إننى لا أتصور أنهم يجرؤون على هذا فلدينا ضعف عدد سفنهم .

— لكن لديهم عدد من المدافع يوازى تقريبا ما لدينا .

بغرور متناهى رد عليه دى مورا .

— كلا ياصديقى لاأعتقد أنهم يجرؤون بالرغم من هذا ، بل إن من حسن حظهم أن أوامرنا ألا نهاجم والا لطاردناهم وأغرقناهم و . . .

قطع صوت المراقب جملته فلم يتمها .

— السفن الهولندية تبتعد عن بعضها مكونة نصف قوس ، فردت جميع أشرعتها وتتقدم نحونا بسرعة .

إرتفع صوت دى مورا غاضبا .

— إنهم مجانين . سوف نلقنهم درسا لن ينسوه .

هنا تدخل داندرادى .

— سيدى إن أوامرنا أن نبتعد عن المعارك وإنى أقترح أن نستفيد من أن الرياح معنا .

إلتفت إليه دى مورا والشرر يتطاير من عينيه .

— أتقترح أن أفر أمامهم ؟ هل وصل بك الجبن إلى هذا الحد ؟ أفر من قتال الهولنديين ولدى ضعف عدد سفنهم ؟ ماذا عن كرامة الامبراطورية البرتغالية ؟ كلا .. كلا .. لن أفر أمامهم .. إن أرادوا قتالا فسوف نصليهم نيرانا يتمنون معها لو أنهم كانوا أكثر حذرا ...

دوم بوتللو عليك بإصدار أوامرك إلى السفن بالاستعداد للقتال ، وان كنت لا زلت أستبعد . . ..

لم تتم الجملة هذه المرة أيضاً فقد دوى فى الفضاء صوت طاقة مدفع وسقطت قذيفة فى البحر بعيدا عن السفينة .

قال دى مورا ساخرا .

— إنهم حتى لا يحسنون التصويب .. دعنا نريهم ما يستطيع البرتغاليون .

— كلا ياسيدى إنهم يجربون مدى مدافعهم .. وبعد إذن القائد أعتقد أنه من المستحسن ألا نتعجل فى الرد فليس لدينا ذخيرة كافية .

كان المتكلم هو اندرد فيلو ، قائد ثلاث سفن . وبدا أنه على حق فيما قاله من أن الهولنديين انما يجربون فقط مدى مدافعهم إذ أنهم لم يحاولوا أن يطلقوها مرة ثانية ، وإستمرت سفنهم تندفع بأقصى سرعتها .

هبط داندراى الدرج وصحبه فيلو بحجة الأشراف على الاستعدادات ، وما أن إبتعدا قليلا عن مرمى سمع دى مورا حتى قال فيلو .

— إن صاحبك أحمق ولو اطعناه فسوف نصير جميعا طعاما للاسماك قبل أن ينقضى النهار .

نظر إليه داندراى وقد إرتسمت على وجهه علامات تفكير عميق ثم أجاب .

— لست أدرى يافيلو . لدينا ضعف عدد سفنهم ، ولا شك أن هذه ميزة كبيرة اذ تعنى سهولة حركة المدافع ومرونة فى استعمالها . على أى الأحوال إنه القائد ولا سبيل لمناقشة فى آرائه .

ترك داندراى صاحبه بعد هذا ومضى ليلقى أوامره الى مرءوسيه ويشرف على التنفيذ . تولى توزيع ضباطه ليشرف كل منهم على مجموعة من الجنود وعدد من المدافع . وكان من سوء حظ جيرونيمو أن بدرا الفاريزكان هو ضابطه المباشر . لم يتوان الضابط عن أن ينتهز الفرصة ليحط من كرامته ، فألقى اليه أوامره باحتقار شديد ، وأسند اليه مهمة نقل البارود إلى مواقع المدافع ، وهى مهمة الى جانب أنها شاقة لم يكن من المعتاد أن يقوم بها أولئك الذين يخدم الجيش البرتغالى

ليكونوا ضباطاً على أنه من ناحية أخرى اسند الى ديوجو مهمة مساعد مدفعى .

لم يحاول جيرونيمو أن يعترض على الأمر ، وأخذ فى التنفيذ دون تلكؤ . ومضت ساعة قبل أن يبدأ القتال الحقيقى ويرى لأول مرة معركة بحرية حقيقية .

تقدمت سفن البرتغال فى صف واحد مستقيم تواجه عدوها على مسافات متباعدة متساوية تقريبا ، فى حين تقاربت سفينتان من السفن الهولندية من بعضهما تاركتين السفينة الثالثة ، لا يدن ، سفينة القيادة بمفردها تتلكأ بعيدا عنهما .

لم يتوان دوم بوتللو عن انتهاز الفرصة . حرك ثلاث سفن ، سفينة القيادة ذات الستين مدفعا ، وسفينة أخرى ذات ثمانية وثلاثين مدفعا ، وثالثة ذات عشرين ، واندفع بها جميعا لتدخل بين السفينتين الهولنديتين وسفينة قيادتهما حتى يفصل بين سفن أسطول أعدائه ، وترك السفن الثلاثة الباقية لتجابه السفينتين فريد يجهيد وسربيروس .

كانت مناورة بارعة لو أنها أفلحت فربما قضت على السفن الهولندية . لكن يبدو أن الهولنديين كانوا قد عملوا حسابهم ، بل لعلهم خططوا لها ، واعتمدوا على أن القائد البرتغالى لا شك سوف ينتهز الفرصة ليفصل سفن أعدائه عن بعضها ويستفيد من تفوقه العددى . انحرفت السفينتان بعيدا عن مرمى مدافع السفن البرتغالية المتوسطة مندفعة فى الوقت نفسه نحو السفن الثلاث الأخرى .

فجأة فتحت المدافع أفواهها لتلقى حمما . انطلقت خمسون قذيفة أو تزيد من السفينتين الهولنديتين لتسقط جميعها نحو السفينة البرتغالية ذات الستين مدفعا . لم يهتم الهولنديون بالرد على السفينتين البرتغاليتين الصغيرتين إلا بقدر من المناوشة محدود . تقبلوا القذائف التى راحت السفينتان تمطرهما بها ، وركزوا جهودهم على السفينة ذات الستين مدفعا .

سقط صاريها الرئيسي ، وتمزقت شراعاتها ، وتناثرت قطع الأخشاب من جوانبها تطير في الفضاء ، وتعالت في جوانبها صيحات الجرحى مختلطة بأصوات وأوامر الضابط والقادة . وبحركة ملاحية بارعة استدارت السفينتان الهولنديتان لتلقيان حممهما من مدافع جانبيهما الآخرين .

تغيرت الأهداف فاختصت مدافع إحدى السفينتين بالبرتغالية الكبيرة ، بينما انصبت حمم الثانية على السفينتين الباقيتين . لم يكن قد مضى على الاشتباك أكثر من ساعة ، ومع هذا فقد اضطرت السفينة البرتغالية ذات الستين مدفعا إلى الخروج من المعركة . راحت تطلق مدافعها دون تأثير حقيقي ، وتراجع بها ربانها محاولا الابتعاد عن مرمى مدافع أعدائه .

في هذه الأثناء كانت سفينــة القيادة الهولندية ، لايدن ، تطلق مدافعها على السفن الثلاث البرتغالية وهي تبتعد قدر استطاعتها عن مرمى المدافع دون أن تركز جهودها كاملة في الفرار . وأدرك بوتللو الخدعة . أدرك أن لايدن قد استدرجت ثلاث سفن لتبعدها عن المعركة الدائرة على أشدها . بعجلة اصدر أوامره بتغيير الاتجاه . ترك سفينة القيادة الهولندية في فرارها واتجه بأقصى سرعته لنجدة باقي قطع أسطوله .

على أن لايدن لم تفر . ما أن رأى ربانها أن السفن الثلاث البرتغالية قد غيرت إتجاهها عائدة إلى المعركة ، حتى استدار بدوره وراح يطاردها .

حينما وصل بوتللو بسفنه إلى مكان المعركة الدائرة انعصر نابه حزنا . رأى السفينة ذات الستين مدفعا وهي تترنح بعيدا على صفحة المياه في حين وقفت السفينتان الباقيتان تغطيان بشجاعة انسحابها ، وتلقيان جزاء لهما ضربات قاسية من الهولنديتين الأكبر حجما ، والأحسن تسليحا . علمت عيناه الخبيرتان أن السفينة الصغيرة ذات العشرين مدفعا قد تلقت كل ماتستطيعه من ضربات ، وأن رفيقتها ذات الثمانية وثلاثين مدفعا لم تكن في حالة أحسن منها كثيرا . دارت عيناه في الأفق الممتد أمامه لتشاهد السفينة الهولندية الثالثة ، لايدن ، تندفع نحوهم بأقصى سرعتها وقد فردت جميع شراعاتها تتلقف الرياح .

أيقن أنه لن يكون لديه أى أمل فى إنقاذ قطع أسطوله الباقية إذا لحقتهم لايدن ودخلت المعركة . بسرعة حزم رأيه . إذا كان لابد له أن يضحى فيجب أن تنصب التضحية على سفينته . أصدر أمره إلى السفينتين بالاشتراك فى المعركة الدائرة بينما توجه بسفينته لمجابهة خصمه الأقوى وهو يعلم أنه ليس ندا له . إنحصر أمله فى أن السفينتين الهولنديتين لم تكونا فى أحسن حالاتهما فقد تلقتا بدورهما ضربات شديدة من الأسطول البرتغالى وأن مجابهتهما لأربع سفن سوف يكون عسيرا جدا ، خاصة وأن اثنتين من السفن الأربع لم تكونا قد دخلتا المعركة حتى الآن .

كانت خطته أن يوقف انضمام لايدن إلى السفينتين الهولنديتين ، وأمله أن يطيل من بقاء سفينته على سطح المياه أطول مدة ممكنة عسى أن تتمكن احدى سفنه من اللحاق به ومد يد المعونة إليه فى الوقت المناسب ، وربما إذا حدث هذا ، يستطيع أن ينجو ومن معه من الموت غرقا .

اعتلت الشمس كبد السماء تحاول أن ترسل أشعتها من خلال السحب إلى سطح المياه . وهبت نسمات باردة من الجنوب تدفع أمامها السحب تغطى وجه السماء . وشيئا فشيئا اشتدت الرياح تتلاعب بسطح المياه . وارتفعت الأمواج تتلاطم مع بعضها ، وتضرب جوانب السفينة بشدة . لم تكن الرياح قوية تبلغ فى مداها العاصفة ، لكنها كانت كافية لأن تغير من هدوء المحيط الذى ساد طوال الأيام السابقة ، وراحت الأمواج تتلاعب بالسفن المقاتلة حتى أضحت اصابة الهدف أمرا عسيرا .

كان الوقت قد جاوز الظهيرة حينما بدأ الاشتباك بين سفينتى القيادة . أرسلت لايدن وابلا من القذائف تمطر بها سفينة القيادة البرتغالية . لقد أدرك القائد الهولندى خطة غريمه وفهم أنه يضحى بنفسه وسفينته فى سبيل إنقاذ باقى قطعه ، وأنه لاأمل فى النجاة ، وإنما أمله في مجرد تأخير اشتراك سفينة قيادة أعدائه مع باقى السفن فى المعركة الضارية التى تدور رحاها على بعد فراسخ معدودة لهذا كان يريد أن يقضى عليه فى أسرع وقت مستطاع .

لم يكن بوتللو رغم الخطأ الذى تردى فيه أول الأمر قائدا سيئا . كما أن فوسيكا ، ربان السفينة ، كان بحارا ممتازا أدرك أن اضطراب المياه نجدة أرسلتها السماء إليه إذ أن ارتفاع الأمواج سوف يمنع الربان الهولندى من إستعمال الطابق الأسفل من المدافع ، فيقلل بذلك من فارق القوة بالإضافة إلى أن اصابة الهدف عموما أضحت أصعب كثيرا ، مما قد يعطيهم فرصة أطول للمقاومة لهذا عمد إلى الامتناع عن الاشتباك مفضلا أن يستعمل مدافعه ليضطر خصمه إلى البقاء بعيدا عنه .

أمر باطلاق نصف مدافع جانب السفينة فقط دون الباقى . وشاهد قذائف خصمه تتساقط فى المياه حوله وأصابت سفينته بعضها ، لكنها كانت جميعا إصابات جانبية بسيطة لم تحدث أثرا يذكر .

استمر القتال بين سفينتى القيادة أكثر من ساعتين ، وبدأ الأمل يعاود بوتللو فى أنه سوف ينجو ببحارته وسفينته من موت محقق . كان يمكنه ان يشاهد فى الأفق السفن الأخرى وهى تتقاتل ، بل أن صوت مدافعها كان يصله أحيانا . أدهشه ان تستطيع السفينتان الهولنديتان الاستمرار فى القتال طوال هذه المدة ضد قوة تزيد على ضعفها ، لكن الذى لم يعلمه أنه فقد إحدى سفنه ذات العشرين مدفعا ، تلك التى بدأت القتال فى أول المعركة ، فإن السفينة الصغيرة كانت قد تلقت من الضربات فوق مايستطيع ان تتحمل ، وحينما بدأت الأمواج تلطمها تسربت المياه بشدة إلى الداخل ، ولم يستطع البحارة ان يوقفوها فهجرها منهم من استطاع ، ولم تمض ساعة إلا وكان البحر قد ابتلعها .

لم يكن بوتللو يعلم هذا ، ولم يكن يعلم ان حالة السفن جميعها ، بما فى ذلك سفن أعدائه ، أضحت سيئة حتى ان أمل كل المتقاتلين كان هو الخروج من المعركة الدائرة . ولعله من حسن حظه أنه لم يعلم ، إذ لو علم ، لعلم أيضا انه لن تأتيه النجدة . وافتقد كل أمل فى النجاة .

لعل ربان السفينة الهولندية ، لايدن ، قد أحس بدوره أن القتال قد إستغرق

أكثر مما ينبغى وأن خصمه يحاوره ، ويبتعد عن مرمى مدافعه ما استطاع ، فأراد أن ينهى القتال فى أسرع وقت . بجرأة بالغة فرد جميع الأشرعة ، واندفع بسفينته . راحت الرياح تضرب فى الشراعات بقوة رهيبة . وترنحت السفينة معها حتى خيل لبوتللو أنها ولا شك سوف تنقلب على أحد جانبيها .

تناقصت المسافة بين السفينتين بسرعة رغم كل محاولات فوسـيكا فى المناورة ، وانطلقت القذائف من المدافع الهولندية ، وفى هذه المرة أصاب الـكثير منها السفينة البرتغالية . تطايرت أجزاء منها ، وأصابت قذيفة أحد المدافع فإنفجر ، وقتل كل طاقمه ، وانـكسر أحد الشراعات الصغيرة العليا فسقط من حالق ليهبط على بعض الجنود ، والبحارة فيقتل منهم عددا ويجرح آخرين ، واخترقت قذائف بعض الشرعات حتى بدت مهلهلة تعصف بها الرياح ، وسقطت أخريات على السطح الأعلى فهشمت بعض أجزائه واحدثت ثقوبا به .

على أن هذه جميعاً كانت أضرارا محتملة على جسامتها فلم تسكن تخرج السفينة من القتال ، أو حتى تقال من قوتها كثيرا ، لدقائق ، توقفت الهولندية عن إطلاق قذائفها إذ يبدو أن ربانها لم يجد أن المناورة بها يسيرة فى هذا الجو . وانتهز داندرادى الفرصة وراح يصليها بدوره وابلا من النيران . كان شعلة متوقدة من النشاط ينتقل بين ضباطه وجنوده غير عابئ بالقذائف تتساقط حوله .

رآه جيرونيمو وهو يأمر بعض الجنود برفع جزء من صارى سقط على السطح يعوق الحركة . ورآه مرة أخرى وهو يساعد بنفسه فى نقل الجرحى بعيدا عن منطقة القتال ، وشاهده مرة ثالثة وهو يوجه طاقم أحد المدافع .

لـكن هذا النشاط ، لم يكن يجدى كثيرا أمام القوة المتفوقة . بدا هذا جليا فى الدفعة التالية من القذائف التى راحت تنهال تباعا على السفينة تزيد من جسامة الأضرار ، والخسائر التى لحقت بها ، وتسكت بعض مدافعها نهائيا . كرجل كهل منهمك بدأت قوى السفينة تخور . تباطأت حركتها فلم تعد طيعة لينة فى يدى

ربانها فوسيكا . وارتفع من سطح الربان صوت دى مورا ساخطا متبرما يلقى سلسلة من الأوامر التى لم يكن داندرادى يتوانى عن إهمالها إذا ما رأى مصلحة فى ذلك .

وفجأة حلت الكارثة . كان جيرونيمو يحرك أحد براميل البارود حينما أصابت قذيفة صاريا . رآه وهو يتكسر ويهوى على السطح ، ولاحظ أن داندرادى يقف تحته مباشرة وهو منهمك فى توجيه طاقم أحد المدافع . لم يكن من شك فى أن كتلة الخشب الضخمة لو سقطت عليه فإنها سوف تقتله . بسرعة خاطفة قفز ليقذف بنفسه فوق ضابطه ، ويدفعه بعيدا عن مكان الخطر . لكنه لم يفلح تماما .

سقطت الكتلة الخشبية على السطح محدثة دويا هائلا . أصاب طرفها ساق داندرادى كما هبط جزء فوق طاقم المدفع ليسحقهم تحته . وقع داندرادى على الأرض وأحس بألم هائل فى ساقه يندفع كالسهم إلى رأسه . للحظات أصابه ذهول فلم يعد يدرى ما حدث تماما ، وحينما عادت إليه حواسه كانت أحاسيسه مبهمة مختلطة . كانت الآلام فظيعة لا تطاق ، ومع هذا فقد قاومها كما قاوم الغمامة السوداء التى كانت تحاول أن تسقط أمام عينيه ليغيب عن وعيه .

أجبر نفسه على الإلتفات حوله عساه يستطيع تمييز الحوادث . رأى الكتلة الخشبية الضخمة مستقرة على مسافة ، مثبتة ساقه فى الأرض . رأى رؤوس وأجساد الطاقم على بعد خطوات منه ، وقد تهشمت تماما ، وسالت دماؤها . إلى جانبه رأى شخصا يتحرك ببطء ، وحينما تحقق منه علم أنه جيرونيمو . جاءته الذاكرة بطيئة تستعيد ماحدث . تذكر أنه كان يوجه طاقم المدفع ، وأنه أحس كأن شخصا يدفعه بعيدا ويسقط إلى جواره . ثم سمع الصوت الهائل الذى أحدثه سقوط الكتلة ، والآلام المريعة التى أعقبت ذلك . وتنبه إلى أن جيرونيمو قد أنقذ حياته وإلا لكان مصيره الآن كمصير هذه الأجساد المهشمة حوله . رغما عنه سرت فى جسده قشعريرة .

ركز بصره جاهدا على منقذه . رأى بعض الدماء تسيل على جبهته ، لكن الجرح كان ولا بد سطحيا إذ أنه شاهده وهو يقوم من مكانه ، وينتقل إلى حيث المدفع . لم يتمالك من الإعجاب بهدوء أعصاب الشاب الصغير . بدا أنه لا يأبه للقذائف تتساقط حوله ، ولا إلى صراخ الجرحى أو الجثث المهشمة التى سالت دماؤها .

شاهد شخصا آخر يجرى نحوهما ، عرف فيه ديوجو . رآه ينظر إليه برهة ثم يحول نظره إلى الكتلة الضخمة ، وكأنما أدرك عقم محاولة رفعها فأهمل التفكير فيها ، وإنتقل إلى جوار صاحبه . رآه داندرادي وهو يخاطب صديقه جيرونيمو ويبدو أن الأخير لم يوافقه على رأيه إذ تناهى إلى سمعه صوته وهو يقول .

— لا .. لا .. إنتظر .. الصارى الرئيسى .

مرت دقائق رهيبة من الإنتظار لم يحاول أثناءها الشابان أن يطلقا المدفع .. ثم دوى صوت فى اذن الضابط كهزيم الرعد . ومضت ثوان أخرى .. وعم السكون سكون غريب .. حتى أصوات الرياح ، وإرتطام الأمواج خيل إليه أنه هدأ . وفجأة دوت هتافات البحارة والجنود .. سمعهم يصيحون أن الصارى الرئيسى للسفينة الهولندية قد سقط .. لابد أنه أحدث خسائر مروعة فى سفينة الأعداء حتى أن الدقائق مضت دون أن تنطلق منها قذيفة واحدة .

إستمر يغالب الغيبوبة التى تهدده . نظر إلى ناحية الشابين . كانا قد أعادا الإنكباب على المدفع يحشوانه بالقذائف ، والبارود وهما يعملان فى صمت وهدوء . والمرة الثانية جاءه صوت جيرونيمو عمليا باردا لا أثر فيه للإنفعال .. كلمة واحدة نطقهـــا .

— الأمامى .. ..

قفز المدفع إلى الخلف وهو يطلق قذيفته . وللمرة الثانية دوى هتاف البحارة والجنود .. لقد سقط الصارى الأمامى لسفينة الأعداء ، وراحت الأمواج تتقاذفها بعيدا عنهم وقد فقد ربانها السيطرة عليها تماما .

لا بد أن بوتللو قد إعتقد أن معجزة من السماء هى التى جعلت قذيفتين متتاليتين تسقطان الصاريين . رأى أنه أضحى فجأة فى حل من الحركة . تردد بين أن يطارد سفينة قيادة الأعداء ليغرقها وقد أضحت تحت رحمته ، أو أن يعود إلى المعركة الثانية ليمد يد المعونة إلى سائر قطع أسطوله . لكن الواقع أن سفينته هو لم تكن فى حالة تسمح بالقتال لمدة طويلة .

أخيرا إستقر رأيه على أن يلحق بباقى القطع فأعطى أوامره بذلك لفوسيكا الذى بدأ على الفور فى تنفيذها . خصص جزءا من الرجال لإدارة دفة السفينة . وجزءا آخر لاتمام بعض الاصلاحات السريعة التى يمكن إجراؤها . رفعوا الصارى عن ساق داندرادى ، وحملوه إلى فراشه غائبا عن الوعى حيث بدأ الطبيب فى علاجه . نقلوا الجرحى إلى أسرتهم ، وصلوا على القتلى ، ثم ألقوهم فى اليم . بدأ النجارون عملهم يرتقون ما امكن إصلاحه ، وراح البحارة ينظفون سطح السفينة ، مما علق به من دماء ، وقطع أخشاب متناثرة .

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب حينما شاهد الرجل فوق برج المراقبة ثلاث قطع تتتابع نحوهم متعثرة فى تلاحقها . لقد إنسحبت السفينتان الهولنديتان من المعركة ، ولم يكن لدى أى من السفن البرتغالية الثلاث الباقية القدرة على مطاردتها ، فآثرت أن تنجو إلى سفينة القيادة .

* * *

بعد أيام وصلت إلى ميناء كلوه أربع سفن حربية برتغاليه . كانت جميعها فى حالة سيئة بالرغم من المجهود الضخم الذى بذله الرجال أثناء الرحلة لإصلاح ما يمكن إصلاحه فى البحر حتى تحتفظ على الأقل بمظهر مقبول . كانت خسائرهم فادحة . فقدوا مركبا ذات عشرين مدفعا ، ولم يكونوا يعلمون مصير السفينة ذات الستين مدفعا و إن جاءهم بعد أسابيع نبأ وصولها إلى ميناء باتى فى حالة من السوء إضطرت

ربانها وبحارتها إلى هجرها ، وعدم محاولة إصلاحها إذ كانت مصاريف الإصلاح أكثر من قيمتها .

ولم تقف الخسائر عند هذا الحد بل إن الخسائر فى الأرواح كانت جسيمة . ثلاثة وخمسون ومائة رجلا قتلوا ، وستة وثمانون ومائة جرحى ، منهم من كانت جراحة بالغة حتى أنه أضحى لا نفع فيه فى البحرية ، أو الجندية . كل هذا عدا مصاريف إصلاح السفن الأربع المتبقية، ولم تكن بدورها بالشىء الهين .

لقد خرج الأسطول البرتغالى فى حملته التفتيشية ليحفظ هيبة الامبراطورية بعد سقوط هرمز ، وسوقطرة فأصابته ضربة زادت من زعزعة هذه الهيبة .

* * *

الفصل العاشر

لشبونة سنة ١٦٢٧

وقف جيرونيمو تشنجوليا في شرفة قصر دوم دي لما . كان يمتع عينيه بالمناظر التي ترامت أمامه على مدى البصر . كان القصر مقاما فوق أحد التلال العديدة التي تتجه من الجنوب إلى الشمال في سلسله يبدو أنها لا نهائية . على بعد ، رأى نهر التاجوس تنساب مياهه متجهة إلى المحيط . على ضفته اليمنى قبعت لشبونه بمبانيها الحجرية ، وطرقاتها الضيقة المتعرجة التي تتجه دائما إلى النهر .

إستقر بصره لحظات على السور القديم الذي بناه الفيزيجوت ، ويحتوى على المدينة القديمة ، قبل أن تتسع وتتعداه إلى الخارج . لكن السور كان مايزال قائما ، أو على الأقل اطلاله . إنتقل بصره إلى التلال التي تتناثر عليها المباني . فوق قمة أعلاها قبع قصر سانت جورج ، عربي الأصل ، ومازال يحتفظ بالطابع العربي رغما من محاولات التعديل فيه .

قريباً من القصر ظهرت كتدرائيه سيه التي بنيت سنة ١١٤٧ ، سنة الانتصار النهائي على الأعراب وطردهم من البلاد . لقد هدمها الزلزال جزئيا سنة ١٣٤٤ ، ثم سنة ١٥٣١ لكنهم أعادوا إصلاحها إذ تحتوى على قبر سانت فنسنت . بالقرب منها أيضا يوجد دير ساوفنست ، حديث البناء لم يتم بناؤه الا في أواخر القرن الماضي . القرن السادس عشر ، وبه بهو الملوك ، ملوك البرتغال .

هنالك عند السفح ، في منحدرات ساوجنو توجد موزاريا ، حي العرب الذين فضل أسلافهم البقاء واعتناق المسيحية ،مثله تماما ، فضلوا الحياة على الموت ، رغبوا في العيش اللاين السهل في ظل السادة على الموت الكريم . تنكروا لدينهم ، وأهليهم . تضرجت وجنتاه بحمرة خجل . تذكر ماضيه ، وحياته ، تذكر السنوات

التى قضاها فى الدير وهو صبى . لقد تناوله الآباء الأوغسطينيون بأيد خبيرة فصقلوه وهذبوه . ترفقوا به ، ولقنوه الدين المسيحى . علموه أن الكاثوليكية هى الدين الحق الوحيد ، وما دونها كفر وإلحاد .

تذكر أيامه الأولى فى الجندية ، حينما وثقوا أنه أضحى مسيحيا كاثوليكيا مخلصا قلبا وقالبا . أرسلوه إلى الثكنات حتى يتقن الجندية ، ويقاتل فى سبيل دينه الجديد ، ومليكه ، ملك البرتغال . ذكر حياته كجندى مغمور شأنه شأن مئات غيره من الهنود والسواحيليين ، ثم فجأة بدأت أسهمه ترتفع بعد المعركة البحرية التى حدثت منذ ثلاثة أعوام أو تزيد .

ذكر دندرادى فى تقريره كيف أنقذ جيرونيمو حياته . وليس هذا فحسب بل وقرر صراحة أنه لولا شجاعته ، وزميله ديوجو ، لما كان هنالك شك فى أن السفينة الحربية كانت قد أغرقت بما فيها ، ومن عليها . لقد حولت شجاعته ، ودقة تصويبه دفة المعركة ، من الهزيمة الساحقة إلى أقرب ما يكون إلى النصر . وأنقذ شرف البحرية البرتغالية .

رفعوا رتبته هو وزميله ديوجو إلى ضابطين . وتوالت بعد ذلك المعارك التى إشترك فيها ، مع الهولنديين ، والانجليز بل والأعراب . فى كل معركة كانت له بطولة ، أو حادثة تدل على نبوغ حربى . لم يكن هنالك سلاح إلا أحسن إستخدامه ، قاتل بالخنجر ، وبالسيف ، والمسدس ، والبندقية . عرف جميع أنواع المدافع الحديدية ، والنحاسية ، والبرونزية ، كان أستاذا فى حشوها بالقدر اللازم من البارود حتى تبلغ القذيفة المدى الواجب ، حيث الهدف الذى يبتغيه .

ذاعت شهرته بين أقرانه البرتغاليين ، وتردد أنهم يعدونه ليكون سلطانا على إحدى المدن المتناثرة على شواطئ المحيط الهندى حيث أمبراطوريتهم المترامية الأطراف . لم يدخروا وسعا فى أن يغدقوا عليه منهم . كان مثالا يود البرتغاليون أن يحتذيه بسائر الأهالى الذين يخضعون لحكمهم . اعطوه منزلا صغيرا بدلا من الثكنات ، والحجرة الضيقة التى كان يعيش فيها . عينوا لخدمته أحد الهنود ،

وأغدقوا عليه الأموال . لم يكن هنالك منزل إلا وفتح أبوابه ليستقبله مرحبا ، ولم تكن هنالك حفلة إلا ودعى إليها .

إرتدى أفخر الثياب ، وطعم أشهى المأكولات . عاش بين المعارك حياة لينة ناعمة مترفة . لم يكتفوا بهذا بل منحوه الشرف الأكبر . صدرت الأوامر أن يرتحل مع صديقه ديوجو إلى البرتغال ، ومنها إلى روما ليقابل البابا ، ويتقبل بركاته .

كانت البرتغال تتمتع بهدوء نسبى فى هذه الحقبة . فالدنمارك بعد أن نزلوا فى سراميور ، قريبا من كلكتا سنة ١٦٢٠ لم يحاولوا التوسع ، واكتفوا بارباح التجارة البسيطة التى ترد لهم . واشتد التنافس بين الهولنديين والانجليز وما جاءت سنة ١٦٢٤ وحدثت مذبحة امبوينا التى قام فيها الأولون بذبح الأخيرين حتى اشتد القتال بينهما وتركوا البرتغال مؤقتا دون محاولة التحرش . بل أن الانجليز بدأوا يصادقونهم خاصة وقد قامت ثورات عدة فى البرتغال ضد الاحتلال الأسبانى ، الأعداء التقليديون لبريطانيا .

أرسلوه إلى روما ، عن طريق البر فلم يكن البحر الأبيض آمنا وقد إنتشرت فيه سفن القراصنة المسلمين تعيث فسادا . في القصر البابوى بالفاتيكان قابل البابا أوربان الثامن ، وباركه البابا ، وتفضل فمسح بيده على رأسه . وتلطف معه مخاطبا لبضع دقائق سمح له بعدها بالانسحاب من حضرته . مكث فى روما أياما بعد ذلك يمتع نفسه بملاذها وملاهيها ، ثم إرتحل منها إلى فرنسا ثم إسبانيا فالبرتغال . أبى صديقه ديوجو إلا أن يستضيفه فى قصر والده طوال مدة اقامته .

رغما عن كل هذا ، عما ناله من حظوه ، وما ينتظره من مستقبل باسم فإن غصة كانت مستقرة فى حلقه . كان مشهورا أيضا لدى العرب ، والأفارقة ، والمسلمين . لكنها شهرة من نوع آخر تجلت فى محاولتين لقتله . تجلت فى لفظ أطلقوه عليه ، ولم يتورع بعض الصبية أن يهتفوا به أمامه ، ثم ينطلقون عدوا ، بعيدا عنه ... المرتد .

تحولت أفكاره إلى المتشح بالسواد . شتان بينه وبينه . كانت سيرته لدى العرب والأفارقة ، والهنود والمسلمين عامة أريجا أسطوريا يتنسمونه ، في حين كان هو علقما لا يحتمل . حتى خادمه الهندى العجوز كثيرا ما لاحظ نظرات الاحتقار والكراهية التي كان يوجهها إليه حينما يظن أنه لايراه . مهما أحسن معاملته ، لم يستطع أن يكسب وده أو إحترامه .

رجعت به الذاكرة إلى جوا ، والمتشح بالسواد . لم يكن يمضى شهران أو ثلاثة دون أن يدبر أمرا جديدا يقض مضاجع البرتغاليين . أحرق حوانيتهم ، ودمر مخازن البضائع ، والأسلحة ، وقتل عددا كبيرا من جنودهم وضباطهم . أضحوا يخامون به ، بل ذهبوا إلى أن نسبوا إليه كل حادث ضار ، ولو كان من الواضح أنه وقع قضاء وقدرا . إدعوا مرة أنهم قبضوا عليه . دفعوه إلى آلات التعذيب فاعترف وحكمت عليه محكمة التفتيش بالاعدام . وأعدم . ثم اتضح أن من أعدم لم يكن هو ، وإنما جادو ، عميل البرتغاليين .

تزايدت أعماله جرأة بعد هذا على مر الأيام ، حتى كانت مغامرته الأخيرة التي فاقت كل الحدود ودفع حياته ثمنا لها . إن جيرونيمو يتذكرها تماما فقد سمع عنها قبل رحيله بأقل من شهر . قالوا إنه إختفى في إحدى السفن الحربية الراسية فى الميناء ثم أحرقها . وفى آخر لحظة قبل أن يغادرها رآه بعض الحراس فأطلقوا عليه الرصاص فأردوه ، وسقط فى البحر . لم يعثروا على جثته إذ لم تمض دقائق حتى انفجرت السفينة بما تحمل من ذخائر . لكن صيادا أخرج من البحر بعد ذلك قناعا أسود ، ولم يكن هنالك شك فى أن المتشح بالسواد قد لقى حتفه .

مع كل هذا الفارق العظيم بين الحياتين لم يتمالك جيرونيمو وهو واقف من أن يقارن ، ويتعجب . ألم يكن يفضل أن يموت نكره كما مات المتشح بالسواد عن كل ما يحيط به من مظاهر العظمة وما ينتظره من مستقبل باهر ؟!

لقد مات المتشح بالسواد مجهولا نكره لا يعرف أحد حتى إسمه ، أو شكله . ومع هذا فقد أبى الكثيرون أن يصدقوا نبأ موته . قالوا بل سيظهر ثانية ليساعد

المسلمين ، ويضرب على أيدى الخونة ، ويقاتل الكفار . أية حياة التى يحياها هو ، وأية ميتة تلك التى ماتها ذلك النكرة الغفل !

وكأنما أراد القدر ان يسخر منه . سمع صوت صديقه من الداخل يناديه فإتجه إليه . قابله ديوجو فى الصالة الفسيحة مبتسما .

— أين أنت ياجيرونيمو ؟ ألا تعلم أننا دعونا عظماء اشبونه ، وسادتها لحفل اليوم إكراما لك؟ اكراما لبطل البرتغال ؟ !

لو أن ديوجو صفعه على وجهه لما كان للطمه الأثر الذى أحدثته جملته الأخيرة . كان جيرونيمو يعلم يقينا بحسن نوايا صديقه ، وحبه العميق له . لقد احتمل فى الأربعةعشر عاما الماضية اهانات الضباط البرتغاليين ، ونظرات الاحتقار التى وجهوها إليه . احتمل سباب وشتائم الأفارقة ، والعرب والهنود ، والفرس ، وجميع الشعوب المضطهدة ، لكن هذا الاكرام فاقها كلها تأثيرا فى نفسه .

لأول مرة فى حياته أحس بعزيمته تنهار ليحل محلها يأس قاتل . لأول مرة داخله الشك ، وبدأ يتساءل عما إذا كان تحقيق اهدافه يستأهل مايلاقيه ويتحمله . بطل البرتغال !! أعداء قومه الذين قتلوا وأحرقوا ، ملصوا الآذان ، وقطعوا الأنوف ، لم يرحموا إمرأة أو صبيا . داخلته مرارة أليمة ربما بان أثرها على وجهه فلاحظها صديقه وسأله مهتما .

— هل هنالك شىء . ياجيرونيمو ؟ هل انت مريض ؟ !

تمالك نفسه بسرعة ، وارتسمت على شفتيه بسمة مطمئنة وهو يجيب .

— كلا ياصديق لاشىء انى فقط لم أعتد على هذه الحياة المترفة .

انفجر ديو ضاحكا . تراجع إلى الخلف وهو ينظر إلى الجسم الطويل النحيل بإعجاب بالغ .

— اجل .. إن حياة الترف لاتلائمك .. وربما امرضتك . لكن دعنا من هذا . الا اخبرك بأنباء قد تسرك . لقد دعونا جميع الأشخاص المهمين فى لشبونه لنقدمك لهم . اعنى البرتغاليين منهم فقط فلعلك تعلم مابيننا وبين الأسبان .

آه وقد دعوت أيضا لورنسو مورينو واستأذن ان يصطحب أخته . يقال إنها رائعة الجمال ».

تذكر جيرونيمو لورنسو مورينو ذلك الشاب المخنث الذى التقى به لأول مرة منذ أكثر من أربع سنوات فى حانة النسر الفضى مرافقا للضابط بدرا فاريز فى تلك الليلة المشهودة ، ثم قابله بعد ذلك مرات عديدة فى جوا ، ثم تصادف رحيله معه وصديقه على السفينة نفسها التى أقلتهما إلى لشبونه . لقد حاول طول الرحلة ان يتودد إليهما ، ولم يعره جيرونيمو التفاتا لكن ديوجو بدا أنه يميل إليه . كان أبوه تاجرا فى جوا ، وقد أرسله ليعود بأخته التى كانت تقيم فى أحـــد الأديرة بالبرتغال بعد وفاة أمها : إذاً فهو سوف يصطحبها إلى الحفل .

هز كتفيه إستخفافا وعادت الابتسامة مشرقة إلى وجهه وهو يخاطب صديقه :

— هنيئا لك ياديوجو .. تستطيع ان تلتهمها بمفردك فإننى لا اهضم أخاها ، ولا أحسبنى سوف أهضمها .

— إذاً فإننى سوف ابتلعها بمفردى .

تضاحك الصديقان ، واتجه كل منهما إلى حجرته ليبدل ملابسه ويستعد للحفل المظيم فى المساء .

* * *

ابتدأ المدعوون يتوافدون . فى المدخل الرئيسى وقف دوم دى لما باعتباره صاحب القصر والدعوة ، وإلى جانبه وقف نجله ديوجو ثم ضيف الشرف الذى أقيم الحفل لتكريمه . كان المنادى على الباب يذكر أسماء المدعوين وألقابهم ، ويقدم دوم دى لما إليهم نجله وضيفه . لم يكن ديوجو أيضا معروفا تماما إذ قضى سنوات عمره فى المستعمرات الهندية .

كان الشابان يحنيان رأسيهما بلا توقف تقريبا منذ أكثر من ساعة . وبالرغم من سرورهما لمشاهدة هذا الجمع من الرجال المشهورين ، والنساء الجميلات فإن السأم دب فيهما ، همس ديوجو فى لحظات مابين الانحناءات .

- إن لورنسو لم يحضر !
- تمنى أخته الجميلة !

احنى الاثنان رأسيهما وابتسما ترحيبا لكهل متأنق تصحبه إمرأة وفتاة ،
- إن نصف عائلات لشبونه احضرت فتياتها إلى حفلتكم حتى ليخيل إلى أن الشبان الساكين خراف معدة للذبح .

كاد ديوجو أن ينسى نفسه ويقهقه ، لولا أنه تذكر في الوقت المناسب أن والده إلى جواره فكتم الضحكة وأحنى رأسه مرحبا ببعض الضيـــوف . وارتفع صوت المنادى ،

— دون سيادل ميلوبريرا .

شمرت ديوجو دون أن يلتفت بالتحول الغريب الذى طرأ على صاحبه . زالت الابتسامة عن شفتيه ، وتصلب جسمه ، وأطبقت أصابعه بعنف على راحة يده . نظر ديوجو إلى الداخل الذى كان والده يقدمه . رآه شخصا في حوالى الثانية والأربعين من عمره طويل القامة عريض التكبين شديد الأناقة لاتكاد الإبتسامة المهذبة ان تخفى الوجـــه القاسي . انتهى من الانحناء وانتهز الفرصة ليرقب صديقه .

رأى الابتسامة المفتعلة ، والنظرة الصارمة التى يحدج بها القادم . خيل إليه ان جيرونيمو لايحيي الرجل حقيقة وإنما يزنه . داخله العجب . لم يكن قد رأى الرجل من قبل ، وماتصور ان صاحبه يعرفه . ومع هذا فلاشك أن النظرة التى استقرت على الوجه الصارم كانت ماؤها الانفعال ، والكرة الدفين . لم يكن يعلم ان صديقه قد عادت به الذاكرة إلى أربعـــة عشر عاما خلت ، وتمثل أمامه صبيا صغيرا فى السابعة من عمره يرى ضابطا برتغالـــا يدخل قاعة فسيحة وسيفه يقطر دما .

رأى استاذه يتلقى الطلقة النارية ، ويسقط على الأرض مضرجا بدمائه . ثم رأى الضابط وهو يبقر بطن والده ، ويطعن والدته . تمثل الصبي يجرجره الضابط

وجنوده رغما عنه، ورآه وهو يصرخ ويبكي دون ان يجد من ينقذه ، او يرحمه

مرت هذه الخيالات فى ثوان معدودات ، لكنها مع ذلك كانت واضحة متميزة لا اضطراب فى أى تفصيلاتها . لم يبـــد على دى ميلو أنه عرفه ، أو تذكره ، وإن كان الرجل فى الواقع قد داخله شعور خفى بالرهبة والانقباض .

أفاق جيرونيمو من احلامه المزعجة على صوت ديوجو مؤنبا .

— جيرونيمو ! ماذا دهاك ؟ لكأنك رأيت شبحا !! أتعرف انك الحديث الورنسو كأن لم تره من قبل ؟ هل رأيت أخته ؟ ما ابدعها ؟ واسمها ، ايوفيميا ، هل سمعت اسما أرق من هذا ؟

نسى ديوجو موضوع الرجل تماما فى غمرة حماسة من أجل أخت صاحبه ، ايوفيميا . ظل ينتهز الفرص كلما سنحت لهما ليردد على مسامع صديقه محاسن الفتاة ، ومفاتنها ، عيناها العسليتان ، والأنف الدقيق ، المستقيم والبشرة الناعمة ، والجسد الممشوق . هل رأى صديقه هذا الابداع فى الخلق ؟

اغتصب جيرونيمو ابتسامة ، وهز رأسه موافقا . والواقع أنه لم يكن لاحظ الفتاة ، ولا رأى شيئا من المفاتن التى تحدث عنها صديقه . كانت قد دخلت مباشرة بعد بريرا ، وما كان يمكن أن يرى شيئا سوى أحشاء أبيه ودماء أمه ، ووجه استاذه . ربما حيى الأخ واخته ، وربما ابتسم ، أو تمتم ببعض كلمات يمليهـــا الواجب ، لكنها كانت جميعها آلية لاحياة فيها .

لعل الفتاة لاحظت هذا أيضا وتعجبت منه . احست أن عينى هذا الشاب الأسمر تخترقانها كأنمـــا هى سطح شفاف ، وتنظران إلى شىء خلفها . ترددت لحظات أكثر مما يجب ، لكن لم يبد عليه انه لاحظ تلكؤها . ظلت النظرة الزجاجية ثابتة فى العينين ، كأن صاحبهما قد نسى أين هو ، وانتقل إلى عالم الخيالات والشياطين . حياها مبتسما ، لكنه لم يرها .

انتهت مهمة الاستقبال المملة ، وبدأ الثلاثة يندمجـــون مع ضيوفهم . كان جيرونيمو هو نجم الحفل بلا منازع . لاحقته الفتيات ، والنساء يلتهمن بنظراتهن

الجسد الطويل القوى ، والكتفين العريضين ، والخصر النحيل ، والوجه الأسمر الشاحب تطل منه عينان سوداوان واسعتان ، ويكلله شعر أسود فاحم منسدل فى غير نعومة أو خشونة زائدة . ولعل النظرة الزجاجية الصارمة التى لازمته بعد حضور بريرا زادت من اعجاب النساء به .

ظل يتنقل بين المدعوين ، يتكلم ويبتسم ، لكن العينين ظلتا تدوران فى القاعة الفسيحة المكتظة . تبحثان . أخيرا رآه يقف فى الناحية الأخرى من حلبة الرقص مع صاحب الحفل ، وقد اجتمع حولهما عدد من النساء والرجال . كان يمسك بكأسه فى يده ويتكلم مع امرأة حسناء . لم يتمالك جيرونيمو ان يعترف بأن الرجل بلغ حدا كبيرا من الوسامة والأناقة . اكسبته حركاته الطبيعية التى لاتكلف فيها سحرا أخاذا لاريب أوقع الكثيرات فى شباك غرامه .

تحرك نحوه كأنما تجذبه قوى خفية لايملك مقاومتها . اعترض طريقه البعض يحيونه ويجاذبونه أطراف الحديث . امسكت به فتاة تطالبه أن يراقصها فاعتذر بلباقة . لم يكن يدرى ماسوف يفعل حينما يصل ، ولم تخطر فى باله خطة معنية ومع هذا استمر فى تقدمه . حينما أضحى بينه وبين الرجل خطوات أحس بيد تقبض على ذراعه ، وسمع صوت صديقه يخاطبه .

— هذا أنت ياجيرونيمو .. إن الآنسة ايوفيميا تريد ان تتحدث معك . إنك تعرفها هى اخت صديقنا لورنسو مورينو .

التفت إلى الفتاة . ولأول مرة رآها حقيقة . استعاد لتوه كلمات صديقه حينما وصفها . كانت كل شىء قاله ، وأكثر . كانت فيها رقة ، وعذوبة تبشران بأنوثة طاغية . كان قد تضرر من صاحبه إذ يوقفه وقد اقترب من مقصده ، لكن هذا التضرر خف مباشرة حينما وقع بصره عليها . فى اللحظة التالية طرق أذنيه صوت موسيقى عذب لاتصنع فيه وكلفة .

— هل تعتبرنى جريئة إذ طلبت من دون ديوجو ان أقف معك دقائق ؟

— مطلقا يا آنسة ، انه لشرف عظيم .

— دعك من كلمات النفاق الرسمى . أنك لم تجبنى على سؤالى هل تعتبرين جروشـة ؟

— يبدو أن هذا الطلب عادى هنا . إن الآنسة تركت الدير حديثا على ما سمعت أليس كذلك ؟

انفجر ديو جو ضاحكا .

— هذه بداية تعارف طيبة ، ومما يؤسف له أننى لن أستطيع أن أتابع الحديث فإننى ملزم بمراعاة الضيوف .. وقد بدأت نظرات والدى الصارمة تتجه إلى فعلا .. إذا أذنت الآنسة ..

قال هذا وانسحب تاركا الاثنين ، بعد أن أحنى رأسه للفتاة التى لم تحول نظرها عن صاحبه بالرغم من أن حمرة خفيفة كست وجنتيها . تعمد أن يقف بحيث يكون مواجها لبربرا . لاحظ أنه ما يزال يحادث المرأة لـكن نظراته كانت تدور فى القاعة وتستقر بحركة طبيعية على الفتاة ايوفيميا . راقبه وهو يفعل ذلك مرات . كان يلتهمها بعينيه فى كل مرة تستقر نظراته عليها . بدأت تتبلور فى رأسه خطة . إن الفتاة فى عمر ابنته ، ومع هذا فلم ينثن عن ملاحقتها ، لابأس . لابأس .. ربما تـكون هذه نقطة ضعفه . تنبه فجأة أن الفتاة تتـكلم فأولاها اهتمامه .

ابتسم جيرونيمو لصراحتها البسيطة . كانت هذه أول ابتسامة حقيقية ترتسم على شفتيه منذ أن رأى بربرا . أسف فى نفسه على قسوته معها ، وأراد أن يسرى عنها فقال بلهجة وديعة بعيدة كل البعد عن تلك التى بدأ بها خطابه .

— هل تعنين أنك لم تذهبي مطلقا إلى الشرق عند والدك ؟

— اعنى ان والدتى توفيت وأنا فى الخامسة ، واودعنى والدى فى دير ساوفنسنت ولم اخرج منه الا منذ شهر واحد .

— ألم ترى والدك منذ دخلت الدير ؟

— زارنى مرة واحدة طوال الاحدى عشرة سنة الماضية ، منذ أكثر من سنتين .

— لا بد أن هذا كان عسيرا عليك .

— مطلقا .. لقد قضيت وقتا لطيفا بين لداتى ، وكانت الراهبات رقيقات دائماً .

استمر الحديث بينهما دقائق حتى قطعه لورنسو الذى قطب عن جبينه حينما رأى أخته تقف بمفردها مع جيرونيمو . إبتدرهما بالسؤال عن ديوجو ؛ وحينما أجابا بأنهما لا يعلمان ، طلب أن يراقص أخته ، ثم تناول يدها يقودها إلى حلبة الرقص دون أن يلقى كلمة أخرى . كان في تصرفه جفاء لم يفت جيرونيمو ، وتعجب هل كان لورنسو يتصرف هذا التصرف لو أنه رأى أخته تقف منفردة مع ديوجو ؟! لم يشك في أن الاجابة بالنفى إذ أن الشاب لم يخف تهالكه على صديقه حتى أنه كان يفرض نفسه في كثير من الأحيان .

نفض عن نفسه الأفكار ، واتجه نحو صاحب القصر حيث يقف إلى جوار بريرا . لكنه لم يبلغه . ما أن إقترب حتى وضعت المرأة الواقفة مع بريرا يدها على ذراعه تستوقفه ، ثم قالت بصوت افرغت فيه كل مالديها من اغراء .

— آه . هذا هو البطل .. أرجوك أن تعيرنى بعض وقتك لتروى مغامراتك .. إننى اعبد البطولة .

نظر إليها مبتسما وقال بلباقة .

— سيدتى لو علم الرجال ذلك لما بقى جبان في العالم .

تدخل بريرا فى الحديث .

— يبدو أن مواهب صاحبنا الصغير لا تقتصر على الحرب .

أطلقت المرأة ضحكة جذله ، وأرسلت نظره دلال إلى بريرا ، ثم وجهت الكلام إلى جيرونيمو .

— حذار ياصديقى إنك أثرت غيره دون سيا .. وربما يكون من الانصاف أن انذرك أنه من أمهر المبارزين فى البرتغال .

ظلت الابتسامة مرتسمة على شفتى جيرونيمو .

— سيدتى ومن أكون أنا إلى جانب الدون العظيم حتى أثير غيرته .

حدق بريرا فيه بحدة إذ داخله شك فى أن الشاب الأسمر يسخر منه ، إلا أن النظرة التى قابلته كانت صريحة وبسيطة بحيث لاتدع مجالا للريب فى نوايا المتكلم . لم يكن أمامه بعد هذا إلا أن يدع الأمور تأخذ مجراها العادى .

— لا تخش شيئا ياصاحبى .. وإذا كانت دونا مارجريتا تود أن تستمع إلى إلى قصص بطولتك فليس أمامى الا أن احنى رأسى احتراما وانسحب .

الواقع أنه كان قد مل الحديث معها ، كما كان يريد أن يبحث عن تلك الفتاة التى رآها منذ دقائق تحادث جيرونيمو ثم دلفت مع أحد الشبان إلى حلبة الرقص . انتهز هذه الفرصة لكى ينسحب ، لكن المرأة لم تدعه يفلت بهذه السهولة . أحست غريزتها أن بين الرجلين مقت دفين . ورأت أن كلا منهما ند للآخر فلم ترد أن يفوتها الصراع بينهما ، هتفت قبل أن ينسحب .

— لكن يادون ... الا تود أن تستمع معى إلى تلك الأفعال المجيدة التى قام بها دون جيرونيمو ؟!

توقف بريرا عن الانسحاب . تردد قليلا وهو يفكر فى عذر مقبول ، وقبل أن يتكلم قال جيرونيمو .

— لا شك أن بطولات دون بريرا تفوق كثيرا أى عمل متواضع قمت به ، وبهذا سيكون ما أرويه عملا لا قيمة له .

للمرة الثانية داخل الدون إرتياب شديد فى أن الشاب يسخر منه ، لكن الابتسامة التى رآها على الوجه الأسمر ، والانحناءة المؤدبة ، التى قابلته دفعتا الشك بعيدا . رد الانحناءة بمثلها ، ثم ابتسم للمرأة وانسحب .

بمجرد إنسحابه فقد جيرونيمو كل اهتمام بالمرأة . حاول أن يعتذر بدوره ، لكنها لم تكن لتدعه وقد أحست للمرة الثانية أن بينه وبين دون سيمادى ميلو إيريد

سرا دفينا يذكى لهيب العداوة والبغضاء . أمسكت به من ذراعه وهى تحدثه كأنما تريد أن تضفى عليه من سحر عبيرها .

— خبرنى يادون جيرونيمو هل رأيت دون سيا أثناء وجوده فى الشرق ؟

نظر إليها مبتسما . إن المرأة تريد أن توقع به ، ولم ير بأسا أن يجاريها فى لعبتها .

— وهل كان دون بريرا فى الشرق ؟

— طبعا الا تعرف ذلك ؟

— متى ؟

— آه .. أظن من عشرة سنوات أو أكثر ، أنه ليس صغيرا كما قد يبدو . بل هو فى حدود الثالثة والأربعين إن له نجلا فى البرازيل أو فى احدى تلك الدول المتوحشة ، لست أدرى أيها . ألم تعرفه قبل الليلة ؟

أجابها صادقا .

— لا . لم نتعارف قبل الآن . وأين السيدة بريرا إذا ؟

— ماتت وهى تضع مولودها منذ سنوات أثناء وجود دون سيا فى الشرق .

— ولماذا لم يتزوج ثانية ؟ لا أعتقد أن مثله يستطيع الابتعاد كثيرا عن النساء .

قال هذا ثم أضاف وهو ينظر إليها مبتسما .

— ولا أظن أن النساء تستطيع الابتعاد كثيرا عنه .

كست الحمرة وجنتيها ، فأسرعت تحاول أن تخفى من إرتباكها ، بالترويح بمروحتها بحركات عصبية . انتهز الفرصة فانحنى ثم تراجع مبتعدا . امضى الساعة التالية ينتقل بين الضيوف يحييهم ويتسامر معهم . لمح أثناء ذلك بريرا وهو يراقص ايوفيميا فسجل هذا فى ذاكرته ، ثم تناساهما تماما . صادف لورنسو مرة ، الا ان الاخير تعمد أن يتجاهله . كان يقف بين جماعة من الشبان والفتيات حينما أحس

بيد توضع على ذراعه ، وحينما التفت رأى صديقه دون ديوجو واقفا إلى جواره وقد انتفخت ادراجه غضبا .

— أين أنت ياجيرونيمو ؟

— فى الحفل ، ماذا بك ؟

— من ؟ أنا ؟! لا شىء . إن ذلك الوقح دون بريرا تدخل بينى و بين ايوفيميا ، واستبعدنى دون أى احترام أو اعتبار وكأننى طفل صغير . ولولا أنه ضيفى لطالبته إلى المبارزة . إنه لم يتركها منذ أكثر من ساعة .

كان يتكلم بحنق وعصبية ، ولا بد أن بريرا كان وقحا كما أن الخمر التى شربها ديوجو أيضا جسمت الواقعة دون شك . لكن جيرونيمو لم يكن مستعدا لأن يرى صديقه يقتل ، فقد سمع أن بريرا مبارز ماهر لا يكاد أن يضارعه أحد فى البرتغال ، وبالإضافة إلى هذا فإنه كان يود أن يختص بريرا لنفسه ، فبينهما ثأر قديم ، وأن يكن بريرا نفسه لا يعلم عنه شيئا . بلهجة بسيطة طرح الموضوع جانبا وكأنه ليس له أية اهمية .

— دعك من بريرا الآن وقل هل صحيح ما سمعته من دون مانيول أن الأنباء تواترت من جوا أن المتشح بالسواد لم يمت وأنه ظهر ثانية ؟

— أجل فان والد الدون مانيول يمتلك سفنا كثيرة وهو أول من تصله الأنباء من الشرق .

— لكنى ألم يكن قد قتل قبل أن نرحل بأيام ؟

— سمعت هذا . ويبدو أنه غير صحيح .

استمرا يتحدثان فترة عن المتشح بالسواد ثم اضطر جيرونيمو ان يتركه لأصحابه وضيوفه ، وان كان قد اطمأن إلى أنه نسى تماما موضوع بريرا . على أنه لم يكد أن يترك صديقه حتى رأى بريرا والفتاة يقفان أمامه مباشرة . وبادرته أيوفيميا .

— آه هذا انت ؟! ربما كان تكون أحسن حكم بينى وبين دون بريرا . اننا كنا نتناقش فى ذلك الذى يدعونه المتشح بالسواد . أنا أرى أنه بطل قوى

أيا كانت ديانته ، أو هدفه ، والدون يقول إنه مجرد همجي عربي يغامر من أجل الربح ، والشهرة . ماراأيك أنت ؟ !

— كيف أستطيع أن أعارض فتاة حسناء مثلك ! وكيف يمكنني ان اناقش رجل محنك مثل الدون !

للمرة الثالثة داخل دون بريرا ذلك الشعور بأن الشاب يسخر منه ، لكن لم يكن في اللهجة أو الكلمات مايستطيع بأن يدينه به . وبالرغم من هذا فإنه أراد ان يقطع الشك باليقين فقال بلهجة تعمد ان تتضمن بعض الازدراء .

— يبدو ان السيد جيرونيمو كثير الاطراء .

التفتت ايوفيميا بحركة سريعة نحو الشاب لترى تأثير الكلمات عليه فقد كان من الواضح ان بريرا يقصد اهانته . رأت الوجه الأسمر النحيل ينظر مبتسما ، لم تختلج عضلة واحدة فيه وكأنه لم يفهم المعنى وراء الكلمات ، أو كمن اعتاد أن يتلقى الاهانات حتى أضحت لاتؤثر فيه . داخلها احساس غريب هو خليط من الاحتقار وخيبة الأمل . لم تدر ماذا يعنيها من الشاب الأسمر الطويل حتى يداخلها الشعور الأخير ، وربما كان هـذا هو السبب ان امتزج احتقارها له بالغضب . وجاءت كلماته التالية تزيد من غضبها . قال بلهجة ناعمة ، تكاد أن تصل إلى حد الاعتذار .

— أؤكد لسيادة الدون أن هذا ليس سوى بعض ما أشعر به بعد ماسمعته عنه وبعد ماشاهدته شخصيا .

بالازدراء نفسه تساءل الدون .

— وماذا سمعت ؟

— سمعت ان الدون أثناء تواجده في الشرق أعطى دروسا قاسية للعرب والأفريقيين الكفرة ، وانه لم يفلت منه شخص أيا كان رجلا أو امرأة .

كانت الكلمات تحمل أكثر من معنى ، لكن اللهجة المتواضعة التي قيلت بها لم تدع مجالا للشك لدى الدون والفتاة أن الشاب جبان ، يتملق البرتغاليين إلى حد أنه لايتورع أن يكيل السباب لبني جلدته ، وأن يتنكر لهم تماما . عجبت الفتاة

كيف يمكن أن يعتبر مثل هذا الشخص بطلا ، وكيف يقال إنه أنقذ الأسطول البرتغالي من الهزيمة . كيف يمكن أن يخدع الناس إلى هذا الحد .

باحتقـــار شديد أدارت ظهرها له ، وتطلعت مبتسمة إلى دون بريرا وهي تقول غاضبة .

— أعتقد أنه لاداعي لبقائنا هنا بعد الآن .

رد بريرا على ابتسامة الفتاة بمثلها . لم يلق حتى مجرد نظرة على الشاب الواقف الذي كان مازال يبدو أنه لم يتأثر بأي شيء مما جرى . والواقع أن عقله كان يعمل بسرعة . لم يكن يريد أن ينتهي الحديث بهذا الشكل ، لكن تدخل الفتاة الغريب أفسد عليه هدنه . كان يريد أن يدفع بريرا إلى مزيد من اهانته حتى لايقع عليه أي لوم ، فهو يعلم أنه رجل قوى النفوذ ولاشك أن قتله ، حتى في مبارزة شريفة ، سوف لايمر دون ضجة شديدة قد تودي به . لهذا أراد أن يكون لديه مبررات كافية تقنع أكثر الناس صلابة .

لم يخـــدع نفسه بمظاهر الصداقة التي أبداها له البرتغاليون ، فما أبدوها إلا لأنها تخدم مصالحهم . أما إذا قتل أحدهم ، ولو في مبارزة ، فلم يشك لحظة في أن الشعور العام سوف يكون ضده . وكان هذا سببا إضافيا لمبالغته في الحذر ، لكن بدا أن هذه المبالغة في الحذر قد ضيعت عليه الفرصة .

واتته النجدة . من بين الجموع ظهر دون ليما برانقه نجله ديوجو . بلهجة هاشة مرحبة تكلم الدون .

— آه .. هذا أنت يادون بريرا .. أراك تختص كعادتك بأجمل الآنسات .

توقف الرجل والفتاة عن الإبتعاد حينما ظهر دون ليما . إبتسمت الفتاة شاكرة لمضيفها الاطراء ، بينما ظل وجه بريرا جامدا لاينبيء بشيء . التفت الرجل العجوز إلى الشاب .

— وانت ياصديقي .. أرجو ألا يكون قد نقصك شيء ؟ ! كما أتمنى أن تروق لك حفلاتنا ؟ !

ـ شكراً ياسيدى الدون إن كرمكم غمرنى ، وأمل أكثر مابحثه هو التعرف على ضيوفكم النبلاء .

بدت لهجة ناعمة مؤدبة . لم يلتفت إلى الفتاة وهو يقول الجملة الأخيرة ، وإنما نظر مباشرة إلى بريرا كأنما يعنيه وحدة . تباينت احساسات الموجودين . ازداد غضب الفتاة على الشاب الذى لاح أنه لم يعرها إهتماما ، وداخل بريرا ذلك الشعور الخفى بأن الشاب مازال يتهكم عليه ويسخر منه . وغمرت الدهشة ديوجو إذ ظن أن صديقه يتملق الدون فى حين أنه لم يمض وقت طويل منــــذ أن شكى له منه . وإرتسمت ابتسامة الرضا على شفتى الدوم دى سيا الطيب .

فجأة ألقى بريرا قنبلته .

ـ لقد كنت أقول لصديقك يادوم دى سيا إنه يكثر من المديح . وإذا كان يحسن الحرب كما يحسن الكلام فلاشك ان كل ماقيل عنه صحيح .

فوجىء الدون دى سيا بالجملة ، وترددت عيناه بين الرجلين فى حيره . وأعادت الفتاة النظر إلى جيرونيمو ، والتمعت عينا ديوجو غضبا . والواقع أن بريرا كان قد أغاظه ، وهو الخبير فى النساء ، أن تلتجىء ايوفيميا فى مبدأ الأمر إلى تحكيم الشاب بينهما ، وازداد حنقــــه حينما رآها تغضب إذ تلقى الإهانة دون محاولة درئها ، وبلغ به الحنق مرتبة الغضب لريبته المتزايدة المستمرة أن الشاب كان يسخر منه فى كل جمله يتفوه بها .

رنت ضحكة جيرونيمو جذله لاأثر فيها لشعور بالإهانة وقال بابهجة مرحة .

ـ هذا منطق رجل حرب لايقتنع بمجرد الألفاظ وهو يؤكد كل ماسمعته عن شجاعتك يادون بريرا .

تنهد دون دى سيا إرتياحا ، واحتارت الفتاة فى تفهم الشاب ، بينما اقتنع بريرا نهائيا أنه يسخر منه. لم يتمالك نفسه وهو يقول بغضب .

ـ هل تعنى بهذا أننى لا أقتنع سوى بالسيف ؟

بدا وجه جيرونيمو كأنما فى هو حيرة من تفسير غضب الدون . ورأى دى سيا

أن واجبه كمضيف أن يتدخل ليحسم ماظنه سوء تفاهم بين الرجلين خشى أن يتطور .

ـ لا .. لا .. يادون بريرا .. إننى واثق أن دون جيرونيمو لم يكن يقصد ماذهبت إليه وإنما هدفه الثناء عليك وإطراء شجاعتك .

ـ إذا كان هذا هدفه يادون سيما فما عليه إلا أن يقربه ، ويعتذر فاعتبر الموضوع منتهيا .

لم يطق ديوجو صبرا . كانت الخمر قد عصفت برأسه وظل طوال الوقت صامتا احتراما لأبيه ، لكن الجملة الأخيرة التى قالها بريرا ، ولهجة الاحتقار والتبجح التى صاحبت الألفاظ ، أفقدته ماأبقت عليه الخمر من عقل . تدخل بحدة .

ـ إننى لا أرى مايدعو صديقى للاعتذار بل إنك أنت الذى يجب أن تعتذر له عن اهاناتك المتوالية وللهجة التى تتكلم بها .

ذعر دوم دى سيما . تحول إشفاقه من حدوث سوء تفاهم بين ضيفيه إلى خوف حقيقى على حياة ولده فقد كان يعلم مدى مايتمتع به بريرا من شهرة فى حمل السلاح . استعمل سلطة الأبوة ، وهو يصيح فى استنكار .

ـ ديوجو .. اصمت ..

لم يصمت ديوجو . اندفعت الخمر تلعب برأسه ، فلم يكن من اليسير إيقافها .

ـ ان جيرونيمو صديقى وضيفى .. وقد أنقذ حياتى أكثر من مرة ولن أقف ساكتا وهو يهان فى منزلى .. على الدون بريرا أن يعتذر إليه عما بدر عنه .

كان بريرا بدوره قد تملكه الغضب ، ولعله رأى فرصته أن ينال رضاء الفتاة على حساب الشابين . أشار بأصبعه باحتقار إلى جيرونيمو وقال .

ـ أنا اعتذر لهذا ؟ !

كان صوته عاليا بحيث سمعه بعض الموجودين فتوقف حديثهم ينصتون . طرق آذانهم صوت جيرونيمو هادئا لا أثر فيه لانفعال .

— لا ياصديقى ديوجو .. إننى لا أقبل أن تحمل عبء الدفاع عنى . وإذا كنت ترى أن بريرا قد إعتدى عليك لاهانته لى وأنا فى ضيافتك ، فاعتقد أننى أولى برد هذا الاعتداء ، وهذه الاهانة .

كانت حركة بارعة وضعته فى موقف من يدافع عن كرامة صديقه وضيافته إلى جوار رد الاهانة عن نفسه ، فكسب بذلك عطف كل من سمعه . لم يكن أمام بريرا بعد ذلك الا أن يسير الشوط إلى آخره .

— سأرسل شهودى غدا ليتفقوا مع شهودك على الموعد والمكان .

قال هذا وأحنى رأسه لدون دى سيما . والفتاة ثم إنسحب خارجا من القصر .

* * *

الفصل الحادي عشر

المبـــارزة

وقف ديوجو ينظر إلى الخصمين وهما يرفعان سيفيهما إلى مقابل الوجه تحيـــة توجبها قواعد الفروسية قبل البدء في المبارزة . لم تكن الشمس قد أطلت بعد من وراء ذلك الجبل خارج لشبونة الذي اتفقوا على أن يتم فيه اللقاء . وسرت في الجو برودة الصباح ترسل قشعريرة خفيفة في الأجساد .

منذ اللحظة الأولى ، لم يتمالك نفسه ، وهو الجندي المدرب ، من أن يعجب بالرجلين . كان بريرا يقف ممشوق القامة دون تصلب . بدا أن جسده قد اتخذ خطا واحدا مع ذراعه الممدود في استرخاء طبيعي ، وانفرجت ساقاه ترتكزان في ثقة على قدمين ثابتتين . لم يكن يبين منه لخصمه سوى حد السيف يتلوه الذراع وجانب الجسد . كانت وقفة رجل محنك يعرف كيف يستفيد بكل ما وهبته الطبيعة من طول ، وقوة ، لا يعطى لخصمه فرصة نحو الجسد إلا في أضيق الحدود الممكنة .

في الناحية المقابلة وقف جيرونيمو يضاهي خصمه طولا . لم يبد على جسده تلك القوة التي يتميز بها الرجل الذي اكتمل نضوجه ، كان في وقفته أقرب إلى الإهمال . وظهرت على وجهه علامات أدنى إلى السأم من الانتباه . انثنى ذراعه حتى لم يكن يبتعد كثيرا عن جانبه . لم تأخذ القامة طولها الكامل ، وازدادت انحناءة الساقين الخفيفة من مظهر الإهمال الذي بدا به .

التحم حدا الحسامين دون أن يتحرك الرجلان . لاحظ ديوجو أن الرسغين فقط هما اللذان يتحركان وتلامس الحدان كأنما يتحسس كل منهما مضاء الآخر . ظلا لحظات على حاليهما دون أن يحاول أحد الرجلين تغيير موضعه ، ثم فجأة امتدت ذراع بريرا إلى نهايتها ، ومعها تقدمت ساقه الأمامية خطوة إلى الأمام . لم يبد على جيرونيمو انه تحرك . تقابل نصل حسامه مع حد حسام خصمه يتلقى الهجوم ، وأغلق الطريق أمامه نحو هدفه .

تابع بريرا هجومه . لم يكن فى الواقع يأمل أن تؤدى الهجمة الأولى إلى أية نتيجة ، وإنما كان الهدف منها أن يتعرف على مقدار صلابة خصمه ، وطريقته فى الدفاع . حتى هجماته المتتالية السريعة التى تلاحقت بعد ذلك لم تهدف حقيقة إلى الجسد الطويل ، وإنما إلى زيادة تعرف على الخصم . قوة ساعده ، الطريقة التى يفضلها فى الدفاع ، مدى مرونة حركاته فى مقابلة التغير المفاجىء خط الهجوم ، قدرة ساقيــه على تحمل الجسد ، وخفتهما فى الحركة ، حدود ضبط أعصابه أمام الهجوم المتكرر .

توالت الدقائق ولم يهدأ الهجوم . فجأة غير بريرا خطته ، من الخط المباشر إلى المزدوج . تظاهر أنه يهدف إلى صدر خصمه فى ضربة مباشرة ، وحينما لاقاه السلاح حاد عن طريقه إلى البطن بحركة خاطفة لا تكاد العين أن تراها . كانت هذه الضربة المزدوجة كثيراً ماتفلح فى إنهاء المبارزة . وربما تصور أنها سوف تنجح هذه المرة أيضا ، إلا أن جسد خصمه برمته لم يكن حيث اندفع الحسام .

هنا ظهرت مهارة بريرا الحقيقية . كان من شأن اندفاعه وراء طعنته أن يكشف جسده لخصمه ، إلا أنه مع الاندفاع قفز جانبا بحيث مرق السيف الموجه نحوه على قيد شعيرات منه . على أن هذه القفزة من ناحية أخرى كان من الممكن أن تفقده توازنه لولا الحركة السريعة للساقين المدربتين اللتين سرعان ماوضعتاه فى موقف الدفاع .

كان المفروض حسبما صور له عقــله أن يتابع خصمه فرصته لينتقل من الدفاع إلى الهجوم ، لهــذا استعد مباشرة لتلقى الهجمة الأكيدة . ولم يأت الهجوم . على العكس انتابته الدهشة وهو يرى أن الشاب وقف بدوره مستعدا للدفاع ، وكأنما بدأت المبارزة من أولها .

ظن أنه اكتشف خطة عدوه . إن الشاب يلتزم الدفاع حتى يبذل أقل مجهود ممكن ، ويضطره للاستمرار فى الهجوم لكى يرهقه ، ثم يبدأ هجومه . وضحك فى نفسه . إن عدوه لم يكن يعلم أنه لم يتخل يوما عن تمريناته ، وأنه يستطيع أن يستمر ساعة ، أو إثنتين دون أن يكل ساعده أو تنهك ساقاه .

عاود هجومـــه . لم يحاول أن يجرب الطعنة المزدوجة فقد علمته تجربته الأولى مدى ليونة العضلات التى تحكمت فى حركتين متناقضتين فى آن واحـــد فرجعت بالجسد إلى الخلف حين كانت الذراع تندفع أماما ليتقابل السيفان . غير خطته تغييرا كليا . اشتبك الحسامان ، وابتدأ يدور حوله خصمه محاولا أن يكشف من جسده أكبر مساحة ممكنة ، وفى الوقت نفسه دار حسامه فى الهواء بحركات لولبية خاطفة لا يمكن معها التعرف على الوقت الذى ستقف فيه لتتجه اتجاها أفقيا نحو الخصم ، ولا الموضع المختار لتهبط الطعنة .

دار جيرونيمو معه . تحرك بالقدر الكافى تماما ليجعلها فى وضع واحد لا يتغير . لم يتابع سيفه نصل خصمه فى حركاته الدائرة فى الهواء ، وإنما ظل ثابتا تقريبا ، واستمر ذراعه مثنيا أقرب إلى جانبه . دام الحال على هذا ثوانى معدودات ، ثم ظن بريرا أنه وجد فرصته . توقف حسامه فجأة عن الدوران ، وأطبق على خصمه يقطع المسافة التى تفصلهما بخطوة أمامية سريعة ، وفى الوقت نفسه استقام ذراعه إلى أقصى مداه مصوبا طعنة لو أنها أصابت لمزقت الصدر .

لكن الطعنة لم تتم ، ولو أنه حاول اتمامهـــا لقضى على نفسه . كان يعتمد فى نجاح خطته على إرباك خصمه ، وجهله التام بالوقت والموضع الذى ستتوجه فيها الطعنة ، واستدرجه خصمه إلى عنصر لم يحسب له حسابا كافيا . ثنى ذراعه فاضطر بريرا إلى أن يقصر المسافة بينهما أكثر مما يجب ، وحينما بدأ هجمته استقام الذراع أمامه ليجد بريرا أن الذراع والسيف الممدودان يقطعان عليه الطريق نحو بغيته . صحيح أنه كان يتمتع بعنصرى المبادأة والمفاجأة ، لكنه كان عليه أن يقوم بعدة حركات فى وقت واحد فى حين أن غريمه لم يفعل أكثر من أن يبسط ذراعـــه إلى أقصى مـــداه ، ومع هـــذا البسط تحرك الصدر بحركة طبيعية مبتعدا عن طريق السلاح .

للمرة الثانيـــة ظهرت المرونة الهائلة التى يتمتع بها بريرا . كان قد توقف عن الالتفاف حول خصمه حينما بدأ الهجمة وانقض باسطا ذراعـــه ، وحينما رأى

السيف يمتد إليه بغتة. فجأة تغيرت حركته جميعها . تراجعت الساقان تحملانه بعيدا عن الحد القاتل قبل أن يصل إليه بشعيرات . ليس هـــذا فحسب ، وإنما في حركة الارتداد نفسها استعد لتلقى الهجوم الذى لم يشك لحظة في أن خصمه سوف يتابعه . وقـــد كان .

تقدم غريمه يتابع ميزته بهجمات مباشرة متلاحقة اضطرت بريرا إلى أن يستمر فى التقهقر مبتعدا عن الحسام . كان الهجوم من الضراوة والسرعة بحيث بدا له أن السيف أضحى عدة أسياف ينطلق كل منها نحوه من اتجاه مغاير تماما للآخرين . اضطر إلى التراجع المستمر فلم تكن له وسيلة أخرى للدفاع . إستمر الضغط رهيبا عليه . واستمر يحرك حسامه فى كل الجهات محاولا أن يغطى كل الخطوط المفتوحة نحو جسده . لم يدع له غريمه فرصة التقاط أنفاسه أو أن يعاود الهجوم . توالت الضربات تنهال بشدة على حسامه دون توقف أو إمهال .

وليت الأمر اقتصر على هذا . لم يتقدم غريمه فى خط مستقيم ، وإنما استمر دائما يغير من اتجاهه مما اضطره إلى التراجع بخطوات غير منتظمة . لأول مرة فقد بريرا الثقة المطلقة التى رسخت فى عقله أنه لايهزم . بدأ يشعر أن أمامه ندا قد يفوقه مهارة وقدرة . أحس بأن مصيره أضحى معلقا بحد الحسام الذى يتحرك فى الهواء بسرعة رهيبـــة . تناقصت ثقته فى التدريبات اليومية التى قام بها ، وتبين له الفارق بينها وبين الواقع . كان يتدرب ساعتين يوميا ، دون أن يحس فى نهايتها بكلال ، لكنه الآن ، ولم تكد تمض عشرة دقائق على المبارزة ، بدأ يشعر بالإرهاق والخور . كان يتدرب على أرض سهلة ، لينة منبسطة فى قصره أمام مدربين يخشون بأسه . ويسيطر عليهم فيفرض طريقته الخاصة فى الهجوم والدفاع . ووجد نفسه يقاتل فى سبيل حياته شخصا لايستطيع فرض وسائله عليه ، وعلى أرض صلدة غير مستوية تكثر فيها الأحجار والحصى .

مع هذا كان مايزال أبعد مايكون عن الإرهاق أو الاستسلام ، أو حتى فقد الأمل فى الانتصار . صحيح أن ثقته المطلقة فى قدرته قد تزعزعت لكنها ظلت

موجودة . راح عقله يفكر بسرعة فى كيفية ايقاف ذلك السيل من الطعنات . غير اتجاهه فجأة مبتعدا عن الحسام وصاحبه ، إلا أن غريمه أثبت مرونة فائقة وهو يتابعه وكأن شيئا لم يحدث . جرب الحركة نفسها مرة أخرى وكاد أن يفقد توازنه وهو يتراجع إذ تعثر فى حجر ، ولم يفلح فى الإفلات . بيسر وسهولة تحول الجسد الشاب يتابعه ولم يتوقف سيل الضربات .

على أن جيرونيمو لم يكن يهدف ، أو حتى يتصور أنه يستطيع القضاء على غريمه بهذا الهجوم المباشر . لقد قدر مهارته ، واحترم قدرته على النزال ، والتحمل لهذا لم يأمل فى الإنتصار بهذه البساطة . كان كل ما يبغيه أن يسيطر على القتال وأن يشعر خصمه أنه لا يستطيع أن يتخذ السبيل الذى يهواه في المبارزة . أما وقد فعل ، بدأ ينفذ الجزء التالى من خطته . بلبلة أفكار غريمه .

تباطأت ضرباته قليلا كأنما كل ذراعه . فلم يتوان بريرا عن انتهاز الفرصة ليستعيد سيطرته على القتال ، تحرك حسامه يقابل سلاح خصمه دفاعا ، وينحيه عن الطريق إلى جسده ، فى أقل من ثانية استقام ذراعه ؛ وقفز إلى الأمام مصوبا الحد إلى الصدر الذى انكشف جزئيا أمامه . تراجع خصمه إلى الوراء أمام الهجوم المفاجئ . واندفع بريرا يتابع فرصته .

لم يتراجع خصمه فى هذه المرة . وقف يتلقى حد الحسام بالحد . فى سرعة البرق انزلق النصل فوق النصل متجها رأسا الى القلب . لم يستطع بريرا أن يتفادى الطعنة تماما . بالرغم من المجهـــود الجبار الذى بذله فى تغيير موضع جسده ، أحس بوخزة خفيفة فى أعلا الذراع أعقبها اندفاع سائل لزج دافىء . كان الجرح سطحيا لا يكاد أن يكون له أثر إلا أنه أحس به كنذير لما يمكن أن تؤدى إليه زيادة ثقته في نفسه وإندفاعه وراء هذه الثقة .

أجبر نفسه على التفكير الهادىء البطىء . لم يفعل شيئا سوى مراقبة حركات غريمه ، وتجنب هجماته دون محاولة ردها .

إلتقطت عيناه بين الفينة والأخرى بعض ملامح الأرض التى يتقاتلان عليها .

ناح على نفسه باللائمة أنه لم يدرسها قبل أن يبدأ المبارزة . وتمنى لو عنده الوقت الكافى لأن يلم بطبيعتها ، إلا أنه لم يتصور أن يستطيع ذلك أثناء القتال الذى استغرق منه كل تركيزه فى التفكير . ومع هذا فلم يعدم أن يلتقط بعض الملامح . لاحظ أنها غير مستوية تماما تتدرج إلى الصعود لتكون صخورها أكبر ، ومزالقها أكثر .

أحس بأن ساعده بدأ يكل وكأنه يتقاتل منذ أكثر من ساعة ، والواقع أنه لم تكن مضت أكثر من ربعها . اختلس النظر إلى غريمه عساه يكشف أثرا للارهاق أو التعب لكن الوجه الجامد أمامه لم ينبئه بشىء . أيقن أنه لن يستطيع أن يستمر على هذه الحالة طويلا ، وأن عليه إذا أراد أن يظفر بغريمه أن ينهى القتال فى أقرب وقت .

تراجع ببطء وحذر . ان الأرض تحت قدميه تتدرج صعودا . واطمأن قلبه . تابعه غريمه وكأنه لم يفهم هدفه . استمر يناوره محاولا أن يخفى غرضه الحقيقى ، بل انه امعانا منه فى المداراه كان يكر أحيانا هجوما مضادا . على أنه لم يكن يكد يخطو خطوة إلى الأمام إلا وارتد اثنتين إلى الوراء . لم يتعجل تنفيذ خطته . أراد أن يكون توقيته دقيقا حتى لايدع مجالا للخطأ .

استمر فى تراجعه ، واستمر غريمه فى التقدم . لاحظ أن انحدار الأرض ازداد ، ولاحت شبه ابتسامة على شفتيه . لم يبد أن غريمه قد انتبه لشىء ، وداوم تقدمه الأعمى نحو الشرك الذى نصبه له الآن .. ؟ كلا .. بضعة خطوات أيضا إلى الوراء تجعله فى موقف أحسن ، وتزيد من تأكيد نجاح الخطة . خطوة أخرى إلى الوراء ، لابل اثنتان . وجاءه صوت خصمه جليا جافا .

— دون بريرا هل تعلم لماذا سوف تموت ؟

نسى مؤقتا تنفيذ خطته ، وتوقف يحاور بسيفه . ماذا يعنى هذا الشيطان ؟

— دعنى أساعدك .. ! ارجع بذاكرتك خمسة عشر عاما هل تذكرت ؟

— انك مجنون .. ! انى لم أرك إلا البارحة ، منذ خمسة عشر عاما كنت طفلا !

— تماما .. هل تذكرت الآن ؟

ماذا حدث منذ هذه المدة الطويلة ؟ .. لا ان الخبيث قصد ان يشتت أفكاره، وعليه أن يعيد تركيزها فيما اعتزمه .. أجل خطوة أخيرة .. وبعدها .. تراجعت قدمه الأمامية لتنضم إلى أختها ، وانتقلت الأخرى بدورها خطوة إلى الخلف مبتعدة . ترى ماذا حدث منذ خمسة عشر عاما ؟ ! انه كان قائد حصن مميسة فى هذا التاريخ .. لا أن هذا التفكير سوف يعرقل تنفيذ خطته . وعليه أن يضعه جانبا .. جاءه الصوت الرتيب خاليا من الانفعال .

— تذكر يادون بريرا .. رجل أعزل يجلس فى قصره .. وزوجته ، وطفله .. هل تذكرهم ؟ .. من أجل الرجل وزوجته سوف تموت ؟ .. من أجل مافعلته بهما .. تذكر يا بريرا . أنا ذلك الطفل الذى قتلت أباه ، وأمـــه منذ خمسة عشر عاما .. أنا ذلك الطفل الذى حرم من أهله ومن ناسه .. ودينه فى دقائق .. هل تذكرت الآن ؟

ما هذا الهراء ؟ .. طفل .. رجل .. امرأة .. ان الملعون قد أفلح أن يحيد بتفكيره عما هو فيه . لكن لم لاينتهز الفرصة ليقتله ؟!.. ربما كانت هذه فرصته هو .. كان خصمه مازال يتكلم ويسأله ان كان قد تذكر .. الآن ؟

توقف عن التراجع .. ومضت لحظات وهو يحاور . التحم النصلان وابتدأ يضغط ويوجه الضربة المزدوجة . دوبايه[1] . تراجع الشاب إلى الوراء وهو يتجنب الطعنة بحسامه . لم يتبعه بريرا كما هو المتوقع وانما قفز وراءه مادا ذراعه ، ومتجها بالحد إلى موضع القلب مباشرة . باليسترا[2] كأحسن ما يكون تنفيذها .

مرة أخرى اثبت خصمه مرونة بدنية متفوقة فى حركاته . على قدر ما كانت الطعنة متقنة فى توقيتها وتنفيذها ، يساعدها فى ذلك الارتفاع النسبى الذى يتمتع به ، إلا أن صدر غريمه لم يكن حيث رآه منذ أقل من لحظة . رآه وقد ثنى ركبته

---

(١) هى طعنه أولى خادعة تلحقها الثانية فى المكان نفسه .

(٢) باليسترا .. هو اسم لقفزة تتبعها طعنة مفاجئة .

الأمامية ، ومد ساقه الخلفى ليستغل استغلالا كاملا انحدار الأرض ، وامتد ذراعه بالحسام موجها إلى الصدر .

مرق سيف بريرا فوق رأس خصمه . فى أقل من ثانية شاهد الموت مندفعا نحوه فى شكل حد سيف غريمه . لقد قلب جيرونيمو الأوضاع . بدلا من أن يتمتع مقاتله بميزة علو المكان كما كان يريد ، استغل هو انخفاض موضعه .

توقع بريرا ، أن يصطدم صدره بحد الحسام ، فلم يشك برهة فى أنه أضحى تحت رحمة خصمه تماما ، وأنه سوف يلاقى حتفه فى اللحظة التالية . لكن يبدو أن غريمه لم يكن يريد له الموت . على الأقل ليس بعد . بحركة خفيفة من رسغه تحول الحد القاتل من الصدر ليمزق الملابس ، ويسيل دماء من جرح فى الجانب الأيمن . وجاء الصوت البغيض .

— ليس بعد يادون بريرا .. ليس بعد .

تراجع بسرعة إلى الوراء ، بعيدا عن متناول خصمه ، ولو أنه علم أنه كان مكشوفا له ، ولو شاء لذهب بحياته . تعثر فى حجر أثناء تراجعه ، وانزلقت قدمه فسقط على الأرض الصلدة . ولم يتحرك خصمه . وقف منتظرا أياه أن ينهض وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم يستطع بريرا أن يفسرها . بدأ يشعر بمهانة لم تداخله طوال حياته . أيقن أن الشاب الأسمر ، ذلك الأفريقى الذى لم يكن يكن له سوى الاحتقار ، تعمد إذلاله قبل أن يذيقه الموت ، يريد أن يجعله أضحوكة أمام شهود المبارزة ليروا مدى مذلته بعد موته ، لتصبح ذكراه مهانة لكل من ينتمى إلى اسمه .

اعتمل فى نفسه غضب جائح . شددت يده الضغط على مقبض الحسام ، ونظر بشراسة إلى ذلك الأفريقى الذى وقف على بعد خطوات منه وقد تدلى سيفه إلى جانبه ، والابتسامة التى لاتعنى شيئا مرتسمة على وجهه . أعماه الغضب فدفعه إلى أن يغامر بطعنة ما كان يستعملها فى حالته العادية . قفز من الأرض مندفعا خطوات عبر الأفريقى الكريه ، ومصوبا الطعنة إلى الصدر أولا ثم حولها إلى البطن .

بخفة النمر قفز غريمه إلى الوراء ، وفي الوقت نفسه ارتفع ذراعه إلى أعلا يهبط نصل حسامه بقوة على نصل السيف الموجه إليه . سقط حسام بريرا من يده لم يستطع أن يوقف اندفاعه في الوقت المناسب ، وساعد انحدار الأرض في استمرار الاندفاع . تعثر في الحجارة المتناثرة فهوى يتدحرج أمتارا .

مكث ثواني وقد أصابه الذهول ، وحينما إسترد حواسه رفع رأسه ليرى أن غريمه مازال واقفا حيث كان على بعد أمتار . أبصره يحرك ساقه ليقذف بقدمه شيئا على الأرض . شاهد حسامه يطير في الهواء ليسقط إلى جواره في متناول يده . لم يحاول أن يلتقطه . وظل ينظر إلى الرجل يتقدم منه ببطء حتى وقف على قيد خطوات قليلة . استمع له يقول بهدوء .

— تستطيع أن تترك السيف وتنجو بحياتك .

كان هذا أكثر مما يحتمل . مد يده يتناول السيف وهب واقفا يجابه خصمه الكريه . أحس بتصلب خفيف في كتفه . علم أن الجرحين اللذين تلقاهما بدءا يؤثران بعد السقطة ، لكنه لم يعد يهتم . لقد تحولت ثقته السابقة في الإنتصار إلى يقين من أنه سوف يقتل لا مناص . فماذا يهم إذا تصلب ذراعه ؟! كان شجاعا بطبعه وجاء هذا اليقين من الموت ليحول الشجاعة إلى تهور .

هاجم بشراسة واستهتار دون أن يعتني بتغطية جسده . وتراجع خصمه بهدوء . كان يستطيع أن يصيبه عشرات المرات لكنه لم يفعل . إستمر في دفاعه ليستوعب شدة الهجوم . لم يحاول أن يرد بهجوم مضاد ، أو أن ينجو من خطورة الضربات . كان يهدف إلى أن يفقد مهاجمه حيويته . وكان يعلم أن بعض الهدوء والصبر سوف يحققان له مبتغاه .

التحم الحسامان يلتقيان بسرعة تخطف الأبصار . رأى الشهود الخصمين يتقاتلان بوحشية لامثيل لها . رأوا بريرا يتقدم مهاجما ، وجيرونيمو يتراجع مدافعا . كان الأول شعثا أغبرا ، تمزقت ملابسه وعلاه التراب وزاد من بشاعة منظره تلك البقع الحمراء من الدماء التي غطت الكتف وجزءا من الملابس في جانب الجسد واعلا

الذراع ، وقطرات العرق المتصببة من أثر المجهود الذى يبذله . كان جليا أنه تعب منهك حتى أن ضرباته لم يكن لها انتظام أو فاعلية .

مقابله ، لم يكن يبدو على الشاب الافريقى أى اجهاد . كانت ملابسه لا تزال على أناقتها ، وحركاته رشيقة ، يتحرك حسامه بيسر وسرعة ليصد كل طعنة موجهة . لاح كأنما بدأ لتوه القتال . تنقلت قدماه فى خطوات ايقاعية منتظمة ، يمد ذراعه ليدافع ثم يثنى لينبرى خصمه على الهجوم كلما رأى منه تراخيا .

إستمر بريوا فى هجومه لكن الضراوة التى بدأ بها أخذت تتناقص كلما إستنفد المجهود حميته ، وحيويته . جاءت أنفاسه متقطعة لاهثة ، وضرباته ضعيفة واهية . أحس بأن جسده أضحى حملا ثقيلا على رجليه ، وأن أصابعه لم تعد تقبض على السيف بقوة كافية . تزايدت آلام كتفه فلم يعد يستطيع أن يفرد ذراعه حتى منتهاه . حتى فى المرات القليلة التى كان يعاودة فيها الأمل ، ويظن أنه قد اكتشف ثغرة فى دفاع خصمه كانت الآلام تغشاه إذا ما مد ذراعه إلى نهايته . ومع هذا فقد بدا أنه ما يزال يهاجم ، وأن خصمه ما يزال يدافع .

رويدا بدأت سحابة تغشى ناظريه . لم تعد عيناه تبصران بوضوح كاف . تصلبت مفاصل ركبتيه حتى يكاد أن ينهار الجسد . تصلبت عضلات الساقين فى يتقدم خطوة بغير ألم . من غور سحيق أتاه رنين فى أذنيه . حاول جاهدا أن يوقفه دون جدوى . أخذ يهز رأسه كأنما هو يطرد الغشاوة ، عن عينيه ، ويستبعد الرنين من الأذنين ، فلم يفلح .

تمنى أن يستريح ساعات .. أو ساعة .. أو لحظة . ودلو ركع على ركبتيه طالبا من غريمه أن يقتله ، وينهى آلامه ومذلته . أراد أن يبكى . وما كان لذله أن يفعل . ذهبت ضراوة القتال وهى تستنفذ آخر قطرات حيويته . لم يعد يشعر حتى بكراهية نحو خصمه . فقد حتى الرغبة فى الموت . أضحى عقله فى غمامات متشابهة تعمى تفكيره ، ووعيه . لم يعد لديه دافع إلى شئ . أو رغبة فى شئ . كان يريد فقط أن يستريح .

فقد عقله كل سيطرة على أعضاء جسمه ، ولم يعد يحركها سوى مجرد الإدارة ورغبة دفينة في أغوار نفسه الا يكون أضحوكة في مواجهة ذلك الأفريقي . لم يكن يريد أن يصبح الانتساب إلى اسمه عارا يتحمله ابنه واحفاده . أخذ يقاوم الغشاوة أمام عينيه .. لم يعد يرى خصمه حقيقة .. لم يعد يتبين ملامحه .. رأى شبحا أسود ماثلا أمامه . لم يشعر أنه في محاولة طرح الغشاوة قد بلغ به التركيز حدا أنساه المبارزة .. وأنه دلى سيفه إلى جانبه ، وأمامه وقف خصمه مدليا حسامه بدوره .. منتظرا ..

رأى الشهود أن من واجبهم التدخل ، فلم تصبح المبارزة نزالا ، وقتالا بين خصمين . تقدم شاهدا بريرا ووقفا بين الاثنين يمنعان إلتحامهما . تكلم أحدهما قائلا بلهجة حاسمة .

— دون بريرا .. . نعتقد أن الوقت حان لإيقاف المبارزة .. .. هيا بنا .

إعتدل بريرا في وقفته ، واشاح بسيفه مطوحا في الهواء .

— لا .. لا .. لن توقف المبارزة قبل أن اقتل الأفريقي اللعين .. دعونا يا سادة .. !

— إنك لست في حالة تمكنك معها الاستمرار ، والا لما تدخلنا .. إنك جريح ومرهق فلا مجال للمكابرة ..

كانت الدقائق التي مضت قد مكنته نسبيا أن يتماسك . بدأت الغشاوة ترتفع عن عينيه ، وإن كان ما يزال يشعر بتصلب ساقيه ، وتفكك ركبتيه . ظن أنه لو ظل لبضعة دقائق أخرى فإنه سوف يسترد قواه كاملة ، أو معظمها على الأقل كان يجب أن يقتل هذا الأفريقي .. أو يموت .

— إنني في أحسن حال .. ومن حقي أن أطلب الاستمرار .

تردد الشاهدان . رأيا عقم محاولة إقناعه فالتفتا إلى خصمه بنظرة رجاء . جاءت بسمته جافة لم تنبئهما عن شيء مما يرجوان فلم يريا مناصا من الانسحاب .

ما كادا يتراجعان قليلا ، وينفتح الخط بين الخصمين حتى إندفع بريرا بأقصى

سرعته موجها حد حسامه إلى صدر خصمه . لم يكن جيرونيمو مستعدا لهذه الهجمة المفاجئة ، بل إنه فى الواقع لم يخطر على باله أنه مازالت هنالك بقية من حيوية لدى منازله لكى يكر بمثل هذه السرعة . كان واقفا وحسامه مدلى إلى جانبه حينما إندفع السيف إليه .. .. نحو القلب مباشرة .

صرخ ديوجو غاضبا محذرا . والتفت الشاهدان مذعورين لهذه الطعنة الغادرة . لأقل من برهات لم يكن لدى أى من الشهود شك فى أن السيف سوف يصيب الهدف ، وأن نهاية جيرونيمو قد حلت . لكن الطعنة لم تصب الهدف . بسرعة ومرونة فائقتين تحرك الجسد .. .. لم يتحرك جميعه ، وإنما الصدر فقط هو الذى تنحى بعيدا عن الحد القاتل ، بينما بقيت الساقان مكانهما .. .. وطاشت الطعنة عن هدفها .

ليس تماما .. لم تصب القلب ، ولم تصب الصدر .. الا أن السيف اصطدم بالكتف الأيمن واخترقه ، ثم انسحب بسرعة ليتجه المرة الثانية إلى الصدر . إنبثقت الدماء غزيرة من الجرح . وسقط الحسام من اليد المدلاه . أحس جيرونيمو أن ذراعه أضحت حملا ثقيلا ملتصقا بكتفه الملتهب . لم يشعر تماما بأن السيف قد انزلق من يده ، وإنما علم أن أصابعه لم تعد تقوى على أن تقبض على شئ .

رأى الهجمة التالية تأتى فى أعقاب الأولى مباشرة . كانت الأولى قد حملت بريرا قريبا منه حتى أنه إضطر لكى يوجه ضربة أخرى أن يسحب سيفه من جسد خصمه ، ويرجع بذراعه إلى الوراء ليبدأ دفعه فى الصدر المكشوف أمامه . إنتهز جرونيمو هذه الفرصة . لم يتراجع مبتعدا . إنما تحرك حركتين فى آن واحد . تنحى جانبا وتقدم خطوة إلى الأمام . امتدت ذراعه اليسرى تقبض على كتف بريرا وتساعده فى إندفاعه الذى بدأ به الهجوم الثانى .

دفعه بقوة جعلته يبدو كأنما هو يعدو خطوات ، ثم يتعثر ، ويسقط على وجهه ويطير حسامه من يده . لم يتمهل جيرونيو بعد هذا . بالرغم من أن الدماء كانت تنزف بغزارة من الجرح ، ومن أنه بدأ يشعر بدوار من أثر ذلك ، تقدم

بخطوات خفيفة إلى حيث سقط حسامه ليتناوله بيده اليسرى ثم إعتدل واقفا يرقب خصمه .

رآه يتحامل على نفسه محاولا القيام . شاهد رأسه يدور بحثا عن حسامه ثم ، كأنما تذكر ، نظر فجأة إلى ناحيته برعب . إرتسمت على شفتيه إبتسامة شاحبة ، وأشار إليه بحسامه .

— اعتقد أننا تساوينا الآن يابريرا . تقدم وتناول سيفك .. لاتخش فلن أقاتلك حتى تستعيده .. أظن أننا نستطيـع أن نبدأ ..

إستعاد بريرا حسامه بيمينه . كان يفضل أن يستعملها على مابها من تصلب ، تحامل على نفسه وهو يتقدم . كانت الهجمة الغادرة قد أنسته مؤقتا ذلك الضعف الشديد الذى اعتراه . وحينما كررها بدأ يعاوده تصلب ذراعه ، وكلال ركبتيه ، ثم حينما دفعه خصمه غارت ركبتاه تماما . والآن وهو يقوم ، ويتحرك ، وصل به الارهاق ، إلى حد أن ساقيه كانتا ترتعشان . أحس بثقل السيف ، ولم يستطع أن يفرد ذراعه إلى منتهاها .

رغما عن كل هذا ظن نفسه فى مركز أحسن من خصمه الذى فقد القدرة تماما على تحريك ذراعه اليمنى والذى فقد كثيرا من الدماء . تقدم تدفعه ثقة متجددة ، وابتدأ يشتبك بحسامه بقدر مقدرة خصمه فى استعمال ذراعه الأيسر ، وقوة قبضته .

سرعان ماخاب أمله . فى الثوانى الأولى من التحامهما علم أن مهارة عدوه فى استعمال الحسام بذراعه الأيسر لاتقل كثيرا عن الأيمن . حينما إتجه سيفه . كان سيف خصمه يسد طريقه إلى الجسد الثابت أمامه . لم يكن يبدو أنه يتحرك . ظلت الذراع اليمنى مدلاه ولاشك أن الكتف كان يؤلمه . لم تتحرك اليسرى إلا بالقدر الضرورى . كما أن الساقين كانتا لاتكادان تخطوان أكثر من خطوة أو اثنتين ، أماما أو خلفا .

أيقن بريرا أن خصمه قد انتابه الضعف من جراء ما فقد من دماء ، وربما أيضا بدأ يعاوده الدمار ، وأنه إن تماسك بعض الوقت فلا محالة سوف يناله . جمع

كل ما تبقى لديه من إرادة . من غور سحيق فى أعماقه اندفعت حيوية مخزونة لم يكن يدرى عنها شيئا . هاجم بكل الوحشية والضراوة التى يبدو أن فائض الحيوية يعطيها دائما قبل أن تنضب تماما .

دار سيفه بسرعة هائلة حول نصل خصمه حتى بدا أنه يلتف حوله ويحتويه . حينما تأكد أن الجزء القوى من نصله إحتوى حد السيف الضعيف أمامه ضغط رغم الحسام ، والذراع وراءه على الإتجاه إلى أسفل ، ثم انقلب حسامه متجها إلى القلب مع الذراع الممدود إلى أقصى مداه .

طعنة ماهرة ، قابلها دفاع أبرع . لم يكن جيرونيمو يجهل خطة خصمه . حينما بدأ هجومه فهم نواياه واستعد لها . تركه يتمادى فى تنفيذ خطته . سايره حينما أحس بالضغط على حسامه ، وحينما امتد الذراع بالطعنة القاتلة لم يكن هو حيث تصور خصمه . تحرك جسمه برمته جانبا ، وفى اللحظة نفسها سقط على ركبته مادا ذراعه الأيسر ليتلقى حسامه الصدر المندفع وراء الطعنة .

أحس بريرا بالمعدن البارد يلمس صدره . ثم فتح الحد طريقه بين الضلوع يمزق كل مايصادفه .. حتى استقر فى القلب . بانت الدهشة فى عينيه لبرهة لم يصدق ماحدث كأن الموت لم يخطر له على بال . سقط سيفه من يده ، وخارت ركبتاه تنوءان بجسده . ألقى نظره محمومة على السيف الملوث بدمائه وهو يتدلى من يد خصمه . أخيرا انكفأ على وجهه وسط بركة من الدماء . وحينما هرع إليه شاهداه ، علما أنه أضحى بعيدا عن كل معونه .

الفصل الثانى عشر

العصـــا

مضت خمسة أيام على المبارزة ، اضطر فيها جيرونيمو أن يلزم فراشه . لم يكن الجرح الذى أصابه فى كتفه خطيرا إلا أن ما فقده من دماء تركه ضعيفا إلى درجة لم تمكنه من الحركة . عاوده طبيب الدوم دى سيما الخاص ، وبعد أن كشف عليه طمأنه بأن الجرح ، وإن كان غائرا ، إلا أنه لن يسبب له أية متاعب ، وأنه سوف يستعيد حركة ذراعه كاملة مع الوقت ، ولن يترك أثرا سوى مجرد ندب خفيف .

إلتزم ديوجو فراش صديقه طوال المدة تقريبا فلم يكن يفارقه إلا ليتركه يستريح ، كما أن الدون دى سيما كثيرا ما كان يعاوده . فى اليوم السادس حضر لزيارته لورنسو مورينو ، وأبدى توددا غير عادى ذاكرا أن أبوفيميا ترسل تحياتها ، وترجو له الشفاء العاجل . تعجب جيرونيمو لهذا الود المفاجىء الا أنه سرعان ماأدرك أن لورنسو انما أتى فى الواقع ليرى ديوجو ، ويستفسر عن سبب غيابه طوال المدة الماضية متخذا معاوده الجريح ذريعة ، وتأكد من ذلك حينما لم ينصرف لورنسو إلا بعد أن وعده ديوجو بمقابلته فى المدينه فى مساء الغد .

توالت الأيام بعد هذا ، ودهش جيرونيمو لعدد الأشخاص الذين جاءوا لعيادته مع أنه لم يكن يعرف معظمهم سوى معرفة سطحية ، لكنه علم من الأحاديث أن شهود المبارزة وصفوها وصفا دقيقا فذاعت شهرته كمبارز لا ضريب له ، مما دفع الكثيرين إلى خطب وده ، بل إن دونا مرجريتا عاودته بمفردها أكثر من مرة ، وقررت بجرأة بالغة مدى إعجابها به ومضت تتودد إليه وتداعبه غير مراعيه وجود أشخاص آخرين .

سار بخطوات سريعة نحو الشفاء الكامل . فى اليوم العاشر سمح له الطبيب

بالحركة فى أرجاء القصر ، وحدائقه ، وإن كان قد أصر على أن يستمر الذراع مربوطا إلى العنق ، وأوصاه بعدم تحريكه وعدم إجهاده . وفى أصيل يوم ، وكان قد مضى على مغادرته الفراش زهاء أسبوعين ، بينما هو سائر فى حدائق القصر إلتقى بالدوم دى سيما الذى تظاهر بأن اللقاء جاء مصادفة . سأله الدوم عن صحته واضطراد تقدمه نحو الشفاء ، وعما إذا كان ينقص شيئا لراحته ، ولما رد على الاستفسارات بادره رب القصر متسائلا .

— هل رأيت ديوجو ؟

— أجل ياسيدى إنى أراه كل يوم فهو يعودنى ظهرا .

تردد دوم دى سيما قبل أن يتابع الحديث .

— الواقع أننى لا أراه هذه الأيام إلا نادرا فهو يقضى معظم أوقاته خارج القصر ، ولا يأتى إلا فى ساعات متأخرة من الليل . وغالبا ما يكون قد أفرط فى الشراب .. الحقيقة يابنى أننى قلق عليه .. إنه يسرف فى الشراب ، ويخسر كثيرا فى الميسر .. هل تعلم شيئا عن هذا ؟

كان جيرونيمو قد لاحظ فعلا أن صديقه لم يكن يعوده فى الأيام الأخيرة إلا لماما ، كما أنه كثيرا ماسمع صوته صخبا فى الساعات الأولى من الفجر . سأله ذات مرة حينما جاءه ظهرا عن كيفية قضاء أمسيته فأجابه باقتضاب أنه كان بصحبة لورنسو فى أحد ملاهى المدينة ، ولم يزد على ذلك شيئا . لم يرد جيرونيمو أن يثقل عليه فلم يلح فى أسئلته . أجاب صادقا .

— لا ياسيدى لا أعلم سوى ما ذكرتم .

بدا أن الرجل الطيب مضطرب لا يعرف كيف يتابع حديثه فأسرع الشاب إلى نجدته .

— .. وإن كنت أعتقد أنه يقضى معظم أوقاته مع دون لورنسو واخته .

— من هما ؟ .. هل تعرفهما ؟

— أجل .. إن والدهما تاجر فى جوا وقد أبحر لورنسو معنا ، وتوطدت

الصداقة بينه و بين ديوجو أثناء الرحلة إلى لشبونة .. أما أخته فلم أرها سوى مرة إذ كانت في الدير .. وأحسب أن سيادتكم قد رأيتموها ليلة الحفل .

قطب دوم دى سيما . ما بين حاجبيه كمن يحاول أن يتذكر ثم طرح المحاولة جانبـــا .

— أيا كانا فهما رفيقا سوء .. هل تسمح لى أن أثقل عليك بأن ألتمس منك أن تحاول إبعاده عنهما .. إن ديوجو ولد طيب لكنه سهل الإنقياد ..

كان الرجل يتكلم بصعوبة فقد بدا من الجلى أنه لم يعتد أن يلتمس صنيعا من أحد ، لكن قلقة على نجله إضطره إلى أن يتنازل عن كبريائه لهذا بادر جيرونيمو .

— إن ديوجو صديقى ، وطالما خضنا سويا المعارك لهذا فإن معرفتى به جيدة ، وأنا واثق أن أى إنحراف منه إنما هو وقتى .. وعلى أى الأحوال فإن ما أوليتمونيه من ثقة لشرف عظيم .

تنهد دوم دى سيما بارتياح وكأنما إنزاح عن كاهله عبء ثقيل وإبتسم قائلا .

— أتظن ذلك حقا !؟ .. أعتقد أننى أفرطت فى قلقى .. شــكرا لك .. يا بنى ..

* * *

حوالى الساعة الحادية عشر من صباح اليوم التالى ، نزل لورنسو واخته من حجرتيهما فى النزل الذى يقيمان فيه . كانا على موعد لقاء مع ديوجو بعد ساعة ، وأرادت ايوفيميا ان تشترى بعض الحاجيات فبكر الإثنان فى النزول . عند آخر الدرج تلقاهما صاحب الخان ، واخبرهما ان هنالك من ينتظرهما مشيرا بيده إلى شخص يجلس عند نهاية القاعة الفسيحة قريبا من احدى النوافذ المطلة على الطريق .

إلتفتا حيث اشار ، وكانت دهشتهما بالغة حينما رأيا جيرونيمو جالسا على المنضدة ، وقد تراجع بمقعده قليلا حتى يريح الذراع المعلق إلى رقبته ، ومد رجليه

الطويلتين إلى أقصاهما، لم يتحرك في جلسته حينما إتجها إليه . ظل مكانه يرقبهما وهما يتقدمان بنظرة ثابتة لا توحي بشيء ، حتى إذا كانا على قيد خطوات منه نهض واقفا . خاطبه لورنسو بلهجة وضح فيها كل العداء الذي يكنه .

— هل تريد أن ترانا ؟

— الواقع أني كنت أريد أن أراك أنت .. أما وقد شرفتنا الآنسة فلعله من الأوفق .. هلا جلستما دقائق .

كانت لهجته مثل نظرته لا توحي بأي معنى . أظهر لورنسو تأففه وهو يسحب مقعداً لأخته وآخر له . ثم قال وهو يجلس .

— حسنا لكن أرجو الا تطيل .. إننا كنا على وشك الخروج .. وعلى أي الأحوال فلست أدري ماذا تريد منا ؟

جلس جيرونيمو على الطرف الآخر من المنضدة .

— جئت أرجو لكما إقامة سعيدة في جواردا .

رفع لورنسو حاجبيه دهشا وحدقت ايوفيميا في وجهه بشدة تروم سبر أغواره .

— لكننا لن نسافر إلى جواردا أو أي مكان آخر .

— أنت مخطيء . إنكما مسافران في الصباح المبكر ولهذا دعني أنصحكما بالخلود إلى الراحة اليوم لترتبا شئونكما ، ولا داعي لمقابلة ديوجو .

بان الغضب على وجه لورنسو .

— ماهذا ؟ أهي أملوحة ؟!

— كلا .. هو أمر .

هنا لم تتمالك الفتاة نفسها ، هبت واقفة وقالت بصوت مرتفع .

— ومن يأمرنا ؟ .. انت ؟

لم يزد على ان حول نظره إليها . وظل الصوت النبي تردد في أذنيها هادئا لا معنى له .

ـ اجل ..

ـ وأحسب أننا لو رفضنا فسوف تقتلنا كما قتلت دون بريرا .

ـ إن المرء لايبارز أمثال اخاك يا آنسة ، انه يقرعهم بالعصا .

كان لورنسو مازال جالسا ، وحينما سمع الكلمات الأخيرة انسحبت يده بحركة لاشعورية نحو مقبض حسامه ، وبدا ينهض . لم يتحرك جيرونيمو من مكانه ، ولم تتغير ملامح وجهه ، ولا داخل صوته اى شعور .

ـ إننى ارجو مخلصا الا تفعل هذا .

خرجت الكلمات هادئة ، تكاد ان تكون هامسة . تجمد لورنسو حيث هو لحظات فلا هو اتم قيامه . ولا هو جالس . تعلقت عيناه كأنما بسحر بعينى الرجل الأسمر الجالس بلا حركة ، ثم هبط على مقعده صامتا . لكن ايوفيميا لم تصمت . كان الغضب قد بلغ بها حدا لم يكن من اليسير عليها ان تتمالك نفسها . صاحت بصوت متهدج من الانفعال .

ـ كيف تجرؤ على إلقاء اوامرك لنا ؟ انت ايها .. ايها العربى .. لابل إنك اسوأ من عربى . . ان العربى على الأقل يدافع عن دينه وعشيرته .. ايها المرتد .

كانت القاعة الفسيحة خالية تقريبا ، لم يكن بها سوى ثلاثة رجال يتحدثون فى احد الأركان البعيدة مع صاحب الخان لكن صوت الفتاة كان عاليا . توقفوا عن الحديث واعتدلوا فى جلستهم ينظرون ، ويستمعون . رأوا الرجل الأسمر يتكلم ، ولم يصلهم صوته .

ـ تمالكى نفسك يا آنسة . إن هذا كلام قد يؤدى بك إلى محاكم التفتيش .

ـ ومن سيبلغهم ؟ انت فيما أعتقد ؟

ـ ربمــــا ..

تهالكت الفتاة على المقعـــد ، ونظرت إليه بعينين مشدوهتين غير مصدقة ماسمعت أذناها . قالت بصوت مبحوح تحاول جهدها السيطرة عليه .

ـ هل وصلت بك الخسة إلى هذه الدرجة ؟

لم يزد على أن رفع كتفيه ، وظلت عيناه تنظران إليها دون أن تطرفا . أخيراً قال :

ـ لعله من المستحسن الآن أن اتركـكما لتمدا حاجياتـكما . وأعتقـد ياسيد لورنـو أن معك من النقـود التى ربحتها من ديوجو على مائدة الميسر ما يـكفيـكما .

هنا إلتفتت الفتاة إلى أخيهـا متسائلة غير مصدقة . توقعت أن ينـكر ماقاله الشخص البغيض الذى لم يحاول الحركة رغما عما يردده من زعمه أنه سوف يغادرها .. بادلها أخوها النظر برهـات ، ثم نـكس رأسه فى الأرض .. لاحظ جيرونيمو الحركة التى أتتها الفتاة ، ورد فعل أخيها .

ـ يبدو أنك لاتعرفين ذلك يا آنسة .. إننى أعتذر إذ ظننت أنك طرف فى المؤامرة حول صديقى ..

لـكننى أرى أنك ضحية بريئة إستغلك أخوك دون أن تعلمى .

حول نظره عنها إلى أخيها الذى ظل فى مـكانه ، ورفع رأسه يرمقه بنظرات محمومة ملتهبة .

ـ إننا لن نبحر قبل شهر . وأريدك ألا تعود إلى لشبونة إلا قبل الابحار مباشرة .. أما انت يا آنسة فاننى أكرر لك إعتذارى ، وإذا أردت البقاء فى المدينة فلك مطلق الحرية . لـكن لاتقابلى ديوجو .

قام من مجلسه ، ولم تحاول الفتاة أن تنظر إليه . ظلت عيناها مثبتتين على أخيها .

ـ قبل أن اتركـكما أود ان أذكرك يا لورنسو بأننى أتوقع منك أن تسطر بضعة كلمات لديوجو تعتذر فيها ، وتحتج بأنك مضطر إلى السفر إلى الأرياف لمرض أحد أقربائك المفاجىء ، كما أننى أتوقع ألا يعرف ديوجو شيئا عن زيارتى .

لم ينتظر إجابة وتركـهما منصرفا .

* * *

Generated by CamScanner from intsig.com

مضى أكثر من شهر على المقابلة السابقة . حل يوم الرحيل ، الثامن من يوليو . يوم يتفاءل به رجال البحر البرتغاليون . في مثل هذا اليوم منذ قرن وربع ترك فاسكودي جاما لشبونة في رحلته الأولى إلى الهند ، ملتفا حول رأس الرجاء الصالح . رأس العواصف، كما كانت تسمى .

استعاد جيرونيمو في هذه المدة صحته تماما ، وقدرته على حركة ذراعه اليمنى ، وكتفه .. ساعده ديوجو على ذلك . كانا يتدربان يوميا على المبارزة ، والمصارعة . تدريبات خفيفة في مبدأ الأمر زادت تدريجيا حتى أضحت في الأيام الأخيرة تستغرق ساعات . وتعددت زيارات دونا مرجريتا حتى بدأت الألسن تتردد في المدينة عن علاقتها المزعومة مع الشاب الأسمر . وصلته هذه الشائعات فلم يهتم بأن يؤكدها أو ينفيهـــا .

رافقها دوم دي سيا إلى الميناء ، يودعهما وشكره جيرونيمو على كرمه وحسن ضيافته . احتضنه الرجل الطيب كما يحتضن الأب نجله راجيا ان يكون لهما لقاء . واعل الشاب الأسمر لم يتأثر لشيء في كل حياته مع البرتغاليين قدر تأثره من تلك البساطة ، والحرارة الصادقة التي ودعه بها النبيل العجوز . اعتملت في نفسه أحاسيس متفاوته تتصارع ، ظهر أثرها على وجهه الجامد . رغم أنه قفزت إلى عينيه دموع بذل جهدا جبارا حتى تغلب عليها ، وعاد وجهه إلى سابق جموده .

ترك الرجل وابنه وصعد إلى السفينة حيث وقف عند حاجزها ينظر إلى رصيف الميناء ، وإلى التلال والجبال ومايبدو من المدينة . سرحت أفكاره في الفترة التي قضاها فيها . تذكر قصر الدوم ، وما لقيه فيه من ترحيب ، وحب ، وصداقة . لقد منحه الرجل النبيل حبا أبويا لم يشعر بمثله طوال حياته افتقده منذ أن ربت أبوه على رأسه لآخر مرة قبل ان يقتل .

إنتقل تفكيره إلى بريرا . إن الله قيض له ان ينتقم منه ، بعد تلك السنوات ، وعلى بعد الشقة بين البلدين . لم يخطر في باله أنه سوف يقابله ، ويبارزه ، ويقتله . لم يكن يحلم بهذا ، لكن القـــدر له طريقته الخاصة . لقد أرسله البرتغاليون ،

إلى أوربا ليقابل البابا ، وليزداد إيمانا ، وما دروا أنهم بذلك وضعوا حداً لحياة أحد مواطنيهم .

شعر بيد توضع على كتفه ، فالتفت كمن انتبه من حلم ليرى وجه صديقه ديوجو وهو يبتسم .

ـ ماذا ياصديق ؟ إنك مستغرق فى التفكير حتى لم تشعر بى . هل يحزنك فراق لشبونة الجميلة ؟ .. هذا هو أبى .. هناك ..

لوح الإثنان بيديهما . ورد الدوم ملوحا فى وقار . كانت الميناء غاصة بالناس بين مودع ومرتحل ، وتاجر يراقب شحن بضائعه ، ورجال رسميين فى مهامهم ، وحمالين وغيرهم ، فما كل يوم تبحر تسع سفن إلى الهند . كان هذا هو عدد سفن القافلة . ست سفن تحمل البضائع ، والركاب ، بكل منها مدافع تتراوح بين ثمانية واثنى عشر ا والثلاث الباقيات سفن حربية للحراسة .

دق ناقوس سفينة القيادة . وفردت السفن شراعاتها تتلاعب بها الرياح . بدأت الحركة الوئيدة للمراكب تختال على صفحة المياه . تعالت هتافات ، ودمعت عيون ، وأسرعت نبضات قلوب ، وحلقت فى عقول متاهات الأحلام . احلام بالثراء العاجل ، واحلام بالمغامرات . كان لكل من على السفينة حلمه الخاص ، لكنهم جميعا اشتركوا فى الإحساس بالرهبة . لم تكن الرحلة البحرية مجرد لهو ومتعة ، وإنما كانت هنا أيضا اخطار .. اخطار من الطبيعة وعواصفها .. واخطار من سفن الأعداء .. ومن القراصنة .

لكن السفينة نفسها بدت لاهية . راحت شراعاتها تستمتع بهواء البحر الرطب المنعش بداعبها فى رفق ، بينما تمايل هيكلها يتبختر مع الأمواج الخفيفة . تباعد الميناء فأضحى من فيه خيالات لاتميز بينها ، وبدت الجبال يحتويها سحاب . شيئا فشيئا إختفت المدينة برمتها عن الأنظار ، وأضحى الشاطىء كأنما هو رسم دارس لايكاد أن يبين .

فى القمرة المخصصة لهما أخذ الصديقان يعدان حاجياتهما استعدادا للرحلة الطويلة .

وتكلم ديوجو .

ـ إننا سعداء الحظ بأن أفردوا لنا قمرة خاصة والواقع أن هذه ميزة لايتمتع بها إلا القلائل ولولا تدخل والدى لوجدنا أنفسنا نشارك عشر أشخاص عنبرا

تساءل جيرونيمو .

ـ لكن لماذا لم يفرد لنا مكان فى السفن الحربية ؟ إننا جنديان أفلم يكن من المعقول أن نعود على سطح إحداها ؟

ـ كلا ياصديقى . اننا لسنا من الجنود فى هذه الرحلة . علام تبتئس ؟ ! استمتع بوقتك . لاتتعجل الجندية .. وبالمناسبة ألم تر أيوفيميا ولورنسو ؟

ـ ما الذى جعلك تظن أنهما على هذه السفينة ؟ هنالك خمس أخريات تحملن ركابا وبضائع .

ـ لقد رتبت هذا مع الدون مانيول . لعلك تذكره ؟ انه كان فى الحفلة ، ووالده تمتلك النصيب الأكبر من هذه السفن .

تذكر دون مانيول ، وتذكر المناقشة التى دارت فى الحفلة عن المتشح بالسواد وانه لم يمت كما اعتقد الكثيرون وتساءل .

ـ هل سمعت شيئا جديدا عن المتشح بالسواد ؟

ـ آه .. كثيرا .. إن الأندية فى اشبونة كانت مليئة بأخباره ويكاد ألا يخلو مجلس من الحديث عنه ، ومن العجيب ان السيدات والآنسات مغرمات به وأفعاله .

ـ إذاً فهو لم يمت ؟ !

ـ قطعا لا . أكثر من هذا إذ يلوح أنه ليس فردا بل جماعة لأنه ظهر فى مدن متعددة متباعدة فى وقت واحد تقريبا لقد ظهر فى جوا ، وفى ديو ، وفى ممبسة ، وباتى . ولا أدرى أين أيضا .. ومن الغريب ان هذه الجماعة لايبدو أنها تتعاون . وإنما يعمل كل واحد منها بمفرده .

— ألم يقبض على أى فرد منهم ؟

— لم يصل إلى علمى شئ من هذا .. لكن دعنا من الحديث عنهم لقد سئمته من كثرة ما سمعت .. هل انتهيت من ترتيب حاجياتك ؟

— أجل

— حسنا .. هيا بنا إلى السطح عسى أن نرى صديقنا لورنسو

— .. .. واخته .

ضحك ديوجو بروح طيبة وأضاف .

— أجل .. واخته .

صعدا إلى السطح ، ورأياهما . لم يكونوا بمفردهما . كانت معهما فتاة فى مثل عمر ايوفيميا . حياهما لورنسو بمرح ولم يبد عليه أى أثر لمقابلته الأخيرة مع جيرونيمو أما الفتاة فقد كانت تحيتها لكليهما جافة لا أثر فيها للترحيب . قدم لورنسو الفتاة الثانيـــة لهما .

— الآنسة ناتاليا دى سا . زميلة ايوفيميا فى الدير منذ الصبا ، وابنة دون دى سا صاحب ضياع فى ممباسة .

رأى الشابان فتاة جميلة . لكن جمالها يختلف تماما عن صديقتها . كانت أطول منها قامة وانصع بياضا ، ذات شعر ذهبى طويل مسترسل ، وعينين زرقاوتين ، وفم قاس ، وشفتين دقيقتين . وحينما ردت التحية جاء صوتها واضحا ينم عن شخصية قوية جريئة . وجه ديوجو الحديث من فوره إلى ايوفيميا .

— كيف حال المريض ؟

تطلعت إليـــه الفتاة دهشة وسألت .

— المريض .. أى مريض ؟

— ألم يكن أحد أقاربكما مريضا ؟! لقد كتب إلى لورنسو أنكما ذهبتما إلى جوا زدا .

— آه هذا .. لست أدرى .. إن لورنسو هو الذى ذهب أما أنا فسكنت فى الدير .

— إذاً كنت فى لشبونة طوال الشهر الماضى ولم نرك ؟!

تدخلت ناتاليا فى الحديث .

— لا عليك .. أمامك شهور طوال ستراها فيها فليس هنالك مكان آخر تذهب إليه .

ارتفعت ضحكة لورنسو .

— إنك تضمين الأمر كأنما إيو تود أن تهرب ولا تستطيع ، ولا أحسب أنه هكذا .

قال هذا وغمز بعينه إلى ديوجو الذى إحمر وجهه خجلا وسرورا ، فى حين احمر خدا ايوفيميا ، كانت غاضبة من المقابلة الجافة التى لقيتها من جيرونيمو وازداد غضبها من أقوال أخيها فصاحت محتدة .

— أنا لا يهمنى ما تحسبه أو لا تحسبه .. إذا أردت أن أرى أحدا فسوف أراه ، وإذا لم أرد فلن أراه ولا أعتقد أن هناك داع لأن أهرب ..

رأى جيرونيمو أن الوقت قد حان ليغير مجرى الحديث ، فالتفت إلى ناتاليا وسألها .

— هل ذهبت الآنسة إلى ممبسة من قبل ؟

— لا فقد قضيت حياتى فى الدير .. هل هى بلد جميل ؟

— أجل .. إنها جزيرة فى الواقع .

— أعرف هذا من خطابات والدى .. وهو يقول إن بها حصنا لا يمكن إقتحامه سواء برا أو بحرا . وهذا يجعل الحياة آمنة ، وهو من حسن الحظ إذ أن العرب بدأوا يثيرون القلاقل فى عمان على ما سمعنا ، هذا طبعا عدا الانجليز والهولنديين ، والفرنسيين .. أليس كذلك يادون ديوجو ؟

رد ديوجو باسما .

— إنك يا آنسة تبالغين فى الأخطار . إن الأسطول البرتغالى والجنود البرتغاليين لايضارعون . فالعرب لا خوف منهم مطلقا إذ نستطيع أن نسحقهم فى أى وقت شئنا ، وهم على أى الأحوال منقسمون على أنفسهم ويقاتلون بعضهم دائما . أما الإنجليز فإنهم حلفاؤنا ، بل إننا نكاد أن نكون أصدقاءهم الوحيدين فليس بينهم وبين الفرنسيين أو الهولنديين أى ود .. لا .. لست أظن أن الحالة بالسوء الذى تصورينه يا آنسة .. وعلى أى فإنك فى أمان فى ممبسة ، إذ أن حصنها كفيل بأن يدفع أى معتد .. برا وبحرا .. كما أن قائده على ما أعلم هو الكابتن بدرو ليتاودى جامبوا وهو من أبرع ضباطنا .

انتهزت ايوفيميا الفرصة التى واتتها وأرادت أن تنال من جيرونيمو فوجهت إليه الحديث .

— لكننا لم نسمع رأى السيد جيرونيمو .. هل صحيح أن العرب لاخطر منهم .. واننا نستطيع أن نسحقهم ؟

كانت فى قرارة نفسها تود أن تحرجه ، وأن ترى أثر السؤال فى نفسه ، وأن تحط من قدره وقدر قومه .

لكن الشاب الأسمر هز كتفيه وهو يقول بلا اكتراث .

— لا بد أن الأمر كذلك يا آنسة اذ أنكم سحقتموهم قبل ذلك .

— سحقتموهم !.. أنك تتكلم كأنما لست برتغاليا ..؟!

— لم أكن موجودا حينما حدث هذا منذ قرن وربع يزيد ..

لم يدع لها فرصة للرد . والتفت إلى سائر الجماعة كأنما قد إنتهى الحديث وقال .

— لست أدرى عنكم .. لكننى جائع واستأذنكم فى الذهاب للبحث عن مطعم السفينة .

انتهز ديوجو الفرصة وقال وهو يبتسم .

— خذنى معك .. أننى جائع كذلك ، هل يريد أحد منكم طعاما ؟

رد لورنسو

— أنا .. وربما كانت هنالك بعض الفول .

نظرت ناتاليا إلى جيرونيمو وهي تقول .

— اذهبوا انتم أولا ، وإذا وجدتم مكانا مناسبا فيمكن لأحدكم أن يستدعينا .

تبعت عيناها الشبان الثلاثة وهم يبتعدون ثم وجهت كلامها إلى رفيقتها .

— إنه رجل وسيم جدا .

— من ؟ ديوجو ؟!

— لا تتغابين !.. طبعا أعني الشاب الأسمر جيرونيمو إن وراء هذا الوجه أحاسيس عارمة تسكاد أن تلتهمنى بنيران محرقة .

نظرت إليها ايوفيميا مندهشة وقالت بازدراء .

— ألا تراك تبالغين ؟ إننى لا أرى فيه سوى أنه رجل نفعى بغيض يبدل دينه وجنسه لمجرد مصلحته الشخصية .

رنت ضحكة ناتاليا عالية . كانت قد شعرت مثل ديوجو بالصراع الخفى الذى دار بين صديقتها والشاب وإن كانت قد تعجبت له فإنها أرادت أن تنتهز الفرصة لصالحها .

— هذا حسن .. إذا دعيه لى . وانعمى مع ديوجو مادمت تفضلينه .

— تستطعين أن تنعمى أنت بالإثنين فانى لا أروم أحدا .

رغما عنها أحست باستنكار شديد لتصرف صاحبتها . دهشت كيف يمكن لفتاة نشأت فى الدير أن تقول مثل هذه الأقوال ، وأن تكون بهذه الجرأة . دهشت من نفسها أكثر حينما داخلها غضب مكتوم لا معنى له ضد الشاب الأسمر . وجدت نفسها تستطرد بشدة لم تعهدها فى نفسها .

— لكن دعينى احذرك من أنه زير نساء ، فان لشبونة مليئة بأقاصيص مغامراته مع دونا مرجريتا .

— آه .. ما اجمل هذا .. إن معناه أنه يضيف إلى مميزاته ميزة الخبرة ..

دون سبب ظـاهر ازداد غضب ايوفيميا حتى أنها لم تعد تستطيع البقاء مع زميلتها، أدارت ظهرها وهى تقول .

ـــ هو لك إذاً قلبا وقالبا ، أما أنا فأريد أن أستريح في القمرة ..

لم تستطع أن تقول أكثر من هذا إذ كانت الدموع تـكاد ان تطفر من عينيها . أحست بكره شديد نحو ذلك الرجل الذى لم يقابلها مرة إلا وانتهت المقابلة بسبب جديد يزيدها مقتـــا ، واحتقارا له . أسرعت فى خطواتها تريد أن تخلو إلى نفسها . ورأته . كان يتقدم نحوها بخطى ثابتة تبدو بطيئة ، وإن أحست بأنها كخطوات النمر .

إنـكمشت فى ركن مظلم حتى تخطاها . داخلها شعور مبهم أنه رآها مع انه سار دون أن يلتفت نحوها ، وكأنه لم يلحظ وجودها . تناست المنطق تماما ، وأنها هى التى حاولت أن تستتر منه ، وأضافت ضده سببا آخر يزيد مقتها اشتعالا . لقد جرؤ على تجاهلها وهى على قيد بضعيرات منه . كان في برودة يثير الغيظ .

راودتها رغبة جامحة أن تتبعه ثم فإستنكرتها ، وظلت تقاومها لحظات ثم زال ترددها ، فسارت إثره بخطى خفيفة يدفعها فضول خفى . المرة الثانية احست أنه يراها ، ويعلم أنها تتبعه وكأن له عينين في مؤخرة رأسه . همت أن تعود ادراجها إلا انه كان قد لحق بصديقتها واستدار فخشيت ان يراها . انتحت ركنا مظلما ومضت ترقبه مرغمة ، وهى تتمنى لو أنها كانت قد ذهبت إلى قمرتها .

رأته يقف إلى جوار الفتاة . أبصرتهما يتـكبان هامسين ، ثم ارتفعت ضحكة ناتاليا عالية رنانة . خيل إليها أنهما يضحكان منها . شاهدتهما يتجهان نحوها وقد تأبطت الفتاة ذراعـــه . خيل إليها أن صديقتها تحتضن الذراع أكثر مما هو حادث فعلا ، وانها تلتصق بالجسد الطويل إلى جوارها . رأتها ترفع عينين بريئتين إلى الوجه الأسمر الجامد ، خطر فى بالها انها بدأت فعلا تمارس سحرها ، وتعجبت كيف ان فتاة مثلها يمكن ان تعجب بمثل هذا الثعبان الأسود .

* * *

جنوبا . دائما إلى الجنوب ، تهادت المراكب التسع تتالى على سطح المحيط إزدادت الحرارة كلما أوغلت السفن فى اتجاهها . وازدادت الألفـــة بين الركاب . كان من حسن الحظ أن الرياح ظلت ساكنة والسماء صافية ، ومياه المحيط هادئة مما أعطى الركاب فرصة لـكى ينظموا أنفسهم ويرتبوا سبل لهوهم ومرحهم . ابتدعوا ألعابا ، وكونوا فرقا موسيقية ، وأنشدوا الأغانى ، وأعطوا دروسا للأطفال .

اشترك جيرونمو معهم خاصة فى إعطاء الدروس . كان لا يمل من التدريب فى المبارزة ، أو التصويب بالبندقية . تتوالى عليه الساعات دون أن يـكل ، فإذا ما فرغ إنتقل إلى مدافع السفينة يتفحصها ، ويسأل طاقمها حتى عرف كلا منهم شخصيا . كان بالسفينة اثنا عشر مدفعا لـكن الطاقم كان من البحارة العاديين لم يـكن منهم من مارس الجندية إلا إثنين :

أمضى أوقات طويلة فى تنظيف المدافع وتشحيم العجلات التى تتحرك عليها ، وتفقد الذخائر والتعرف على أنواعها . تفحصت عيناه الخبيرتان كل شىء ، مواقع المدافع وبعدها عن بعضها ، سهولة حركتها وتوجيهها ، صلابة معدنها وقوة حواملها وقدرتها على الاحتمال .

وجد فيه ربان السفينة وبحارتها تلميذا نشطا تواقا أن يتعلم . كان قد اكتسب بعض العلم عن الفنون البحرية أثناء رحلاته المتعددة على السفن الحربية ، أما فى هذه الرحلة فإنه اعتنى بأن يتعلم كل مهنة ، وأن يمارسها . كان عنده الوقت الـكافى والنشاط والحيوية اللازمين . لم يـكن هنالك عمل أحقر من أن يقوم به ، ولا أكبر من أن يستوعبه . كان يجد متعـــة لانهائيـــة وهو يضيف إلى معلوماته كل يوم شيئا جديدا .

رافقه ديوجو فى بعض الأعمال . فـكان يتدرب معه يوميا على فنون الجندية . وتعرف معه على مواقع المدافع ونوعها ، وذخائرها لـكنه توقف عند هذا الحد . كان يمضى سائر وكأنه مع لورنسو والقساوسة . حاول مرارا أن يثنى صديقه عما هو فيه دون جدوى .

— لماذا كل هـــذا الاعتناء بالمدافع وتدريب الطاقم ؟ إن من يراك تفعل هذا يظن أنك تستعد لدخول المعركة !

— لايستبعد هـــذا ؟

— ماذا ؟ .. من ذا الذى يجرؤ على مهاجمتنـــا ونحن فى حراســـة ثلاث سفن حربية .

— لست أدرى .. ومع هذا فإننى أحب أن أقضى أوقاتى بين البحارة والمدافع .

— لا .. لا .. ياصـــديق .. أننى أفضل أن أستمتع بوقتى .. تعالى معى .. إن ناتاليا لاتمل السؤال عنك .

— دعنى وما أنا فيه . إن هنالك الكثير من العمل حتى تصير المدافع فى حالة جيدة ، كما أن أمامى أكثر من هذا لأتعلم فنون الملاحة ، وربما بعد هذا أستطيع ان أشاطركم بعض مسراتكم .

كان قد مضى حوالى أسبوعين على رحيلهم من لشبونه . وصلوا إلى جزر كنارى فى سبعة أيام ثم اتجهوا جنوبا إلى الرأس الأخضر ، وخليج غينيا، بعد ان قضوا يومين فى الجزر الجميلة تزودت فيها السفن بالمياه العذبة ، ومؤن طازجة من شتى الخضراوات ، والفواكه ، واللحوم .

فى الثامن والعشرين من شهر يوليو وصلوا إلى الرأس الأخضر . ولم تكن المياه فى مثل الهـــدوء الذى استمر فى الجزء الأول . اعتكف الكثيرون فى قمراتهم ، وحتى الذين استطاعوا الصمود أمام تأرجح السفينة لم يكونوا فى حالة تسمح لهم بالمرح . قليل منهم جدا الذى لم يتأثر اطلاقا باهتزاز السفينة وتمايلها ، ومن هؤلاء كان جيرونيمو . لم يبد عليه أنه شعر بأية وعكة حتى ان البحارة دهشـــوا حينما استمر يعاونهم فى أعمالهم ، ويجلس معهم وكأنه قد ولد فى البحر .

استراح الركاب حينما دخلت السفينة فى حماية الخليج وتوقفت الاهتزازات التى كانت ترهقهم . حينما استعادوا بعض حيوتهم فى صباح اليوم التالى ، وعلموا

أن ربابنة السفن قرروا البقاء فى الميناء لمدة خمسة أيام حتى يتزودوا بالمؤن ويهدأ المحيط قليلا ، قرروا بدورهم أن يقيموا حفلا فى المساء على سطح السفينة خاصة وأن الجو عموما كان حارا لم تخفف وطـأته نسمات البحر .

استأذنوا الربان أن يسمح للفيف منهم أن ينزلوا إلى الشاطىء فى أحـد القوارب ليشتروا بعض الفاكهة الطازجة ، واللحوم والنبيذ، وأشياء أخرى. رفض الربان فى أول الأمر محتجا بأنه فى حاجـة إلى كل قواربه وبحارته لاتمام تموين السفينة ، واعدادها للأبحار خاصة وأن المرحلة القادمة كثيرة الأعاصير ، ثم عاد ووافق حينما تدخل لورنسو وايوفيميا إذ لم يستطع مقاومة رقة الفتاة الحسناء .

نزل لورنسو ورفاقه إلى الشاطىء وأصرت الفتاة أن تـكون بصحبتهم . أمضوا شطر النهار فى ابتياع حاجياتهم وعادوا إلى السفينة قريب الغروب محملين بأنواع الفواكه ، والأنبذة ، واللحوم . كان الشطر الأكبر من الركاب في هـذه الاثناء قد أعدوا جزءا من السطح ليـكون حلبة رقص ، ومـكانا للموسيقين والمتفرجين، بينما مدت مائدة طويلة ، أعدتها السيـدات والآنسات ، تحتوى على أنواع الطعام والشراب .

اشترك جميع الموجودين من ركاب ، وضباط ، وبحارة فى الحفل لم يتغيب منهم إلا من اضطرته ظروفه إلى ذلك أو كان فى نوبة حراسة أو عمل . ولم يـكد يحل المساء حتى خلا باطن السفينة من الأشخاص تقريبا وامتلأ السطح . فى إحـدى القاعات الداخليـة ، جلست ايوفيميا وصديقتها ناتاليا ، منتظرتين حضور لورنسو وديوجو . كانت أصوات الموسيقى والضحك قد بدأت فعلا تصلهما ، في حين كانت القاعة خالية إلا منهما ، فأخذتا تقطعان الوقت بالحديث ، ومعاينة شتى الصور والأسلحة التى زينت بها الجدران .

وفى القمرة المخصصة لهما كان ديوجو قد انتهى تقريبا من ارتداء ثيابه ، بينما لم يـكن جيره نيمو بدأ بعد . لم يشأ أن يذهب مع صديقه إلى الحفل متعللا بأنه متعب ويود أن يستريح . أصر ديوجو على اصطحابه مقررا أنه لن يذهب

شخصيا إلا برفقته ، ولو أدى الأمر إلى الاعتــــذار للفتاتين المنتظرتين فى القاعة .
تبسم جيرونيمو وهو يرد بأن ضميره لايستطيع أن يتحمل هذه التضحية الكبرى من صديقه ، ولا أن يترك الفتاتين الجميلتين منتظرتين .

انتهى ديوجو من ارتداء ملابسه ، وجلس على فراش صديقــــه منتظرا أن يتم بدوره . شاهده وهو يرتدى سرواله رماديا ، ثم وهو ينتقى قميصا أبيض يضمه . وأخيرا وهو واقف أمام المرآة يرتبه .

فجـأة تجمد جيرونيمو فى مكانه . خاطب صـــديقه آمرا ، وإن لم يعل صوته على الهمس .

— لاتتحرك ولاتتـكلم ..

للحظات ظن أنه جن أو يمزح ، إلا أن اللهجة التى تـكلم بها لم يدع مجالا للشك فى مدى الجدية التى وراء الألفاظ . كانا قد خاضا معارك كثيرة سويا ، واعتادا على مواقف سرعة الاستجابة فيها قد تـكون الفيصل بين الموت والحياة . تجمد ديوجو فـكأنه تمثال لاحياة فيه . وهنا أحس بشىء يتحرك على ذراعه فوق ملابسه قريبا من قبضة يده . أيا كان هذا الشىء فلابد أنه يمثل خطرا داهما لأن عينى صديقه كانتا تنظران إلى صورته فى المرآة ولاحظ أنهما مثبتتان عن الذراع .

انتابه خوف حقيقى جعل العرق البارد يتصبب من جبينه . لم يتحرك جزء منه إلا مقلتيه كانتا تراقبان . رأى صديقه واقفا كما كان منذ ثوان . إلا أن يده تلصصت ممتدة إلى أحد الحسامين تستله برفق من مـكانه . لاحظ أن عضلات جسمه جميعها تتصلب استعدادا ثم تتالت الحركات بسرعة لايمـكن تصورها .

كان جيرونيمو يواجه المرآة ويوليه ظهره ، وهو على بعد لايزيد عن خطوة . فى لحظة استدار قافزا ، وهبط السيف على ماظنه ديوجو لأول وهلة ذراعه ، وفى الوقت نفسه دفعت اليد الأخرى الجسد المتجمد الجالس على الفراش بقوة جعلته يقع على الأرض ويرتطم رأسه بمسند مقعد خشبى . وفقد وعيه .

توافقت الحركات الأربع مع بعضها حتى بدت كأنها حركة واحدة ، كانت

من الانسجام والدقة بحيث كان يستحيل على العين أن تتابع تفصيلاتها . فى لحظة كان جيرونيمو واقفا ينظر فى المرآة والسيف مدلى فى يده ، وفى الثانية وقف أمام الفراش ينظر إلى ذلك الشىء الأسود الذى رآه ويسير على ذراع صديقه .

وقف ينظر وينتفض . لم يشعر بفخر للضربة المحكمة التى شطرت الحشرة إلى نصفين تماما . ولم يشعر بفخر لمرونة الجسد الهائلة التى مكنته من القيام بالحركات الأربع بمثل هذه السرعة والدقة ، إنما كان ينتفض خوفا من ذلك الشىء الذى تمله ، والذى لم يقلل من بشاعة منظره أنه شطر إلى نصفين. كان الأرملة السوداء أشد أنواع العناكب فتكا . فى لدغتها السم . حشرة يزيد من خطورتها أنها تميل إلى الرطوبة وتسعى إليها وتبتعد عن الجفاف لهذا تندفع عادة إلى الجسد العارى ، حيث العرق .

ظل مكانه ثوانى حتى تمالك نفسه ، ثم التفت إلى صديقه . رآه ملقى على الأرض وبعض الدماء تسيل من جرح فى جبهته . داخله رعب أن يكون قتله وهو يريد انقاذ حياته . لقد دفعه بقوة ليبعده عن الموت ولم يدخل فى حسابه أن دفعته جاءت أقوى من اللازم ، ولا أنه كان متلعبا فى جلسته غير مستعد لهذه الحركة الفجائية .

بلهفة حقيقيه جثا إلى جواره ، وتحسس قلبه ، وسرعان ماتبين أنه حى ، وإن كان قد فقد وعيه . كأم رءوم تناوله برفق وحمله كأنه طفل صغير . فتح الباب وسار فى الردهات حتى وصل إلى حجرة لاحظها قبلا وعلم أنها تستعمل كمستشفى صغير فى حالة الطوارئ .

استقبلته ممرضه ، ودعته أن يضع الجريح على الفراش ، وحينما استفسرت عن سبب الجرح لم يزد على أن قال إنه سقط ، وارتطم رأسه بمسند مقعد خشبى . فحصت الجرح وطمأنته أنه سطحى ، وأن صديقه لايلبث أن يفيق وإن كان من المستحسن أن يقضى الليلة فى فراش المستشفى .

مكث إلى جواره دقائق حتى اطمأن إلى أن تنفسه طبيعى ثم تركه . كان طوال الوقت يفكر فى كيفية وصول الأرملة السوداء إلى الفراش . لم يكن هناك شك

فى أن شخصا ما وضعها وهو يهدف إلى القتل . قتله هو . لم يكن جلوس ديوجو على فراشه وتعرضه للموت إلا مجرد مصادفة . إن مثل هذه العناكب يستبعد جدا أن تأتى السفينة مصادفة دون يتعمد أحد إحضارها .

إن هنالك من وضع الأرملة السوداء فى فراشه ، وقد أخذها من هنا ، من الشاطىء الأفريقى . لم يكن من العسير عليه بعد هـذا أن يتجه تفكيره إلى لورنسو وأخته . أجل هما الاثنان اللذان يرغبان فى موته ، وهما اللذان ذهبا فى الصباح إلى الشاطىء الأفريقى ، ولم يكن من العسير عليهما أن يشتريا من أحد الأهالى هذا العنكبوت ، كما لم يكن من العسير على أيهما أن ينتهز فرصة عدم وجود الشابين فى قمرتهما ليدسا الحشرة فى فراشه .

لكن كيف عرفا ان هذا هو فراشه ؟ تذكر أن لورنسو جاءهما مرة فى القمرة وأخـذ يقارن بين الفراشين مستفسرا . جرى الحديث عاديا حتى أن جيرونيمو لم يعره التفاتا فى حينه ، ولاهو تذكره بعد ذلك حتى الآن . ولم يعد لديه شك . تملكه غضب لم يشعر بمثله منذ مدة طويلة . إندفع إلى حجرات البحارة وقد قرر أن يعطى لورنسو والفتاة درسا لاينسيانه .

كانت حجرة رئيس البحارة خالية ، دخل يبحث فيها حتى عثر على بغيته . كانت عصا رفيعة متينـة تستعمل فى تأديب الصغار من البحارة تحت التمرين . لوحها فى الهواء مرات يجرب متانتها حتى اطمأن فأخذها معه وأوصد الباب وراءه واتجه إلى القاعة حيث تنتظر الفتاتان .

هالهما المنظر حينما رأتاه . استولى عليهما الرعب من الجسد الطويل ، والصدر العريض ، والشعر ، والهنـدام غير المنظم . هبتا واقفتين حين دخل عليهما ، وابتعدت ناتاليا لمـا رأت عينيه مثبتتين على الفتـاة الأخرى وكأنما لاتريان سواها . تراجعت أيونيميا إلى الوراء مذعورة تشاهده يتقدم نحوها وقد قبضت يده على العصا .

التصقت بالجدار وتلفتت حولها فى رعب تبغى مفرا ، لكن الرجل أمامها لم يعطها الفرصة . امتدت يده لتقبض على معصمها بعنف ظنت معها أنه قد قصمه . ندت عنها صرخة ألم ، لم يعرها التفاتا . وحينما تكلم جاء صوته غريبا يتهدج من الانفعال .

— أين لورنسو ؟ ..

تلعثمت ، وحاولت أن تفلت من قبضته دون جدوى . أشتد ضغط الأصابع الفولاذية على المعصم حتى صرخت .

— معصمى ! .. إنك تهشمه ..

لم يبال ، ولم يخفف الضغط .

— لورنسو .. أين هو ؟ .. تكلمى يافتاة ..

— هنا ..

جاء الصوت من خلفه . بسرعة طوحها كأنما هى العوبة . اندفعت بعيدا لتسقط على الأرض وتبقى كما هى تتطلع بفزع إليه . استدار ليرى لورنسو واقفا فى وسط القاعة وفى يده حسام . كان مطمئنا إلى موقفه إذ رأى غريمه لا يحمل سوى عصا رفيعه وشكر لنفسه حسن تصرفها الذى جعله يعود إلى حجرته ليمتشق حسامه قبل أن يأتى حينما رأى خصمه وهو يتجه إلى القاعة حاملا العصا . قال بلهجة الواثق من نفسه .

— أنك لا تموت بسهولة .. أما فى هذه المرة فلا مفر لك .

لم تفهم الفتاة شيئا . لم تدرك ماذا يعنى أخوها ، ولا السبب الذى جعل جيرونيمو يبدو فى هذه الثورة العارمة . لم يتكلم . ولم يرد عليه وتقدم نحوه . ارتفعت ذراع لورنسو مصوبه الحسام إلى صدر خصمه ، وابتسم وهو يداعب به الهواء فى حركات دائرية صغيرة . تركه يتقدم حتى أضحى على بعد لا يزيد عن خطوتين ، ثم امتد ذراعه وهو يخطو إلى الأمام يقطع المسافة الباقية بين الحسد والصدر العريض .

صاحت ناتاليا محذرة ، وشهقت ايوفيميا وهى تتوقع أن يخترق الحسام الصدر ليسربله بالدماء . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . بخفه النمر تنحى الجسد ليمر النصل على بعد شعيرات منه ، وارتفع الذراع لتهوى العصا بسرعة رهيبة مرات متتالية على الجسد المكشوف . صرخ لورنسو غضبا وألما . استدار مطوحا سيفه حيث ظن جسد عدوه . لكنه لم يكن هنالك وبدلا من ذلك تتالت ضربات العصا تهوى على كل جزء فى جسمه .

أعماه الألم والغضب . هجم على خصمه وهو يطوح السيف أمامه يجعله سدا منيعا بينه وبين العصا . تراجع جيره نيمو أمام الحد القاتل حتى اندفع لورنسو وراءه . فتوقف . رأى الحسام يشق طريقه فى الهواء إليه فى حركة دائرية فقفز إلى الخلف وما أن أكمل النصل دورته حتى كان قد تقدم قبل أن يعود .

وضع العصا تحت ابطه وقبض على خصمه من الخلف بيديه . وخرج صوته متمهدا قاسيا .

— يبدو أن العصا لا تنفع وأنت بملابسك كاملة .

شعر لورنسو كأنه طفل فى يد عملاق . حاول أن يتخلص من القبضتين المطبقتين على كتفيه من الخلف فلم يستطع . بحركة سريعة تطايرت أزرار السترة وهى تنزع من الكتفين والذراعين . وتلاها القميص ، ليقف النصف الأعلى من الجسد عاريا .

راقبت الفتاتان المنظر بذهول . لاحظتا أن الرجل الأسمر لم يحاول أن ينتزع السيف من يد خصمه على الرغم من أنه كان المقطوع به أنه كان يسير عليه أن شاء . كان ينزع عنه الجزء الأعلى من ملابسه فقط كما ينتزعها عن طفل ، وحينما فرغ طوقه بإحدى يديه ، وقبضت الأخرى على العصا ثم أخلى سبيله . وهوت العصا بضربات رهيبة على الجلد العارى .

فى هذه المرة كانت الصرخات (*) التى صدرت من لورنسو صرخات ألم ، وليست عن غضب . رأت الفتاة جسد أخيها النحيل الذى تكاد عظامه أن تبرز من

الصدر يتلون مع كل ضربة تهوى عليه . رأته وهو مايزال قابضا على سيفه يحاول أن يهرب متفاديا الضربات التى ظلت تلاحقه ، ولما لم يجد ى من الهرب استدار ليواجه خصمه من جديد .

كر عليه فجأة ، وتنحى الجسم الأسمر من أمامه ، وحينما مر مندفعا إلى جواره انهالت العصا الرهيبة على الذراع والكتف والظهر . تلوى من الألم واطاح بالسيف على غير هدى . وظلت العصا تهوى عليه محدثه أصواتا طغت فى القاعة حتى على أصوات الموسيقى الهادرة التى ترد من سطح السفينة .

كل ذراعه فلم يعد يحتمل ثقل السيف . وكات ركبتاه فلم تقويا على رفع سائر جسده . سقط على الأرض وتركت أصابعه المقبض . والعصا مازالت فى عملها دائبة . أخذ يصرخ ويبكى وهو يتلوى على الأرض أثر كل ضربة . رفع وجهه الجميل باكيا متضرعا ، وظل الوجه القاسى فوقه جامدا . لم يشعر فى حياته بمثل هذه الآلام التى لم تدع جزءا فى جسده ولا أحس بمثل هذه المذله . لقد تركه خصمه عامدا ينتضى سيفه . لم يحاول أن يجرده منه حتى سقط من يده رغم أنفه .

أخيرا جاءته الرحمة حينما غشى عليه . وأخيرا تحركت الفتاة مندفعة نحو أخيها حينما رأت جسده هامدا لا يتحرك . نفضت عنها الرعب الذى سيطر عليها طوال الفترة السابقة ، وركعت إلى جواره تضمه إلى صدرها وهى تبكى وتنشج . رمت عينيها الدامعتين إلى الوجه القبيح . وعلا صوتها رفيعا حادا مليئا بالكراهية والبغض .

— أيها الوحش .. أيها الهمجى .. سوف اقتلك .. لن ادعك تعيش لتتشدق بأفعالك مع من هم أقل منك قوة .

لم يبد على الوجه الأسمر أى تأثر ، وجاء الصوت هادئا واضحا وهو يجيب .

— لقد حذرت أخاك أن المرء لا يبارزه ، وانما يقرعه بالعصا ، وتركت له حسامه حتى تتكافأ الفرصتان وما كان لى أن أفعل هذا بعد أن حاولتما قتلى وكدتما تقتلان صديقى .

— أنت كاذب .. أننا لم نحاول شيئا من هذا .. أنك انما تدعيــــه لتبرر نملتك المشئومة .

— لازالت بقايا الحشرة القاتلة على الفراش إن شاءت الآنسة ناتاليا أن تتحقق ونستطيع مع شيء قليل من الاستفسار أن نعلم من اتى بها من الشاطيء وإن كنت لا أنصح بهذ والا لحوكمتما بتهمة الشروع فى القتل .

نظرت إليه غير مصدقة لـكنها فى قرارة نفسها عرفت أنه يقول الصدق ، ومع هذا فلم ترد أن تتصور أن أخاها يلجأ عامدا إلى مثل هذه الوسيلة . نسيت أن الرجل قد أتهمها هى أيضا ، ولم تعد تفـكر سوى أن تستبعد التهمة عن أخيها . وجاءها الصوت البغيض كأنما هى فى حلم .

— مسألة أخيرة . إن ديوجو فى غيبوبة فى المستشفى ولم يعلم شيئا عن علاقتكما بوجود الحشرة فى الفراش ونصيحتى الا يثار شيء . أن أخاك قد لقى جزءه ولا أحسب أن أحدا رأى أو سمع شيئا سوانا نحن الثلاثة واقترح ان يظل الأمر هكـذا فليس من صالحـكما أن يذاع ماتم ، وأرجو أن تـكونا قد اتعظتما من هذا الدرس . ان شئت حملت إلى فراشه .

— لا شأن لك به سنتعاون على حمله والنباية به .

— لك ماشئت .

وانسحب دون كلمة أخرى .

الفصل الثالث عشر

عبث العاتيات

مكث ديوجو فى فراش المستشفى إلى صباح اليوم التالى . حينما استيقظ لم يشعر بأى ألم إذ اتضح أن الجرح سطحى . وجد إلى جواره جيرونيمو فابتسم له شاكرا انقاذه حياته ، ثم سأله عن لورنسو والفتاتين فأجاب .

— لقد اعتذرت لهم البارحة عن عدم استطاعتك حضور الحفل .

— وهل رافقتهم أنت ؟

— كلا .. لم أكن فى حالة نفسية تسمح بذلك .

تركه صديقه بعد هذا . وذهب إلى هوايته التى فرضها على نفسه فى معرفة أحوال السفينة والبحارة . لم يطق ديوجو صبرا ، فصعد إلى السطح يستنشق الهواء آملا أن يقابل ايوفيميا وأخاها إلا أنه لم ير سوى ناتاليا التى كانت تقعد بمفردها متكئة إلى الحاجز ، وهى تنظر إلى المحيط الممتد أمامها حيالها ، ووقف إلى جوارها وسألها مستفسرا .

— أين لورنسو وأيوفيميا ؟

— إنهما فى القمرة . إن لورنسو يشعر بوعكة وقد بقيت ايوفيميا إلى جواره .

— ماذا ألم به ؟

— لاشىء . أعتقد أنها وعكة سوف يشفى منها خلال أيام .

— إنى آسف ولابد أن أعوده . هل اعتذر لكم جيرونيمو عن عدم حضورى بالأمس ؟

ابتسمت الفتاة وهى تقول ..

— أه .. أجل أنه اعتذر .. وأنا شخصيا أعتقد أنه أحسن الإعتذار .

بمراءاة أجابها .

— إن جيرونيمو له طريقته الخاصة الجذابة .

هنا لم تمالك الفتاة نفسها فأطلقت ضحكة مرحة .

— إنك لاتدرى كم أوافقك على رأيك هذا .. أجل لاشك فى أن له طريقته الخاصة الجذابة .

* * *

حاول ديوجو خلال اليومين التاليين أن يعود لورنسو ، لكن أيوفيميا قابلته فى كل مرة معتذرة بأن المريض يستريح ، وأن طبيب السفينة أمر بألا يراه أحد أو يزعجه لمدة . تساءل عن نوع المرض ، فلم يظفر بطائل ، واكتفت الفتاة بأن أخبرته أنه فى حالة جيدة ولا خطر عليه ، وسرعان ماسوف يبل بما هو فيه .

بدا له أن مقابلتها له جافة ، وإن تكن مؤدبة . سألها ذات مرة أن تتريض معه على سطح السفينة فأبت بحزم .

فى هذه الأيام لم يكن أمامه إلا ناتاليا . أراد أكثر من مرة أن يستدرجها فى الحديث ليعلم ما أصاب لورنسو ، ولماذا تقابله أخته بهذا الجفاء إلا أن الفتاة كانت أكثر دهاء منه . وحينما يئس التجأ إلى جيرونيمو يسأله . جاءت الإجابة أيضا لاتشفى غليله إذ اكتفى صديقه بأن قال إنه لم ير لورنسو أو أخته منذ ليلة الحفلة .

أبحرت السفن التسع فى صباح السادس من وقت أن ألقت مراسيها ، وسمع جيرونيمو من الضباط أن قائد الثلاث سفن الحربية قرر أن يتجه الجميع رأسا إلى الجنوب ، على عكس نصيحة الربابنة الآخرين الذين أرادوا أن يتجهو غربا ، ثم جنوبا ليتفادوا التيارات القوية فى خليج غينيا . لكن القائد أصر على موقفه بحجة أن هذا الإنحراف سوف يطيل مدة الرحلة بأكثر من شهر .

مضى اليوم الأول بهدوء ، كان الجو حارا والرياح ساكنة حتى أن معظم الركاب صعدوا إلى السطح فى أخف ملابسهم . كان جيرونيمو منهمكا فى صقل أحد المدافع فى أحد البحارة حينما حانت منه التفاتة فشاهد لورنسو يتقدم نحوه

متمسكا على ذراع شقيقته . حول نظره إلى المدافع متظاهرا بأنه لم يرهما إلا أنهما تقدما حتى وقفا إلى جواره وتكلمت الفتاة كشخص قد أكره رغما عنه .

— إن أخى وأنا نريد أن نحادثك .

إعتدل واقفا وتمتم ببضعة كلمات للبحارة ، ثم انضم إليهما دون أن يرد . سار الثلاثة صامتين حتى إنتحوا مكانا خاليا من الركاب فتوقفوا . مضت لحظات لم يتكلم فيها أحد . لاحظ الشاب الأسمر أثناءها أن الفتاة كانت تنظر إلى وجهه مباشرة كأنما تحاول أن تستشف مكنونة ، في حين أن أخاها ظل مطاطىء الرأس متفاديا أن يلتقى نظره بالنظرة الثابتة الهادئة . حتى حينما تكلم لم يرفع رأسه .

— إننى أريد أن أعتذر وأشكرك . لقد أخطأت خطأ فاحشا . وتلقيت جزائى ، كما أننى أشكرك لعدم إذاعة ماحدث أو إخبار ديوجو به .

ظل صامتا . كان يفكر . ان مثل لورنسو لايعترف بخطئه بمثل هذه السهولة ، وما كان لينسى مالاقاه من تأديب . فهل جاء الإعتذار لأن أخته أرغمته عليه ، أم أنه يدبر أمرا . طال صمته ، فاستطرد الآخر متلعثما .

— اننى لاأحمل لك ضغينة على .. على .. ماحدث .. و .. واعتقد أنه جزاء استحقه .. فهل لك أن تنسى أنت أيضا لنبدأ صفحة جديدة ؟

غلبت عليه سماحة العربى . لكنه لم يكن يود من ناحية أخرى أن يبدأ صفحة جديدة لايرى داعيا لها فلم يزد على أن قال .

— لاعليـــك .

هم بأن ينسحب إلا أن صوت الفتاة استوقفه .

— انتظر لى أنا أيضا كلمة .

توقف وحول نظره إليها .

— إننى أود أن تعرف اننى لم يكن لى ضلع فيما حدث ، بل اننى لم أعلم شيئا ، ولو علمت لمنعته .

لم يتكلم وظل منتظرا .

— إنك لاتصدقنى ..!

— وهل لهذا أهمية ؟

بدأ ينصرف دون أن ينتظر إجابة ، لكنه توقف للمرة الثانية حينما سمع صوت صديقه يأتى من ورائه .

— آه .. هذا أنتم .. لقد أخبرتنى ناتاليا أنكما تتريضان على السطح فأحضرتها معى لنتناول طعامنا جميعا .

رأى جيرونيمو الفتاة إلى جواره فابتسم محييا . مدت يدها إليه مسلمة وحينما تناولها شعر بضغطة خفيفة ولم تحاول أن تسحب يدها إلا حينما تركها . ووجهت إليه الحديث .

— أين إختفيت طوال هذه المدة ؟ ألم يخبرك ديوجو بأننى سألت عنك أكثر من مرة ؟

كان فى لهجتها نوع من العتاب لايوجد له مايبرره ، ولم يكن من عادته أن يرد على ماليس له مبرر . لاحظت الفتاة ذلك . وأن ليس فى نيته أن يعتذر لها فبادرت قبل أن تطول مدة الصمت .

— تكفيرا لك عن هذا عليك أن تصاحبنى فى جولة فى السفينة ، وشرح لى ماكنت تفعل طوال هذه الأيام . تعالى وسوف ننضم إليهم فى قاعة الطعام بعد نصف ساعة .

لم تنتظر إجابة . تأبطت ذراعه وهى تقول كلماتها فلم ير مندوحه من مرافقتها . لم يكادا يبتعدان حتى همست .

— الواقع أننى أريد أن أترك ديوجو منفردا مع لورنسو وايو إذ أنه تشكى لى طوال المدة الأخيرة من جفاء مقابلتها له .. خبرنى كيف حدث اللقاء بينك وبينهما ؟

— لم يحدث شىء .. تحدثنا حديثا عاديا .

رفعت وجهها إليه مبتسمة .

ـ لا بأس .. سوف أعرف من إيو .. لكن هل يلزم أن أتكلم أنا باستمرار ؟ .. أليس لديك شيئا تقوله ؟

ـ هل أنت بحارة جيدة ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني هل تقاومين دوار البحر ؟

ـ لست أدرى .. إنني لم أشعر بغثيان طوال الرحلة . لكنني لم أقم برحلة أخرى قبل ذلك . لماذا السؤال ؟

ـ لأنني أعتقد أننا سوف نقابل أوقاتا عصيبة

ـ هل تعني بذلك عواصف وأعاصير ؟

ـ أجـــل .

ـ هذا جميل . أنني أود أن أرى المحيط في زوبعته .

ـ أرجو أن لا يتغير رأيك بعد العاصفة ..

ـ لكن لماذا تتوقعها ؟ إن المياه هادئة والرياح ساكنة .

ـ لن يستمر طويلا هكذا . أننا ندخل منطقة العواصف .

فجأة توقفت عن السير وسألت .

ـ خبرني لماذا تتفاداني ؟

قابل نظرتها بهدوء من يتعجب من السؤال .

ـ أتفاداك ! ؟ ومن قال هذا ؟ أنني فقط مشغول بدراسة السفينة وصيانة مدافعها .

ـ إنك تتهرب من الإجابة .. وأنت تعلم جيدا أننا لن نحتاج إلى المدافع ومعنا السفن الحربية .

ـ وهل ستظل معنا ؟

ـ ولم لا ؟ .. إنها مهمتهم ولن يجرؤوا على تركنا .

ـ قد تضطرهم العاصفة إلى ذلك ....

هنا تقدم منهما أحد البحارة ، وأخبره أن الربان يريد مقابلته فورا فى حجرة القيادة . صحب الفتاة عائدا بها إلى باقى الجماعة ، واعتذر لهم وقال لديوجو بلهجة جادة .

ـ هلا أتيت معى ؟

دون أن يسأل عن السبب، إعتذر بدوره وسار الإثنان إلى حجرة القيادة . وجدا الربان جالسا إلى منضدة ومعه الضابط الأول ورئيس البحارة . تبادلوا التحية وقال جيرونيمو! .

ـ لقد سمحت لنفسى بأن أدعو صديقى دون ديوجو وهو أيضا كما تعلمون ضابط فى الجيش إعتقادا منى بأنكم قد تحتاجونه .

هز الربان رأسه موافقا .

ـ إذا فأنت تعلم لماذا إستدعيتك ؟

ـ أجل

ـ وهل يعلم دون ديوجو ؟

ـ لا أظن...!

ـ إذا فسأخبره .. اننا مقبولون على عاصفة شديدة لا يعلم مدى قوتها الا الله، ولست أعلم إن كنا سنخرج منها سالمين . لكن المؤكد أننا لو نجونا فسوف تكون السفينة فى أسوأ حال . وهنالك احتمال كبير ، بل استطيع أن أقول إنه لا يوجد لدى شك فى أن القافلة سوف تتبعثر فى أنحاء المحيط .وأنتم تعلمون أنه إلى الغرب قليلا توجد منطقة القراصنة ، وخاصة الفرنسيين . وأود أن أسألكما هل هنالك أمل أن تتوليا ادارة دفة القتال إذا حدث مثل هذا اللقاء ؟

إلتفت ديوجو إلى صديقه . ماذا ؟ هل سوف يقاتلون قراصنة بمثل هذه السفينة وبهذا العدد من المدافع ؟ هل يتحملان هذه المسئولية ؟ جاء رد جيرونيمو تماما هو صدى لما يفكر فيه .

- سيدى الربان هل لديك أشخاص آخرون يتحملون هذه المسئولية ؟

- صراحة .. لا ..

- إذا فلا مندوحة لنا عن قبولها ! لكننى أرجوك إن حدث اى نوع من القتال أن يكون الإتصال بينى وبينك مباشرة ، وأن تطاع أوامرى مهما بدت غريبة .

- هذا حقك إذا توليت مهمة الدفاع .

- إذا إتفقنا .. لقد دربت فعلا بعض البحارة على إستعمال المدافع وهؤلاء يجب أن يستمروا في التدريب ساعتين يوميا على الأقل كلما سمح الجو بذلك .

- لا بأس .. سأعطى تعليماتى أن يكونوا تحت أمرك فى أى وقت تطلبهم .

إنتهز جيرونيمو فرصة هدوء الرياح وسكون البحر وتفقد مع صديقه الذخائر والمدافع . أحكما ربطها استعدادا للعاصفة ، وسدا أفواهها حتى لاتتسرب إليها المياه ، وحينما اطمأنا إلى عملهما كان الليل قد بدأ يرخى سدوله . لم يكونا قد تناولا أى طعام طوال اليوم فجلسا يأكلان فى القاعة . تناقشا وهما على المائدة إحتمالات الإنفصال عن القافلة ، وفى لقاء القرصان ، وفى الخطط المتباينة لأحسن وسائل الدفاع .

لم يطل بها الانتظار لكى يتحقق الجزء الأول من التكهنات . لاحظا ، وهما مايزالان جالسين إلى طعامهما أن السفينة بدأت تمايل ، وجاء صوت الرياح تداعب الشراعات . رأوا بعض البحارة يهرعون إلى أعمالهم ، وأخذ الركاب ينسحبون من السطح ، ويتكنون فى حجراتهم ، ومع هذا لم يكن يبدو أى شىء جدى . مجرد نسمات ، قوية بعض الشىء ، لكنها عادية لاتوحى بأية خطورة .

فرغا من طعامهما وصعدا إلى السطح . هنا وضحت الأحوال أكثر . تجمعت السحب فى السماء فغطت النجوم إلا من فرجات خفيفة متناثرة . كان البحارة منهمكين فى طى الشراع الأوسط الكبير بأقصى مايستطيعون من سرعة . طاف بعضهم بالركاب يأمرونهم برفع كل الأشياء غير المثبتة إلى الجدران ، أو الأرضيات ،

وبإطفاء المصابيح ، والشموع حتى لم يبق فى السفينة إلا بعض الضوء البسيط الصادر من أنوار المصابيح المثبتة المتناثرة . بالرغم من الظلام السائد فى المحيط فإن الصديقين شاهدا الأمواج تعلو ، وتناهت إلى سمعهما أصواتها ترتطم بجدار السفينة .

قاما بجولة تفتيشية ليتأكدا من متانة ورباط المدافع . وجدا صعوبة كبيرة فى السير إذ أضحى الإهتزاز أشد ، وحملت الرياح رذاذا خفيفا لفح وجهيهما وبلل ملابسهما . لاحظا ان قليلا من الأضواء الخافتة تظهر فى المحيط بعيدة عن بعضها فهما أن السفن تباعدت مسافاتها إستعدادا للعاصفة حتى تمنع خطر الإصطدام .

حينما اطمأنا إلى ان كل شىء فى موضعه عادا ثانية إلى غرفتيهما . كان الوقت مازال مبكرا نسبيا ومع هذا طلب جيرونيمو من صديقه أن ينام مقررا أنهما قد يحتاجان إلى كل حيويتهما ، وقواهما خلال ساعات قلائل . لم يخلعا ملابسهما واستلقيا على فراشيهما فى محاولة للنوم ، وهما يستمعان إلى صوت الأمواج الرتيب ترتطم بالسفينة .

إستيقظا بعد عدة ساعات . كاد ديوجو أن يسقط من فراشه من شدة تمايل السفينة لولا أن تمسك بقوة بالحاجز الخشبى ، ووجد جيرونيمو صعوبة فى الوقوف معتدلا بغير التمسك باحدى قطع الأثاث الثابتة . لم يحاول أيهما ان ينتزع ابريق الماء من مكانه داخل الحلقة الحديدية . بعد جهد أدخل جيرونيمو منشفة فى الابريق حتى بللها ، ثم أعطاها لصديقه ليرطب بها وجهه ، وأتبعه بعد ذلك .

تركا الغمرة وسارا فى الردهات الضيقة يترنحان حاذرين من شدة الارتطام . لم يصادفا أحدا سواء من البحارة أو الركاب ، وإن كانا قد سمعا أصوات بكاء وابتهالات تصدر من القمرات التى مرا بها . اتجها إلى الصالة الرئيسية ووصلاها بعد لأى ليجدا أنها خالية . قال جيرونيمو .

ـ انتظرنى هنا وسأذهب لمعاينة المدافع .

ـ ولماذا لا آتى معك ؟

ـ ليس هناك ما يدعو لذهابنا نحن الاثنين .

ـ ولماذا لا أذهب أنا وتمسكث أنت ؟

ـ لأنى أدرى بهما فقد أمضيت أوقاتا طويلة فى فحصها والتعرف عليها .

لم يدع له فرصة الرد وجاهد مترنحا حتى وصل إلى الدرج الخشبى فى نهاية الصالة فارتقاه . بعد دقائق قليلة كان يدفع بكل قواه الباب المؤدى إلى السطح . كانت الرياح من الشدة بحيث احتاج إلى جهد ضخم ليتمكن من فتح الباب بدرجة تكفى ليخرج ، وما كاد أن يتركه حتى انصفق بقوة محدثا صوتا عاليا خيل إليه معه انه قد انخلع .

جابهته الطبيعة فى قسوتها . لم تكن العاصفة قد بلغت عنفوانها بعد ، ومع هذا فقد وجد أن الرياح تلصقه بالجدار لا يكاد يستطيع التقدم خطوة . رأى المحيط وكأنما هو يخرج ما فى جوفه . أنهالت عليه مياه الأمطار فبللته فى ثوان . لم تكن مجرد قطرات ماء إنما بدا له أن السماء تفتحت أبوابها عن سيل متتالى لاينتهى . لمع البرق يضئ الكون برهات خاطفة ، وتردد الرعد يصم صوته الآذان .

كان الفجر وشيك الانبلاج ، وغمر الكون ضوء باهت لا تكاد أن تتميز به الأشياء ، ومع هذا فلم يكن هنالك شك فيما رآه الرجل . رأى الأمواج تعلو ، وتنثنى ، وتتكسر . تتلاطم مع بعضها فى أصوات رهيبة كوحوش كاسرة تتقاتل على فريسة . رآها تهاجم السفينة من كل اتجاه ترفعها إلى أعلى أمتارا لتهوى بها دفعة واحدة أمتارا أخرى . أضحى المحيط كأنه جواد برى جامح يأبى أن يمتطيه أحد .

تقاذفت الأمواج السفينة فكأنها تلهو بها . راحت تضرب جنباتها بشدة حتى أن الرجل الواقف تعجب كيف تحتمل الأخشاب قوة طغيان المياه . حملت الرياح المياه تتخطى بها السياج وتدفعها إلى السطح . تطاير الرذاذ يشارك المطر المنهمر ، ويصل إلى حيث وقف ، وإمتدت من السماء ألسنة الصواعق فى تموجات رهيبة

تبحث عن فريسة فى المحيط الثائر . وراحت الصوارى تئن يائسة وسط الأعداء المتكالبين .

على قدر ما أجهد ناظريه فى الضوء المعتم لم ير أى أثر للسفن الأخرى ، ربما لأن الأمواج كانت ترتفع بحيث تخفيها عن الأنظار ، أو لعله السيل المنهمر قد وضع حاجزا أمام الرؤية . لم تكن مضت عليه أكثر من دقيقة أو اثنتين منذ خروجه إلى السطح ، ومع هذا فانه شعر بالضغط الهائل على قواه وأعصابه . قريبا منه إمتدت الحبال السميكة ليتعلق بها من البحارة من يلزمه عمله التواجد على السطح .

بمجرد أن ترك حمى جدار السفينة ليمسك بالحبل تلقفته الرياح . كان يعتقد أن قوة الهواء قد صدمته بعد خروجه من الباب إلى السطح ، إلا أنه وجد ان شدة الرياح تضاعفت لحظة ان بعد عن احتمائه بالجدار . صفعته الرياح من كل ناحية فى وقت واحد فاندفع مترنحا فى كل اتجاه . اضطربت ساقاه والتفتا حول بعضهما حتى وجد صعوبة فى مجرد التماسك ، وفقد كل سيطرة على حركاته فلم يستطع الوصول إلى الحبل الممتد على بعد خطوة منه ، وخيل إليه ان الرياح سوف ترفعه لتقذف به فى اليم المتخبط .

مالت السفينة بزاوية حادة جعلته يفقد توازنه . واندفعت مياه المحيط تطغى على السطح ، وتغشى جسده برمته . ارتطم بجدار القمرات حيث كان واقفا فى مبدأ الامر وأحس بضلوعه كأنما هى تتكسر من قوة الإصطدام .

قبل أن يفيق تغير ميل السفينة فرأى نفسه يندفع إلى المحيط بلا قدرة على التوقف . أغمته مياه الأمطار ، ومياه المحيط ، وقوة الرياح ، فلم يعد يرى الحبل الممتد أمامه ، وأحس بمياه المحيط تحمله منسحبة إلى الخضم المتلاطم .

بالمصادفة البحتة ارتطم جسمه بالحبل ، ولم يتوان لحظة حتى أطبقت كلتا يديه عليه . شعر بالمياة غاضبة تندفع ، وإنزلقت قدماه . لكنه ظل متشبثا بكل قوته . كان الضغط رهيبا على عضلات ذراعيه إلا أنه لم يعبأ . لم يكن يشك فى أنه

لو تراخت قبضتاه ثوان لأضحى فى ذلك هلاكه . تراخى الحبل تحت ثقل جسمه وضغط المياه المنسحبة ، لكنه كان قويا محكم الرباط فلم ينقطع أو ينفصل .عادت السفينة إلى التمايل ، إلا أن جيرونيمو كان قد تمالك نفسه واعتدل . لم يؤثر فيه استمرار تأرجح السطح ، واستمر فى تقدمه البطىء نحو هدفه ، المدفع الأول . غطته الأمواج الثائرة أكثر من مرة ، وعصفت الرياح تصم أذنيه ، ووجد صعوبة هائلة فى التنفس وتساقطت الأمطار مدرارا ، ومع هذا فلم يفكر فى التنحى عن مهمته . كان عليه أن يعاين جميع المدافع ، ويتأكد من إحكام رباطها واحتمالها لمقاومة الطبيعة الثائرة .

لم يحاول أن يترك الحبل . علم أن عليه أن يتصرف بحكمة وبطء . ظل يراقب حركة السفينة فلاحظ أنه لا رتابة فى الحركة . كانت ترتفع ، وتهبط ، وتميل على أحد جانبيها والآخر ، وإلى الأمام ، والخلف . لم تكن هنالك فرصة حقيقية للتصرف دون مجازفة . إلا أنه كانت تتخلل الحركة ثوان قليلة يتخذ فيها السطح وضع الحركة القادمة . هل تكفى هذه اللحظات لينتقل لثلاث خطوات أو أربع إلى المدفع ؟

انتهز فرصة إندفاع الماء إلى الخارج ، وترك الحبل قافزا إلى حيث المدفع قبل أن تنحسر آخر المياه . كان توقيته دقيقا فما كادت يداه تقبضان على إحدى الأخشاب البارزة فى جدار المدفع حتى انتكست السفينة فجأة إلى الناحية الأخرى وكانت الحركة مفاجئة ، ومن شدة بحيث أحس وهو يقبض بكلتا يديه على الخشبة أن ذراعيه قد انخلعا من كتفيه ، وفى اللحظة التالية غطاه تماما طوفان المياه يحجب عنه الرؤيا ويمنع الهواء أن يصل إليه .

رأى أن من العبث أن يتأكد من كل دقائق الموقف فركز جهده على التحسس على الحبال التى تقيد المدفع فى مكانه أن لا يتحرك ، ليطمئن إلى إحكامها . لم يكن يريد أن يفقد أحد المدافع فهى قليلة العدد على ما هى عليه . دار دورة كاملة حول السفينة ، وأحكم رباط مدفعين وجد أن من المحتمل أن ينحلا . كانت عملية عسيرة بطيئة استنفذت منه مجهودا بدنيا هائلا ، ومع هذا استمر فيها إلى نهايتها . ترصده

الموت فى كل خطوة ، وفى كل لحظة ، إلا أنه ظل ينتقل ويعمل بتأن وهـــوادة بلا عجلة ، أو إهمال .

استغرق فى عمله حوالى ساعة لاحظ أثناءها أن الرياح تزداد شدة ، والأمواج عتوا ، والأمطار غزارة ولم يتوقف البرق والرعد . بخطوات منهكة متعبة تتبع الحبل عودا إلى الباب المؤدى إلى داخل السفينة . مكث لحظات ينتظر حتى واتته الفرصة فانتقل إلى حماية الجدار وتشبث بمقبض الباب . بذل محاولات عدة حتى تمكن من فتحه ودلف منه إلى الداخل ، ووقف مستندا إليه خشية أن يسقط على الأرض . كانت ركبتاه ترتجفان لاتقويان على حمل جسده .

قضى دقيقتين أو ثلاث حتى استطاع أن يتماسك . ثم سار مترنحا نحو الصالة الرئيسية تاركا وراءه خطا من الماء . كان قد أصابته خدوش وجروح فى شتى أنحاء جسده ، أكثرها جدية هو ما أصاب يديه . تسلخ كفاه ، وسالت الدماء منهما ، ولم يعد يستطيع أن يطبق أصابعه . شعر كأن الكفين قد انفصلا عن الرسغين . وعاودته آلام شديدة فى كل عضلاته إذ تحملت عبئا مروعا خلال ساعة من نزال مع طبيعة قاسية هوجاء .

كان ضوء النهار قد تخلل إلى الداخل ، إلا أن غمامة ظللت عينيه ، ومن ورائها خيل إليه ان ديوجو يتقدم متلهفا نحوه ، ومعه شخص آخر لم يتبينه . تأرجحت السفينة فاندفع معها لا يستطيع مقاومة . ربما كان سيصطدم بجدار او اثاث ، وربما تهشم من سقطته ، لولا ان ذراعا إلتف حوله يحول دونه والاندفاع . فيما يشبه الغيبوبة سمع صوتا يقول إنه من المستحسن ان يحملاه إلى المستشفى . امسك به كل شخص من ناحية ، واستسلم لهما وهما يقودانه . لم يكن يهم اين يذهب ، كان فقط يود ان يستريح .

* * *

استيقظ قبيل الظهر ، ومكث ثوانى قبل ان يفيق تماما . كان اول شعوره بالتأرجح الرهيب . رأت عيناه ان الأوضاع فى القمرة لا تكاد ان تستقر على حال . .

أيل السقف ، وتمايلت السكوة ، وتمايلت الأرض ، وكل الأثاث المثبت عليها . ثم تنبه إلى أصوات العاصفة تهدر . حاول أن يعتدل فى الفراش وهنا تنبه إلى ثلاثة أشياء . أولها أنه مقيد إلى الفراش عند صدره ووسطه وساقه ، وإن تركت ذراعاه على حريتهما خارج الوثاق . والثانى أن مجرد محاولته الحركة دفعت سهاما من الآلام تسرى فى كل عضلاته . وثالثهما أن كفيه كانا مضمدان حتى الرسغين .

رجع برأسه إلى الوسادة وأغمض عينيه . كان يعلم أن الآلام التى شعر بها وقتية من أثر ما عانته العضلات طوال مدة صراعه مع العاصفة ، فلم يأبه لها إذ سرعان ما سوف تزول . أما يداه فقد كانتا شيئا آخر . بدت آلامها حقيقية لا سطحية فيها ، كما أن الأربطة لم تظهر منها سوى أطراف الأصبع ، وحتى هذه كانت مليئة بالخدوش . حاول وهو فى مكانه أن يطبقهما ، واندفعت الآلام كالسهام فترك المحاولة . جرب أن يفك الوثاق حول صدره فلم يستطع ، وإضطر أن يستكن ثانيـــة فى مكانه فى الفراش .

مضت ساعة أخرى قبل أن يفتح الباب ويدلف منه رجل عرف انه الطبيب . كان رجلا فى حوالى الأربعين ضخم الجثة ، مكتنز الجسم لكن الارهاق بدا جليا على وجهه وحركاته . ترنح مع تأرجح السفينة حتى وصل إلى مقعد مثبت إلى جوار الفراش فألقى بنفسه عليه ، وتشبث بالحاجز . إبتسم بالرغم من الارهاق البادى عليه حينما لاحظ ان عينى الراقد ترقبانه ، وقال بصوت هامس .

ـ لقد إستيقظنا .. هذا حسن .. هل نحن جياع ؟

ـ أريد أولا ان تحل وثاقى إذا سمحت ؟

ـ ماذا تريد ؟ .. لا .. لا .. ليس الآن .. إننا متعبون ، ولن نستطيع ان تتخبط فى ارجاء السفينة فى هذا الجو المزعج يجب ان نريح ايدينا المسكينة .

كان يتكلم دائما بلهجة الجمع كأنما قد أصيب هو الآخر .

ـ إننا لانعلم اننا سعداء الحظ بوجودنا على الفراش موثقين .. إننا لا نتصور

عدد الذين أصيبوا بدوار ، أو الذين أصابتهم جراح من جراء هذا الجو اللعين .. أجل إننا سعداء الحظ أن نبق حيث نحن .

– لكننى أريد أن انهض .

– لا .. لا .. إننا جياع .. وسوف نأكل أولا .. ثم ننام .. وربما بعد أن نستيقظ تكون العاصفة اللعينة قد هدأت قليلا و نستطيع أن ننهض .. أما الآن .. فلا ..

أتبع القول بالعمل . قام من مجلسه ليعود بعد دقائق يرافقه أحد البحارة حاملا بعض صحاف بها لحوم باردة . وفاكهة وخبز . فى المكان المعد لها على الفراش ثبت مائدة عبر صدر الرجل الراقد فى حين ساعده الطبيب على الاعتدال قليلا .

– نستطيع الآن أن نأكل لنسترد بعض قوتنا وحيويتنا .. ثم ننام ثانية ..

تناول طعامه ونام ثانية ، وحينما استيقظ كانت الشمس قد غابت ، وساد الظلام الغرفة . سمع أصوات العاصفة وهى ماتزال على أشدها . وتعجب إلى متى يمكن السفينة أن تقاوم هذه القوة العاتية ؟ كأنما ردا عليه تناهى إلى أذنيه صوت جديد لم يكن من أصوات العاصفة الطبيعية . ومضت ثوان قبل أن يتبينه . كان صوت قماش تتخبطه الرياح . إذا فقد إنتزعت العاصفة أحد الشراعات ، وأكبر الظن أنه الشراع الرئيسى ، ولا توجد قوة يمكن أن تنقذه الآن أن يتمزق إلى خرق .

على أن الشراع كان من قماش جيد متين فلم يتمزق سريعا ، وإنما ظل دقائق يقاوم . كانت هذه الدقائق هى أشد ما مر على السفينة وركابها . تزايد التمايل والتأرجح حتى أن الكثيرين لم يتمكنوا من استمرار المقاومة فتركوا أنفسهم يرتطمون بالجدران والأثاث . حدثت اصابات كثيرة بين الركاب ، بعضها خطير ادى إلى وفاه ثلاثة ، واضطر الطبيب المسكين أن يطلب من بعض الرجال القادرين المساعدة .

تزايد تصفيق الشراع حتى أن صوته علا على أصوات العاصفة ، وتناهى إلى

الأسماع صرير الصارى وانينه لما يتحمل من ضغط رهيب ، بدأ القلق يساور الكثيرين خشية تكسره وسقوطه . ثم فجأة تغير صوت التصفيق وخفت حدة التمايل والتأرجح نسبيا . لقد انتزعت الرياح قطعا من الشراع وتركته مخرقا باليه . تنفس الجميع الصعداء فعلى مدى الخسارة التى لحقت بهم فانه لو كان الشراع قد استمر فى المقاومة دقائق أخرى لما كان هنالك شك فى غرق السفينة .

لم تكن العاصفة فى الواقع قد انتهت منهم بعد . من عنان السماء امتد لسان من لهب ليلمس الصارى الأمامى . وتداعى الصارى ليسقط بصوت مروع على سطح السفينه يهشم أجزاء منه . وانتهز المحيط الفرصة فألقى اطنانا من الميـــاه اندفع بعضها من الفجوة ، والتشققات التى حـــدثت لتنهمر على الركاب فى العنابر . تعالى صراخ النساء والأطفال ، وأسرع البحـــارة وبعض الرجال فى محاولات يائسة لايقاف السيل المنسكب .

تدفقت المياه فى كل ميل أو تأرجح ، ولم تمض دقائق حتى كانت تسيل فى الداخل إلى باطن السفينه . وبدأ خطر حقيقى أن يتزايد ثقل السفينة فيبتلعها المحيط بمن فيها . لم تكن هنالك وسيلة فى هذا الجو للتخلص من المياه أوضخها . بدا أنه لاسبيل لإنقاذ السفينة بمن فيها إلا بايقاف تدفق هذا السيل . جمع الربان جميـــع القادرين ووضعوا أعمدة تسند الأخشاب المتكسرة بينما بذل النجارون قصارى جهدهم تحت ظروف قاسية أن يثبتوا مااستطاعوا منها فى مكانه ، ومع هذا فإن تدفق المياه لم يتوقف ، وإن خفت حدته نسبيا .

أضحى كل شيء رهينا بالمدة التى سوف تستغرقها العاصفة ، فإن هى طالت فما من قوة فى الأرض تستطيع انقاذ السفينة ومن فيها . إطمأن الركاب قليلا حينما خفت شدة تدفق المياه . توقف صراخ النساء والأطفال وإن ظل بعضهم يبكى ، وسار الربان بينهم يهدىء أعصابهم بكلمات مشجعة ، ويبذل كل مايستطيع فى الظروف لراحتهم ، ولم يقل لهم إن الدفة أيضا كانت قد تهشمت ، وأن العاصفة تدفع السفينة معها إلى حيث لايعلم إلا الله .

أربعة أيام كاملة لم تهدأ فيها العاصفة حتى خيل إلى ركاب السفينة أنها لن تتوقف . ناموا لماما وأكلوا أدنى مما يقيم الأود . لم يكن شيء يكاد أن يستغرق جوف معظمهم ، وكثر عدد الجرحى بدرجة مخيفة ، ومن لم يجرح كان فى حالة شديدة من الإرهاق . مات تسعة أشخاص متأثرين بجراح أو من آثار الضعف الشديد الذى إنتابهم . تكالبوا جميعا على سد الثغرة التى أحدثها سقوط الصارى ، ولم يفلحوا إلا جزئيا . إستمرت المياه تنساب . أربعة أيام كاملة بلياليها تنساب حتى لم يكن هنالك مكان فى جوف السفينة إلا وغمرته .

طفى على الربان يأس قاتل إذ كان يعلم أن ليس فى إستطاعته والبحارة أن يفعلوا شيئا . سوف تظل العاصفة تدفعهم معها دون قدرة لهم على المقاومة . وسيأتى الوقت الذى تمتلىء فيه السفينة بالمياه بدرجة تهوى بهم إلى القاع . ليس هذا فحسب بل إن الصوارى الأخرى أضحت تمثل خطرا داهما إذ بدأ صريرها وأنينها يعلو وهى تزرح تحت العبء الهائل الذى تتحمله من لطمات الرياح والأمواج .

ذهب ديوجو أكثر من مرة ليطمئن على أيوفيميا وناتاليا ولورنسو . وجد أن الأولى أحسنهم حالا حتى أنها كانت تساعد الطبيب المرهق فى العناية بالجرحى ، وتواسى المرضى الذين أنهكهم دوار البحر . ظهر معدنها الحقيقى حينما أبت لنفسها راحة هى أحوج ماتكون اليها بينما اعتكفت الفتاة الأخرى تشكو المرض . على أن لورنسو كان أسوأهم حالا إذ أصابته جروح إثر ارتطامه بالجدران والأثاث فى محاولته الحركة ، واضطر أن يلزم الفراش ليعالج منها .

لم يبخل جيرونيمو بدوره فى اعطاء المعونة . بالرغم من حالة يديه لم يأبه ، ولم يتوان عن المشاركة فى محاولات سد الفجوة ، أو مساعده من يريد الإنتقال من مكانه ، أو شد وثاق من فقد قوته ، والتزم الفراش . كان وصديقه شعلة من نشاط لاتهدأ . حينما أمر الربان بأن تنقل بعض المؤن التى يخشى عليها من الفساد من ماء المحيط كانا أول من سارع فى تنفيذ الأمر .

كثيرا ماصادف ايوفيمياء لكن الجميع كانوا فى حالة واحدة من الخطر

والبؤس ، وليس أكثر من الحالين جمعا بين الناس . لسيت ايوفيميا ، أو تناست ، بغضها للعربى المرتد ، ونسى هو أو تناسى إحتقاره لهاوأخيها . حتى ديوجو بدا بدوره أنه نسى غرامة الملتهب . تعاونوا على مساعـــدة الركاب ، وطرحوا أحاسيسهم الشخصية وراء ظهورهم . كانوا جميعا من معدن واحـــد . معدن يعتمد عليه عند الشدة .

جاءهم مساء اليوم الخامس بحادث جديد ، ظاهره النكبة ، وباطنه الرحمة . كان معظم من بالسفينة قد تهالكوا وتهاووا ، وأسلموا أنفسهم إلى الموت . حتى الرجال الذين ظلوا متماسكين وساعدوا الباقين فى تحمل الكوارث و الآلام ، بدأوا بدورهم يتساقطون صرعى الإرهاق . كانت المياه قدعلا منسوبها فى الداخل ولاحت السفينة متخمة متثاقلة ، وأخذ الربان يفكر جديا فى التخلص من بعض البضائع ليخفف قليلا من حمولتها حتى يستطيع أن يبتعد بها عن شبح الغرق لأطول مدة ممكنة .

فجأة ارتطمت السفينة فى يابسة بشدة طوحت بكل شخص ، وكل شىء غير مثبت . تطايرت أشياء فى الهواء لتصطدم ببعضها و بالأشخاص . لم يبق شخص واحد جالسا أو واقفا . حتى الراقدين على سرر قذفوا منها مالم يكونوا موثقين إليها . تعالى الصراخ والعويل ، إن لم يكن من الجراح و الآلام فمن الرعب و الفزع وقد أيقن الجميع أن نهايتهم قد دنت .

لم تستقر السفينة بعد إرتطامها ، وأخذت تترنح فى مكانها تحت لطمات الأمواج العملاقة المتتالية وعبث الرياح الهوجاء ، تميل تحت اللطمة لتحاول الاعتدال مع إنحسار المياه عن الشاطىء فما تكاد أن تستقيم حتى تلحقها لطمة أخرى . لم يقف الأمر عند هذا الحد لكن يبدو أن الصارى الكبير كان قد استوفى كل مايستطيع تحمله من ضغط ، فجاء الإصطدام الأخير ليقضى على مابقى من مقاومته . تناهى إلى سمعهم المرتعب صوته وهو يتهشم ، ثم سقط بقوة على السطح ليهشم معه كل مااعترض طريقه .

أصبح السطح عبارة عن أخشاب متكسرة متناثرة . ورأى من فى العنابر جلاج

منظر السماء بما حوت من سحب داكنة وبريق يلتمع ، وصواعق تنذر . انهالت عليهم بعض الاخشاب لتزيد عدد الجرحى . وتساقطت الامطار لايوقفها شيء ، واندفع سيل من أمواج المحيط يجرف الاخشاب من السطح ويقـــذف بها إلى الداخل .

ارتفعت أصوات الصراخ ، والولولة ، والنحيب من عشرات الاطفال والنساء بل والرجال ، مختلطة بزمجرة الرياح ، وهدير المحيط ، والتساقط الرتيب للامطار . لم يعد يوقف تدفق المياه إلى الداخل شيء فارتفع منسوبها بسرعة رهيبة حتى كادت أن تتناهى إلى الأسرة . إزداد الصراخ ، وإزداد رعب الموثقين إلى سررهم وهم يرون الموت يرتفع إليهم دون ان يوجد من يمد لهم يد المعونة .

أخيرا جاءت النعمة في شكل موجه عاتية رفعت السفينة من القاع لتقذف بها نحو الشاطيء الرملي لترتطم مرة ثانية وتستقر مائله تقريبا على احد جانبيها . حدث مثل الهرج الاول وبدأت الاشياء والبضائع تطفو في بعض الاماكن التي تركزت فيها المياه ولو ان نسبة التأرجح خفت كثيرا فلم يعد هنالك الا اهتزاز خفيف .

بدأ من يستطيع من الرجال النهوض من كبوته الحركة . قام جيرونيمو يترنح كالثمل والدماء تنزف من جرح في جبهته . تحسس بيده واطمأن إلى أن الجرح غير غائر ، لكنه أيضا شعر بآلام في يديه وكتفه . لم يهتم بما أصابه وبدأ من فوره يعمل على مساعدة من رآه في حاجة إلى معونة عاجلة . في فترات متقاربة نهض آخرون ، ولم يمض وقت طويل حتى كان كل من في السفينة في حركة دائبة . كان من الآثار أيضا أن الموجة التي قذفت بهم إلى الشاطيء أبعدتهم في الوقت نفسه عن سطوة المحيط فلم تعد أمواجه العاتية ترتطم بالسفينة ، وتغطيها لتملأ باطنها بالمياه ، بل إن الشاطيء الذي قذفوا إليه كان رمليا فلم يحدث تهشم خطير في القاع ولم يبق عليهم بعد هذا إلا أن يحاولوا إصلاح شأنهم قدر استطاعتهم حتى تزول العاصفة .

كان هذا هو الأثر الثانى لقذفهم على الشاطئ . لم تعد العاصفة تحمل السفينة معها حيثما سارت إنما تركتها مستقرة فى مكانها ، ومضت تبحث عن فريسة أخرى تعبث بها . شيئا فشيئا أخذت حدتها تخف ولم تبزغ شمس اليوم السادس الا وتطلع الركاب والبحارة إلى سماء صافية لا أثر فيها للغيوم ، وشمس دافئـــه حانيه . توقف صوت هدير الأمواج لتصبح مداعبات رقيقه تتكسر بدعه عند جدران السفينه كأنما تستمحيها العذر عما قاسته من اخواتها العابثات .

الفصل الرابع عشر

القاتل الخفى

لو أن أحدا أعطى ماسأل لما كان يمكن أن يطلب أكثر مما وهب الله من بالسفينة . بعد مرور العاصفة ، كان أول احساسهم بالطبيعة الهادئة . سكنت الرياح إلا من نسمات خفيفة رطبة ، وبزغت الشمس ساطعة ، دافئة ، وجاءتهم الأطيار من الشاطىء مرحبة مهللة . وحينما صعد الربان ، وبعض البحارة ، والركاب إلى السطح رأوا أنهم فى خليج رملى صغير على بعد لايزيد عن مائتى متر من الشاطىء . بدت لهم الأرض وقد ارتفعت فيها أشجار المناطق الحارة تحمل شتى أنواع الثمار .

بالرغم من أنهم كانوا داخل خليج إلا أنهم علموا أن العاصفة قذفت بهم إلى جزيره صغيره من تلك الجزر البركانية المتناثره فى أرجاء المحيط . شاهدوا آثار التدمير المروع الذى تركته العاصفة فى شكل أشجار ساقطة ، وقطع أخشاب متناثره ، بل وجثث بعض الحيوانات والطيور . لم يبد أن الجزيره مأهولة ، إذ ظل الربان ينظر إليها من خلال منظاره المكبر مده ثم أمر أحد الضباط أن يستمر فى المراقبة ، ويخطره بما قد يراه ، ثم انصرف ليتفقد الأحوال ، ويحدد مدى الخساره وإمكان الإصلاح .

فى أقل من ساعة عادت الحياة إلى السفينة كأنوى ماتسكون . لم يبق قادر فيها إلا أوكل إليه عمل . حتى النساء أسند إليهن التمريض ، وترتيب مايستطعن مما بعثرته العاصفة والاصطدام . علت طرقات النجارين يسدون كل ثغره ، وعهد إلى جماعة أن يأخذوا قاربا ليكتشفوا الجزيرة ، ويستطلعوا إمكان الحياة فيها والتموين من ثمارها وحيواناتها .

قبل غروب الشمس عادوا يقررون أن الجزيرة الصغيرة لاتزيد مساحتها

على عشرة أميال مربعة ، وأن بها الكثير من الثمار البرية ، وبعض الحيوانات الصغيرة ، وأنهم لم يلاحظوا أثرا للإنسان . جلبوا معهم خنزيرا بريا صادوه ، هلل له الجماعة وقرر الربان إقامة مأدبة كبيرة في المساء .

صلوا شاكرين ، وأكلوا وشربوا وناموا ، أول نوم حقيقي منذ ستة أيام . كانوا جياعا وكانوا مرهقين ، متوترى الأعصاب ، فناموا مستريحين ، وقد امتلأت بطونهم ، وعادت إليهم قواهم .

بزغت الشمس ثانية ، ودبت الحركة . أمر الربان أن ينتقل إلى الشاطىء كل النساء والأطفال ، والجرحى الذين لا يستطيعون العمل حتى يخفف من ثقل السفينة ، وحاجات الظهيرة حتى كانوا قد عسكروا تحت ظلال الأشجار . ارتفعت السفينة قليلا لكنها لم تطف ، وصــــدرت الأوامر بإنزال كل البضائع ، والمؤن ، وكل ما هو غير مثبت . كانت عملية مرهقة إلا أن الرجال قاموا بها بلا ملال أو ضجر ، بل إن النساء كن يعاون في النقل على الشاطىء وترتيب الأشياء .

يومان آخران مضيا تغيرت فيهما كل مظاهر الحياة . أضحى الشاطىء كتلة من الحركة والنشاط . أقيمت خيام ، ومدت موائد ، وتعالت ضحكات النساء ، وصرخات الأطفال فى لهوهم . عثروا على نبع ماء عذب ينساب منه غدير يتلوى متهاديا ليصب فى بحيرة صغيرة . صادوا أسماكا ، وأرانب ، وخنازير ، وطيورا . طعموا من الثمار البرية ، وبيض الطيور ، ونهلوا من المياه العذبة الباردة .

على السفينة تغيرت الأحوال أيضا . حدد الربان موقعهم على خط عرض عشرة عرضا ، وثلاثين طولا تقريبا . قدر أن العاصفة حملتهم أكثر من ألف ميل فى أيام قلية فى حركة شبه دائرية ، قذفت بهم شمالا ثم اتجهت فى شبه قوس لتعود جنوبا . إتضح لهم ان الأعطاب فى القاع ليست كبيره ، وسرعان ما أتم النجارون إصلاحها ثم بدأ ضخ الميـــاه . حينما طفت السفينة على السطح هال الجميع ، من فيها ومن على الشاطىء سواء . رأى الربان ان يبتعد بها قليلا على الشاطىء فأوغل فى المحيط مائتى مترا اخرى حتى اطمأن .

خمسة أيام أخرى كانت كافية لأن تعود الأمور لما كانت ، أو تكاد . أتموا اصلاح الصارى الأمامى ، وأعادوا تثبيت الصارى الكبير . تمت النشاء حياكة شراع آخر بدلا من الذى مزقته العاصفة ، رفع الرجال الأخشاب المتكسرة على السطح ، واعادوا تثبيتها ، او استبدالها بأخشاب اخرى جابوها من الجزيرة .

انتهز ديوجو وجيرونيمو الفرصة . اتفقا على خطة المدفاع إذا هاجمهم قرصان ، وبدءا فى تنفيذ خطواتها الأولى . طلبا من النجارين أن يقوموا بعمل مجرات يمكن أن تنزلق عليها المدافع من إحدى جانبي السفينة إلى الآخر . وحينما أتموا هذا صنعوا فتحات لفوهات المدافع فى الجدار الخارجى ثم غطوها بحيث لا ترى من البحر . نظفوا المدافع وحشوها ، ووضعوا ذخيرة إلى جانبها لتكون فى متناول اليد إذا ما احتاج الأمر .

إختارا بعض البحارة لتدريبهم على استعمال المدافع وبعض الأسلحة النارية التى عثروا عليها في السفينة . اتضح أن بعض الرجال من الركاب كانوا قد اشتركوا فى حروب ، ولهم خبرات متباينة فضماهم إلى القوة الصغيرة المحاربة ، اختص كل واحد منهم بفريق يدربه ، وانتظموا لهذا الغرض ساعتين كل يوم . قال البعض إنه مجهود ضائع إذ لو تصادف أن التقوا بقرصان فلن تكون هنالك فائدة من المقاومة على كل حال .

أخيرا أضحت السفينة على استعداد لتلقى الركاب ، والبضائع . بعد مضى أقل من أسبوعين من جنوحها إلى الشاطىء أضحت كأحسن ما تكون . حتى قاعها الخارجى تمت قلفطته ، وإزالة ما علق به من نباتات ، وحيوانات بحرية دقيقة . بدت السفينة متأهبة لاستئناف الرحلة . ولم يكن البحارة والركاب أقل منها تلهفا . أصدر الربان أوامره أن يبدءوا فى صباح اليوم التالى فى نقل البضائع ، والركاب حتى يبحروا خلال يومين .

أقاموا حفلا فى المساء على شاطىء الجزيرة الجميلة . صاد الرجال بعض الحيوانات .

والأسماك ، وجمعت النساء الفواكه من الأشجار البرية . وسمح الربان لضباطه ، وبحارته بالمشاركة في الحفل ، إلا أن جيرونيمو أصر على بقاء بعض الجماعة التي قام تدريبها على السطح السفينة مقررا أنه شخصيا لا يود مغادرتها . وقرر ديوجو ، وخيبة الأمل تلوح من نبرات صوته أنه سوف يبقى أيضا ، إلا أن صديقه حثه على الذهاب قائلا إن احدهما يكفي لتولي الحراسة . ولم يكن هو في حاجة إلى الكثير من الإقناع إذ رأى فرصة لاتعوض في الإنفراد بأيوفيميا .

تركوا جيرونيمو ومعه الضابط الأول للسفينة ، وخمسة عشر رجلا من الذين اختارهم ، وانتقل الباقون إلى الجزيرة . بدأ الحفل صاخبا ، ودارت الكؤوس بين الحاضرين ، وكونوا فرقة موسيقية تعزف أحدث ألحان العصر . رقصت ايوفيميا مع ديوجو ، وناتاليا مع لورنسو طول الوقت تقريبا ولم يكن في هذه الليلة أسعد من ديوجو الذي إختص بحبيبته وبدا أنها تستمتع بكل لحظة .

بعد انتهاء احدى الرقصات طلب منها أن يسيرا على الشاطئ فلم تمانع قائلة إنها تود أن تبتعد عن الضوضاء . لم يكن هنالك قمر في السماء ، لهذا تجرد أن بعدا قليلا عن أضواء النيران الموقدة لفهما الظلام . سارا في صمت مدة وهما يستمعان إلى أصوات الموسيقى ، والضحك تأتيهما من مسافة ، وأمواج المحيط تتكسر بهدوء رتيب على الشاطئ . إحتار ديوجو كيف يبدأ معها الحديث . تسارعت دقات قلبه وهو يمد يده لتقبض على يدها ، وود لو استطاع أن يبوح لها بمكنونة ، وابتدأ فعلا في الكلام إلا أنها سبقته .

— لماذا لم يأت جيرونيمو ؟

— إنه يقوم بحراسة السفينة .

— لماذا ؟ هل هنالك خطر من وجود القراصنة ؟

— أنا شخصيا لا أعتقد هذا ، إلا أنه دائما يود أن يكون على حذر . لقد حرم نفسه ، وستة عشر شخصا آخرين من التمتع لمجرد إحتمال لا يقوم إلا في رأسه .

— هل هو دائما هكذا ؟

— ماذا تعنين ؟

— أعنى هل هو دائما صامت حذر ؟

— آه إنه قليل الكلام . أما عن حذره فلست أدرى .. لقد قاتلت معه كثيرا ولم أره يتردد أمام الخطر لكن دعينا منه الآن إننى أود أن أقول لك شيئا .. إن ..

تلعثم ، وأحست الفتاة بما يريد أن يقول . شعرت بقبضة يده تزداد ضغطا على يدها ، وتوقف عن السير فاضطرت أن تقف بدورها . إمتدت ذراعه الأخرى تطوق خصرها وتشد جسدها إليه ، وحاولت التملص لكنه شدد الضغط ، وترك يدها لتلتف ذراعه الأخرى حولها . خرج صوته أجشا متحشرجا من قوة الانفعال .

— ايوفيميا .. إننى أهواك كما لم أهو فتاه من قبل .

حاول أن يقبلها ، إلا أنها وضعت كلتا يديها على صدره تدفعه بعيدا عنها ، وارجعت رأسها إلى الوراء وصرخت غاضبة .

— دعنى .. إنى لا أهواك .

زادت مقاومتها من جنونه فاشتد ضغطه عليها ، وإنحنى محاولا تقبيلها ليتلقى وجهه صفعة قوية . تركها فجأة حتى كادت أن تسقط ، وتراجع خطوة إلى الخلف وهو ينظر إليها دهشا .

— انى آسفة كان لا بد من هذا حتى تثوب إلى رشدك .

نظر إليها متعجبا ثم تساءل .

— إذا لماذا قبلت أن تسيرى معى ؟ .. لماذا تركتينى أفهم أنك تمكنين لى مثل ما أكن ؟

— إننى احبك كأخ ، لكن ليس هكذا ..

— كأخ ؟ .. ربما اكون قد أسأت التصرف .. أننى أريدك لى زوجة ..

— إن هذا يشرفنى .. لكنك لا تود أن تتزوج فتاه لا تهواك ..

— هل هناك شخص آخر ؟

إلتمع الغضب فى عينيها .

— لا حق لك فى هذا السؤال ؟

— بل لى .. إننى اود ان اعرف إن كان هنالك أمل !؟

انقشا الغضب ، وارتسمت على عينيها نظرة رقيقة وديعة .

— لا ياديوجو .. لن يكون هنالك أمل .. هلا قبلت أن تكون صديقى !؟
إننى شديدة الاعتزاز بك ولا أريد أن أفقدك .

— كلا يا ايوفيميا .. انك لن تفقيدينى أبدا ..

مدت إليه يدها تقبض على يده ، وتضغط عليها فى شكر .

— هيا بنا نعود فإننى متعبة .

إستدارا فى طريق عودتهما ولم يكادا يسيران قليلا حتى توقفت الفتاة .

— هنالك حركة فى الأحراش .

نظر إليها ديوجو . لم يكن قد لاحظ أو سمع شيئا . حينما رأى النظرة الجادة التى ارتسمت على وجهها تلفت إلى حيث تنظر ، ولم ير شيئا . توقفا يصيخان السمع ، ويجهدان النظر لكن الأحراش القريبة ظلت صامتة .

— لعلك وهمت ، أو ربما كان أحد الحيوانات .

لم يبد عليها أنها إقتنعت ، وظلت فى مكانها برهات ، ولما لم يتكرر الصوت عادت إلى السير ثانية وهى تكرر ماقاله .

— ربما كان أحد الحيوانات .

— هل تريدينى أن أتحقق ؟

— لا .. لا .. لكن دعنا نعود سريعاً .

قبل أن يتحركا شق الليل أصوات طلقات نارية . توقفت الموسيقى ، وارتفع

صراخ نساء . حاول ديوجو أن يعود إلى حيث الجلبة لكن الفتاة إشتدت قبضتها على يده تمنعه .

— لا تتركنى وحدى ..

توقف مترددا . كانت الأصوات مازالت تأتى مختلطة من ناحية المعسكر ، ولم يكن هنالك شك فى أن عدوا قد هاجمهم ، وأنه الآن يعمل القتل والسلب فيهم . كانوا جميعا بلا أسلحة ، فلم يتصوروا أن يهاجمهم أحد من داخل الجزيرة خاصة وقد تحققوا أنها لم تكن مأهولة ، وبذا كان من اليسير أن يؤخذوا على غرة .

تنازعته العواطف . كان يشعر بأن واجبه كجندى يحتم عليه أن يذهب للمساعدة ، لكنه لم يكن يريد أن يترك الفتاة بمفردها وسط الليل البهيم عرضة لأى خطر يتهددها . وجاء صوتها فاصلا انهى تردده .

— إنك لن تستطيع بمفردك أن تفعل شيئا . وربما لو انتظرت نتمكن نحن الإثنين من عمل شىء .

رأى مافى رأيها من حكمة ، وتصرف على أساسه . بسرعة أخذها من يدها ، وجريا مبتعدين عن المعسكر ثم إتجه بها نحو الأحراش . فى ظل شجرة وقفا يلتقطان أنفاسهما ويستمعان ، توقفت أصوات الطلقات ، ولم يعد يصلهما صراخ . رأيا نيران المعسكر مازالت متوهجة ، لكنهما كانا من البعد بحيث لم يكن فى استطاعتهما أن يتبينا شيئا مما حدث . فجأة قبضت الفتاة على ذراعه بقوة وقالت بصوت متهدج وهى تشير إلى البحر .

— انظر ! إن السفينة تتحرك .. لقد أبحر النذل كجرذ يفر عند الخطر .

إلتفت ديوجو غير مصدق ، وفعلا رأى أن السفينة رفعت مراسيها ، ونشرت شراعاتها ، وبدت تختفى فى ظلام المحيط . لم يصدق عينيه .. أجهدها على أن يكون فى الأمر خطأ . ربما كان هذا خداع ضوء .. لا .. لم يعد هنالك أى شك

فى أن صديقه قد أبحر مبتعدا عن الجزيرة .. إلى المحيط .. تاركا عشرات الأنفس تلقى مصيرها المشئوم دون أن يحاول مديد المعونة إليهم . بل أنه قطع آخر أمل لهم فى النجاة .

ظل مكانه مشدوها وهو يرى السفينة تختفى بينما تدفقت الكلمات حارة غاضبة من فم الفتاة .

— أهذا هو صديقك الذى لا يتردد أمام الخطر ؟ .. أهذا هو المرتد الذى اتخذته خليلا ؟ .. كان يجب أن أن تعلم أن من ترك دينه وعشيرته لايمكن أن يؤتمن جانبه ..

كانت تتكلم بانفعال وغضب شديدين حتى أن صوتها بدأ يعلو ، وتنبه ديوجو إلى الخطر فوضع يده على فمها يمنعها من الإستمرار فى الكلام . كان قد أصيب بخيبة أمل شديدة حينما صدمته الحقيقة التى رآها بعينيه وما كان يمكن أن يصدقها لولا أن رآها . حتى عندئذ ظل عقله يعمل محاولا ايجاد المعاذير والمبررات . شلت الصدمة تفكيره لمدة إلا أنه عاد وأيقن ان عليه ان يتحرك ، وأن يهمل التفكير فى صاحبه مؤقتا .

إحتار فيما يفعل . لم يتصور أنه بمفرده يستطيع أن يقوم بأى عمل جدى . على ان هذا لم يقعده . كان عليه ان يحاول وينجح أو يموت . إلتفت إلى رفيقته وقال هامسا .

— دعينا من جيرونيمو الآن . يجب أولا ان اعرف ماذا حدث ، وماذا يمكننا ان نفعل . عليك بالانتظار هنا دون حركة أو صوت حتى أعود إليك .

— لاتتركنى بمفردى سآتى معك .

— .. إن وجودك معى لافائدة منه .. وربما عرضنا كلينا للخطر .. سأحاول ان أعود سريعا .

نفض يده منها ، ولم تمض لحظات حتى كان قد اختفى فى الأدغال . لقد علمته الحرب ان البطء والحذر سلاحان ان أحسن استعمالها يؤتيان ثمارهما ..

وأن العجلة فى غير مكانها قد تؤدى إلى التهلكة . انتقى مواطئ قدمية .. رغما عن الظلام جاهد ألا يحدث صوتا . لم يتجه مباشرة نحو المعسكر، بل يمم شطر الداخل ، ودار دورة طويلة قبل أن يعود أدراجه . كان يريد أن يرى إن كان ثمة حراس ، ولما لم يلحظ أحدا تقدم بخفة حتى نمت إلى سمعه أصوات ضحكات خشنة عالية يختلط بها صراخ إمرأة .

إزداد حذرا وهو يتلصص الخطى . انتقل من ظل شجرة إلى أخرى دون أن يعرض نفسه لأى عين قد تنظر مصادفة، ساعده الظلام السائد الذى ضاعفت منه ظلال الأشجار فكان من العسير تتبعه حتى على من يعلم بوجوده . لم يدفعه صراخ المرأة المستمر إلى العجلة ، ودوام تقدمه الحذر حتى أضحى فى مكان يستطيع منه ان يرى . وهنا تكشفت له الكارثة بكامل عنفها .

رأى بعض الجثث الملقاة على الأرض دون ان يحاول احد أن يحركها من مكانها، أو يدفنها . رأى جميع الرجال مقيدين وقد طرحوا على وجوههم على الأرض وأربعة من القراصنة فى حراستهم ، وهم يحملون بنادق ويتمنطقون بغدارات وخناجر . قراصنة ظهر الشر على وجوههم بجلاء . شاهد النساء متكمشات فى مكان آخر بعيدا عن الرجال وقد احتضنت بعضهن الاطفال ، والصبيان ، يحاولن تهدئتهم من الرعب الذى استولى عليهم ، ورأى أربعة قراصنه آخرين يقفون فى الحراسة .

حول نظره نحو الباقين . كان بعضهم يعب الخمر وهم يتمايلون نشوه . رأى فتاة فى ربيع عمرها وسط حلبه من القراصنة يتقاذفونها نحو بعضهم يمزقون ملابسها ، وهى تصرخ محاولة أن تستر بدنها بما بقى عليه من خرق . سمعهم يتضاحكون فى لهو لمحاولاتها اليائسة . سجل عقله دون عمد ان عدد القراصنة يزيد على المائة .. على ان أخطر ما رأى هو ذلك الشخص النحيل الفارع الطول الذى لم يبد عليه أنه يهتم لما يحدث حوله . كان يتحرك بخفة النمر . وراؤه ثلاثة بدا عليهم أنهم قواده . عاين صناديق البضاعة ، ثم تحول عنها نحو مكان الرجال ، هنا وقع ضوء النيران على وجهه . وعرفه ديوجو .. كان سيمون نوار .. القرصان الأسود .

سار على مهل ، ودارت عيناه حادتين تتفحصان الوجوه والأجسام . فهم ديوجو مايدور فى العقل الخبيث . كان يقدر قيمة الشحنة الآدمية من الرجال . كانت صرخات الفتاة مازالت تدوى ولم يبد عليه أنه يعيرها إلتفاتا ، حتى فرغ من فحصه وأسر بكلمات إلى أحد ضباطه الذى دون شيئا فى صحيفة لديه .

انتقل بعد هذا نحو مكان النساء والأطفال ، وتوقف هنيهة فى طريقه لينظر مبتسما إلى رجاله يعبثون بالفتاة . بنفس النظرة اللاشخصية التى كان يتفحص بها الرجال نظر إلى النساء والفتيات .. لم يكن رجلا ينظر إلى نساء وأطفال ، وإنما كان تاجرا يقدر ثمن بضاعة سوف تباع فى سوق الرقيق . ظل فى سيره الوئيد حتى انتهى من حساباته فالتفت إلى كاتبه . ودون الكاتب ماقال الزعيم . تناول ما كتبه ضابطه ، وألقى عليه نظرة متفحصة ، وحينما تأكد عاد يلتفت ثانية نحو النساء . دارت عيناه كعينى الصقر تبحثان عن فريسة حتى تركزت على ناتاليا . أشار بيده نحوها فتقدم أحد ضباطه وقبض على ذراعها بخشونة .

حاولت الفتاة المقاومة دون جدوى . لم يعتن الرجل حتى أن ينظر إليها ، إنما جرجرها من ذراعها وسار خلف زعيمه الذى إتجه إلى إحدى الخيام المنصوبة . وقف ديوجو يشاهد هذا والدم يغلى فى عروقه . كان يقاوم جاهدا شعوره الذى يدفعه إلى أن يهجم على القرصان ليزهق روحه ، لكنه كان يعلم جيدا أن خطوة واحدة منه سوف تؤدى به إلى الهلاك ، ولن يستطيع أن يفعل شيئا .

كانت الفتاة ، وسط حلبة الرجال قد انهكت فتركت ماتبقى عليها من أسمال . خفت صوتها ، وسقطت على الأرض فى شبه غيبوبة فتقدم منها أحدهم ، وتركها الباقون ضاحكين ، واتجهوا نحو النساء . لقد اختار الزعيم ، وأضحى من حقهم أن يستمتعوا بمن شاءوا . إنتهزت الفتاة الفرصة ، وإندفعت نحو الأحراش تجرى هاربة ، وجرى خلفها الرجل وهو يترنح . إتجهت نحو المكان الذى اختبأ فيه ديوجو ، ووراءها جاء الرجل . أضحت قيد خطوات منه حينما لحق القرصان ، وهنا لم يتمالك ديوجو نفسه .

خرج من مخبئه ، وضرب الرجل فى وجهه بكل قواه ضربة ألقته على الأرض فاقدا الرشد . ارتعبت الفتاة وترددت لحظات إلا أنها سرعان ما تبينت فيه صديقا . فاندفعت معه نحو الأحراش . ربما كان فى الإمكان أن يهربا إذ أن الجميع كانوا قد أهملوا النظر إلى الرجل والفتاة واتجهوا نحو النساء فى حين ظل البعض يعب الخمر ، لولا أن أحد الحراس رأى ما حدث فأطلق بندقيته ، وصرخ على زملائه .

لم يصب المقذوف أحدا إذا أطلقت البندقية على عجل ، لكن باقى الرجال إلتفتوا نحو المصدر وشاهدوا الإثنين وهما يختبآن وراء الأشجار . تصايحوا ، واندفع بعضهم وراء الهاربين . صرخت الفتاة وهى تعدو إذ لم تخط بضعة خطوات حتى بدأت الأغصان تمزق جلدها العارى . توقفت عن الجرى ، وسقطت على الأرض يائسة ، تبكى وتنتحب ، لكن ديوجو أسرع بخلع سترته ليضعها عليها وهو يرجوها فى لهفه أن تسرع بالقيام . لفت السترة حول بدنها واعتدلت لتعود إلى الجرى ثانية .

هنا جاءته اللطمة . أحس بالسماء تنطبق على رأسه ، ودنت منه النجوم يتطاير شررها بأمام ناظريه . حاول أن ينفض هذا الكابوس ، فجاءته لطمة ثانية أفقدته ما بقى فيه من قوة . خيل إليه وهو يروح فى غيبوبة أن الفتاة كانت تصرخ فى عصبية ، وأن أيدى كثيرة قبضت عليه بخشونة تجرجره ، ولم يكد يفقد رشده

* * *

لم يكن القرصان الأسود قد وصل إلى الخيمة التى إختارها حينما دوى الطلق النارى ، فتوقف ومعه تابعه والفتاة . إلتفتوا إلى الناحية التى جاء منها الصوت وشاهدوا الهاربين وهما يختفيان فى الأحراش يتبعهما بعض الرجال . ظل القرصان الأسود واقفا بعد أن إختفى الجمع ثم أشار إلى التابع فترك الفتاة . لم تتريث ناتاليا وأطلقت لساقيها العنان عائدة إلى حيث باقى النساء .

حينما عادت الجماعة المطاردة وهم يجرجرون الهاربة ، وديوجو ، أصدر القرصان الأسود أوامره بلهجة قوية غاضبة . رأى الأسرى أن القرصان كونوا أربع فرق

تضم كل منها خمسة رجال . إتخذت كل واحدة وجهه ، ولم يلبث الجميع أن إختفوا بين الأشجار . كان هدف القرصان من إرسال الفرق واضحا . لقد رأى ان شخصا كان مختفيا فى الأحراش فلا يستبعد إذا ان يوجد غيره ، وربما كان فى هذا خطر .

إنتظر القرصان الأسود حتى تأكد من أن أوامره قد نفذت ثم دلف إلى داخل الخيمة ، ويبدو أنه نسى ناتاليا فى سياق تفكيره ، لكن باقى الرجال لم ينسوا النساء . ما كاد زعيمهم أن يختفى حتى عادوا سيرتهم الأولى يعبون الخمر ، ويتنازعون النساء . وبدأ الصراخ يعلو .

فجأة شق سكون الليل صوت أسكت الصراخ ، والنحيب ، وجعل القراصنة يتركون أسيراتهم ليقفوا مشدوهين ، وأخرج زعيمهم من خيمته على عجل . من مكان مافى المحيط ، كانت المدافع تدوى مصوبة نحو هدف مجهول . لم يكن الهدف فى الجزيرة فلم تسقط قذيفة واحدة عليها ، إنما كان فى المياه .

إرتفع صوت القرصان الأسود يصدر أوامره تباعا ، وهرع أكثر من ثمانين شخصا يلبون الأوامر ، ويعدون خلف رئيسهم ليختفى الجميع بعد دقائق فى الأحراش . صمتت المدافع فعم السكون سكون عجيب يزيده وحشة ، ونظر الأسرى إلى الغابة ، المظلمة ، وكلهم أمل وتوقع . إلتفتوا إلى باقى القرصان ورأوا أنهم أضحوا لا يزيدون على العشرين . لكن الأمر لم يكن مجرد تناقص فى العدد ، وإنما أيضا فى حال آسريهم . كانوا رجالا أشداء ومقاتلين لا يهابون ، إلا أنهم ألفوا البحر ، وإعتادوا على سعة الرؤيا فيه . رؤية لا يحدها شئ . أما الآن فهم على الأرض ، وقد أحاطت بهم الأشجار والأحراش من كل جانب ، إلا من ناحية المحيط . أضحوا لايرون من الجزيرة إلا الشاطئ ووراءه الأشجار كالمردة والشياطين تداعبها نسمات الهواء .

توالت الدقائق والسكون مطبق . نصف ساعة أو تقل ، ووقف القراصنة ينقلون أنظارهم فى الأحراش المحيطة بهم كأنما يتوقعون أن ينفذ منها فى أية لحظة

عفاريت تتخطفهم . قبضوا على بنادقهم بعصبية . وقد داخل الرعب قلوبهم يكادون أن ينفروا لأية حركة أو صوت .. ثم ارتفع صوت المدافع ثانية وخيل إليهم أن القذائف سوف تسقط بينهم .. لكنها كانت بعيدة على الجانب الآخر من الجزيرة ..

على أن الأمر لم يكن هكذا على اطلاقه .. مع صوت المدافع علت صرخة ، ورفع أحد القراصنة يده في الهواء قاذفا بندقيته ثم سقط على الأرض مضرجا بدمائه . وهو يلفظ آخر أنفاسه . إندفع بعضهم إليه .. ودوى طلق ناري سقط على إثره آخر .. ثم ثالث .. ترددوا وهم لا يعلمون من أين يأتيهم الموت .. كانوا على الشاطىء الفسيح الخالى تكشفهم النيران المشتعلة .. وأتاهم الموت من الأحراش .. من الظلام المستتر .

فقد أحدهم أعصابه ، وأطلق لساقيه العنان متجها إلى الأحراش لتقابله قذيفة تسقطه قبل أن يقطع نصف المسافة .. تبين القائد المنوط بهم أن مهاجميهم لا يمكن أن يزيدوا على شخصين أو ثلاثة فالطلقات النارية بعيدة عن بعضها ولو كانوا أكثر لسهل عليهم القضاء على القراصنة في دقائق . تمالك نفسه ، وأيقن أن عليه أن يفكر في المأزق ، وإلا فقد باقى الرجال أعصابهم وفروا تاركين الأسرى والبضائع .

أصدر أوامره بلهجة حاسمة .. على الثمانية حراس أن يثبتوا فى أماكنهم فى الحراسة ، وليتبعه الثمانية قراصنة الآخرون إلى الأحراش .. ودوى طلق نارى سقط معه أحدهم .. لم يتوان السبعة الباقون فى الإنطلاق وراء قائدهم نحو الأحراش حيث مصدر الصوت .. قبل أن يصلوا إلى حمى الأشجار ارتفع من مكان آخر صوت طلق نارى .. وسقط أحدهم . لم يحاول أى منهم أن يقف ليستطلع أمر صاحبه .. وظلوا في انطلاقهم .. وفي اللحظة التالية وصلوا إلى حمى الظلام ..

إلتفوا حول قائدهم كخراف مذعورة .. وتعثر أحدهم فى شىء سرعان ما تبين أنه بندقية .. هتف لقائده يخبره بلقيته وناوله اياها .. إذا فقد ترك احد

الأعداء سلاحه وهرب .. لقد كانوا قاب قوسين أو أدنى من القبض عليه .. لا يمكن ان يزيد عدد المهاجمين عن ثلاثة ، وقد أضحى أحدهم بلا بندقية .. إذا فالباقى اثنان ، وربما واحد .. ودوى صوت طلق نارى من الجهة المقابلة فى الأحراش .. وصرخ احد الحراس الموكلين بالنساء والأطفال وهو يسقط قتيلا بينما حاول الباقون الاحتماء بأجساد اسراهم ..

أمر القائد أن يبدأوا مسح الأرض حول الشاطئ على ان يسير كل اثنين معا وسرعان ما اكتشفوا بندقية أخرى فارغة .. لا .. لايمكن ان يكون المهاجمون ثلاثة .. بل ولا حتى إثنين والا لكانوا اخذوا بنادقهم معهم ليعيدوا حشوها . إن المهاجمين ليسوا مهاجمون على الاطلاق .. وإنما هو مهاجم واحد كان معه أكثر من بندقية ، ولم يجد الوقت الكافى لإعادة حشوها ، أو لم تكن معه الذخيرة الكافيـــة ..

كاد ان يضحك حينما تبينت له هذه الحقيقة . رجل واحد ضد عشرين رجلا وقد قتل منهم سبعة حتى الآن .. ووصل الى اذنه صوت طلق نارى .. وصرخة موت اطلقها احد حراس النساء .. اذا اضحى القتلى ثمانية .. وما زال الرجل طليقا .. لكنه لن ينجو . ربما سيقتل واحدا او اثنين آخرين . لكنه لن ينجو .. إن اصوات المدافع قد سكنت ، ولا بد ان الطلقات النارية قد سمعها رئيسه .. سيمون نوار .. القرصان الأسود ، وسرعان ما سوف يأتى لنجدته .. وحينئذ لن يكون فى استطاعة بشر ان يفلت من أكثر من مائة شخص .. أم هل هم يحاربون بشرا ؟

شق السكون صوت طلق نارى آخر تلته صرخة .. وضحك القائد .. لم يكن الصوت صادرا من بندقية .. وإنما عن غداره .. إذا فقد نفذت ذخيرة المهاجم .. وأضحى أعزلا .. ربما يحمل خنجرا .. أو سيفا .. لكن عليه لكى يستعمل هذين أن يقترب .. وأن يظهر .. دون صوت سقط الرجل إلى جوازه وهو يمسك خنجرا إخترق رقبته .. ببديهة حاضره ألقى القائد بنفسه فى أجمه قريبة ، وراحت

عيناه تدوران حوله تبحثان عن ذلك الموت الصامت .. لكن الأحراش بدت هادئة لا أثر فيها لحياة إلا حشرجات الموت تصدر من زميله الملقى على الأرض قيد خطوات منه .

تناهت إلى سمعه أصوات أخرى صادرة من الشاطئ ، أصوات نساء تصرخ .. ثم طلقات نارية قليلة .. وعاد السكون . وعرف ماحدث .. لقد إختار مهاجمهم قتل حراس النساء لأنهم غير مقيدات وحينما وجدن أنه لم يبق سوى حارس واحد تكاثرن عليه .. ولا بد أن الرجال الآخرين الذين يقفون في حراسة الرجال أطلقوا عليهن النيران .. ترى هل جبنت النساء ، أم واصلن هجومهن على الحراس ..؟

لم يكن يستطيع أن يتأكد من الحوادث حيث يقبع ، وأيا كانت الأحوال فعليه أن يتحرك .. لم يعد يسمع صوتا . حتى رجاله الباقين يبدو أنهم فروا مذعورين إلى داخل الغابة ، بعيدا عن الشياطين ، والأبالسة التي ترسل الموت دون أن يراها أحد .. أرهف أذنيه .. ولم يصله صوت . لابد أن النساء ، قد تولاهن الفزع وتقبعن في مكانهن بعد أن أطلق الحراس عليهم النيران .

تحرك من مكانه ببطء وحذر . عليه أن يلحق بزعيمه ليبلغه الأخبار ، وليعود ومعه قوة كافية تقبض على ذلك الشيطان المريد ، أما باقي الرجال والنساء فلا خطر منهم .. حتى لو أطلق سراح الجميع فلن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا دون أسلحة وذخائر . هنا تذكر الحراس والرجال الذين قتلهم المهاجم الخفي .. لقد كان معهم أسلحة .. لكن لا بأس عشرة بنادق أو تزيد قليلا ليست بذات أثر حينما يأتي الزعيم ، ومعه قوة كافية لتحصدهم .

أطل برأسه من مكمنه ودارت عيناه في الظلام تحاولان أن تلمسا حركة لكن كل الغابة ظلت هادئة ، قبضت يده بقوة على بندقيته وتقدم متلصصا .. ولم يحدث شيء ، إنتقل الى شجرة قريبة وتوقف .. أرسل بصره ثانية فيما حوله .. ولم ير ما يريب .. داخله شعور بأن هناك عينين ترقبان حركاته ، وتداعبانه كما يداعب النمر فريسته . كان رجلا شجاعا لكن الصمت الرهيب حوله ، وظلام الغابة الدامس

ادخلا الرعب فى قلبه .. لو أن القاتل المختفى ظهر ، إذا لقاتله ، وما راعه شئ .. سمع صوتا خفيفا خلفه فالتفت بسرعة لكن يبدو أنه كان واهما .. إن غريمه كان أعزلا فى حين يحمل هو بندقية ؟ ويتمنطق بندارة ، وخنجر ، وسيف .. لكن ما فائدة كل هذا إذا لم تكن ترى غريمك ؟

فى لحظة زالت كل متاعبه .. أتته أصوات مختلطة على بعد تبينها لتوه . ولم يشك لحظة فى أن زعيمه فى طريقه انجدته .. تنهد بارتياح وداخلته الجرأة فتوانى بعض حذره ، وانطلق متجها إلى مصدر الصوت . ومن مكان ما مرق سيف فى الهواء ليستقر محكما فى صدره .. لم يصدق ما حدث .. سقطت بندقيته بيسر ، وقبض بكلتا يديه على السيف، كأنما يريد أن ينتزعه من صدره .. أحس بالدماء لزجة ساخنة تنساب على يديه .. تلفت حوله كأنما يلتمس المعونة .. هنا رأى .. أو خيل إليه أنه رأى .. من خلال غمامة الموت تغشى عينيه شبحا طويلا يظهر صامتا من وراء إحدى الأشجار .. رآه يتقدم .. ويقف أمامه مباشرة .. خيل إليه أنه ينحنى ليلتقط البندقية .. وأحس بيد تنتزع الخنجر ، والندارة من منطقته . تردد الشبح قليلا وهو ينظر إليه ، ثم مد يده لينتزع السيف من صدره .. حاول أن يرفع يده فى حركة لا معنى لها .. لكنها كانت ثقيلة لم تستطع قواه أن تحركها ثم شعر بفراغ غريب فى صدره حيث كان السيف .. وحيث ينساب الآن ينبوع الحياة ..

الفصل الخامس عشر

الجزيرة الملعونة

ذاعت شهرة سيمون نوار ، سيمون الأسود ، كقرصان فرنسي يلقى الرعب في قلوب أشد ربابنة السفن التجارية جرأة . لم تكن شهرته دون مسوغ وإنما لها مبرراتها ، في قسوته المتناهية ، وحنكته في حيل القتال ، وما إتصف به من مكر ، وخداع . لم تفلت من يده سفينة صادفها ، تستوى في ذلك الفرنسية ، أو غيرها من الجنسيات . حاولت سفن حربية متعددة أن تطارده ، إلا أنه كان دائما يفلت منها .. أو يغرقها . كان سر نجاحه في سيطرته الفائقة على أعوانه ، وقدرته اللانهائية على إنتزاع ولائهم وإعجابهم .. وخوفهم .

إتخذ من الجزيرة إحدى مكامنه ، بل لعلها كانت أكثرها أمنا بالنسبة له . أعطاها بعدها عن الخطوط الملاحية ، وكثرة خلجانها ، ووجود الغابات والمياه العذبة بها ، وتلك الربوة التي تعلو حوالي مائتي متر في وسطها ميزات متعددة لاتتوافر لمعظم الجزر المشابهة . كان يلجأ إليها إذا إضطرته الظروف إلى الفرار ، أو إجراء بعض الاصلاحات في سفينته نظرا لوفرة الأخشاب الجيدة في الغابة . وجد في مائها العذب ، وثمارها البرية ، وحيواناتها تموينا مؤقتا يكفيه ورجاله الى حين يستطيع استكمال تموينه .

جاءها هذه المرة فرارا من سفينة حربية إنجليزية إشتبكت معه في معركة حامية أفلت منها بأعجوبة وإن كان قد أصيب ببعض الأضرار . أتى ليلا ، كعادته ، وأضواء سفينته مطفأة . شاهد على بعد نيرانا على الشاطيء فتوجس خيفة خشية أن يكون من ألقى مراسيه قرصانا آخر ، لم يجازف بالاقتراب حتى يستطيع التحقق بنظاره المكبر . ولم تكن سفينته أو رجاله في حالة تسمح بالاشتباك في قتال

جديد . فكر أن يلجأ إلى جزيرة أخرى لكنه عاد وقرر أن يرسو فى خليج آخر ، يستكشف من الذى تعدى على جزيرته .

كان يعرف بحكم كثرة تردده كل الخلجان التى تصلح للرسو ، كما أن الطرق والمخابىء داخل الجزيرة كانت كتابا مفتوحا بالنسبة له . وفى هذه ميزة ليست لعدوه . وكان لديه سبب آخر .. سبب خفى لا يعلمه إلا هو وبعض خلطائه . ألقى مراسيه فى خليج بعيد فى الطرف الآخر من الجزيرة ، وترك خمسة أشخاص على السفينة ، وإستقل مع الباقين القوارب إلى الشاطىء . أمرهم بالهدوء ، وعدم إصدار أى صوت وتقدمهم إلى حيث شاهد النيران .

ساعدته الموسيقى ، وأصوات الضحك على تغطية أى صوت قد يصدره أتباعه ، لهذا كانت مفاجأته للجماعة كاملة . لم يفقد رجلا واحدا ، ولم يقتل من الأسرى سوى خمسة حاولوا أن يكونوا أبطالا . عرف لتوه أن السفينة تجاريه تحمل بضائع ، وركابا إلى إحدى المستعمرات ، ورأى أن ربانها وبحارتها موجودون فى الحفل ففهم أن جميع من بالسفينة قد هجروها للاستمتاع ، وإن كان هنالك أحد فربما ثلاثة أو أربعة للحراسة . تصور مدى الإطمئنان الذى كان يسود الجماعة فى هذه الجزيرة النائية غير المأهولة فقطع بعدم وجود أى شخص على السفينة .

حتى حينما شاهدها تنشر شراعاتها ، وتبحر لم يهتم كثيرا فقد قدر أن من بها لا يمكن أن يزيدوا على عشرة أشخاص ولابد أن الرعب إستولى عليهم ففروا بها . لم يأسف على أن السفينة أفلتت من يده ، إنما انحصر أسفه على أن الجزيرة لن تكون بعد هذا مخبئا آمنا لا يعلم بوجوده أحد . قدر أن الهاربين سوف يبلغون السلطات . ويحددون الموقع . وبذا ينكشف أحد أسراره ، لكن هذا لن يكون إلا بعد أشهر فلاداعى لأن يهتم به الآن .

سمح لرجاله بالشراب بعد أن عين حراسا على الأسرى . أوثق الرجال ، وترك النساء والأطفال ، ليس رحمة منه ، وإنما يقينا من عدم إستطاعتهن فعل شىء . لم يغضاضة أن يترك رجاله يلهون بإحدى الفتيات فإنهم كانوا يعلمون

انه لايجوز لأى منهم أن يتطلع إلى إمرأة طالما لم يعاين الزعيم الاسلاب سواء أكانت بضاعة أم بشرا . كان دائما يعاين ، ويقدر الثمن ، ثم تكون الإشارة لأتباعه فى الإنطلاق . حينما يختار إحدى النساء ويكتفى بها ، كانوا ينطلقون ، لكن الويل لمن يتسبب فى فقد جزء من الثمن المقدر .

لما رأوه يتجه إلى الخيمة ويتبعه ضابطه يجرجر ناتاليا كانت إشارة الانطلاق . توقفوا حتى تم القبض على ديوجو ثم عادوا ثانية إلى لهوهم . ليخطروا إلى تركه حينما إرتفعت أصوات المدافع منذرة . لم يتصور سيمون الأسود فى مبدأ الأمر أن مكروها أصاب سفينته . وإنما عقد تفكيره فى أن رجاله أطلقوا النيران على السفينة الهاربة . ومع هذا كان لابد له أن يتحقق . ترك قوة ظن أنها كافية لحراسة البضائع ، والأسرى واندفع بالباقين عبر الجزيرة إلى حيث المرسى .

إنضم إليه ثلاث من الفرق الأربع التى أرسلها للبحث عن الملاحين أو الركاب الذين قد يكونون فروا قبل أن يحاصرهم ، ولم يول الأمر عناية إذ انحصر عقله فى التفكير فى سفينته المحبوبة ، وخشيته أن يكون قد ألم بها سوء . لم يعد يصل إلى سمعه طلقات مدافع بعد المره الأولى ، واحتار كيف يعلل ذلك . هل لم تكن لدى المركب التجارية أسلحة على الاطلاق ؟ إن السفن التجارية عاده تكون بها بعض .. ليس كثيرا .. إنما لاشك فى وجودها ، إذاً لماذا لم ترد ؟ .. ربما يكونون قد جبنوا وسلموا خشية أن يغرقهم رجاله .. أجل ، لابد أن هذا ماحدث .

تعجل السير ، واتبعه رجاله المنهكون . كانوا رجال بحر لاقدرة لهم على السير كما أنهم تحملوا فى الأيام الماضية الكثير بعد قتالهم مع السفينة الحربية ، وزادت حوادث الليلة من إرهاقهم لهذا كانوا يجرون أنفسهم جرا وراء زعيمهم . لم يتخذ أيسر السبل لاختراق الجزيرة ، وإنما دفعه تلهفه الى اختيار طريق مختصر عبر التلال حتى يستطيع أن يطل على الخليج الذى اتخذه مرسى ، ويمكنه أن يتعرف على ما حدث .

حينما إرتقى التل ، وانبسط تحته الخليج وقف مذهولا . كان الليل فى أواخره ، وأرسل قمر شاحب ضياءه لاتكاد العين أن ترى منه إلا أشباحا ، ومع هذا فلم يكن لديه شك فيما حدث . هناك ، على صفحة المياه الهادئة وقفت السفينة التجارية ، وعلى بعد أقل من مائة متر منها كانت سفينته المحبوبة التى أسماها إستهتارا « نفحة الحياة » .. رآها تميل على أحد جانبيها ، ولابد أن المياه كانت تدخلها بسرعة لأنها كانت تزداد ميلا مع كل دقيقة تمضى .

كانت ضربة قوية . وقف إلى جانبه رجاله المتعبون وقد ازداد شعورهم بالإرهاق . خامرهم اليأس وهم يتطلعون إلى نهاية السفينة التى لم تستطع أساطيل العالم أن تغرقها . وقفوا دقائق يتطلعون إليها فى يأس وهى تغوص فى المياه تلفظ آخر أنفاسها ، وإلى جانبها وقفت السفينة التجارية شامخة منتصرة . شيئا فشيئا زال اليأس من قلب القرصان الأسود ليحل محله غضب عارم . لابد أن رجاله كانوا نياما أو سكارى حين فاجأتهم السفينة التجارية . ود لو أنهم لم يقتلوا أو يغرقوا حتى يزهق أرواحهم ، بيديه . ود لو يستطيع أن يصل إلى من بالسفينة التجارية ليمزقهم إربا .

دفعه شعوره الأخير إلى العمل ، ربما مازال هنالك أمل .. يبدو أن من بالسفينة نسوا القوارب التى حملت القراصنة إلى البر ، قبل أن ينبلج الفجر .. ربما إستطاع مع رجاله أن يفاجئهم من حيث لايحتسبون ، ويقلب الهزيمة نصرا .. فإن لم يستطع فهناك مفاجأة أخرى يدخرها ، مفاجأة لايعلم عنها إلا القليل من رجاله .. لهذا كان قد إختار هذه الجزيرة دون سائر مخابئه الأخرى .. لكن عليه أولا أن يحاول محاولة أخيرة بالقوارب .

أشار إلى رجاله أن يتبعوه .. أعطاه الأمل قوة متجددة ، فأسرع بالسير هابطا التل إلى الخليج حيث القوارب .. علم أنه يلزمه أن يتحرك بأقصى سرعة إذا أراد أن ينفذ خطته .. نظر إلى السماء .. لازالت هنالك على الأقل ساعة .. وربما أكثر .. قبل أن تبزغ أوائل تباشير الصباح .. ترى

هل أغرقوا القوارب ؟ .. إنه لايستطيع أن يراها حيث هو .. لكن لن تمضى دقائق حتى يتمكنه أن يتحقق .

حث السير حتى وصل إلى الخليج . وتنهد ارتياحا . هناك على الشاطىء كانت القوارب رابضة كأنما تنتظره .. تجدد الأمل لديه ، ولدى رجاله . هذا عمل يحبونه ، ويعرفون كيف يؤدونه على أحسن وجه .. فى صمت وهدوء تسللوا من الغابة إلى الشاطىء وبدأوا يدفعون القوارب بتؤدة وتأن حتى لايلفتوا أنظار من بالسفينة .. ببطء ، ظلوا يعملون .. وابتدأت القوارب تنزلق من الشاطىء الرملى نحو المياه . لم يكن من الممكن ان يراهم أحد فى السفينة ، ولهذا باشروا عملهم فى اطمئنان . بمجرد ان تنزلق القوارب فإن الشطر الأكبر من خطتهم يكون قد تم .. ولم يبق إلا التسلل فى خفية من أعدائهم ، ثلاثمائة متر أو تزيد ..

.. من مكان ما دوى طلق نارى ، ثم فتحت جهنم أبوابها . إنطلقت مدافع السفينة ترسل وابلا من نيران يتساقط على القوارب والرجال معا .. تعالت صرخات القتلى ، والجرحى ، وتطايرت الأخشاب فى الهواء .. وترك الناجون أماكنهم مندفعين فى حمى الغابة وقد تولاهم الذعر .

كانت جماعة يائسة تلك التى تجمعت حول القرصان الأسود . نظر إليهم .. باستثناء فئة قليلة علم أنهم قد أنهكوا ولم تبق لديهم قدرة على الاستمرار .. قدر عددهم بأقل من سبعين شخصا . وبهذا يكون قد فقد حوالى الثلاثين .. إنتقل تفكيره إلى أعدائه . لابد أن لهم قائدا ماهرا استطاع أن يضع خطته بهذا التوقيت المحكم . أغرق السفينة ، وانتظر لم يتبعها القوارب يقينا منه بأن القراصنة سوف يحاولون استعمالها . حتى الظلام عمل له حسابا . تذكر سيمون الطلقة النارية التى سبقت المدافع ، وعلم أن خصمه وضع شخصا يراقب القوارب حتى يراهم وهم يتسللون ثم ينذر من بالسفينة ليوجهوا ضربتهم القاضية .

لقد تنبأ خصمه بكل خطوة ، وأتقن وضع خطته . لكن هنالك نقطة أو إثنتان لم يتنبأ بها ، ولايستطيع مخلوق أن يفعل ، ذلك لأنه ببساطة لايعرفها ..

هنالك الورقة الرابحة التي تركها سيمون ليستعملها في آخر لحظة . كان هذا دأبه دائما . حينما يظن أعداؤه أنهم قضوا عليه ، وأن انتصارهم أضحى لامرية فيه ، إذا به يطلع بحيلة جديدة لم يكونوا يعلمون عنها شيئا .

أعاد النظر إلى رجاله . كانوا جماعة لاحول لها ولا قوة . منهم من استغرق في النوم فعلا ، ومنهم من جلس على الأرض لايستطيع حراكا . فيما عدا بعض الأفراد كانوا قد تركوا بنادقهم على الشاطىء ، أو في القوارب . لكن الأسلحة والذخيرة لم تكن تهمة فقد عمل حسابا لوقت كهذا وترك الكثير منها في مخزن آمن . إن الرجال وراء السلاح هم الذين يجب أن يعتنى بهم . عليه أن يعيد إليهم الثقة في أنفسهم ، وفيه حتى تنقلب الهزيمة إلى النصر .

هب من مكانه يأمرهم بالوقوف . قام بعضهم متكاسلا ، وتباطأ آخرون . هنا ظهرت قدرته الحقيقية على السيطرة على رجاله . إرتفع صوته قويا آمرا لاأثر فيه لليأس أو الخور . إمتثلوا لأوامره دون حمية ، كانت العادة فقط هي التي دفعتهم للامتثال . أخبرهم بأنهم صادفوا مواقف أشد خطورة ، وخرجوا منتصرين ، قال إن شيئا لم يضع بعد . إن هنالك مدافع في أماكن معينة تتحكم في معظم خلجان الجزيرة . إن هنالك مخزنا مليئا بالأسلحة والذخائر ، وأخيرا فإن هنالك سفينة .. صغيرة نسبيا لكنها مجهزة بكل ما يلزمها للإبحار ، وهي أيضا مخبأة في خليج لن يستطيع أحد ان يعرف مكانه .

إستمعوا إليه مذهولين . كان بعضهم يعرف هذه الأشياء لكنه نسيها في غمرة الحوادث . وكان آخرون لايعرفون . دب الحماس فيهم جميعا حينما ذكر السفينة ، فهذا معناه أنهم لن يقضوا حياتهم سجناء في هذه الجزيرة الملونة كما تصوروا . لم تمض دقائق حتى كانوا يسيرون عودا إلى الشاطىء الآخر حيث تركوا رفاقهم . كان يجب أن يستكملوا النقص في الرجال ويروا رأيهم في الأسرى ثم ينتقلوا من الهزيمة إلى النصر .

عادت إليهم الثقة في قائدهم ، وفي أنفسهم ، وساروا وراءه وكلهم أمل متجدد .

مضت حوالى ثلث ساعة وهم فى سيرهم ، واقتربوا من المعسكر . هنا إلتقوا بخمسة من الرجال المرتعبين واستمع سيمون إلى رواياتهم . قالوا إنه لم يكد يتركهم حتى هاجمتهم الشياطين يصطادونهم من حيث لايرونهم .. لقد قتل فى حدود علمهم ستة أشخاص ولا يعلمون مصير قائدهم ومن كان معه .. إن الحراس مازلوا قائمين على الأسرى حين تركوهم .. لالم يهرب أحد .. لكن الشياطين مازالت هناك .

إستشاط القرصان غضبا ، إلا أنه علم أن هذا ليس وقت حساب أعوانه فتركهم مؤقتا لينضموا إلى رفاقهم يروون أقاصيص الجن والشياطين .. أشياء حدثت .. وأخرى إبتدعها خيالهم الخصب ..

لم تمض دقائق أخرى حتى رأوا اثنين منهم يعدون نحوهم كأن مردة العالم تطاردهما . وتوقفوا ليستمعوا .. كانا حارسين من الموكول إليهم حراسه الرجال . لقد تركهم زملاؤهم بصحبة الضابط ، ثم قتلت الشياطين ثلاثة حراس من إخوانهم الذين كانوا يحرسون النساء والأطفال . وتغلبت النساء على الرابع فقتلنه ، وحاولن الهجوم على الأربعه الباقين .. أطلقوا عليهن النيران فقتلوا واحدة وجرح ثلاث .. وسكنت النساء خوفا .. أعادوا حشو بنادقهم ، ووقفوا يحرسون الجميع .. ودوى طلق نارى قتل أحدهم ،، وسقط الثانى من خنجر طائر فى الهواء . لم يروا من قذفه .. لكنه إستقر فى صدر الرجل .. ولم يستطع الإثنان الباقيان أن يحتملا أكثر من هذا ،، فأطلقا سيقانهما للريح .. أنهما مستعدان لمقاتلة أيا كان ،، على أن يكون من البشر .. أما الشياطين والجن .. فلا قبل لهما بهم .. لا .. إنهما لايعلمان شيئا عن الضابط أو باقى الرجال .. ولابد أن الشياطين قد تخطفتهم ولن يروهم بعد هذا .

إستولى الرعب على قلوب القراصنة وهم يستمعون .. كانت كل ساعة تأتيهم بأنباء جديدة تحتوى على قصص من الجن والشياطين .. حتى زعيمهم القوى إهتزت أعصابه .. من حسن الحظ أن ضوء النهار بدأ يتسرب وإلا لانهار رجاله .

لقد تغير الموقف ولابد له أن يعدل من خططه . لافائده الآن من الذهاب إلى الشاطىء

إذ أن الأسرى لم يسودوا أسرى وربما نصبوا له كمينا فقد بدأ يحترم قائدهم .. إن عليهم أن يبحروا وبهم نساء وأطفال ومعنى هذا أن يستقلوا القوارب إلى السفينة .. وقد بزغ ضوء النهار . بسرعة أصدر أوامره .. على خمسة من الرجال أن يعتلوا التل .. حيث نصب مدفعان .. ، عليهم أن يمنعوا السفينة من الاقتراب .. ولديهم من الذخيرة مايكفيهم .. وعليهم أن يمنعوا القوارب من ترك الشاطىء .. لن يدع منهم أحـــد يفلت حيا .. أصدر أوامره إلى باقى الرجال أن يتبعوه .. إلى حيث خبأ السفينة الصغيرة . ان السفينة التجارية تقف لتلتقط الأسرى فإذا ما انطلقت المدافع فإنها ستبتعد حتى يجن الليـــل .. وفى هذه الأثناء يكون هو ورجاله قـــد لحقوا بها وأغرقوها .. ويعود الأمر كما كان .. ليستولى على البضائع .. والبشر ..

* * *

وقفت ايوفيميا حيث تركت ديوجو . كان الظلام دامسا ، والغابة موحشة . بدت لها الأشجار كأنما هى تتحرك نحوها تمد فروعها لتختطفها من مكانها ، خيل إليها أن كل نسمة هواء تحمل خطرا جديدا . إلى جوارها قفزشىء لعله أرنب برى ، وتقفز معـــه قلبها . كادت أن تصرخ لولا أن منعت نفسها ، نظرت إلى مواطىء قدميها وهى لاتكاد ان تراها . تصورت ان أفاعى تزحف على الأرض نحوها .

كادت أن تعدو صارخة إثر صاحبها ، لكنها تذكرت القراصنة فتوقفت . ان رعبها منهم أشد من خوفها من الأفاعى . مرت الدقائق كثيبة بطيئة تحمل كل منها فى ثوانيها فزعا جديدا ، ووهما جديدا . تململت في وقفتها ، وفكرت أن تبحث عن مكان تستريح فيه وتجلس . حولها كانت الغابة بما تحتويه من اهوال ، فى الناحية الأخرى كان منبسطا لا مكان فيه للاختباء ، ولم تشك فى ان القراصنة سوف يرونها بمجرد ان تترك حمى الأحراش .

لم يكن هنالك مناص من أن تقف حيث هى . خشيت حتى أن تنقل قدمتها

قطاً أفعى ، أو حشرة سامة . إمتلاء خيالها الخصب بمـــا قرأت عن الأدغال ، ووحوشها ، وهوامها ، تلك الأفاعى التى تلتف حول الجسد تعصر عظامه ثم تبتلعه . والعناكب السوداء التى تتلصص منسله ، وفى لدغتها الموت . ارتعدت فرقا ، وسرت فى جسدها قشعريرة باردة ، وتصبب العرق على وجهها .. لقد مضت ساعة منذ أن تركها ديوجو خيل إليها أنها دهرا .

ثم سمعت الصوت .. أو خيل إليها أنها سمعته .. وقع أقدام تتسلل ، على أوراق شجر جافة .. إمتلأ قلبها رعبا ، وفكرت أن تنطلق من مكانها عدوا إلا أنها تماسكت .. ساد الصمت برهة حتى بدأت تظن أنها كانت واهمة لكن الصوت عاد ثانية .. أقرب . تبينت أنه ليس مجرد شخص واحد الذى يتقدم نحوها إنما عدة أشخاص . حبست أنفاسها ، وإزدادت التصاقا بجذع الشجرة الخشن .. لم تعد تفكر فى الأفاعى الهابطة أو الحشرات السامة الزاحفة . وإنحصر خيالها فيما سوف تلقاه على أيدى القراصنة إن هى وقعت فى قبضتهم .

إزدادت الأقدام اقترابا ، ولم تعد تستطيع أن تستمر فى تماسكها . أطلقت لساقيها الريح . لم تجر نحو الشاطئ فقد هداها تفكيرها إلى أنهم أسرع منها عَدْواً ولن تمضى دقائق إلا ويلحقوا بها . يممت شطر الغابة بعيدا عن الأقدام التى تقتفى أثرها . سمعت صوتا أجشا يصيح ، وآخر يرد عليه ثم إرتفعت أصوات أقدام كثيرة تهرع وراءها .

فى الظلام الدامس لم تستطع أن تتيقن طريقها . خدشتها الأغصان ، وتعثرت مرات ، بل وسقطت مرة على الارض ، لكنها لم تعبأ واستمرت فى عدوها . لم تكن تدرى أين تتجه ، ولا ماذا وراء الجرى ، وانحصر إهتمامها فى أن تبتعد عن العدو الذى يقتفى أثرها ويزداد إقترابا منها فى كل لحظة . لم يكن لمثل هذه المطاردة أن تطول ، فلم تمض دقيقتان إلا وسمعت الخطوات وراءها تماما ، وبعد ثوان قبضت يد قوية على شعرها تضطرها إلى الوقوف .

أطلقت صرخة ، وهى تنظر إلى الأشباح التى وقفت ملتفة حولها . كانوا خمسة رجال لم تستطع أن تتبين ملامحهم جيدا فى الظلام ، لكن الذى لاشك فيه أن الشر كان يلتمع فى عيونهم . ترددت أنفاسها لاهثة وهى تنظر برعب ويأس إليهم . وضحك أحدهم .

ـ ما هذا يارفاق ؟ .. إن لدينا فتاة جميلة ، ولا بد أنها كانت بصحبة ذلك الغر الذى قبضنا عليه ، مارأيكم أن نستمتع بها ؟

ارتفعت ضحكات الآخرين وتكلم أحدهم .

ـ إنى أوافقك من كل قلبى إلا أن سيمون الأسود سوف يسلخ جلودنا .. انك تعرف أوامره .. علينا أن نعيدها إليه أولا .. ثم نطالبه بأن تكون من نصيبنا فنحن الذين عثرنا عليها .

ـ ومن الذى سوف يخبره ؟ .. أنت ؟

ـ كلا .. هى ..

ـ إذا فلنقتلها بعد أن ننتهى منها .. ولن يعثر على جثتها أحد .

بدأ التردد على الجماعة أمام هذا الاقتراح . كان خوفهم من رئيسهم حقيقيا ، لكن إغراء الموقف كان شديدا . إنتهز الرجل الأول فرصة التردد وقال ..

ـ هيا بنا نلتقى بقعة ملائمة .. تعالى ياصغيرتى .

كان الذى قبض عليها قد أطلق شعرها ، وحينما تكلم القرصان أمسكها بشدة من ذراعها وراح يجرها وراءه غير عابئ بالمقاومة التى تبديها . لم يتردد الآخرون كثيرا فى إتباعهما . كانت الممرات فى الغابة ضيقة فاضطروا أن يسيروا فرادى إثر بعضهم فى حين لم يعبأ الرجل الأول بالفتاة وهى تصرخ مستنجدة طالبة الرحمة . كان يجرجرها معه والأغصان تمزق ثيابها ، وجلدها . تعثرت أكثر من مرة إلا أنه لم يتوقف ليعطيها فرصة الاعتدال فى السير . وارتفعت أصوات الرجال تضحك ساخرة منها .

فجأة توقف الرجل فى المؤخرة وتلفت حوله .

— أين بول ؟

توقف الباقون لدى سماعهم السؤال . نظروا وراءهم إلا أن الطريق على قدر ما رأوا كان خاليا . تلفتوا حولهم نحو الأشجار كأنما يتوقعون أن يظهر منها ، ولم يروا شيئا . إرتفع صوت أحدهم مناديا . وظلت الغابة صامتة لا تجيب . كرر النداء دون جدوى . توقفوا عن النظر إلى الغابة والأحراش ، وتبادلوا النظرات .. بصوت داخله الرعب قال أحدهم مكررا السؤال بغباء .

— أين بول ؟

— ربما يكون قد عاد .. لعلة جبن فانسل ليخبر سيمون الأسود .

داخل الاطمئنان الآخرون . أجل .. لابد أن هذا هو ماحدث .. لكن هل من الحكمة الآن الاستمرار فيما هم معتزمون ؟ الا يستحسن الرجوع إلى المعسكر وتكذيب بول ؟ وقفوا برهات يتناقشون ، ووقفت الفتاة بينهم ترتعش يحدوها الأمل تارة . ويتلقفها اليأس أخرى . إنتهزت فرصة إنشغالهم فى النقاش وأطلقت لساقيها العنان . تنبه إليها الرجال حين صرخ أحدهم محذرا فاندفعوا وراءها ، ولم يلبثوا الا لحظات حتى لحقوا بها . صفعها الرجل الذى كان يجرها بشدة على وجهها فسقطت على الأرض ، ولكزها بحذائه فى جنبها فصرخت من الألم وأمرها أن تقف .

— أين مارسيو ؟

إلتفتوا حولهم . لا بد أنه هنالك فى الممر ولم يجر معهم إثر الفتاة . لكنه لم يكن موجودا حين عادوا . ترى هل جبن هو الآخر ، وعاد أدراجه إلى المعسكر ؟ رفعوا عقيرتهم بالنداء . ولم يتلقوا ردا . بدأ الشك يخامرهم . هل عاد الاثنان حقا إلى المعسكر ؟ أم أن هنالك من اختطفهما ؟ كان السؤال الأخير يتردد داخل كل منهم وإن لم يتفوه به . ألا يستحسن على كل حال أن يعودوا جميعا على الأقل ليتأكدوا مما حدث لرفيقيهم ؟ لكن الرجل كان قد إستبدت به رغبته فى الفتاة فصرخ فيهما .

— إذهبا أنتما إن شئتما أما أنا فسوف أمكث مع الفتاة . شاء سيمون الأسود أو لم يشأ .

لم يتردد الرجلان فى الانسحاب . ولم يتمهل القرصان بعد ذلك . إمتدت يده فى عنف تمزق ثوب الفتاة . حاولت المقاومة ، وتبينت الفارق الهائل بين قوتها وقوته .. ألقاها على الأرض غير عابئ بما قد يصيبها من الأغصان المتكسرة أو الأرض الصلبة . رأته ينحنى عليها بجسده الضخم ، وداخلت أنفها رائحة الخمر تفوح من فمه مختلطة برائحة عرقه الكريهة . أخذت تدفعه عنها فى محاولة يائسة أن تتفادى يديه القذرتين ، وهما تعبثان فى ملابسها . لكن جسده كان أثقل من أن تؤثر فيه يداها الواهنتان .

فجأة سقط عليها بكل ثقله ، وتوقفت يداه عن العبث . صدرت منه شهقة غريبة ، وانثنت رقبته كأنما يحاول أن ينظر خلفه ، ثم احست بسائل لزج دافئ يتدفق منه على صدرها ويبلل يديها . نظرت بهلع إلى السائل ، وحتى مع الظلام السائد لم يكن لديها شك فى أنه دماء . صرخت مرتعبة ، ودفعت الجسد بكل قوتها وفى هذه المرة تدحرج إلى جانبها ليبقى على الأرض .

أصابتها غيبوبة ، لم تدر معها شيئا . ولما أفاقت كان أول ما أبصرت شبحا أسود ينحنى عند رأسها . وسمعت صوتا تعرفه جيدا . جيرونيمو .. المرتد ..

— إننى آسف إذ تركتك لكن كان من الضرورى أن اقضى على الإثنين الآخرين قبل أن يبلغا المعسكر .

بهذه الكلمات القليلة ظن أنه برر قتله الرجل ، وترك جثته فوق صدرها . ذكرها هذا بالقتيل إلى جوارها فالتفتت مرتعبة ، لكنها لم تجد شيئا . تنبهت إلى السترة التى تلتف حولها وعلمت أنها سترة جيرونيمو . إذا فقد حملها أثناء غيبوبتها بعيدا عن الجثة ، ودثرها بسترته يستر صدرها العارى .. وتضرج وجهها خجلا ، إعتدل واقفا وجاء صوته هادئا .

— هل تستطيعين الحركة الآن ؟

— أظن ذلك .

حاولت النهوض ، وتعثرت لكن يده القوية أمسكت بذراعها ترفعها عن الأرض حتى إستوت قائمة . وقف ساكنا ينظر إليها كأنما يفكر ، وتمكنت من رؤيته عن كثب . كان يرتدى قميصا وسروالا اسودين ، والتفتت إلى السترة التى دثرها بها كانت سوداء أيضا . لا بد أنه بهذه الملابس لا يبين من ظلام الغابة ولو كان قيد خطوتين . حتى السيف المدلى ، لم يكن يلتمع .

— إن مصادفة لقياك لم تخطر لى على بال وقد تأخرت . هل تستطيعين السير ..

— أجل .

— إذا سرت حذاء الشاطىء متجهة جنوبا سوف ترين الصخور تلتقى بالمياه .. هنالك قارب يمكنك ان تنتظرى فيه بأمان حتى أعود إليك ،

دون أن تشعر أمسكت بذراعه .

— لا .. أرجوك الا تتركنى وحدى بعد هذا .

ظل صامتا لا يجيب . لم تتغير قسمات وجهه مع ما أحست من تفكيره العميق . لم يستغرق الأمر أكثر من برهات وازن فيها الرأى حتى استقر .

— لا . انك سوف تكونين أكثر أمنا فى القارب .. هل تعلمين أين ديوجو ؟

— لقد تركني منذ مدة طويلة وذهب ليحاول انقاذ الباقين لكنه لم يعد .

لسبب لا تدريه نكست رأسها فى الأرض وهى تتكلم . لقد رآها فى ظلام الغابة بمفردها فاستنتج عقله السريع أن ديوجو كان معها ، وشعرت كأنما قد اقترفت اثما . أدهشها صوتها المتلعثم وهى تستطرد في محاولة غريبة لاسترضائه .

— هل ستذهب بمفردك ؟

جاءها صوته كعادته جامدا لا أثر فيه لشعور .

— أرجو أن تذهبى الآن .

ما كاد أن ينتهى من جملته حتى إستدار ، وابتلعه الظلام . وقفت بائسة تترقرق الدموع من عينيها . لم تكن تدرى سبب بؤسها ، ولم تحاول أن تحلل العبرات

التى إنسابت فى سكون على خديها . ظلت مكانها لحظات تنظر إلى الظلام حيث إختفى ثم إنسحبت بدورها متجهة إلى القارب . ومن الغريب أنها لم تشعر بخوف وهى تسير بمفردها وسط الغابة الدامسة . أحست كأنما هو يسير إلى جوارها ، وما كان شىء فى الوجود يثير فزعها وكلماته مازالت تطن فى أذنيها .

لم تصادف صعوبة فى الوصول الى القارب . عثرت عليه حيث أخبرها . إرتقته ثم جلست تنتظر . حل بها اطمئنان غريب بأن شرا لن يحدث لها ، وملأتها ثقة قاطعة لم تشعر قبلا بمثلها فى أنه سوف ينقذ سائر من بالمعسكر ، وأنه سوف يعود إليها .

* * *

تنبه ديوجو من غيبوبته وهو يشعر بآلام حادة فى رأسه . فتح عينيه مجهدا ليرى أن ضوء النهار قد سطع ، وان وجه صاحبه يطل عليه قلقا : مضت فترة قبل أن يتذكر ماحدث ، ويتنبه لمعنى ما يرى . لم يصدق عينيه ، فأغلقهما ، ثم اعاد فتحهما ليتحقق من أن مارآه لم يكن حلما .

ابتسم جيرونيمو وسأله برفق .

— كيف حالك الآن ؟

تذكر ايوفيمياء هب من رقدته محاولا الاعتدال ، فعاودته الآلام برأسه التى كان قد نسيها مؤقتا ، الا أنه لم يأبه لها وهتف باسم الفتاة فى يأس.

اتسعت الإبتسامة الشاحبة على وجه جيرونيمو

— لا تحاول النهوض إنها بخير فى مكان آمن

— اين القراصنه ؟

— ذهبوا .

— هكذا .. ذهبوا .. هل تعنى أنهم أبيدوا ؟

— لا .. لكننى أعتقد أنهم مختفون الآن فى الآحراش أو التلال .

— هل سنتعقبهم ؟

— كلا .. ليس لدينا السلاح الكافى .

— إذا لماذا تركونا ؟ ولماذا لا يهاجموننا ؟

— هذان سؤالان وجيهان واعتقد أن لدى الإجابة عليهما ..

تحامل ديوجو على نفسه ، واعتدل جالسا رغما عن الآلام التى يعانيها . انتابه دوار خفيف، فانتظر قليلا يجاهده حتى تغلب عليه . دار نظره حوله . ظن لأول وهلة أن المعسكر خال ، لكنه مالبث أن تبين وجود بعض النساء والأطفال فى الأحراش المحيطة به ، ولم ير رجالا . حانت منه التفاته إلى المحيط ورأى أن السفينة ترسو على بعد يزيد على خمسمائة متر .

لبث لحظات يتطلع حوله ويفكر ، وتركه جيرونيمو دون أن يقطع ملاحظاته أو تفكيره ثم قال .

— حاول أن تنهض إن شئت وسوف أعاونك . إن الربان يود أن يعقد مايحلو له أن يسميه مجلس حرب فهل تريد أن تحضره .

ـ ما كان ليفوتنى لو فقدت حياتى .

عاونه جيرونيمو على النهوض ، وإستدر يسانده وهو يقوده إلى داخل الأحراش. بعد حوالى ثلاثين مترا توقف عند أجمة خرج منها الربان . إبتسم الرجل الطيب حينما رأى ديوجو ومد يده مصافحا .

ـ أننى أرى أنك تحسنت كثيرا .

ـ لا تظن ذلك الواقع أننى لم أكن أشعر بأية آلام وأنا فى الغيبوبة .

إنطلقت من الربان ضحكة جذلة .

ـ إذ فاشكر صديقك هذا إذ لولاه لاستمر عدم شعورك بالآلام ولكننا لحقناك أيضا .

عاوده الجد بعد هذا ، والتفت إلى جيرونيمو .

ـ ما هى الخطوة التالية؟

ـ أعتقد أنها فى الإجابة على سؤالين طرحهما ديوجو . لماذ تركنا القراصنة ؟ ولماذا لا يهاجموننا ؟

نظر إليه الاثنان دهشين وقال الربان .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ دعونى اشرح رأيى . أعنى أن القراصنة لو شاءوا لهاجمونا الآن ، ولتغلبوا علينا فلماذا إذا لم يفعلوا ؟ هل لاعتقادهم بأن لدينا من السلاح ما يكفى لردهم ؟ ربما . أم هل لثقتهم بأننا لن نترك الجزيرة أحياء ؟ ومن أين جاءتهم هذه الثقة إن وجدت ؟ إن هنالك حقيقة لا شك فيها هى أنهم اتخذوا هذه الجزيرة مأوى لهم .

ـ أجل .. فهم يعلمون مسالكها ، ودروبها بل إننى شخصيا شاهدت آثارا تدل على سابقة وجود أشخاص بها .

ـ حسنا .. ماذا تفعل لو كنت قرصانا ؟ إن أول ما تفكر فيه بلا شك أن تحصن مأواك فأنت لا تعلم متى يفاجئك عدو ، كما حدث فعلا . إن بضعة مدافع توضع فى أماكن مختارة تكفى للسيطرة على جميع الخلجان فى الجزيرة الصغيرة . هذه المدافع سوف تمنع أية سفينة من الدخول إلى الخلجان ، كما تمنع أية قوارب من تركها .

ـ هذا كلام منطقى .. وأين تظنه وضع هذه المدافع ؟

ـ ان نقل المدافع عبر غابات مهمة شاقة ، والصعود بها إلى تلال مهمة اشق خاصة على قراصنة لا يحسنون العمل فى البر اننى أكاد أجزم ان المكان الذى وضعت فيه المدافع قريب نسبيا من كل خليج ، ومرتفع فقط بالقدر الذى يسمح بالسيطرة عليه . وأحسب اننى أستطيع أن أحدد هذا المكان .

تلفت الاثنان حولهما كأنما يتوقعان ان يريا المكان الذى يعينه جيرونيمو ثم عادا ينظران إليه فاستطرد .

ـ أنهم لم يهاجمونا لأنه لاداعى لذلك فاذا ما تركنا الجزيرة حصدونا بمدافعهم ، ولن ينجو أحد منا كما لن يصاب أحد منهم .

كان المنطق سديدا لا غبار عليه ولم ير الإثنان فيه ثغرة واحدة إلا أن الدقائق التالية أثبتت أن له بقية لم يتنبه إليها أيهما .

— هنا يثور سؤال آخر . ماذا لو إنتظرنا حتى يحل المساء ونهرب فى ظلام الليل ؟

إلتفتا إلى بعضهما ثم إليه كطالبين يتلقيان دروسا من استاذ . لقد توقف تفكيرهما تماما فتركوه يدبر ما يراه . لم يفصح جيرونيمو عما يدور فى خلده وتركه إلى أن يحين وقته .

* * *

الفصل السادس عشر

نهـــاية القرصان

في الدقائق التالية اشتعل الشاطىء نشاطا ، بدأ جزء كبير من الرجال والنساء شحن صناديق البضائع على القوارب . رأى الرجلان اللذان عينهما سيمون الأسود بداية النشاط فذهب أحدهما ليخبر رئيسه بما رآه . وتبسم القرصان حين علم أن خطته بدأت تؤتى ثمارها . سوف يتركهم فى عملهم . وحينما ينطلقون نحو السفينة سيصب عليهم مالارتيك وصحابه ، الذين تركهم على التل وابلا من قذائف المدافع . لم يكن يتصور أنهم سيقعون في الفخ الذى نصبه لهم بهذه السهوله ، وهنأ نفسه على إحـكام خطته .

غالبـــة الطمع .. لماذا يقتل حينما يستطيع أن يأخذ أسرى ؟ .. لماذا لا يأمر مالارتيك ألا يطلق مدافعه إلا إذا تعجلوا الرحيل ، وخشى أن يهربوا ؟ إن أمامهم ساعات قبل أن يفرغوا من إعادة شحن البضائع ، والركاب إلى السفينة ، وفى هذا الوقت يـكون هو قد أعد سفينته ، وحمل إليها من الذخائر مايـكفيه .. لو أن هذا الحلم يتحقق إذاً لوجد ركاب السفينة التجارية أنفسهم بين نارين .. مدافع مالارتيك على الجزيرة .. ومدافع سفينة القراصنة من ناحية المحيط .. ومن كان فى استطاعتهم سوى الاستسلام .

دافعه الحذر .. لا .. إنه لن يفعل هذا .. على الأقل مؤقتا .. سوف ينتظر ليرى مايفعل أعداؤه .. ثم يعدل خططه إذا استدعى الحال .. أعاد تابعه إلى حيث كان آمرا إياه أن عليه أو صاحبه ان يخطراه كل ساعة بما يحدث على الشاطىء ثم صاح فى القراصنة أن يتعجلوا فى المهام التى أوكلها إليهم حتى تـكون السفينة على إستعداد للإبحار فى أقصر وقت .

بعد ساعة جاءه أحد المراقبين لينبئه بأن تحميل البضائع مازال مستمرا ، وأن بعض الرجال فقط هو الذى يقـــوم بالعمل بينما يختفى بعض آخر فى الأحراش لحمايتهم إذا ماهاجمهم القراصنة .. هذا جميل .. إن كل شيء يسير فى مجراه الطبيعى طبقا للخطة التى رسمها .. لماذا لايضيف إليها بعض الخداع ليزيدهم اطمئنانا ؟ .. راقت له الفكرة فأمر أحـــد البحارة أن يذهب إلى حيث مالارتيك وأصحابه ويخطرهم بألا يطلقوا النيران على القوارب مؤقتا حتى تصدر إليهم أوامر أخرى .

وقف يفكر بعد هذا وقد علت على وجهه إبتسامة خبيثة .. إنه أحسن عملا بإصدار أمره الأخير ، بهذه الوسيلة سوف يزداد إطمئنان بحارة السفينة ، وركابها خاصة أنهم لايتصورون وجود مدافع على التل تسيطر على الخليــــج ، ولاسفنا إضافية مخبأة بحيث لايراها أحد . سيركزون إهتمامهم فى الدفاع عن الشاطىء ضد هجوم القراصنة ، ويتصورون أنهم بمجرد أن يركبوا البحر فهم آمنون .. وحينئذ سوف يضرب ضربته .

* * *

كانت ايوفيميا مستغرقة فى النوم حينما شعرت بيـــد تهزها برفق . استيقظت لترى وجه جيرونيمو يطل عليها .. خيل إليها للحظات أنها رأت فى العينين حدبا ، وحنوا لم تعهدهما على الوجه الجامد .. إرتسمت على شفتيها إبتسامة مطمئنة ، وتململت قبل أن تعتدل جالسة ، وحينما أعادت النظر كان الوجه قد عاد إلى سابق عهده ، وجاءها صوته جافا لا أثر فيه لعاطفة .

— تستطيعين الآن أن تعودى إلى المعسكر فالطريق آمن ، وديوجو بخير وأحسبه ينتظر قدومك .

— وأنت .. أين ستذهب ؟

— سأستقل القارب إلى السفينة مع الربان وبعض البحارة .. إنهم قادمون الآن وقد سبقتهم لأوقظك .

— ولماذا لا أصاحبكم ؟

فكر قليلا . ربما كان من الأوفق أن تصاحبهم .. إذا نجحت الخطة فإن السفينة ستكون مكانا آمنا .. أما إذا فشلت فلعله من الأوفق لها أن تفقد حياتها عن أن تقع مرة ثانية في أيدى القراصنة .

— لا بـأس .

لم يكد يتم جملته حتى ظهر الربان وبعض البحارة .. تعاونوا جميعا على دفع القارب إلى المياه ، ولم تمض دقائق حتى كانوا يجدفون متجهين إلى السفينة . سمعت صوت الربان يسأل :

— هل أنت واثق أنهم لن يطلقوا علينا المدافع ؟

— لا .. لست واثقا .

— إذاً لماذا المغامرة ؟

— لازداد معرفة بعقلية القرصان .. وإذا كان ماحدسته صحيحا فلن يطلق علينا النيران الآن .

— وإذا لم يكن حدسك صحيحا ؟ !

أجاب ببساطة :

— إذاً فسوف يطلقون علينا نيران مدافعهم .. إن القارب هدف صغير متحرك من العسير اصابته . ربما نجونا ..

— لست أفهم إلى الآن لماذا لم تستول على المدافع قبل أن نبدأ هذه المجازفة ؟

— انني أعتقد أن القرصان الأسود يريد أن يأخذنا أحياء ، ولهذا فهو سوف يمد لنا الحبل لنزداد اطمئنانا ولن يظهر لنا نفسه إلا فى آخر لحظة ، وليس من صالحه فيما يتصور أن يطلق نيران مدافعه على مجرد قارب حتى لا يكشف لنا عن وجود المدافع فتتخذ حيطتنا .. لا .. إنه يظن أن فى يديه أوراقا رابحة ، ولن يكشفها لنا إلا عند النهاية .

ساد الصمت بعد هذا فيما عدا أصوات المجاديف تضرب صفحة المياه بشدة . رغما عنها تلفتت ايوفيميا حولها إلى شواطىء الخليج ، والتلال المحيطة بهـا .

ترى فى أى من هذه التلال يختبىء الموت ؟ .. دارت بعينيها مرة ثانية متفحصة متوقعة ، لكنها لم تستطع أن تحدد مكان المدافع . كانت التلال مكسوة جميعها بالأشجار والأحراش ، ولم يكن من اليسير أن يرى أى شىء يختفى فيها .

توقعت فى كل لحظة أن تستمع إلى أصوات المدافع المرعبة ثم ترى القذائف وهى تمرق فى الهواء لتتساقط حول القارب أو تصيبه لتهشمه وتقضى على من فيه .. داخلها الخوف فحولت بلاشعور نظرها إلى الوجه الأسمر إلى جوارها لتستمد منه الشجاعة والاطمئنان . رأته ينظر إليها يراقبها ، كأنها كتاب مفتوح أمامه .. ضرج خداها بحمرة خفيفة ، وتكلم جيرونيمو يطامنها .

— لاتراعى .. لست أظن ان ساعتنا قد حانت بعد .

للتو أحست بأن هنالك شيئا غريبا فى أقواله .. لم تكن الألفاظ ، فليس فيها جديد .. ولم تكن اللهجة التى نطق بها الجملة .. فقد ظلت نبرات صوته جامدة لا أثر فيها لإنفعال أو شعور .. بل ولا الوجه .. ولا النظرات .. كل هذا إستمر بلا تغيير .. الجمود نفسه .. واللاشعور نفسه .. والثقة نفسها .. إذاً ماذا ؟ .. أخيراً انتبهت .. كانت هذه أول مرة منذ أن التقيا يبدؤها فيه الحديث دون حاجة ملحة .. أول مرة يكشف فيها عن اهتمام شخصى .. لقد كان يراقبها .. وأحس بشعورها . دون أن تلق إنتباها لما تفعل مــدت أناملها إلى أطراف سترته تزيدها ضغطا على جسدها .. وارتسمت على شفتيها ابتسامة رضا ..

لم ترد عليه .. وسرحت بأفكارها . ودت لو كانت الآن فى قمرتها بعيدة عن العالم .. وعنه .. أرادت أن تنفرد بنفسها لتطلق لخيالها العنان .. بعيدا من هاتين العينين النفاذتين اللتين تغوصان فى أعماقها .. نسيت الخطر .. المدافع ، والقذائف والقراصنة .. وتاقت إلى الانفراد بنفسها ..

أحست بأصابعه القوية تقبض على ذراعها تساعدها على الصعود إلى سطح السفينة .. لم تستطع التوقف بعد هذا .. إنطلقت عدوا إلى قمرتها ، وأغلقت الباب ثم وقفت تنظر فى المرآة لاهثة .. فجأة نسيت تعاليم الدير الذى قضت فيه جل حياتها ..

نسيت الكراهية المريرة التي ظنت يوما ما أنها تكنها لهذا الإفريقي .. إذاً فقد رآها .. بحركة سريعة خلعت السترة ، وألقتها بعيدا .. طوحت شعرها المسترسل ، وألقت رأسها إلى الوراء وهى تنظر إلى جسدها فى المرآة .. متحدية ..

* * *

توالت الساعات على القرصان الأسود بطيئـــة كئيبة . غلبته إنفعالاته فبدا قلقا حاد الطبع يلقى أوامره بلهجة شديدة قاسية ، ويصب اللعنات . كان تواقا لأن يرى نهاية خطته ، متلهفا على أن يعيـــد إلى قبضته تلك الثروة الضخمة من البضائع والأشخاص . لقد كتب كل بند من الأسلاب ، وعدد الأسرى ، وتقديره لأثمانهم ، وأضحى كل هذا مجرد حبر على ورق .. إنصرف تفكيره إلى ذلك الرجل الذى تحداه ، وهزمه فى كل خطوة ، فأغرق سفينته . وقتل أكثر من ثلث رجاله ، وحرر أسريه ، وإسترجع البضائع . عن قريب يقع فى قبضته .. وعندئذ ..

راقب رجاله وهم يعملون .. فقد جاءوا الجزيرة وهم مكدودون متعبون .. ومنذ أن وطأت أقدامهم الأرض لم ينالوا أى قسط من الراحة . هاجموا جماعة السفينة التجارية .. وأمضوا حوالى ساعتين فى احتساء الخمر ، واللهو .. ثم راحوا يذرعون الجزيرة جيئة وذهابا . رأوا سفينتهم وهى تغرق .. وقواربهم تحطم ، وزملاءهم يقتلون بالعشرات .. وجاءتهم روايات أخرى عن جان ، وشياطين تختطفهم فزادت من رعبهم وانفعالاتهم .. وبالتالى من إرهاقهم . وهم الآن يعملون تحت أشعة الشمس الحارقة .. يحملون الذخائر من مخزن يبعد أكثر من ألف متر عن مرسى السفينة ، ويقطعون بها أرضا وعرة غير مستوية .

لم يكن معظمهم قد نال أى قسط من النوم فى الليلة السابقة ، وحتى الذين ناموا كان نعاسهم غفوات متقطعة . لم ينم سيمون نفسه مطلقا ، وربما تسبب هذا فى زيادة عصبيته وانفعاله .. ظل يراقب الشمس وهى ترتفع فى كبد السماء ، ويتلقى التقارير من مراقبيه . حوالى الظهر جاءه أحدهما يقول إن السفينة التجارية تتحرك داخلة الخليج لتزداد قربا من الشاطىء ، وليسهل نقـــل الرجال والبضائع . أدخلت

هذه الأخبار السرور إلى قلبه فإن معناها أن أعداءه قد اطمأنوا تماما .. لم يكتشفوا شيئا عن المدافع ، أو السفينة المخبأة .

قرر أن يشاهد الموقف بنفسه ثم يستقر على خطواته التالية . بعد أقل من ساعتين ستكون سفينته جاهزة للإبحار ، وعندئذ ستطبق الكماشة . سار خلف الرجل إلى حيث وقف وزميله يراقبان . رأى أن السفينة التجارية وصلت إلى منتهى ما يسمح لها الغاطس ، وألقت مراسيها . قدر أن المسافة حوالى مائتى متر تزيد قليلا. أطلق ضحكة ساخرة . إنهم وضعوا أنفسهم فى أحسن مكان يمكن أن يسيطر عليه مالارتيك .

أغبياء هؤلاء التجار . كاد أن يحترم قائدهم لما قام به من أعمال فى الفترة الماضية ، لكن يبدو أن هذا لم يكن إلا مجرد حظ حسن . إن الجاهل الغبى قد يساعده الحظ فيتغلب فى مبدأ الأمر ، أما فى النهاية ، فإن الخبرة والذكاء هما اللذان ينتصران لامحالة . أخذ ينظر إلى السفينة من خلال منظاره المعظم . إنها سفينة جميلة ضخمة ، ومع إجراء بعض التعديلات فيها يمكن تحويلها إلى سفينة قتالية من الدرجة الأولى .. أجل يمكنها أن تحمل ثمانين مدفعا ، أو تسعين ، أو حتى مائة .. سيحاول ألا يغرقها . أو يصيبها بأعطاب شديدة .

إنتقل بمنظاره إلى دراسة المكان الذى ترسو فيه . إنه منحرف قليلا نحو شاطىء جانبى .. كان يود لو أنها كانت أقرب إلى منتصف الخليج إذاً لأمكنه أن يحصرها بين نيران سفينته ومدافع مالارتيك .. وبما مازال يستطيع أن يفعل ذلك فإن سفينته صغيرة لاتحتاج إلى غاطس كبير مثل التجارية وهو يعرف هذه الشواطىء جيدا ، وماتحتويه من صخور . أخيراً استقر على أنه رأى ما يكفيه ووضعت أمامه تصرفات أعدائه ، وعلى ضوئها استكمل اللمسات الأخيرة لخطته .

أرسل أحـــد الرجلين إلى مالارتيك بتعليماته الأخيرة . عليه ألا يتصرف أو أن يطلق قذيفة إلا إذا بدأت سفينة القراصنة فى القتال . حتى عندئذ لتكن قذائفه الأولى للانذار فقط وإعلام التجارية بوجوده إذا خطر لمن فيها الاشتباك

فى قتال القراصنة ، أما إذا رأى أنهم سلموا فلا داعى حتى لظهوره . أخذ معه المراقب الآخر وهو يعود فلم تعد هنالك حاجة للمراقبة . لقد علم كل ما يريد أن يعلم ، وأضحى واثقا أن التجارية أضحت فى قبضة يده .

سار على مهل فى طريق عودته .. إلى حيث المرسى الخفى لسفينته . كان يراجع الموقف بدقة، ويوازن بين ماوضعه من خطة ومايمكن أن يوجد من خطط بديلة. رأى أن قائد التجارية قد تصرف تصرفات طبيعية ، تماما كما توقع ، لكن هنالك أشياء صغيرة لم تتفق تماما مع سائر المظاهر . فمثلا لاحظ أنهم يشحنون البضائع قبل الأشخاص ، وكان المفروض هو العكس ، فإذا هاجمهم القرصان فى البر كما يتوقعون فإن من اليسير ترك أية كمية من البضائع ، وليس كذلك الأشخاص. وهناك التأنى الذى كانوا يعملون به . لم يبد عليهم أنهم كانوا على عجل . صحيح أن العمل إستمر بهمة ونشاط طوال الساعات الأولى من النهار لكن يبدو أنه توقف وقت الظهيرة حينما إشتدت الحرارة .. كأنهم قبعوا فى الظل يتناولون الطعام .

هنالك أيضا مسألة الاقتراب من أحد لسانى الخليج دون الآخر . لماذا لم يتوسطوا الخليج ؟ ألم يكن هذا أيسر لهم ، وأبعد عن التيارات المائية إلى جوار الصخور ؟ ثم هنالك تلك الملاحظة الغريبة التى سجلها عقله . لم ير وهو واقف يراقب ، أية مدافع على الجانب المواجه له وهو الجانب إلى جوار اللسان القريب. وليس هذا فحسب بل لم يكن هنالك مكان لتخرج منه فوهات المدافع كأنما لم يعتن بانوها أن يسلحوها ، وهو أمر لا يمكن تصديقه فى سفينة بمثل هذه الضخامة ، كما أنها هى التى ضربت منذ ساعات سفينته ، نفحة الحياة ، وأغرقتها أين إذاً مدافعها؟.. هل وضعوها جميعا على جانب واحد ؟ بناء غريب هذا للسفن ، يخل بتوازنها ، ولم يصادفه طول حياته . على أى الأحوال فإنه بناء سوف يساعده فى تنفيذ خطتـــــه .

وصل إلى مرساه ووجد أن ضباطه ، وبحارته قد قاموا بإتمام شحن الذخائر ، وبعض المؤن الخفيفة ، إذ قدر أنه ربما تحدث مطاردة قصيرة ، وأراد أن يحسب

لها حسابا كعادته دائماً . كان الوقت قد جاوز الظهيرة بساعتين ، فقدر أنه مازال لديه متسع لأن يلقى نظرة أخيرة على الاستعدادات . راجع الصوارى والشراعات والحبال . رأى أن كل شيء فى مكانه . أجرى تفتيشا دقيقا على المدافع ليتأكد من أنها فى أحسن حال ، وأنها قد نظفت وحشيت ، ووضعت الذخيرة فى متناول رجاله . تأكد من الشباك التى إعتزم إستعمالها لينتقل رجاله عليها حينما يهاجمون المركب وليمنعوا أى شخص من سفينة أخرى من مهاجمتهم .

حينما تأكد أن كل شيء كما يجب أصدر أوامره بالاقلاع ، ولم تمض دقائق بعد هذا إلا تحركت السفينة متهادية على صفحة المياه . كان الرجال منهمكين . لكن ما إن إستنشقوا عبير المحيط حتى كأن الحياة قد دبت فيهم ، وأضحوا شعلة من النشاط والحيوية . سرت فى أجسادهم نفحة جديدة من الحياة ، فأطلقوا عقائرهم بالغناء والضحك ، والصخب . شيء لم يفعلوه منذ بدأت المصائب تتالى عليهم وهم فى الجزيرة ؛ منذ قرابة عشرين ساعة مضت .

أبحرت السفينة أولا متجهة إلى المحيط ثم بدأت دورتها حول الجزيرة لتصل إلى الخليج حيث ترسو التجارية . لم تمض نصف ساعة إلا وكانت عند المدخل ، وشاهد الجميع السفينة التجارية رابضة مكانها لاتتحرك وهى على بعد لايزيد على نصف ميل منهم . فرك القرصان الأسود يديه مسرورا ، لقد تمت خطته أو تكاد ، ولاتوجد قوة فى الأرض يمكنها أن تنقذ أعداءه الآن .

تناول منظاره المكبر وراح ينظر من خلاله إلى السفينة . رأى أن كل شيء هادىء لاينم عما سوف يأتى . بدا كأن من بالسفينة لم يروهم .. لا .. بل إن بعضا ممن كان بها تجمع عند المؤخرة يرقبهم وهم يفدون . دارت عيناه تبحثان عن حياة أخرى فوقها .. ولم يجد .. انتقل بمنظاره يبحث فى مياه الخليج . رأى ثلاثة قوارب فى المياه يتجه إحداها نحو السفينة ، والآخران نحو الشاطىء . كان كل شيء طبيعيا . لم يبد على من بالسفينة ، أو القوارب أنهم جزعوا لرؤياه . حول منظاره نحو الشاطىء فبدا كمن أصابه الذهول أولا ثم إنفجر ضاحكا .

هناك تجمع عدد من النساء والرجال والأطفال يلوحون بأيديهم مهللين رحبين. وفهم ماذا حدث . إن السفينة التى يتولى قيادتها كانت أصلا تجارية إسبانية ؛ ولم يعتن بأن يغير إسمها ، وكل مافعله هو إضافة أماكن للمدافع ليخولها إلى قتالية وفي عجلته الآن ليلحق بأعدائه فى الخليج نسى أن يغير الأعلام فبقيت على مظهرها. لقد تمت الخدعة أحسن ممارتبها ولا بد أنهم ظنوا أن سفينة أسبانية دخلت الخليج .

أصدر أوامره بسرعة . على الجميع أن يخفوا الأسلحة ، ويغطوا المدافع .. حتى الذخيرة يجب أن يوضع عليها مايخفيها عن الأعين .. لأنه لن يقاتل .. سوف يحتفظون بمظهرهم الوادع حتى يلتصقوا بالتجارية ، ثم يهاجمون الشرذمة القليلة التى رآها متجمعة عند المؤخرة ترقبهم . لكنه لم يدع الحذر كلية .. سوف يأتيهم من ناحية الشاطىء .. حيث كان موقنا أنه لاتوجد مدافع .. حتى لو اكتشفوا شخصيتهم فسوف يكون الوقت قد فات .

انصرف عن مراقبة الشاطىء ومن فيه ، وإتجه إلى الرجال الذين تجمعوا عند المؤخرة يرقبون قدومهم . لم يكونوا يزيدون على العشرين ؛ بل أنه لاحظ أن بعضهم رأى القارب يدنو من السفينة فذهب إلى الناحية الأخرى ليساعد فى شحن البضائع .. كان المنظر طبيعيا لاثلمة فيه . تفرس القرصان الأسود من خلال منظاره فى كل جزء باحثاً عما يريب ، ولم ير شيئاً .. هنأ نفسه مقدما على نجاح خطته .. بل أنه بدأ ينظر إلى السفينة بعين حالمة ، ويتصور ماسوف يجريه فيها من تعديلات لتتوام مع أغراضه .

إقترب من التجارية بسرعة ، وأصدر أوامره الأخيرة . فليقف إلى جواره بعض الأشخاص ، عشرة لايزيدون . ولتنصرف فئة من الرجال إلى أعمالهم العادية حتى تظهر السفينة لآخر لحظة بمظهرها الإعتيادى ، وليختفى أربعون رجلا وراء الحواجز بحيث لايمكن رؤيتهم .. أمرهم أن يتكالبوا ليلتصقوا بجوار الحاجز لايتحرك منهم أحد إلا حينما يسمعون صيحته القتالية . قال لضابطه الأول أن يقترب من السفينة التجارية ويرسو إلى جوارها بحيث لاتزيد المسافة على خمسة أمتار ..

مسافة لاتثير الشكوك ، وتكون من الضيق بحيث يمكن للرجال أن يجتازوها بسهولة متأرجحين على الحبال .. عمل طالما أدوه وأتقنوه .

تناقصت المسافة بين السفينتين بسرعة حتى أضحت أقل من مائة متر ، وبدأ البحارة يتخذون أهبتهم لكى ترسو سفينتهم . تميزت الأشخاص دون حاجة إلى منظار .. وبدأت الوجوه تتميز . جاهد القرصان الأسود أن يخفى وجهه وراء طرف قبعته . وأمر رجاله أن يحتذوا حذوه .. لاحظ أن من كان يراقب تقدمه على التجارية لايزيد عددهم على خمسة رجال ، وأن الباقين منصرفون إلى القارب الذى كان قد وصل ..

كان كل شىء يسير وفق خطته ، وقدر أن الإستيلاء على السفينة بمن فيها لن يستغرق أكثر من خمس دقائق .. ربما عشرة .. بعد ذلك تصبح السفينة فى قبضته. أما من بالشاطىء فلاداعى للعجلة فى أمرهم إذ لن يستطيعوا عمل شىء ..

صارت مقدمة سفينته عندمؤخرة الأخرى ، وأبطأت وهى تطفو بمحاذاتها . الآن ؟ .. لا .. سوف ينتظر دقيقة أو اثنتين حتى تقف سفينته تماما .. أو تكاد .. ثم ..

دوت فى أذنيه أصوات يعرفها تماما .. إثنتا عشر مدفعا أطلقت نيرانها مرة واحدة . تطايرت قطع أخشاب سفينته فى الهواء مختلطة بأشلاء القتلى . وإرتفع صراخ أكثر من أربعين شخصا كانوا يختفون متكالبين إلى جواره . أصابت إحدى القذائف الذخيرة المتجمعة حول أحد المدافع فأشعلتها ، وانفجرت بدورها تحصد الرجال ، وتدمر السفينة . شعر فجأة بآلام حادة فى صدره فرفع يديه محاولا إيقاف تدفق الدماء .. لم يفكر فى الموت الذى يمد له يده .. صمت أذناه عن سماع الصرخات ، والتأوهات ، والأنين .. عميت عيناه عن مناظر القتلى ، والجرحى من رجاله بالعشرات .. لم يهتم بالرجال يلقون بأنفسهم فى المياه لتلتقفهم أفواه شرهة نهمه .. أفواه الحيتان ..

من الغريب أنه لم يفكر فى كل هذا . ولم يره ، ولم يسمعه .. إنحصر عقله فى

ذلك الذى قلب خططه رأسا على عقب .. الذى خدعه .. وقتله .. وعشرات من رجاله .. إنه سوف يموت هو الآخر .. فى لحظات .. أو ثوان .. هتف صوت لايكاد أن يسمع .. مالارتيك .. ! اضرب ضربتك .. اضرب .. لابد أنك ترى الآن ماحدث .. مالارتيك .. إضرب كما أمرتك .. أسمعت أذناه راجية أصوات المدافع تأتى من الجزيرة تغرق سفينة أعدائه .. ولم يأت الصوت .. مالارتيك .. لماذا لاتضرب ؟ .. لابد أنك رأيت .. وسمعت .. إضرب .. دعنى أشعر بلذة الانتصار .. قبل أن أموت .. دعنى آخذ عدوى معى .. إلى الجحيم ..

لكن مالارتيك لم يضرب .. لأنه لم يسمع .. ولم ير .. كان يرقد على ظهره وقد السمت حدقتاه .. تنظران إلى السماء .. لاتريان . كان جثة هامدة وسط جثث رفاقه .. فى مكانهم وقف ديوجو ، وثلة من صحابه ينظرون .. ويسمعون .. ويهتفـــون ..

●●●

— كيف عرفت أن السفينة كانت سفينة القرصان الأسود ؟

— لأننى توقعت ذلك ..

نظروا إليه مشدوهين .. كانوا جلوسا حول المائدة يتسامرون .. إيوفيميا ، والربان ، وضابطه الأول وجيرونيمو .. وتساءل الربان .

— توقعت .. ! كيف ؟

— هل تذكر محادثتنا الأخيرة ؟ لقد ذكرت أن قرصانا مثل القرصان الأسود لابد أن يكون قد حصن جزيرته بوضع مدافع تتحكم فى الخلجان .. لكن هذا لم يكن يكفى بمفرده إذ بحسبنا أن ننتظر حتى يحل المساء ونتسلل من الخليج ، والأنوار مطفأة بحيث يستحيل على من الشاطىء رؤيتنا خاصة والليلة ظلماء .. إذاً ما الذى يدعوه إلى تركنا دون هجوم ؟ كيف يتصور أن يحتجزنا فى الجزيرة نهارا لنتسلل ليلا ؟ ما الفائدة التى تعود عليه من ذلك ؟ لابد أن لديه وسيلة يستطيع بها أن يهاجمنا قبل أن يجن المساء . ولست أتصور وسيلة أخرى سوى وجود سفينة

تحت إمرته مخفاة فى مكان ما بالجزيرة . كان هذا هو الإستنتاج المنطقى على أى الأحوال .. وقد صح ما توقعته .. ومنذ اللحظة التى ظهرت فيها السفينة الاسبانية علمت أنها سفينته ، وأنه ما تركها تحمل إسما اسبانيا واعلاما اسبانيا الا للتمويه ، فسايرته فى خطته لتأكدى من أن جشعه ورغبته فى الاستيلاء على سفينتنا سليمة سوف يدفعه لأن يستبعد اطلاق النيران علينا حتى آخر لحظة ، وفقط إذا رأى ضرورة لذلك .

— لماذا إذا لم تخبرنا فى حينه ؟

— لأننى لو أخبرتكم لأخبرتم الجميع ولما ساعدونى فى إكمال الخدعة بمظاهر الترحيب التى أبدوها على الشاطئ .. كانت مظاهر طبيعية حقيقية لايدانيها أى تمثيل . وقد ساعدت كثيرا على إتمام خديعة القرصان فظن أن حيلته قد إنطوت علينا تماما .. هكذا ترون أن الأمر أبسط من أن يثير الدهشة .

الفصل التاسع عشر

عودة المتشح بالسواد

خلال يوم واحد أبحرت السفينة . عم الفرح والسرور كل من بها ، وأضحى جيرونيمو أقرب شخصية إلى القلوب . أحس الركاب بمدى ماهم مدينون له به فراحوا يحاولون كسب مودته ورضائه بشتى الطرق . أما البحارة ، البرتغاليون منهم والهنود ، والأفارقة على السواء ، فقد أضحى بالنسبة لهم أسطوريا . تنافسوا فى خدمته وتلبية رغباته . أضحت حجرته وديوجو أنظف الحجرات ، وفراشه أجمل الأسرة ، وطعامه أفخر الطعام . لم تخل الحجرة لحظة من المياه العذبة ، ومختلف الفواكه والأنبذة ، حتى الربان عرض عليه ان يبدل حجرته بحجرة الضابط الاول الذى أراد ان يتنازل عنها له عن طيب خاطر لولا أنه أبى .

أحس بالإحراج لكثرة ما يغمرونه من خدمات ، ومن النظرات المتطلعة إلى رضائه ، وابتسامات الترحيب التى يقابل بها حيثما تحرك . ذكر الربان أنه كتب تقريره عن الوقائع التى حدثت ، ودوره فيها مقررا أنه له الحق فى تقاضى مكافأة إنقاذ السفينة ، والبضائع والركاب . وأنكر جيرونيمو هذا الحق قائلا إن كل من اشترك فى التنفيذ له نصيب ، ثم صرف الموضوع برمته على أساس أنه لم يفعل سوى ما كان غيره يفعله لو واتته الفرصة .

أظهرت ناتاليا غرامها به بشتى الوسائل غير محاولة أن تستتر . لم تكن تكاد أن تحيد نظراتها عنه . إذا ما سار تأبطت ذراعه ، وهى تسير إلى جواره فخورة . وإذا جلس سارعت بترتيب الوسائد لراحته ، وإذا ماطعم وضعت الخمور أمامه وأشهى ما على المائدة . تقبل منها ما تفعل بهدوئه المعتاد راجيا فى نفسه ان تخف حدة اهتمامها به مع مرور الأيام . لكن هذا لم يحدث . يبدو أن الهدوء

الذى قابلها به زاد غرامها إشتعالا فكرست نفسها له . حتى وهو يعمل فى تنظيف المدافع ، أو التفتيش على الذخيرة ، كانت تقف عن بعد تراقبه .

نسيت صديقتها فلم تعد ترافقها إلا فى أوقات نادرة حينما يكون جيرونيمو بعيدا أو مختفيا . فإذا ما ظهر تركتها فى لحظات دون أن تعتذر ، فإذا ما إنفردتا مساء فى حجرة نومهما أمضت ساعات لا تمل فيها الحديث عنه ، وعن غرامها به ، وغرامه بها . صورت لها عواطفها المتأججة أن كل حركة يأتيها فيها إظهار لشعوره بالحب . حتى هدوؤه الدائم كان فى نظرها إخفاء لشعوره لكى يحافظ على سمعتها . إعتبرت أن عدم افصاحه عن إهتمامه مجرد حياء أملته عليه طبيعته العربية .

كانت ايوفيميا تستمع إليها كل ليلة ، وكل صباح ، وأحاسيس شتى تعتمل فى نفسها . بدأ استماعها بلهفة ، وفضول ثم تحول إلى أدب ومجاملة ، ومشاركة ، ثم ضجر وسأم ثم .. ودت لو أن صاحبتها لم تتكلم .. ودت لو أنها تنفرد بنفسها لاتسمع صوت صديقتها . تحايلت بالذهاب المبكر إلى الفراش ، والتظاهر بالنوم حينما تدخل ، تعمدت أن تتأخر فى الفراش حتى تترك الفتاة الأخرى الحجرة .

طالما رأتهما سويا فتباعدت . كانت تختلس النظرات رغما عنها لترى صديقتها متأبطة ذراع الرجل الأسمر الفارع وقد تعلقت عيناها بوجهه لا تبارحه . طالما شعرت بغصة كلما رأتهما وتركت مكانها هاربة إلى حيث تختلى بنفسها تمسح عبرات لا تعرف كيف تجمعت .

ذات مساء كانت تتريض مع ديوجو ، ولورنسو على السطح . كان فى الجو برودة ، وارتفعت الأمواج قليلا ترتطم بجدار السفينة فى أصوات رتيبه متلاحقة . لم يكن القمر قد إكتمل لكن ضوءه كان كافيا لأن ترى عن بعد . رأتهما يقفان عند القلعة منفردين .. رأته يمد يده لتحتضن صديقتها ، ثم شاهدتها تطوق عنقه بذراعيها ، وأنطبقت شفاهما . لم تسمع ما يقوله رفيقاها ، ولم تستطع أن تحول نظرها عنهما حتى تراخت ذراع الرجل الأسمر وهبطت ذراعا ناتاليا . رأتها تتركه حيث كانا يقفان ثم تندفع جريا إلى الداخل .

يبدو أن رفيقيها لم يشاهدا ما رأته ، وإن كانا لاحظا شيئا فإنهما تظاهرا بعدم الملاحقة . استمرا فى حديثهما حتى وصل الجميع إلى حيث كان الرجل مايزال واقفا يتطلع إلى صفحة المياه . بلهجته المرحة تكلم ديوجو .

— جيرونيمو .. أيها المسكين .. لقد أنساك الحب أصدقاءك ، وها هو ينسيك نفسك .

إلتفت الرجل الأسمر كمن تنبه من تفكير عميق ، وحينما رآهم إرتسمت على شفتيه إبتسامة باهتة وجاء صوته جامدا لا حياة فيه .

— أى حب ياصديقى ؟

— لا داعى للانكار .. ان لنا عيونا ترى .

— يبدو إذاً أنها ترى أحلاما .

يا لجرأة الرجل ! .. ينكر بذلك الصوت الهادئ . والوجه الجامد وكأن الفتاة لم تكن بين أحضانه منذ دقائق .. كلما ظنت أنها اكتشفت فيه حسنة ، تكشف لها الأيام عن نقائص تزيدها مقتا له واحتقارا . دون أن تعى ، خرجت الكلمات من فمها كالسياط ..

— يلوح لى أنك تحب أن تأخذ ، دون أن تعطى .

تحول بوجهه إليها وخيل لها أن فى عينيه نظرة حزينة وهما تتركزان عليها . وجاءها الصوت الجامد غير المكترث .

— إذا كان هذا ماتعتقدينه .. .

فى اللحظة التالية كان يوجه الحديث إلى لورنسو .

— هل لك من دور من الشطرنج ؟

لكن ديوجو هو الذى أجاب .

— سألاعبك أنا .. وسوف أهزمك .

تتابعت الأيام متشابهة لا جديد فيها .. الا أن ايوفيميا لاحظت أن تغيرا طرأ على صديقتها منذ تلك الأيام التى رأتها فيها بين أحضان الرجل الأسمر . لم تعد تتكلم

عنه كلما كانت تفعل .. وكثيرا ما سمعتها صديقتها وهى تنشج فى بكائها مساء حينما تظن أنها نامت .. حاولت أن تستفسر منها عن سبب وجومها المستمر فلم تحظ بطائل وعادت تدريجيا إلى مرافقتها ، وابتعدتا فترة عن الرجال الثلاثة ثم ابتدأت الطبيعة تأخذ مجراها العادى . شيئا فشيئا رجعوا إلى ما كانوا عليه فى مبدأ الرحلة ، وأولت ناتاليا ديوجو إهتمامها ، وإن لاحظت ايوفيميا أن صديقتها كثيرا ما خالست النظرات حينما تظن أن أحدا لا يراقبها .

خيل إليها ان صديقتها تباعدت عنها ولم تعد تكن لها من الحب ما كانت تكنه فعلا . أضحت أكثر إنطواء على نفسها حينما تنفردان فى القمرة . وضبطتها أكثر من مرة وهى تتفرس فيها خفية ، وكأنما تريد أن تستكشف شيئا فاتها ، وتعجبت فيما يدفعها إلى هذا التصرف الغريب . لم تكن تعلم أنهما ، دون أن تشعرا، كانتا تتحولان من فتاتين خرجتا منذ أشهر من الدير إلى إمرأتين تتنافسان على الفوز برجل . كان تفكيرها دائما ينتقل تلقائيا من ناتاليا إلى جيرونيمو . تناست اللحظات التى رأتهما فيها معا ، طمست عواطفها عقلها ، فتوارت فى الذاكرة كل الحوادث التى تسىء إلى قلبها ومع هذا ظلت لا تتصور أنها يمكن أن تهواه .

كانت إذا ما فكرت فيه ، وكثيرا ما فعلت ، ذكرت ما تتصوره فيه من نقائص. تذكرت تقبله للاهانات من الدون بريرا ، وإفتئاته عليها ، وأخيها بأنهما يستدرجان ديوجو للاستيلاء على أمواله .. ذكرت تعديه على أخيها ، وتركه جثة القرصان على صدرها .. لم تكن منطقية فى إتهاماتها ، ومع هذا فلم تكن تشعر بتعسفها .. على أن أكثر ما كان يحز فيها أنه ترك دينه ، وتنكر لقومه إبتغاء نيل الحظوه عند أعدائهم .. هذا المرتد الذى لا يؤمن جانبه . لكنها كانت تنسى كل هذا ، وربما أكثر ، بمجرد أن تراه . كانت إذا ما فكرت فيه ارتفعت كراهيتها له فإذا ما التقت به تبخرت الكراهية فى ثوان معدودات . طالما اقنعت نفسها أنها لا تريد أن تراه ، ثم تسعى ، مضطرة كما تدعى ، إلى حيث يكون .

ويمضى نهار إثر آخر ، وليل يتبعه ليل . وتتزايد الساعات التى تراه فيها ،

تجالسه ، وتحادثه . لم يكن وجهه الجامد يتغير ، ولا تبدلت نظراته الثابتة ، ولا صوته الهادئ . لم تره غاضبا إلا تلك المرة التي سألها فيها عن أخيها ، وارتعبت إذ تصورت أنه سيهبط على جسدها بالعصى . وتلاعبت على شفتيها ابتسامة . ترى ماذا كان يحدث لو أنه فعل ؟

* * *

وصلت السفينة إلى سانت هيلانه عند خط عرض ٤٠° جنوبا على الشاطئ الأفريقي في الرابع من نوفمبر وهنالك رأى الركاب السفن الحربيـــة الثلاث وأربع سفن تجارية . علموا أن القافلة فقدت إحدى السفن وأنهم لا يدرون مصيرها . قوبلو بالترحاب فقد كان المعتقد أنهم أيضا قد فقدوا إلى الأبد ، غرقوا في المحيط ، أو أسرهم القراصنة .

مكثوا في الخليج ثلاثة أيام وأبحروا في السابع من نوفمبر ينوون الإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح . في هذه الأيام الثلاثة حدث تحول تام في حياة ايوفيميا . كانوا قد ظلوا في المحيط أربعة أشهر تقريبا منها ثلاثة أشهر بين الجزيرة والمياه . دون شعور منها كانت قريبة من جيرونيمو ، دائما تراه أو تعرف مكانه ، وتتوقع لقاءه في كل لحظة ، لهذا لم يكن ثمة ما يدعو إلى التفكير في الابتعاد عنه . في هذه الأيام الثلاثة لم يحضر إلى السفينة . استأذن من الربان أن يقضيها على اليابسة ليقوم برحلة قصيرة إلى داخل البلاد يستكشفها ، ورحب ديوجو بالفكرة فصاحبه.

راقبتهما إيوفيميا والقارب يحملهما إلى الشاطئ . ولم تعلم أنه سوف يتغيب لثلاثة أيام . داخلها إحساس مفاجئ وهي ترقب القارب يبتعد بأن السفينة أضحت فجأة مكانا موحشا ، وظلت تنظر إلى الشاطئ حتى بعد أن عاد القارب خاليا منه . أمضت الجزء الأول من النهار على سطح السفينة تهرع بين الحين والآخر إلى الحاجز ليترى بصرها ، إلى الشاطئ البعيد ، يقفز قلبها وهي ترى قاربا يدنو ، ثم يسقط حينما تعلم أنه يحمل سواه .

تناولت طعام الغذاء مع أخيها وناتاليا . لم تشعر بشهية وأحست كأنما المائدة

خالية وسألت أخاها بلهجة عابرة عن ديوجو ، وكأنها لم تره يرتحل مع صاحبه ؟ وجاءها الرد كصفعة غير متوقعة . لقد ارتحل مع جيرونيمو ولن يعود إلا قبيل إقلاع السفينة ، إنتابتها خيبـــة أمل مريرة ، ولم تدر لماذا أحست بأن الرجل الأسمر قد خذلها ، كأنما كانت تتوقع منه ألا يهجرها هذه المدة الطويلة .

دفعت صحاف الطعام وقامت بعصبية لم تستطع أن تخفيها ، وهرعت إلى قمرتها تترك لدموعها العنان . أمضت اليوم وجزءا من الليل حائرة تتردد بين القمرة ، والسطح ترسل بصرها إلى الشاطىء متمنية أن يعود يـكذب خيبة الرجاء التى تقبض على قلبها . رفضت العشاء ، حينما حل موعد النوم جافى جنباها المضجع فظلت مسهدة إلى قبيل الصباح نامت مجهدة

قضت اليومين التاليين ساهمة واجمة ، لاتـكاد أن تطعم أو ترد خطابا . كانت كل ساعة تمضى تزيدها سخطا على الرجل الأسمر . بلا جريرة جناها وزر ماتشعر به من تعاسة ، وانتحلت لنفسها المعاذير عن هذا الغبن البين . أطلت عليها شمس اليوم الثالث لتراها واقفة إلى الحاجز قلقة تسائل الشاطىء البعيد أن يفصح عن سر الغائب . تنابتها أحاسيس شتى تقاذف قلبها ، تطوحه بين الرجاء واليأس . هل يمكن أن تقلع السفينة دونه ؟ ماذا لو كان قد استقل سفينة أخرى ؟

سألت أول بحار رآته عن موعد الاقلاع فأخبرها أنه الرابعة مساء . لم تـكف إلا حينما كرر لها ثالث الإجابة نفسها . تناولت لقيمات فى الإفطار وهرعت عائدة إلى الحاجز ، وفى الساعات التالية ترددت أكثر من مرة بينه وبين قمرتها . تذهب إلى القمرة تتطلع إلى نفسها فى المرآة ، وتصلح من هندامها ، وتمشط شعرها لتعود على عجل إلى الحاجز . رأت قوارب المؤن تحمل الفواكه البرية ، والمياه كآخر مايحمل إلى السفينة . راقبت وصول كل قارب والأمل يلتمش فى صدرها ، ثم تتملـكها خيبة الأمل حينما لاتراه بين الركاب .

تزايد قلقها مع اقتراب ساعة الإقلاع ، ووجدت نفسها تتجه إلى الربان

تتأكد من الموعد ، ولما أكده سألته إن كانت بعض القوارب التي تحمل المؤن لم تصل بعد فأجاب بالإيجاب . تركته بهدوء إلى الحاجز وقد تحول قلقها إلى جزع ، وهي تود لو سألته إن كان جيرونيمو سيستقل سفينة أخرى ، ولم تواتها الجرأة . استمرت تراقب القوارب وهي ترفع رأسها بين الحين والآخر نحو الشمس تقدر مسارها . شاهدت بهلع إحدى سفن القافلة القريبة تتحرك بعد أن نشرت شراعاتها ، ثم التفتت وراءها لتتبين أن البحارة منهمكون في نشر شراعات السفينة .

ماذا ؟ هل كان القارب الذي أتى منذ دقائق هو الأخير ؟ أين إذاً .. ؟ لم تدر ماذا تفعل ولا إلى أين تلجأ . صادفت الضابط الأول فسألته إن كانت ثمة قوارب أخرى لم تعد من الشاطىء ، وأجابها بالنفي . سقط قلبها بين ضلوعها . إذاً فجيرونيمو استقل سفينة أخرى .. أم هل أصابه مكروه في تلك الأرض المجهولة ؟ .. أحست بيد تقبض على قلبها بشدة . كان الخاطر جديداً عليها ولم تكن تتصوره ، ومع هذا فلم يكن بعيداً عن التحقق . حاولت أن تستبعد أفكارها لكنها عاودتها بشدة . وقفت تتلفت حولها كحيوان حبيس لا يجد له مخرجاً ثم اندفعت إلى أخيها إذ رأته قادماً نحوها .. نسيت تظاهرها بعدم الاهتمام بجيرونيمو وسألته بلهفة جمدت حاجبيه يرتفعان بدهشة .

— هل رأيت جيرونيمو أو سمعت شيئاً عنه ؟ إنني لم أره يعود بعد ذهابه إلى الشاطىء .. هل تعلم شيئاً ؟

— لماذا تقصدين ديوجو ؟

تنبهت إلى خطئها لكنها لم تعد تبالي . كانت تريد أن تعرف ، وإلا فإن رأسها سوف ينفجر .

— ديوجو وجيرونيمو إذاً .. هل رأيتهما ؟

— لا .. لكنني أحسب أنهما عادا .

— أين هو إذاً ؟

— تعنين هما ؟ !

— هو .. هما .. ما شئت . أين هما ؟

— فى قمرتهما .. لقد هجم على ديوجو وحش فلاه أصابه فى كتفه فحمله جيرونيمو البارحة قبيل الفجر وهو يعالج الآن .. ومكث معه فيما أعتقد .

أحست كأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهلها ، ولم تستطع أن تكتم الإحساس بالراحة فانفجرت باكية ، واهتز جسدها كله انفعالا .

— شكراً للرب .. إنه بخير ..

* * *

وساروا إلى ممبسة فى السادس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٢٩ . لم تكن الرحلة مريحة . أبحروا دون السفينة التجارية التى اعتبرت مفقودة . وحاولوا عدة مرات الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح فلم يتمكنوا إذ صادفتهم رياح عاصفة اضطرتهم إلى الالتجاء إلى الشاطئ عدة مرات . أخيرا أفلحوا فلم يتوقفوا حتى وصلوا إلى الناتال عند مصب نهر زمبيزى حيث ألقوا المراسى لعدة أيام ومنه أبحروا إلى موزمبيق ليستقروا أياما أخرى أعادوا فيها تموين السفن كما أعطوا البحارة والركاب بعض الوقت للراحة .

دخلوا خليج ممبسة فى الصباح ، وتجمع ركاب كل سفينة يشاهدون الحصن العظيم يطل عليهم من الصخور العالية . كانت هذه هى نهاية الرحلة بالنسبة لناتاليا فجمعت حاجياتها استعدادا للنزول إلى الشاطىء . دعت أصحابها للإقامة معها حيث تقرر أن تبقى السفينة راسية فى الميناء حوالى أسبوع لإجراء بعض الإصلاحات والقلفطة ، وقبلت الفتاة بعد تردد يسير كما قبل أخوها ، واعتذر كل من الشابين الآخرين ، وإن وعداها بالزيارة خلال الأيام القليلة المقبلة .

حينما وصل القارب ليقلها وصاحبيها ودعت ديوجو بحرارة ثم التفتت إلى جيرونيمو قائلة وهى تغالب الدموع .

— لقد كانت رحلة ممتعة .. وددت لو أنها لم تنته .

ابتسم الشاب الأسمر ابتسامته الهادئة .

— إن مصير الأحياء إلى لقاء .

رأتها ايوفيميا تدير وجهها ، وتتحرك نحو سلالم السفينة وكأنها دمية لا حياة فيها . لاحظت أنها تنتزع قدميها من الأرض فى كل خطوة تخطوها . وأحست أنها لو سايرت شعورها لألقت بنفسها فى أحضان الشاب الأسمر . لم تكن رأت منها طوال الرحلة ما يشير إلى غرامها به بعد تلك الليلة التى فاجأتهما يتعانقان ، وظنت أن صاحبتها قد سلت هواها ، خاصة وأنها وزعت مداعباتها بين لورنسو وديوجو ، لكن يبدو أنها مخطئة إذ أن العينين اللتين رأتهما كانت تسيل منهما العبرات .

ما أن إرتحلت ناتاليا وصاحبيها حتى إلتفت جيرونيمو إلى صديقه قائلا .

— أعتقد أننى سوف أتركك ياديوجو لبضعة أيام .

سأل صاحبه دهشا .

— لماذا ؟ .. أين سوف تذهب ؟

— يبدو أنك نسيت أننى من أهل هذه البلدة ، وأن نائب حاكمها هو الأمير سالم عمى وأظن أنه قد آن الأوان لأن أعيد تعرفى به .

بدا القلق على وجه ديوجو .

— هل تظن أنه سيلقاك مرحبا ؟ .. أليس فى ذهابك إلى الحى الأفريقى بمفردك خطر عليك ؟

— لا .. ليس هنالك أى خطر .. إن سالم يحكم البلدة نائبا عن السلطان محمد سلطان ما لندى ، ولا شك أنه سيسهر على حمايتى .

— لكن هل نسيت ياجيرونيمو أنك الآن ضابط فى الجيش البرتغالى ؟

— هذا مما يزيدني إطمئنانا .. وعلى أى الأحوال فلست طريد عدالة حتى لا أعود إلى بلدتى فى أى وقت شئت .. ولست أرى أحسن من الآن لبداية التجربة .

— إذا خذنى معك على الأقل .

هز جيرونيمو رأسه نفيا .

— كلا يا صديقى .. إن هذا شىء يجب أن أقوم به بمفردى .. إن وجودك لن يحل شيئا وربما زاد الأمر تعقيدا .

فكر ديوجو لحظة . رأى مافى قول صديقه من حكمة فوافقه على مضض .

— لعلك على حق .. لكننى سوف اذكر لكل شخص أنك ذهبت لزيارة عمك ، والبقاء فى ضيافته بضعة أيام ، وقد يكون فى هذا ما يرهبه ، ويضطره إلى المحافظة على حياتك .

* * *

جلس الأمير سالم فى حجرة الإستقبال يناقش ابنة أحمد . كان الأمير قد أتى لتوه من زيارته الرسمية إلى قائد الحصن ، الكابتن بدرو ليتاودى جامبوا ، حيث إلتقى بقائد السفن الحربية الثلاث التى رافقت القافلة التجارية وتلقى منهما التعليمات عن المؤن والعمال ثم عاد يلقى أوامره على أتباعه لتنفيذها . ناقشة نجله بحده مقررا أنه لا يقبل أن يقدم والده المساعدة للكفرة المغتصبين . وراح والده يهدىء من ثائرته محتجا بوجوب مصانعتهم إذ يملكون القوة ، وأن الأفارقة والعرب لا قبل لهم بمناهضتهم .

إحتدمت المناقشة بين الاثنين ، وارتفع صوتاهما ، وكاد الأمير أن يستعمل سلطته ويطرد ابنه من حضرته حينما دخل الحجرة شاب طويل القامة يرتدى بزة ضابط برتغالى . هب أحمد من مجلسه حين رآه ، وارتفعت يده إلى مقبض حسامه ، واكتسى وجهه حمرة قانية من الغضب ، ولولا أن والده أسرع واقفا ووضع يده

على ذراعه يهدئه لما كان هنالك شك فى أنه سوف يقدم على عمل جنونى ، وحتى مع وجود قبضة اليد على ذراعه كان جسده جميعا ينتفض ، وسمعه والده وهو يصر بأسنانه قائلا .

— أنت .. أيها الكلب ..

بصوت هادئ حاول الوالد أن يغطى على صرير نجله .

— مرحبا بك أيها الضابط .. لعلك جئت تشرفنا لتراقب تنفيذنا لتعليماتكم .. تأكد أننا حريصون جدا على إرضائكم .

ظل الضابط واقفا وهو يبتسم . ولم يستطع أحمد أن يتمالك نفسه فانفجر .

— كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا ؟ كيف تدخل دون إستئذان ؟ كيف ..

قاطعه والده بسرعة قبل أن يمعن في إحتداده وقال بلهجة ملؤها الإعتذار .

— أرجوكم ألا تلتفتوا إليه .. إنه ليس فى صحة طيبة اليوم .. إذهب ياأحمد وارسل لنا أحد العبيد ببعض الشراب .. قلت لك إذهب الآن .

لم يدعه الضابط يتم كلامه .

— لا داعى لكل هذا يا عماه .

سقطت ذراع الأمير إلى جانبه . واتسعت حدقتاه دهشة وهو يتفرس فى الضابط . ظن لأول وهلة أن أذنيه خدعتاه فسأل ببلاهة .

— نعم .. ؟

كرر الضابط الجملة وهو يبتسم .

— قلت لاداعى لهذا ياعماه .. يبدو أنك لم تعرفنى ..

تدخل أحمد مقاطعا .

— إنه جيرونيمو تشنجوليا .. الذى كان فى وقت ما يوسف ثم إرتد عن دينه .. وتنكر لعشيرته وقتل المسلمين زلفى لسادته .

ظهر الإرتباك جليا على الأمير . كان الموقف جديدا عليه فلم يدر ماذا يفعل . هل يعامل القادم على أساس أنه إبن أخيه أو على أساس أنه ضابط فى الجيش

البرتغـالى ؟ فضل أن يأخذ حيطته فلم يـكن يبغى أن يثير أية متاعب مع البرتغاليين .

— إنه لشرف عظيم لنا أن ينتمى واحد من العائلة إلى الجيش البرتغالى العظيم .

نظر إليه ابنه باحتقار لم يستطع أن يخفيه فى حين تقدم جيرو نيمو بهدوء .

— ماذا ؟ هل سنظل واقفين ؟ أليس لديكما كلمة ترحيب تستقبلان بها إبن جلدتكم بعد غياب خمسة عشر عاما ؟

ركز أحمد بصره عليه مبهوتا لبروده وصفاقته ، وتلعثم الأب وهو يردد حائرا .

— آه طبعا .. تفضل ياسـيدى الضابط .. أعنى يايوسف .. اعنى ياسـيد جيتـامو .

— جيرونيمو .. جيرونيمو تشنجوليا .

— طبعا .. طبعا .. جيرونيمو .. اسم جميل .. تفضل بالجلوس .. تفضـــل .

— دعنى أجلس بينـكما فإنه يسرنى أن أكون بين ذوى قرباى بعد هذه الغيبة الطويلة .

— بـكل سرور تفضل .. إجلس عن يساره ياأحمد ..

لم يستمع أحمد لـكلمات والده وظل واقفا .

— إننى لا أجالس الخونة والمرتدين .. ماذا تريد ؟ لـماذا أتيت ؟

— رفقا يا ابن العم .. اننى ..

— لست ابن عمك .. اننى لا أتحمل هذا العار .

أسرع والده يؤنبه ويعتذر .

— إنه صغير السن كما ترى .. وكان غاضبا لمناقشة دارت بيننا قبل أن تحضر بدقائق .

— لقد سمعتها ...

— أنه لايعنى شيئا .. فى الواقع هو ولد طيب القلب إلا أنه سريع الاحتداد ، وطالما حذرته لكن ..

— لا داعى للاعتذار فاننى لم آت فى مهمة رسمية .

تكلم أحمد بلهجته الغاضبة .

— لماذا أتيت إذا ؟

— لا حل عليكم ضيفا مدة رسو السفينة بالميناء .. هذا طبعا إذا قبلتم .

رد أحمد قبل أن يتكلم والده .

— إنك مجنون صفيق .. هل تظن أننى أقبل أن أدنس بيتنا بوجودك .. هل نسيت مافعلته بسعيد ؟ هل نسيت قتلك زهيرا ؟ ماذا تحسبنا ؟ .. خونة مثلك !؟

— اصمت يا أحمد .. إنك لا تدرى ماتقول .. لا شك أننا نرحب بابن أخى جينامو ..

— جيرونيمو .. جيرونيمو تشنجوليا ..

— أجل .. أجل جيرونيمو .. إسم ظريف .. إن منزلنا منزلة كذلك .. لا تنس يا أحمد .

— شكرا ياعماه هذا ما توقعته لما أعرفه من كرم اخلاقك .. أما أنت ياأحمد فسوف أنسى ماسمعته على ألا يتكرر .

— أعدك ياحضرة الضابط أنه لن يتكرر .. إنه ولد طيب لكنه صغير السن كما ترى .. هل كانت رحلتكم موفقة ؟

— لم تكن بالغة السوء .. والآن هل لى أن أقدم فروض الولاء لسيدات المنزل ثم استقر فى حجرة ..

— سوف تخصص لك حجرة فى الطابق الأعلى .. أحمد هلاصحبت الدون .. اعنى ابن عمك إلى الحجرة البحرية .. إن هواءها جميل وهى تطل على المحيط .

— أعتقد أنه لن يكون مرتاحا فى هذه الحجرة يا ابق .. لماذا لا نعطيه الحجرة الغربية التى تطل على الحديقة الخلفية فى الطابق الأول إنه سوف يكون أكثر حرية فى التنقل .

كانت اللهجة التى تكلم بها أحمد تخالف كليه طريقته السابقة فى استقبال جيرونيمو . لم تظهر فى نبراتها مسحة عداء ، بل ربما يمكن أن يقال إنها قرب إلى المهادنة . تحول الشاب الأسمر يراقبه وهو يقترح ، وتلاعبت على شفتيه إبتسامة خفيفة لم تتغير حتى فرغ من حديثه .

— إن إبن عمى على حق .. من وصفه لا شك أن الحجرة الغربية فى الطابق الاول أكثر مناسبة ، وانى سأكون أدنى إلى الإستمتاع بها .. هيا يا ابن العم .. ما أجمل أن يعود المرء إلى بلدته وبنى عشيرته بعد غيبة كل تلك الأعوام .. إذا اذن عمى فانى سأرافق أحمد !

* * *

فى المساء كان قصر الأمير سالم يعج بالناس ، إنتشر خبر عودة يوسف ، وتناقلت الألسن حديثه وكيف أنه صبأ عن دينه ، ويرتدى البزة العسكرية البرتغالية ، فتوافد إلى القصر جم غفير ، من فضولى يريد أن يشبع فضوله ، إلى حانق يود لو إستطاع أن ينال من المرتد ، إلى طامع يقدم الزلفى .

جلس الأمير سالم وسط حلقة ضيوفه وإلى جواره تربع ابن أخيه فى زيه البرتغالى . كان يتكلم ويصف عظمة بلاد البرتغال والجيش البرتغالى ، والأساطيل البرتغالية .. كيف أنهم يحيون حياة كلها نشاط ومرح .. وكيف أنهم لايهزمون رغم قلة عددهم ، وصغر مساحة أراضيهم .. وصف عظمة القصور ، والأديرة ، والكنائس .. جمال النساء .. وأناقة الرجال .. وترف الحياة .. ورونق الرياش .. وفخامة الأثاث .

مكث يروى ساعتين لايمل . لم يقل فيهما لفظا واحدا نابيا عن الحياة التى مارسها .. حياة الترف والقوة .. والبطولة .. وإستمع الموجودون مشدوهين لما

تصوروه يفوق الخيال من نعيم دائم مقيم .. أجاب على أسئلتهم وإستفساراتهم بيسر من لديه العلم ، يخاطب أطفالا يتطلعون . وعلى حين غرة تعالى من أقصى القاعة صوت يتساءل .

— لم تحدثنا عن دينهم ، وكيف يمارسونه ؟

عم الوجـــوم الجميع .. حتى جيرونيمو صمت لحظات عن الإجابة .. كان الذى يسأل صوت معروف لهم جميعا ، سمعوه فى منبر الجامع ، وساحته ، يلقى مواعظ وخطبا . كان صوت الشيخ على الحضرمى . من أقصى القاعة تقدم ، ووقف الجميع له إحتراما .. ثبت نظره على جيرونيمو كأنما لا يوجد غيره ، وسار نحوه بقامته الفارعة وصدره العريض ، كان رأسه قد اشتعل شيبا ، وكذلك لحيته لكن الخطوات الثابتة ، والوجه القوى ، لم يكن فيهما أى ضعف أو وهن .

وقف جيرونيمو يبطء ، يملأ عينيه من منظر الشيخ الوقور : لم يتغير كثيرا . عادت به الذاكرة وهو يرقب تقدمه إلى شيخ يحتضن صبيا ويصيبه الرصاص فلا يدعه .. رأى الشيخ يخفى رأس الصبى فى صدره يحميه عن رؤية منظر دماء والده تسيل . للحظات كاد أن يفقد السيطرة على أعصابه فيلقى بنفسه تحت قدمى الشيخ يلثمهما . إكتسبت عيناه مسحة من اللعة والحب ، سرعان ما إختفت لتظهر على الوجه ابتسامة أقرب إلى السخرية .

— تفضل ياشيخ على .

— إذاً فقد تذكرتنى .

أفسحوا له مكانا ألقى بجسمه الضخم عليه ، وانتظر إلى أن جلس الجميع فأعاد سؤاله .

— لم تحدثنا عن دينهم ؟ !

— ولماذا أتحدث عنه ياشيخ على .. لعلك لا تريد أن تصبأ ؟

علت همهمة إستهجان من الحاضرين . إن الشاب الوقح يسخر من الشيخ . لكن الشيخ أدهشهم بأجابته .

— ولم لا .. إننى سمعت أنك نشأت فى كنائسهم ، ولا بد أنك تفقهت فى دياناتهم ، وربما أمكنك أن تقنعنى والموجودين ، فنحذوا على منوالك ويصيبنا نعيم الدنيا والآخرة .

— إذا لم تكن ياشيخ على قد رأيت الصواب إلى الآن فلا أظن أن هنالك أية فائدة من مناقشتك .. وعلى أى الأحوال فإننى لست رجل دين ، وإنما اخترت الجندية لى مهنة .

— حسنا إذا حدثنا عن جنديتهم . هل هى قتل المسلمين شبانا ، وشيبا ، نساء ، وأطفالا ؟ هل هى ثلم الاذان وجدع الأنوف ؟

— ان هى الا شريعة القوى .. ولعل الاهم من هدا ان نبحث عما يجعل القوى قويا .. والضعيف ضعيفا . ما الذى يجعل أمة كالبرتغال تصارع ، وتتغلب على شعوب اسلامية يزيد عددها عنها عشرات المرات وتفوق مساحتها أضعاف ذلك .

كانت مناقشة بين ندين إستمرت أكثر من نصف ساعة لتنتهى إلى غير نتيجة ، وإنفض الإجتماع وقد داخلت بعضهم الشكوك . تثاءب جيرونيمو بعد إنصراف الجميع وسأل عمه إذا كان يوجد بعض النبيذ فى المنزل فتراجع الأمير مذعورا وسقط فى يده بينما إحتد أحمد غضبا مقررا أنه إذا كان المرتد يريد أن يتناول شرابا فانه يستطيع ذلك خارج الدار وعلى الا يعود إليه ثملا ، فهز الشاب كتفيه إستخفافا وسار إلى حجرته بعد أن ألقى عليهما تحية المساء .

خلع ملابسه وأطفأ الشموع ، والمصابيح المضاءة ثم فتح باب الشرفة التى تطل على الحديقة الداخلية للقصر وإتجه إلى فراشه ليغلق عينيه ، وينام نوما عميقا لا أحلام فيه .

* * *

بعد ما يقرب من الساعتين ، حوالى الواحدة صباحا تحرك بين حشائش وأشجار الحديقة شبح متشح بالسواد . كانت حركاته خفيفة لا صوت لها . تقدم بسرعة إلى الشرفة متخذا من الظلام والظلال وشاحا . توقف بحذر عند الباب المفتوح ، وتسمع إلى الأصوات تصدر من الحجرة حتى تأكد بأن قاطنها مستغرق

فى النوم . تلمص الخطى نحو الفراش ، وارتفع فى يده خنجر إلتمع لحظة فى الهواء قبل أن يهبط على الجسد المسجى .

— ما هكذا يعامل الضيوف أو الأقارب يا ابن العم ؟

صدر الصوت لطيفا مؤنبا . إلتفت المتشح بالسواد مذعورا حوله يبحث عن مصدره وهو يرفع الخنجر فى يده ليهوى به بمجرد أن يرى خصمه لكن الظلام فى الحجرة كان دامسا ، ولم يكن واثقا من أى إتجاه أتى الصوت . وقف مكانه مترددا ، وللمرة الثانية أتاه الصوت الوديع .

— إننى إلى جوارك وغدارتى مصوبة إلى صدرك ، وأرجو الا تضطرنى إلى استعمالها . إستمع إلى .. إنك أحمق .. هل تقتل ضابطا برتغاليا فى منزلك ؟ .. إن الجميع يعلمون أننى هنا .. هل تعلم ماذا يحدث لو قتلتنى ؟ .. سوف يقتل عشرات الأشخاص وأولهم أنت وكل أهل بيتك .. ولو قتلتك أنا الآن لما حدث أى شىء . . . .

صمت الصوت وحاول الشبح أن يتعرف على مصدره دون جدوى شعر . كالفأر يداعبه القط لا يدرى من أين ستنهال عليه الضربة التالية . من مكان آخر فى الحجرة الفسيحة عاد الصوت .

— إننى عرفت أنك سوف تشرفنى بالزيارة حال إقتراحك أن أنام فى هذه الحجرة فانتظرتك .. اذهب يا ابن العم .. وأحمد الله أننى لم أقتلك .

إستدار الشبح بسرعة ، وقفز من الباب المفتوح ليختفى فى الحديقة . ولم تكن هذه هى الزيارة الوحيدة التى قام بها المتشح بالسواد . فى هذه الليلة ، استيقظ الشيخ على من نومه على يد تهزه برفق . فتح عينيه ، ومضت لحظات قبل أن يستطيع تمييز المتشح بالسواد . اعتدل جالسا وتفرس فى الوجه المختفى وراء القناع ، ثم قال بحدة .

— من أنت ؟ وماذا تريد ؟

— أنا من يطلقون عليه المتشح بالسواد ، وقد جئت أرجو أن تستمع إلى

وقالق فهل أجد عندك الصبر .

تردد الشيخ قليلا ثم قال بلهجة فايرت لهجته السابقة .

— تكلم يابنى ...

لمدة نصف ساعة أو أكثر تكلم التشع بالسواد . لم يقاطعه الشيخ الا بأسئلة قليلة مقتضبة وحينما انتهى اخرج الشيخ نفسا عميقا وقال .

— كان الله فى عونك يابنى .. سأدعو الله لك .. وسوف أفعل ماأستطيع ..

● ● ●

الفصل الثامن عشر

نائب الملك

اقلعت السفن إلى مالندى بعد سبعة أيام ، حيث رست ليومين ثم أبحرت ميممة إلى غات الغربية ، فى الهند ، لتصل إلى جوا بعد ثلاثة وعشرين يوما . كان هذا الجزء من الرحلة هو أمتع ما صادف أيوفيميا إذ حظيت بعناية الشبان الثلاثة . لم يتركها ديوجو أولا معظم الوقت ، ويبدو أنه لم يفقد الأمل بالرغم مما قالته الفتاة على شاطىء الجزيرة . رضيت فى مبدأ الأمر بصحبته لأن جيرونيمو كان أحيانا يرافقهما فى جولاتهما على ظهر السفينة ، ثم تدريجيا لاحظت أنه كان ينسحب بحجة أو أخرى لتركها بمفردها مع الشاب الأسمر .

حتى تصرفات لورنسو كانت لطيفة . لم تشك فى أنه أصبح يعرف حقيقة مكنونات قلبها ، ومع هذا فلم يظهر أى تأفف ، أو مضايقة إذا مارآهما منفردين ، على العكس ربما أظهر تشجيعه لهذه العلاقة . لمحته ذات مرة وهو ينظر إليهما من بعيد ثم ينسحب بهدوء دون أن يعكر صفو خلوتهما ، وتعجبت فى نفسها هل نسى المعاملة الخشنة التى لقيها ؟!

أما جيرونيمو فقد تحول كأنما أضحى شخصا آخر . ذهب ذلك الحاجز الذى لم يفارقه طوال الرحلة إلا لمحات لم تكد تبين حتى تنقشع ، وحلت محله رقة لا تزلف . ظل على هدوئه المعتاد . أضحى أكثر إبتساما ولم يحاول أن يطارحها الغرام ، ومع هذا فقد لمست ، أو خيل إليها أنها لقيت ، هواه فى تصرفاته البسيطة ، وحدبه عليها . كثيرا ما تريضا فى صمت ، أو وقفا عند حاجز السفينة يتطلعان إلى المياه تنساب فى هدوء دون أن يحاول أحدهما الحديث .

فى الليلة الأخيرة قبل وصولها إلى نهاية الرحلة وقفا عند الحاجز لا يتكلمان .

علتهما سحابة من الكآبة لم تعرف طريقها أليهما منذ أن برحا تبسه . إمتدت يده ليضمها على كتفها فى رقة زائدة . لم يكن حاول طوال الرحلة أن يلمسها ، ولو عفوا ، وتمست فى نفسها . هذه طبيعة الرجل حينما يريد يفعل . شعرت بقبضته قوية على رقتها، وسرت فى جسدها رعشة لطيفة هزت كيانها . أحست بأنها لم تعد تكتفى منه بالنظرة ، أو الكلمة ، أو حتى اللمسة ، كانت تريد منه أن يأخذها بين ذراعيه ، وأن يطبق بشفتين ملتهبتين على شفتيها . أثارت لمسته أحاسيس كامنة طالما إعتملت فى نفسها وكتمتها تحت غطاء كثيف من الحياء الغريزى . توقعت أن تنسل ذراعه الأخرى حول وسطها ، فبقيت مكانها لاتسحب يدها . لكنه لم يفعل .

أدارت رأسها تواجهه وتطلعت عيناها فى وجهه . ولو أمكن لعينيان أن تصرخا لإمتلأ السكون نداء بركز نظره عليها ، وللحظات خيل إليها ان أحلامها وشيكة التحقق .. للحظات فقط قفز قلبه يطل عليها من عينيه ، وعلمت عن يقين أنه يهواها .. لم تدم النظرة ، بسرعة حول وجهه إلى المحيط ، وانسحبت يده إلى جواره ، أغرقتها موجة عارمة من خيبة الأمل . لقد رأى وعلم ، ورأت وعلمت ، لكنه عاد ونكص .

اعتدلت ثانية فى وقفتها تحاول أن تسيطر على انفعالاتها ، وتحبس دموعها . أحست بأن هناك حائلا يقف بينهما . حائل لاتدرى عنه شيئا ، لكنه موجود . ودت لو تكلم وأخبرها . أيا كان الحاجز فسوف يتخطيانه سويا ، فإن لم يستطيعا فسوف تهدمه بنفسها . فقط لو تكلم .. دون أن تشعر تساقطت الدموع على خديها .

ــ ما الذى يبكيك ؟

جاءها صوته جافا خشنا كأنما يرغم صاحبه على الخروج من فمه .. وفهمت .. هذه هى طبيعة الرجل وهو يكتم أحاسيسه .. لماذا ..

ــ لاشىء .. انها دموع سخيفة .. هل سنراك فى جوا ؟

ــ إذا سمح لى والدك .

تولاها الوجوم .. إذا سمع والدها .. وهل سيسمح أن يتردد عليهم شاب أسمر حتى وإن مسيحيا مخلصا ، حتى وإن اكتسب الجنسية البرتغاليـــة ، وحتى إن كان بطلا يتطلع إليه الجميع .. لن يزيد عند والدها عن أن يكون مجرد شاب أسمر .. ربما كان هذا هو الحاجز .. ربما شعر بنقص تجاه قومها .. إذا كان الأمر كذلك فسوف تحطمه ... لن تبالى بأبيها وأخيها ، وقومها .. ببساطة سألته .

ـــ هل هذا هو الحاجز ؟

دون أن تصفح ، عرف مافكرت فيه .. وتلاعبت على شفتيه ابتسامة غريبة فى عذوبتها .. لا لم يكن هنالك نقص عنـــد الرجل .. إن كان يوجد شىء فهو تعالى لا نقص ..

ـــ كلا ليس هو .

ـــ أرجو أن يزول قريبا .. وربما .. أجل .. وربما عندئذ ..

ـــ إذاً .. ماذا ؟

لم يتم جملتـــه ، وعرفت أنه لن يتمها . هنالك شىء أكبر مما خطر فى تفكيرها .. كانت واثقة منه .. سوف يزيله .. وعندئذ . رغما من غموض الإجابة ، وغموض الوعد ، أحست براحة ، واطمئنان لم تشعر بمثلهما طوال حياتها .. حتى ولاهى فى الدير .

* * *

وصلت القافلة فى صباح اليوم التالى إلى جوا . وتتالت الأحداث فأخذت فى غمرتها الصديقين . كتب ربان السفينة تقريره عن أحداث الجزيرة . وقدم صورة منه إلى نائب الملك وأخرى إلى رئاسته فى الشركة . ازداد إعجاب الكونت دى ليناريس بالشاب الأسمر فألحقه بخدمة القصر ضابطا فى الحرس ، ولم يهدأ حتى قبض جيرونيمو المال فعلا . رفع درجته وصديقه ليصبحا قائدى فرقة ، وارتفع بالتالى راتباهما .

مضى شهر قبل أن يستطيع جيرونيمو أن يذهب لزيارة والدة ايوفيميا ،

دون سباستيان فورينو . وتصـــادف حين دخوله المنزل أن شاهد كابتن بدرا فاريز دى كاستلبرانسكو خارجا منه يرافقه لورنسو . تجمد الكابتن حين رآه ورمقه بنظرة حاقدة مريرة لم تتغير وهو يبدؤه بالكلام .

— إن أسهمك في إرتفاع أيها الأفريقي .. لن يطول هذا . سيأتى الوقت الذى أنالك فيـــه . وسوف تعلم أن أكبر خطأ ارتكبته فى حياتك كان حينما لكمتنى .

لم يعره جيره نيمو إلتفاتا . بهدوء حول نظره الى لورنسو يحييه ويسأله اذا كان الده موجودا ، وفوجىء به وهو يقول بلهجة عدائية شديدة بأنه موجود لكنه لا يقابل أفريقيين . تمالك الشاب الأسمر نفسه ، ولم يدهشه حقا مالاقاه من جرأة فى العداء من لورنسو إذ أيقن أن الشاب الضعيف ظن أنه وجد فى حماية الضابط العملاق إلى جواره ملجئـــا وملاذا . لم يكن يريد أن يثير متاعب فى المنزل فلم يزد على أن انسحب بهدوء مؤملا أن يعود فى وقت لاحق . ورنت فى أذنه ضحكتان ساخرتان . ومن إحدى نوافذ الطابق الثانى وقفت الفتاة تنظر ، وتمسح دموعها تنساب فى بؤس .

لم يستطع جيرونيمو فى الواقع أن يعود لفترة طويلة . بمجرد أن دخل منزله أتاه رسول من القائد داندرادى يستدعيه إلى الثكنات . وإن كان قـــد تعجب للاستدعاء إذ أنه وقد ألحق بخدمة نائب الملك لم يكن يخضع لسلطة الجيش ، إلا أنه لم يتوان عن الإنصياع إلى الأمر ، والتوجه فورا إلى قائده السابق .

لقى عنده ديوجو ، وابتدره القائد فور انتهائه من أداء التحية .

— لقد استأذنت الكونت دى لينارس أن أستعين بك لبضعة أشهر وظننت أنك قد تسر بصحبة الكابتن ديوجو فى الرحلة التى سيقوم بها .

إبتسم جيرونيمو للطريقة اللطيفة التى عبر بها داندرادى عن إحتياجه له وظل صامتا فى انتظار أن يكمل القائد كلامه .

— هل تعلم شيئا عن موقفنا فى الشرق الأقصى ؟

هز رأسه نفيا .

— كلا ياسيدى . فقط أن الهولنديين يشددون الضغط على قوات جلالة الملك فى مالقه وإن ملك الملايو يطمع بدوره فى السيطرة على المدينة .

— حسنا دعنى إذاً أزيد من معلوماتك وصديقك قليلا . فى سنة ١٦٠٦ عقد الهولنديون حلفا مع كل من ملكى جوهور وآشه على أن يهاجموا جميعا قواتنا فى ملقه ، ومن حسن الحظ حينما استعد الهولنديون بقواتهم ، تخلف الملكان عن تنفيذ وعودهما . وفى ١٦١٢ تولى عرش آشه السلطان الحالى إسكندر مودا ، المشهور باسم ماهكوتا علام . واعتزم هذا الحاكم الطموح أن يسيطر على جزر الملايو ليكون لنفسه امبراطورية . وإبتدأ بمملكة جوهور وهاجم باتو سوار ، واستولى عليها سنة ١٦١٣ وقبض على حاكمها علاء الدين وسجنه ، ثم أعاده إلى العرش بعد ذلك على أن يكون خاضعا له . وأراد علاء الدين أن ينفض عن نفسه سيطرة السلطان اسكندر فتحالف معنا لكن الأخير أرسل له اسطولا من ثلاثمائة سفينة وثلاثين ألف رجل ، واستولى على باتوساوار وخربها ، وطارد علاء الدين حتى بنتانج وأسره .. ومات علاء الدين بعد ذلك ..

وضع السلطان اسكندر مكان علاء الدين أخا زوجته الراجا عبد الله على العرش لكن هذا بدوره أراد الاستقلال فاستعان بكل منا ، والهولنديين فهاجم إسكندر مدينة باتو ساوار لثالث مرة ، وسحق عدوه الذى مات بعد ذلك .

وفيما بين السنوات ١٦١٨ ، ١٦٢٠ إستولى السلطان إسكندر على باهانج ، وبيراك ، وكيداه وبذلك حاصر قواتنا فى ملقه تماما . وتوقعنا من السلطان الهجوم فى أية لحظة ، ولذا بقيت قواتنا هناك على استعداد تام طوال المدة حتى الآن كما أن من البدهى أن تجارتنا تأثرت إلى حد أنها تكاد أن تنعدم . وقد جاءتنا الأنباء أخيراً بأن السلطان جمع أسطولا مكونا من ٢٣٦ قطعة ، وأكثر من عشرين ألف مقاتل ، وقد عسكروا عند إيلر ، إحدى ضواحى مالقه ، وأرسل حاكم الحنوب ، وهو قائد الحصن ، إستغاثة بأنه إن لم تصل قوات لنجدته بسرعة فسوف

هل يعطيكما هذا فكرة واضحة عن الموقف ؟

— أجل ياسيدى .

— من حسن الحظ ان الرياح الموسمية الجنونية الغربية تبدأ من مايو وهو هذا الشهر ، وهذا يعطينا الفرصة لأن نرسل نجداتنا فورا ، وأعتقد أنكما الآن تقدران مدى الاستعجال اللازم لنبدأ رحلتنا . وقد إخترتكما أنتما الإثنين كقائدين مساعدين لى حينما أوكلت قيادة الحملة ، ووافق فخامة الكونت على ذلك . فهل هنالك إعتراضات أو أسئلة ؟

— إذاً عليكما الإبتداء فورا في التنفيذ إذ أننا سنبحر خلال أربع وعشرين ساعة .

ظل القائد داندرادى يبحث معهما تفاصيل الحملة حوالى الساعتين ، وحينما إنتهى إنصرف كل منهما لتنفيذ تعليماته . أبحر الأسطول فى أقل من عشرين ساعة ، ووصلت النجدة إلى مالقه فى الوقت المناسب لتنقذ الحامية ، والمدينه ، وتراجعت قوات السلطان إسكندر .. ولو إلى حين .

ولم يعد جيرونيمو وصاحبه من الحملة إلا بعد مضى أكثر من تسعة أشهر ، وبمجرد عودته استعاده الكونت دى ليناريس إلى خدمته فى القصر ، ولم تمض ثلاثة أيام بعدئذ حتى توجه إلى منزل والد ايوفيميا . فى هذه المرة قابله الرجل على الباب الخارجى . أبى عليه الدخول ، وأفهمه بلهجة حاسمة أنه غير مرغوب فى حضوره ، وأنه يجب أن يكف عن التفكير فى إبنته . قال بصراحة إن الكابتن دى كاستلبرانسكو يزورهم وانه يرجو أن يزوجها منه ، وأنه إن عاد لزيارتهم فلن يقابله أحد وسيخطر الكابتن ليقوم بتأديبه . كانت ايوفيميا تقف وتسمع دون علم والدها ، ولم تستطع صبرا حين تكلم عن الكابتن ، اندفعت إلى الباب تريد ان تتخطاه لكنه قبض على ذراعها . وألقاها بعنف إلى الداخل .

ظل جيرونيمو هادئا طوال الوقت وهو يستمع إلى كلمات الرجل . كان على وشك أن ينسحب حينما اندفعت ايوفيميا ورآها وهى تسقط على الأرض إثر دفعة والدها.

للحظات بدا أنه فقد السيطرة على أعصابه . تقدم بسرعة وضغط بكلتا قبضتيه على ذراعى الرجل . كان دون فورينو فى أوائل الحلقه السادسة ، إلا أنه كان رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، وعلى جانب كبير من القوة ، ومع هذا فقد شعر كأنما قد تسمرت ذراعاه إلى جانبه . انغرزت الاصابع النحيلة فى عضلاته ، وأحس بآلام مبرحة تشل كل حركة يحاول أن يأتيها . كان وجه الشاب قريبا من وجهه ورأى فى عينيه بريق ثورة متأججة جملته وهو والرجل القوى ، يحاول التراجع بعيدا عن تلك النيران .

لم يدم الموقف برهات تراخت على أثرها الاصابع ، وهبطت الذراعان إلى جانب الشاب الأسمر . فى اللحظة التاليـــة إستدار ليهبط الدرج الخارجى ، وليصطدم بعنف بشخص كان يصعد فيسقطه الدرجتين . كاد جيرونيمو نفسه أن يفقد توازنه لولا أنه تماسك ، ووقف ينظر إلى الكابتن دى كاستلبرانكو وهو يعتدل من سقطته وينظف بزته العسكرية البراقة وينظر إليه بغضب لا يحاول كبحه .

ـ أنت أيها العربى .. أنت أيها الأفريقى تجرؤ للمرة الثانية على التعرض لى . سوف ألقنك درسك الآن ولن تعيش لتروى كيف أسقطت دى كاستلبرانكو على الأرض .

إستعاد جيرونيمو سيطرته على أعصابه ، وحينما تكلم كان هادئا لا أثر فى صوته لأى إنفعال .

ـ الآن ان شئت .. لكن ليس هنا .

ـ الآن .. وهنا .. وإلا قتلتك كالكلب ..

كانت خفة حركة جيرونيمو الهائلة فقط هى التى أنقذته من الطعنة الخائنة التى وجهها إليـه خصمه . تراجع بعيدا عن حد الحسام ، وحينما إندفع دى كاستلبرانكو نحوه ثانية إلتقى سيفه بنصل آخر .

* * *

ذرع الكونت دى ليناريس الحجرة الكبيرة وهو يتكلم بغضب .

ـ كيف تجرؤ على مبارزة أحد ضباط جلالة الملك ؟ الا تعلم أننا حرمنا المبارزة بين الضباط ؟ ! هل اصدرت هذه الأوامر ليعصيها رجالى أم هل تظن أن ماضيك يشفع لك أن تتحدى أوامرى ؟.. ومن أجل ماذا ؟ من أجل فتاة ؟

ـ سيدى الكونت إننى لم أقاتله ، اننى دافعت فقط عن نفسى .

ـ هذا كذب لقد أخبرنى دون فورينو أنك بدأت القتال ، وأنك أخذت الكابتن دى كاستابرانكو على حين غفلة منه ولولا مهارته لقضيت عليه .

ـ إن دون فورينو كاذب .. ولو شئت أن أقضى على الكابتن لفعلت لكننى فقط جرحته فى كتفه حتى أوقف المبارزة ..

ـ من أصدق ؟.. على أى الأحوال فإن حقيقة أنك بارزته فيها عصيان لأوامرى وهذا يكفى . سوف تقدم المحاكمة العسكرية ولن يشفع لك ماضيك .. اذهب الآن إلى مقرك ، ولا تخرج منه .

قبل أن يتحرك فتح الباب ، ودخل أحد الخدم يستأذن فى الدخول للآنسة ايوفيميا سباستيان فورينو .

ـ قف مكانك ، وأنت دع الآنسة تدخل .. إنها ابنة دون فورينو أليس كذلك ؟ تلك التى كنتما تتقاتلان من أجلها . سوف نرى الآن .

دخلت الفتاة هيابة فى خطواتها ، واستقرت عيناها للحظات خاطفة على الشاب الأسمر قبل أن تنحنى إلى الأرض تحية لنائب الملك .

ـ انهضى يافتاة .. إذا فأنت التى تقاتل إثنان من خيرة ضباطنا من أجلك .. إرفعى رأسك حتى يمكننا أن نرى وجهك جيدا . بحق المسيح إنك جميلة . وربما كنت أقاتل فى سبيلك شخصيا لو أننى أصغر سنا .. لكن ماعلينا .. لماذا جئت ؟

بلعثم واضح تكلمت أيوفيميا .

ـ جئت أرجو فخامتكم الصفح عن جيرونيمو .. أعنى الكابتن جيرونيمو أنه لم يعص أوامركم وإنما كان فقط يدافع عن نفسه .

داعبت يد الكونت شعر ذقنه وأطرق برأسه كمن يفكر .

– إذا فهو كان يدافع عن نفسه ؟! لكن والدك قال عكس هذا . قرر أمامنا أن الكابتن جيرونيمو هو البادئ بالهجوم .

– لا ..لا.. لم يحدث .. بل إنه كاد أن يفقد حياته إثر طعنة غادرة من الكابتن كاستلبرانكو .

– هكذا .. إذا فوالدك كاذب ..

– ربما لم ير الوقائع جيدا .

– حسنا إذهبي أنت الآن وسنرى ما يمكن عمله .

ترددت الفتاة ، وحولت عينيها إلى حيث يقف الشاب ، ولاحظ الكونت نظرة اليأس الى ارتسمت على وجهها . وفى اللحظة التالية إستدارت وخرجت من الحجرة عدوا .

– يا للفتاة اللعينة ، انها فقدت عقلها تماما فهى لم تكتف بتكذيب أبيها بل ونسيت أن تحيينا عند خروجها .

تحرك من موضعه حتى وقف أمام جيرونيمو ، ورفع رأسه نحو العملاق..

– وأنت أيها الضابط .. ماذا أفعل بك ؟ يبدو أنك صادق وأنك كنت مضطرا لأن تدافع عن نفسك .. لكننى أيضا لا أستطيع أن أتركك لتحول نشاطك نحو ضباطى تجرح من تشاء .. وتقتل من تشاء .. خبرنى هل أصابة كابتن كاستلبرانكو خطيرة ؟

– كلا يامولاى .. لقد اردت فقط ان اخرجه من المبارزة فجرحت كتفه ، ولم امس العظام .

تفرس فيه الكونت مليا .

– إنك تتكلم كما لو كنت تستطيع ان تصيبه فى اى جزء من جسده !

– اجل يامولاى .

– بحق المسيح إنى اصدقك .. ومع هذا فإن الكابتن ضابط فى الجيش البرتغالى اذهب الآن الى عملك .. وسأفكر فى الأمر .

* * *

جلس اوموجا على حافة فراشه الرث وهو يتفرس فى الرجل المتشح بالسواد الذى يجلس على المقعد أمامه .

ـ وانى لى أن أعرف أنك المتشح بالسواد ؟ أنى لى أن أعرف أنك لست مجرد واحد من أولئك الذين يظنون نفسهم أبطالا ويذهبون ضحية البطولة الموهومة ؟ لقد كثر فى هذه الأيام عددهم .. بل أنى لى أن أتحقق من أنك لست جاسوسا دسة علينا أعداؤنا ؟

جاءه الرد هادئا .

ـ لأنى أعرف اسمك وعنوانك . وأعرف أنك حللت مكان عبد الله هو دارى فى رئاسة الجماعة ، كما أعرف أسماء باقى الرءوس وعناوينهم ولو كنت جاسوسا لأخطرت البرتغاليين وما احتجت أن آتى إليك .

ـ طرق أوموجا فترة وهو يفكر ثم رفع رأسه وحدق فى العينين اللتين تطلان عليه من وراء اللثام .

ـ حسنا .. سوف أثق بك وليساعدنا الله إذا كنت خائنا ؛ ماذا تريد أن تعرف ؟

ـ هنالك شائعات تتردد بأنكم سوف توجهون ضربة قوية إلى البرتغاليين فهل لها نصيب من الصحة ؟

ـ أجل .. إننا سنقوم بقتل شخصين هامين .

ـ من هما ،.؟ ومتى سيكون التنفيذ ؟

ـ أحدهما هو الكونت دى ليناريس ..

تراجع المتشح بالسواد بصدره إلى الوراء مبهوتا . وقبل أن يتم أوموجا كلامه قاطعه بحده ،

ـ هل أنتم مجانين ؟.. هل فقدتم عقولكم ؟.. أتريدون أن تتسببوا فى مذابح لا نهاية لها ؟ لو أفلحتم فى قتل الكونت فلا يوجد أدنى شك عندى أنه ستقوم

حملات إنتقامية منظمة فى كل مستعمرة ، وكل مدينة . وكل بلدة ، ولن تتوقف المذابح اشهرا .. لن يعفى منها رجل ، أو شيخ ، أو امرأة أو طفل .. ألا تفكرون ؟

— إن الذى سيقوم بالقتل شخص واحد تعهد بأن ينتحر بعد التنفيذ مباشرة ، ولن تناله محاكم التفتيش .

— أجل .. سوف ينتحر ويستريح .. وتبقون أنتم وآلاف غيركم للعذاب والنكال .. يجب أن يوقف هذا الأمر فورا .

— لا يمكن .

— لماذا .. ؟

— لأن القتل سوف يحدث خلال ساعتين على الأكثر أثناء حفل الاستقبال الذى يقيمه الكونت الليلة بمناسبة عيد ميلاد ملك الأسبان ولا توجد وسيلة للإتصال بحامد الموكل إليه العملية .

هب المتشح بالسواد واقفا .

— إذاً فعلى الأقل يمكن محاولة إنقاذ الكونت .. فربما إقتصرت المذابح على بعض أهالى جوا دون سائر المستعمرات .. هذا إذا نجا من الموت .

استدار وانطلق نحو الباب ، ولكنه توقف قبل أن يفتحه ، والتفت إلى أوموجا .

— وعلى فكرة من هو الشخص الآخر ؟ .

— هو شخص لا أهمية له لكنه بالنسبة لنا يمثل الغدر والخيانة .. هو جيرونيمو تشنجوليا .. المرتد .

انطلقت فى أرجاء الحجرة ضحكة غريبة ، فيها مرح ، وحينما انتهت كان المتشح بالسواد قد فتح الباب ليختفى وراءه .

* * *

— ان من أكبر عيوبكم أيها الشرقيون أنكم لا تعرفون ان هنالك وقتا للعمل ، وآخر للاستمتاع . اشرب ياصاحبى وامرح ..

كان المتكلم هو السكونت دى لينارس نائب الملك ، والمخاطب هو جيرونيمو لشنجوليا . اليوم هو عيد ميلاد جلالة الملك فيليب الرابع ملك أسبانيا ، والبرتغال ، لهذا أقيم حفل الاستقبال ودعيت إليه الجالية البرتغالية . وكان وجود جيرونيمو . كبرتغالى ، وكضابط فى حرس القصر ، وقد تفضل فخامة نائب الملك فأقطع من وقته الثمين تلك الثوانى التى وجه فيها الخطاب السابق إليه حينما لاحظ أن الضابط يتبعه كظله حيثما يتحرك فى الخضم البشرى الذى توافد للتهنئـــة وامتلأت به قاعات القصر وردهاته .

تنقل السكونت حسب مقتضيات واجباته كنائب الملك ، وكمضيف يهتم براحة ضيوفه . كان شخصا مليئا بالحيوية والنشاط حتى أن جيرونيمو وجد صعوبة كبيرة فى ملاحقته . لم يدعه يغيب عن نظره لحظة إذ كان يشعر أن أمثال هذه الحفلات أحسن فرصة لمن يريد شرا . توقف السكونت يحادث إحدى الشخصيات الهامة . ووقف جيرونيمو يراقبه وعيناه تتفرسان فى الجماعات القريبة منه . إذا أراد أحد شراً فلن يحمل سيفا ، وإنما سيكون سلاحه الخنجر أو الغدارة . سيضع السلاح فى متناول يده بحيث لا تمضى لحظة بين اعتزامه التنفيذ وإتمامه . حركة واحدة يجب أن تجمع بين تناول السلاح واستعماله وإلا فسوف يجد مائة ذراع تمتد للقبض عليه ، ومائة يد تمنعه من إتمام جريمته .

ظلت عيناه تتابعان السكونت ، وعقله يعمل . إذا كان هنالك قاتل فلن يكون بدينا بطيء الحركة ، ولا بالغ النحافة يظهر السلاح بين ثنايا ملابسه . لن يكون من السقاه فهم يحملون الصوانى عليها أقداح الشراب أو أنواع المأكولات ، ويحتاجون إلى أيديهم لحملها وتقديمها .. سوف يكون أسمر اللون ، ولو قليلا ، من البرتغاليين المتجنسين ، أو من زعماء الأفارقة أو الهنود .. سيكون ..

— جيرونيمو أيها المفلات . أين اختفيت طوال اليومين الماضيين .

التفت ليرى صديقه ديوجو يقف إلى جواره وهو يبتسم له مرحبا :

— أهلا .. فى الواقع كانت لدى مهام كثيرة لم أستطع أن أحرر نفسى منها .

— مثل مبارزة بدرا فاريز .. لقد سمعت عنها لماذا لم تدعنى لأكون شاهدا ؟ .. أنت تعلم أنه كان يسرنى جدا أن أرى دماءه تسيل ..

— لم يكن هنالك متسع من الوقت إذ صمم أن تتقاتل فورا .. هل رأيت أيوفيميا ؟

— أجل إنها هنا مع أبيها وأخيها .. إنهما لايفارقانها .. حتى حينما ذهبت لتحيتهم وقفا إلى جانبها كأنهما حارسان .

كان يحادث صديقه ويستمع إليه وعقله يعمل وعيناه تدوران .. ليس القاتل المزعوم بين الموجودين .. على الأقل ليس فى الجماعات التى تحيط بالكونت .. ولا يمكن أن يكون من السقاه الذى يدورون فى القاعة . إذاً من ؟ فجأة عرف الإجابة . كانت تفصله عن الكونت مسافة لاتزيد على خمس خطوات . ترك صديقه يتكلم ، وقطع المسافة فى قفزتين .

توالت الحوادث سريعة إلى درجة أنها بدت كأنما حدثت جميعا فى لحظة واحدة . قفز جيرونيمو وهو يدفع من كان فى طريقه ، لم يبال إن كان رجلا أو امرأة .. وتعالى صوت جعل الموجودين يلتفتون جميعا إلى ناحيته . سقطت إحدى صوانى الأكواب من يدى أحد السقاه فارتفع صوت تهشم الأكواب والأوانى . وفى اللحظة نفسها دوى طلق نارى وارتفعت صرخات النساء ، وتساؤلات الرجال .

أمام الكونت دى لينارس وقف جيرونيمو يحميه بجسده وقد رافع ذراعه الأيسر يحاول أن يوقف تدفق الدماء السائلة من كتفه ، وعلى بعد لايزيد على خطوتين كان أحد السقاة ملقى على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط بركة من الدماء وقد إخترق خنجره قلبه . ظل الحال على ماهو عليه لثوانى معدودات ثم ترنح الشاب الأسمر وهوى على الأرض فاقدا الرشد . وارتفعت من مكان قريب صرخة مكلومة جرت على إثرها فتاة تفسح لنفسها الطريق من الضيوف المتكالبين ، وحينما وصلت ألقت بنفسها على الضابط الأسمر وهى تنتحب مكررة اسمه . ولما رأته لايتحرك أو يحييها تهاوت إلى جانبه فاقدة الوعى .

* * *

فتح جيرونيمو عينيه . كانت هنالك سحابة تحجب عنه الرؤية ، وبدا أن عقله لايعى تماما الوقف . تناهت إلى أذنيه أصوات شخصين يتكلمان ، أحدهما رجل ، والآخر أنثى . أغلق عينيه في محاولة أن يستجمع شتات أفكاره ، ويسيطر على عقله الشارد . تدريجيا جاءته الذاكرة ، وحينما فتح عينيه ثانيه . بدت الأشياء أكثر وضوحا . رأى أنه فى حجره واسعة ، وأن ضوء الشمس يدخلها من نافذة كبيرة . حول رأسه فى بطء ليرى المتكلمين ، وعرف أنهما طبيب وممرضة . توقف الإثنان عن الحديث لما رأيا رأسه تتحرك ، وأقبل عليه الطبيب باسما .

ــ إذاً فقد أفقت من الإغماء . كيف تشعر ؟

كان يشعر بوهن شديد ، ولم تكن صورة الأشياء جلية أمام عينيه كما أن الأصوات بدت كأنما هى تأتى من غور سحيق .

ــ لابأس .. منذ متى وأنا هنا ؟

ــ ثلاثة أيام وقد ظننا فى وقت ما أننا فقدناك لكثرة مافقدت من دماء لكن بنيتك قوية تحملت . أنك الآن ضعيف وأريدك ألا تتكلم أو تتحرك ، وسنتركك لتنام بعض الوقت ثم سوف تأتى الآنسة الممرضة لتساعدك على تناول طعامك ..

الواقع أنه لم يكن في حاجة إلى النصائح إذ أنه نام أثناء حديث الطبيب . ظل ثلاثة أيام أخرى في حالة ضعف شديد لم يسمح الطبيب خلالها لأى من زائريه بعيادته ، وإن كان قد أخبره ان صديقه ديوجو كان يقضى كل أوقات فراغه خارج الحجرة . في عصر اليوم الرابع بعد إفاقته من غيبوبته سمحوا لديوجو ان يدخل ليراه ، عشرة دقائق لاتزيد فيها أنباه بالأخبار .

قال إن السكونت امر بقتل عشرة من الأفارقة لما اتضح له أن القاتل المزعوم إفريقيا . إلى جانب هذا زجوا بالمئات في السجون ، لينالوا من أنواع التعذيب مايستحقونه . أخبره بأنه ، السكونت ، كان دائم السؤال عنه ، وأنه أمر ان يحاط بكل عناية ممكنة ، وأفرد له طبيبه الخاص ، كما طلب إخطاره بمجرد أن يتمكن المريض من الحديث . قال إن إيوفيميا جاءت مراراً إلى المستشفى دون ان تعبر

انقياداً لأوامر أبيها حتى أنه اضطر إلى ان يقيـــد حريتها ، ويمنعها من الخروج إطلاقا ، ولولا انه قابلها البارحة ، الأحد، فى الكنيسة لمـــا تمكن من ان يخبرها أن المصاب قد جاوز مرحلة الخطر .

خرج ديوجو بعد ان سرد أخباره بسرعة ، والواقع ان جيرونيمو كان قد بدأ يشعر بالتعب والارهاق . لم يسترد بعض قوته إلا بعد مضى أسبوع آخر . عاده الكونت دى ليفارس ومكث معه حوالى نصف الساعة شكره فيها وأخبره ان لا يتعجل ثم سأله فجأة .

ـ كيف عرفت أن التمس إعتزم قتلى ؟

ـ إن مهمتى أن أحافظ على حياة فخامتكم ، ولهذا كنت أراقب كل شخص يقترب منكم وقد رأيت صينية الأكواب تقع قبل أن أسمعها ، وعلمت أنها إنما سقطت لأن الرجل تركها بعد أن سحب يديه إلى صدريته .. وهـــذا كل ما فى الأمر .

ـ لقد اثبت سرعة بديهه ، وحركة جديرين بالاعجاب وأنا مدين لهما بحياتى وسأعرف كيف أكافئك .

ـ شكرا لفخامتكم ..

* * *

مضى شهر قبل أن يسترد جيرونيمو صحته وقوته . حينما عاد إلى عمله أخبره رئيسه أن الكونت ترك أمرا بأن يذهب إليه فور وصوله . إستقبله نائب الملك فى حجرة المكتب وأشار إليه بالجلوس .

ـ إن أمامى ملفك ، وهو ملف مشرف فى كل ماجاء به . حتى وأنت فى زيارة عمك في ممبسة كانت مناقشاتك وتصرفاتك تمثل الضابط البرتغالى الكاثوليكى الخاص .. لا تدهش ، فمن البديهى أن يكون لنا عيون فى كل مستعمرة ، وكل مجتمع .. على أى الأحوال يبدو من ملفك أنك كنت إبن سلطان ممبسة الراحل .

ـ أجل يامولاى .

ـ هذا حسن ولا اعتقد أنى أستطيع أن أكافئك بأحسن من أن أرد إليك عرشك ، كما أنى واثق أنه لا يوجد لدينا من هو أكفأ منك لتوليه .. ان السلطنة يتولاها الآن السلطان محمد سلطان مالندى ويقوم عمك بالحكم نيابة عنه ، ولست ارى داعيا لإستمرار هذا الوضع . إليك مرسوما بتعيينك سلطانا على ممبسة لاتخضع إلا لنا مباشرة . وسوف ارسل خطابا بهذا المعنى إلى قائد حصن يسوع .

وقف الكونت لهذا حذوه الضابط الأسمر وتناول منه الظروف الذى قدمه إليه وادى التحية العسكرية . كاد ان يهم بالإنصراف شاكرا لولا ان نائب الملك استوقفــــه .

ـــ لقد انتهت خطبتى الرسمية ، وانا شخصيا مغتبط بتوليك المنصب ، واعتقد انك نلته بجدارة .

دارت الأفكار سريعة فى رأس جيرونيمو .. أجل لقد نلته بجدارة .. لو علم نائب الملك ماذا بذلت لكى أتولى هذا المنصب لهالة الأمر وارتعب . لكن من حسن الحظ أنه لا يعلم . وقطع حبل تفكيره صوت الكونت .

ـــ .. بقيت مسألة واحدة .. إن من سياسة حكومة جلالة الملك أن تختار زوجات برتغاليات لمن تعينهم من رجالنا الذين كانوا من أصل غير برتغالى . لهذا رأينا أن نختار لك زوجة برتغالية .. ومن حسن الحظ أن الموضوع فى حالتك يسير بل لعله أيضا سار . لقد أصدرنا أمرنا إلى دون سباستيان فورينو بأن يزوجك ابنته ، تلك التى كنت تتقاتل فى سبيلها .. ما اسمها ؟

ـ إيوفيميا يامولاى .

ـــ أجل ايوفيميا . لقد كان عندى دون فورينو منذ أيام وأخبرته برغبتنا ، ووافق بعد أن تمنع قليلا لكننا اقطعناه مساحة من الأرض فى ممبسة هو ونجله .. وبذلك إقتنع لأنه سيكون بجوار ابنته .. ويسرنا جدا أن نحضر حفل عقد قرانكما . لهذا قررنا أن يكون خلال الشهر القادم ، حتى نستطيع الرحيل مع أول الرياح الموسمية حوالى أواخر يوليو .. هل هنالك شئ آخر ؟

— كلا يامولاى وشكرا .

***

كللت السعادة حياة الفتاة فقد اعطتها الدنيا أكثر مما كانت تحلم به . تعافى حبيبها ، واسترد صحته وقوته ، وعين سلطانا على ممبسة ، وصدرت الأوامر بأن يتزوجها ، وأقطع أبوها أراضى غنية فى المدينة ، كما منح أخوها أيضا أراضى مماثلة . هل يمكن أن تحلم فتاة بأكثر من هذا ؟ أيا كانت الحواجز التى قامت فى الماضى تحول بينها وبين من يهواه قلبها فإنها ذللت ، ولا يستطيع إنسان أن يقول الآن بأن زيجتها ليست سعيدة ، أو موفقة ، أو متكافئة .

تمت مراسم الزواج فى كنيسة سانت كاترين وحضرها نائب الملك شخصيا ، وصمم أن يقيم حفلا لهما فى القصر قبل أن يودعهما ليستقلا السفينة التى قررا أن يقضيا شهر العسل عليها فى طريقهما إلى ممبسة ليتولى جيرونيمو منصبة الجديد . كانت ايوفيميا بهجة الحفل . راقصها نائب الملك ، وراقصها أبوها ، وأخوها وديوجو ، ثم طبعا .. زوجها .. لم تصدق أن زواجهما تم دون عائق ، وظلت خائفة حتى اللحظة الأخيرة أن يحدث شيئا يعكر صفو هنائها .. لكن شيئا لم يحدث وسارت الأمور كما تشتهى .

انتهى الحفل فى الساعات الأخيرة من الليل ، انتقلا إلى مقرهما المؤقت على ظهر السفينة . ودعهما الكونت عند باب قصره بعد أن منحهما هدايا قيمة ، ورافقهما أبوها ، وأخوها وديوجو إلى الميناء . لم يكن أبوها قد تمكن من تصفية شئونه فى جوا فقرر أن يلحق بهما مع ابنه خلال شهر . ولعل الفتاة اغتبطت لهذا إذ كانت تريد زوجها لنفسها طوال الرحلة لا يشاركها فيه أحد . كان ديوجو مخلصا فى وداعه وتمنياته لهما بحياة سعيدة موفقة . شكرته ايوفيميا مقررة أنه سيجد دائما منزلا ، ومقاما فى ممبسة حينما يريد الحضور . خيل إليها للحظات أن سحابه علت وجه زوجها ، لكن لا بد أنها كانت واهمة فإن وداعه لصديقه كان حارا مخلصا ، بل لعلها رأت سحابة تغشى عينيه .. لا إنها مخطئة فان الوجه الهادىء لم يتغير .

دخلت جذله إلى القمرة المخصصة لهما ، واتضح أنها ليست مجرد قمرة فى سفينة وإنما جناح كامل يتكون من حجرة نوم واسعة وأخرى تستعمل كمكتب وثالثة للاستقبال ، وعلمت بعد ذلك أن نائب الملك أمر بأن ينزلا فى الجناح المخصص له أصلا عند رغبته فى الترحال . سبقت زوجها فخلعت عنها ملابسها وارتدت ثياب النوم . لم يغب طويلا ولعله تأخر ليعطيها فرصة اعداد نفسها .

ما أن اغلق باب القمرة حتى وقفت فى منتصف حجرة النوم تغمرها السعادة ، ويشوبها حياء . إنتظرت أن يهرع إليها لتنعم بالذراعين القويين يطوقانها ، ويعتصران جسدها ، وبالفم الملتهب يرتشف من فمها ، لكن الرجل الأسمر لم يفعل شيئا من هذا . سقط قلبها بين ضلوعها وهى تسمعه يقول بهدوئه العادى إنه سوف يترك لها حجرة النوم لتستريح فيها وسيتخذ مضجعه فى حجرة الاستقبال .

وقفت حيث هى مبهوتة لا تستطيع أن تصدق مارأت عيناها ، وسمعت أذناها .. سمعته يتمنى لها ليلة سعيدة ، ورأته ينسحب دون كلمة أخرى ليغلق الباب وراءه .. توقف عقلها عن التفكير ، وشعرت بمذلة لم تشعر بمثلها ابدا ، حتى ولا حينما إتهمها واخاها بالتآمر لابتزاز مال ديوجو ، ولا حينما طرحها ابوها ارضا امامه .. ظلت كلمة واحدة تتردد فى عقلها المتبلد .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. ماذلك الحائل الذى ظل قائما لم تفلح كل هذه النعم المتتالية فى زحزحته ؟ ما هذا الحاجز الذى لم يفلح حتى الزواج فى تخطيه ؟.. لقد اضحت زوجته امام الرب وامام الناس ، ومن حقها ان تعلم ..! من حقها ان تعلم ..! وانفجرت باكية فى حيرة ويأس .

الفصل التاسع عشر

سلطان ممباسة

على قدر ما كانت ايوفيميا تتوقع أيام سعادة فى رحلتها الأولى مع زوجها ، على قدر ماشعرت بالتعاسة . لم تكن مجرد خيبة الأمل فيما توقعت هى صدمتها الوحيدة ، لكن ما حز فى نفسها أنها لم تفهم السبب . وحينما لا يفهم العقل البشرى يصبح مرتعا خصيبا للأوهام ، والخيالات . ذهبت إلى أن زوجها لا يهواها ، وإنما إتخذها مطية فى طريقه إلى السلطنة . إنها سمعت أن السياسة جرت على أن من يعين من الأفارقة فى منصب هام يجب أن يتزوج من برتغالية ، فهل هذا هو السبب فى زواجه منها ؟

من الغريب أن يقفز إلى ذهنها ذلك المنظر الذى رأته منذ أكثر من سنة بين زوجها وناتاليا .. لقد رأتهما يتعانقان ، ولا شك أن صاحبتهما تهواه فلماذا لم يتزوجها ؟.. أحست بالغيرة تعصف فى قلبها ؛ إنهما ذاهبان إلى ممباسة وهناك ناتاليا .. هل تزوجت ؟.. هل سيتطارحان الغرام مرة أخرى ؟

منعتها كبرياؤها أن تجابهه فى صباح اليوم الأول ، وحينما أراد الدخول إلى المخدع طرق الباب ولم يفتحه إلا حينما أذنت . عاملته بالهدوء الذى عاملها به ، أدب بارد لا معنى له فى مثل هذه العلاقات تناول إفطاره معها ، وعرض عليها أن يتريضا على ظهر السفينة ، وقبلت . كانت علاقتهما بالنسبة لأى شخص أجنبى كأحسن مايرام ، زوج يعامل عروسه بكل حب وحدب . قضيا اليوم الأول لا يكادان أن يفترقا ، وحينما حل المساء تناولا طعام العشاء ، وبعض الشراب ثم آويا إلى قمرتهمـــا .

كاد أن يتنكر مشهد المساء السابق إلا أنها لم تستطع صبرا . طرحت عنها كبرياءها وسألته .

— لماذا ؟ . . أنى لا أفهم .

لم يحاول أن يتغابى أو يتهرب ، بقوة الرجل أجابها .

— ذلك الحاجز هل تذكرين . . ؟ لقد تخطينا الكثير . . وحينما ينتهى . . ربما عندئذ . . !

— ماهو ؟

— هلا وثقت بى وصبرت ؟!

— هلا وثقت أنت بى وأخبرتنى ؟!

— لو كان الأمر بيدى لفعلت .

— حسنا . . إلى متى ؟

— لا أدرى .

— هل تدرى إذا ماذا تقول ؟ إنك تنتظر من زوجتك ألا تكون زوجتك . لسبب لا تعرفه ، ولمدة غير محدودة ثم تطلب منها بعد كل هذا أن تثق بك .

صمت ، ولم يحر جوابا ، إنتظرت قليلا ثم تنهدت وقالت .

— هلا أخبرتنى على الأقل إن كنت قد تزوجتنى لأنك تهوانى أو لأنك تريد أن تكون سلطانا ؟

ظل على صمته ، ولم تستطع صبرا فصرخت فى وجهه .

— ماذا تظننى ؟ إنك تطالب كل شىء ولا تريد أن تعطى ، ولو مجرد كلمة واحدة .

بان اليأس فى عينيه وبدا كما لو كان يكابد إنفعالات لا قبل له بها . كان يريد أن يركع عند قدميها يقبل موطئهما . هتف قلبه باسمها يردده متوسلا الرحمة وبرتجفت شفتاه كأنما يود أن يقول شيئا ، وأحس بفراغ فى صدره كأنما إنشق يريد

أن يستقبلها ويحتويها شاهدت الفتاة هذه الانفعالات فى وجهه وكادت أن ترحمه .
أيا كانت الأسباب .. وأيا كان الحاجز فإن رجلها يتعذب وعليها ان تساعده مهما تحملت من آلام .

كادت ان تسأله الصفح .. وان ينسى وجودها طالما ان هذا ييسر له ما هو فيه إلا أنها قبل ان تفوه بـكلمة رأت تلك النظرة الصارمة تعود إلى عينية لتضع قناعا حديديا يطمس الانفعالات والأحاسيس ، وجاءها صوته الهادىء متماسكا لارجفة فيـــه ، وإن شعرت بخشونة يسيرة تتخلله تفضح مايعتمل وراء الوجه الجامد .

— هلا وثقت بى ؟ .

لم ينتظر ليسمع جوابا ، ولعله لم يعد يثق فى نفسة إن هو أطال مكوثه فاستدار بسرعة نحو باب الاستقبال دون أن يلقى عليها تحية المساء ، وتركها تحاول أن تحل طلاسم كلماته ، وتتساءل إن كان يحبها حقيقة أم أنه يتلاعب بها . ولو قدر لها أن تراه فى هذه اللحظة لشاهـــدت الرجل القوى الذى تظن أن لاشىء يثير انفعالاته جالسا على أريكة حجرة الاستقبال وهو يضع رأسه بين يديه ويهتز جسده جميعا كأن أصابته رجفة الحمى ، ولسمعت صوته هامسا متهدجا ينبعث من أغوار قلب كليم .

— إيوفيميا .. حبيبتى .. إلهى .. أعق .. !

* * *

تدريجيا تغيرت أحوال جيرونيمو . بدأ بأن تركها بمفردها فى صباح أحد الأيام بحجة تفقد تسليح السفينة ، ولم يغب عنها أكثر من ساعتين . إستمر بعـــد ذلك فى غيابه الصباحى بحجة أو أخرى حتى أضحى عادة ، ثم طالت المدة تدريجيا حتى أضحت لاتراه إلا عند الظهيرة أثناء تناول الغذاء . لاحظت انه يسكثر من الشراب مساء حتى انها اضطرت أكثر من مرة ان تتركه مع ربان السفينة ، والضابط الأول وتأوى إلى قمرتها .

ما أن شارفت الرحلة نهايتها إلا كان التحول قد اكتمل . رأت انه تغير

من رجل قوى إلى فتى عابث . من ذلك الذى كانت مجرد كلمة تسكنى لأن تملأ نفسها ثقة ، إلى سكير لا يذهب إلى فراشه إلا فى الساعات الأخيرة من الليل ، لا يستيقظ لا عند الزوال . وصل به العبث ان أتاها ذات مساء يترنح ، وحاول إقتحام حجرتها ، وفرض نفسه عليها ، ولولا أنها اشمأزت من تصرفاته ورائحة الخمر التى تفوح من فمه لنال منها وطره ، أو هكذا ظنته .

ألقت السفينة مراسيها فى ميناء ممبسه فى الساعة العاشرة من صباح يوم ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٠ . بعد ذلك بساعة حمل قارب الكابتن بدرو ليتاودى جاميوا . قائد حصن يسوع وهو رجل فى الثالثة والأربعين عسكرى المظهر بادى القوة . قابل الكابتن عند مدخل السفينة ربانها والضابط الأول وصحباه إلى غرفة القيادة فورا . وحينما تبادلوا كلمات الترحيب العادية سأل الكابتن .

— هل هناك بريد لى ياسادة ؟

رد الربان .

— أجل .. إليك خطاب يحتوى على أوامر فخامة نائب الملك وعدة خطابات رسميه ، وشخصية أخرى .

تناول الكابتن الخطابات ووضعها جانبا لحين ينفرد بنفسه فى مكتبه بالحصن لقراءتها لكن الربان قال .

— أعتقد أنه من المستحسن أن تقرأ خطاب فخامة الكونت فورا إذ أننى أمرت أن أخبرك بذلك لأسباب ستعلمها حينما تطلع على محتويات الخطاب .

رفع الكابتن حاجبيه ، وتناول الخطاب بهدوء وفضه ، وبدأ فى تلاوته . راقبه الربان ، والضابط الأول وشاهدا تقطيب حاجبيه ، كلما أمعن فى القراءة . أخيرا إنتهى منه فطواه وأعاده إلى مظروفه ببطء .

— إذاً فإن ممبسة سوف يكون لها سلطانا جديدا . من هو جيرونيمو شنجوليا هذا ؟ هل تعرفانه ؟

— أجل .. إنه معنا فى السفينة كما لعلك فهمت . لقد أنقذ حياة فخامة الكونت ..اه بتعيينه سلطانا كما زوجه بإحدى أجمل بناتنا .

ـ ومع هذا فهو أصل إفريقى ! ؟

ـ آه .. أجـــل إلا أنه نشأ منـــذ طفولته فى دير الآباء الاوغسطينيين وهو كاثوليكى مخلص مثلك ، ومثلى تماما .

ـ هل تطمأن مالى الخطاب ؟

ـ ليس تماما .. وإن كنا احطنا علما بمضمونه

ـ الذى لا أتصوره كيف يمين إفريقى فى مثل هذا المركز ، ويكتب لى فخامة الكونت أنه غير مسئول إلا أمامه مباشرة وان أقيم حفلا لتنصيبه ، وأسلمه مفاتيح الحصن كرمز للثقة .

صدر صفير طويل من الربان وقال فى دهشة .

ـ إلى هذا الحد ؟ !

ـ معنى هذا أن مركزه أعلى منى أنا . كيف يتسنى ذلك ؟ !

ـ لست أدرى .. على أى الأحوال فهنالك نقطة واحـــدة لصالحك إذ أن الشخص نفسه ، أعنى تشنجوليا مهذب ولطيف ، وماعليك إلا ان تملأ حصنك بالنبيذ المعتق فيكون أسيرك إلى الأبد .

ـ أين هو الآن ؟

ـ أحسبه مازال نائما ؟

ـ نائم ؟ !.. الآن .. إن الساعة قاربت الثانية عشر .

ـ إنه لم يتوجة إلى فراشه الا في الساعات الأولى من الصباح . مسكينة زوجته . على جمالها ورقتها فاننا لا نـكاد أن نراه معها .

ـ قلت إنها برتغالية ؟!

ـ أجل .

ـ إذا فعلى الأقل سوف يكون لنا حليف فى منزله .

ـ فى منزل من يا سادة ؟

التفت الرجال الثلاثة نحو مصدر الصوت وقد عقدت المفاجأة ألسنتهم . عند

الباب وقف دون جيرونيمو تشنجوليا فى أبهى حلة . تقدم منهم مبتسما وهو ينقل نظراته البريئة بينهم لتستقر أخيرا على قائد الحصن . قام الرجال من مجلسهم وكان الربان هو أول من إستعاد رباطه جأشه فقال مراوغا .

ـ دعنى أولا أقدم لك يادون تشنجوليا الكابتن بدرو ليتاودى جامبوا قائد حصن يسوع .

مد الرجل الأسمر يده إلى الكابتن الذى كان بدأ التحية العسكرية ، وتعجب إذ تناول سلطان ممبسة المقبل يده يشد عليها بحرارة .

ـ إننى سعيد جدا بلقائك ياكابتن .. وأعتقد أننا سنتعاون معا لتحقيق مصالح بلدنا ، والرعايا الأفريقيين كذلك .

إتسعت حدقتا الكابتن وهو يستمع ، لكنه سارع بالموافقة .

ـ آه .. طبعا .. طبعا .. سوف يسرنى هذا التعاون .

جلس جيرونيمو وأشار إلى الرجال .

ـ تفضلوا ياسادة إننى أكره الرسميات وأنت ياسيدى الكابتن مادمنا سنتعاون فإننى أرجو أن ترفع الكلفة بيننا .. والآن من ذا الذى سيكون لنا حايف فى منزله ؟

لم يتردد الكابتن فقد كان لديه وقت كاف للتفكير .

ـ أحمد بن الأمير سالم فإننا نشك فى إخلاصه لنا .

ـ آه .. هل تعلم أن الأمير سالم هو عمى ؟

كانت مفاجأة ثانية لم يتوقعها قائد الحصن أنقذه منها الضابط الأول للسفينـــة .

ـ إن هذا لاينقص من قدرك ياسيدي فأنت لست مسئولا الا عن تصرفاتك شخصيا .

سجل الكابتن دى جامبوا فى ذاكرته نظرة الخوف التى إرتسمت فى عينى

الرجل الأسمر حينما سمع كلمة المسئولية ، وإزداد إطمئنانا إلى مستقبل سلطته فى البلاد فأسرع يؤكد هذه السلطة ، وقال كأنما يجيب عن سؤاله .

ـ طبعا يادون تشنجوليا .. دعنى أؤكد لك أن أخطاء إبن عمك لا يمكن أن تؤخذ عليك .. بل إننى لم أحتسبها على أبيه الذى لست منه كل معونة خلال إقامتى الطويلة هنا ..

تنهد جيرونيمو بارتياح كأنما إنزاح عن كاهله حمل ثقيل..

ـ الواقع أيها الكابتن أنى لا أفهم فى السياسة .. ولهذا دعنى أقول لك منذ الآن إنك المسئول عن إدارة دفة الحكم .. وعلى فكرة كيف حال الأمن ؟

ـ إنه مستتب ولا توجد أية قلاقل .

ـ إذا فإن الأهالى لا يثيرون المتاعب .

ـ مطلقا .

ـ وذلك الذى يدعونه المتشح بالسواد .. ألا يظهر فى مدينتكم ؟

ـ هذا الذى كنا نتكلم فيه قبل حضورك وإن لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أنه احمد بن سالم .

ـ إذا فهو يثير المتاعب !؟

ـ ليس بالدرجة التى سمعنا أن مثيله فى جوا مثلا كان يفعل .

ـ آه .. ذلك الشيطان .. لقد سمعت عنه كثيرا حفظنا الرب منه ولم أكن أتصور أبدا أن يأتى اليوم الذى سوف أكون أحد المسئولين عن القبض عليه .. لكن لماذا لا تقبض على إبن عمى إذا كنت تعتقد أنه هو المتشح بالسواد ؟

ـ لأننى أرجو أن يرشدنى إلى شركائه دون أن يشعر .

ـ هذا يسير فإن بضعة ساعات من التعذيب كافية لا تحل عقدة لسانه .

رد الضابط بسير .

ـ إننا هنا لسنا كما فى جوا .. هناك الجيش والأسطول .. أما هنا فنحن قليل عددنا فى حين أن الأهالى ربما تجاوزوا عشرة آلاف لهذا فإننا لانستطيع أن نقبض على شخص فى مثل أهمية إبن الأمير سالم الا ولدينا مبررات كافيـــة .

ـ فهمت .. يلزمنى إذا أن أكون على حذر .

ـ أجل ..

إنتقل جيرونيمو فجأة إلى موضوع آخر .

ـ هل إستلمت خطاب فخامة الكونت ؟

ـ أجل .

ـ إذا فإن لى املا ارجو ان تتمكن من تحقيقه .. ارجو ان يكون حفل تنصيبى فى الخامس عشر من هذا الشهر بعد ثلاثة ايام إذ انه كما تعلم يوافق عيد رفع السيدة العذراء وأنا استبشر بهذا العيد .

إبتسم الكابتن وهو يرد .

ـ اظن ان فى استطاعتنا ان نلبى هذا الرجاء فإنه يدل على إخلاصكم للكاثوليكية ولا شك ان هذا يشرفكم .

* * *

تم حفل التنصيب فى الخامس عشر من أغسطس سنة ١٦٣٠م ، الموافق السابع من محرم سنة ١٠٤٠ هجرية ، وبهذه المناسبة نصبت الأعلام والرايات ، وانتهز البرتغاليون الفرصة فأطلقوا لأنفسهم العنان فى المرح والرقص والشراب . ولم يمض وقت طويل إلا وعرفت ناتاليا ، ولم تكن قد تزوجت بعد ، ان شيئا يشوب العلاقة بين ايونيميا وزوجها ، فبذلت جهدها فى توسيع شقة الخلاف ، وراحت تطارد جيرونيمو سلطان ممباسة ، حيثما ذهب .

على أن أكثر الفتيات غراما بالسلطان كانت أوورورا ، الفتاة ذات الستة عشر ربيعا ، ابنة الكابتن دى ساميوا قائد الحصن . تدلهت الفتاة فى هوى الشاب الأسمر الجميل

ولم تحاول أن تخفى شعورها ، فكانت تذهب حيثما يكون ، وإذا راقصته تناست الموسيقى وضمته إلى صدرها . لم تلق بالا إلى نصائح أبويها ، ولا إلى نظرات السخط التى كانت كل من ايوفيميا ، وناتاليا ترميانها بها . كانت قد سمعت عنه الكثير قبل أن يأتى ، ثم حينما رأته تصورت ان أحلامها جميعا أوشكت ان تتحقق فطوحت بكل إعتبار آخر فى الهواء .

أما جيرونيمو نفسه فلم يعر أيا من الفتيات أو النساء التفاتا . كانت الراح هى حبيبته الأولى ، يعاقرها لايكاد أن يدعها . تلطف مع ايوفيميا كعادته معها منذ ليلة زواجها الأولى بيد أنه تلطف أيضا مع ناتاليا وأورورا ، وغيرهما . أحست بأنها غريبة فلم يعد حتى يزورها فى حجرتها . بمجرد انوصلوا إلى اليابسة، وسلمه الكابتن دى جامبوا مفاتيح قصر والده ، أفرد لها جناحا خاصا ، واستقل بجناح آخر بعيدا عنها . ولم تكد تراه بعد ذلك إلا لماما فى الحفلات ، أو دقائق قليلة عفوا . حتى الطعام لم يتناوله معها .

إنتهى التنصيب ، واستلم زمام السلطة الرسمية . لكن الواقع انه ترك كل شىء فى يدى قائد الحصن وعمه الأمير سالم ، وأغرق فى ملاذه . لم يكن يكادان يفيق ، وتناسى إقامة الحدود كأنما يشجع المسلمين على شرب الخمر . بل لقد جاهر ذات مرة أن إقامة حد من يشرب الخمر تعد على الحرية الشخصية ، وان الناس أحرار فيما يطعمون ، ولو كان ذلك لحم الخنزير .

رأت ايوفيميا نفسها وحيدة ، لاعمل لها معظم ساعات النهار ، وكل ساعات الليل فجمعت حول نفسها بعض النساء البرتغاليات . حاولت فى مبدأ الأمر أن تصادق الافريقيات ، ظنا منها أن واجبها كزوجة السلطان يحتم أن تراعى شعبها ، إلا أنها وجدت أنهن يبتعدن عنها ولا يأتين إلا مجاملة ، أو خوفا . وعلمت من الإماء والخدم فى القصر أن أهليهن كانوا يمنعونهن من الإختلاط بها نظرا لما كان عليه زوجها من إبتعاد عن الدين وعن القيم الأخلاقية .

آلمها هذا الإبتعاد فقد كانت تود أن تكون ملكة صالحة تراعى مصالح شعب زوجها

وتعمل على رفاهيته ، إلا انها وجدت أن العقبات كانت توضع أمام كل تصرف يهدف إلى إصلاح . طلبت من زوجها مرة المعونة فى إصلاح أمر ، فضحك منها وأخبرها أن تترك مثل هذه الأمور وأن تنعم فى عيشتها راضية . راقبته والحسرة تملأ قلبها يزداد إنحدارا وجريا وراء ملاذه . شيئا فشيئا لاحظت ان هنـــالك بطانة سوء تتجمع حوله ، من الأهالى . كما من البرتغاليين . كان يشرب مع بعض الأهالى فى القصر ، أو يخرج معهم ليعود مع بزوغ الفجر ثملا يترنح .

وإنتهز البرتغاليون بدورهم الفرصة فكانوا يدعونها إلى الشراب فى منازلهم أو يأتون إلى القصر لايبغون سوى اللهو . كانت طلباتهم جميعا مجابه . إذا أرادوا عمالا أمر السلطان بإرسالهم إليهم فورا ، وإذا تناقش العمال فى الأجور أو رداءة الطعام أسكتهم مزجرا .

بيد ان أقرب الناس إليه كان قائد الحصن ، وزوجته وابنته . كثيرا ما كان يقطع الطريق الموحش الطويل على الساحل ممتطيا صهوة جواده ليقضى ساعات مع القائد . وعائلته يتسامرون ، ويتنادمون . ترددت الشائعات أنه شوهد وهو يصحب الفتاة الصغيرة ، أوررا ، فى رحلات خلوية بعيـــدا عن البلدة ، وعن المزارع ، أو هناك وراء دير الرهبان الأوغسطينيين عند الغابات ، أو الشواطىء المهجورة .

بعد شهر من حفلة التنصيب وصلت إلى الميناء سفينة تقل دون سباستيان فورينو ونجله لورنسو ، والده إيوفيميا وأخوها . أمر جيرونيمو فـــورا ببناء منزل لهما ، وأقطعها أراضى واسعة عند حافة الغابة ، بل وأمر الاهالى بقطع الأشجار فى جزء منها ليضمه إلى الأراضى الصالحة للزراعـــة ، ويزيد من المساحة التى خصصها لأهل زوجته .

شعر لورنسو لأول مرة فى حياته أنه أضحى شخصية لها أهميـــة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، فسولت له نفسه الضعيفة انه ، وهو أخو زوجة السلطان ، يستطيع أن يفعل مايشاء . تهرب من دفع أجور العمال ، وإساء معاملتهم ، حق طعام الغذاء الذى كان من المعتاد ان يصرف الأهالى وهم يخدمون فى الأرض امتنع عن صرفه .

شجعه أبوه على ذلك فقد كان تاجرا بطبعه شديد البخل ولا يكن أى احترام أو تقدير للأفريقيين . كانوا بالنسبة له لا يزيدون عن مجرد آلات أو حيوانات تعمل لخدمته وإمتلاء خزائنه ، ويجب أن يكونوا شاكرين لأنه منحهم هذا الشرف . انه باع حانوته ومنزله فى بجوا وحضر ومعه ماله إلى هذه البلدة التعسة لايدفع أجور عمال ، وإنما لتزداد النقود تراكما .

مضت الأيام على هذا الحال ، ناعمة هادئة لايعكر صفوها .. لا .. ليس تماما . فى الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٦٣٠ الموافق ١٢ من ربيع الاول سنة ١٠٤٠ هجرية ، يوم مولد الرسول عليه السلام ، تسرب إلى منزل دون فورينو شبح أسود ليعبث بالمال المخبأ ويأخذ منه مايقابل أجور العمال ، وبدل الطعام الذى لم يصرفه . أخذ اللص مايوزى المبالغ المستحقة تماما ، وترك باقى الثروة دون أن يمسها . وفى الليلة نفسها تسلم الشيخ على الحضرى المبلغ المسروق ليوزعه على مستحقيه .

ضج دون فورينو من السرقة ، وذهب محتدا إلى زوج ابنته ، سلطان ممبسة ، وإلى قائد الحصن . هذا اللص يجب ان يقبض عليه ، ولايجوز أن يترك ليعيث فسادا فى الأرض . انه المتشح بالسواد ، لقد لمحه أحد العبيد وهو يتوارى فى ظلال أشجار الغابة . حاول جيرونيمو ان يقنع الكابتن دى جامبوا بالقبض على ابن عمه أحمد ، وإيداعه السجن مقررا أنه مادام ان القائد مقتنع بأنه المتشح بالسواد فلاداعى للانتظار ، لكن القائد رفض ، وفضل ان يترك له الحبل ليشنق نفسه على حد تعبيره .

بعد ذلك بأيام اغتصب جنديان فتاة من الأهالى ، وكانت هذه من الأمور العادية التى تمر دون أن يعيرها أحد إهتماما ، إلا انه فى المساء التالى هاجم المتشح بالسواد الحصن الصغير الذى يحمى الطريق إلى حصن يسوع ، وقتل جنديين . لم يكونا الجنديين نفسيهما اللذين قاما بالإغتصاب ، لكن الاشارة كانت واضحة ادخلت الرعب فى القلوب .

كانت هذه جرأة من المتشح بالسواد لم يحدث مثلها قط فى المدينة ، وأمسى

لابد من إتخاذ إجراء . قبض الجنود على أحمـــد ، وأودعوه السجن ، كما قبضوا على عشرة رجال من الأهالى وعلقوهم من أرجلهم فى أفرع الأشجار ، وقرر القائد أنه سوف يتركهم ليموتوا جوعا وعطشا . فى صباح اليوم التالى أيقظوا السلطان من نومه وأخبروه أن أحمدا كسر باب السجن وهرب . ولم يكد يرتدى ملابسه حتى جاءه دون سباستيان جزعا لينبئه بأنهم وجدوا خمسة من الرجال البرتغاليين معلقين من أرجلهم فى الأشجار ، ولما سألوهم قالوا إن المتشح بالسواد صاحب بعض الرجال الملثمين وهجموا على منازلهم قبيل الفجر وقيدوهم من أرجلهم ثم تركوهم معلقين فى الأشجار ، واختفوا دون ان ينبس أحد منهم بكلمة واحدة . وقال أحدهم إنه يشك أن الرجال من قبيلة موزونجلو التى تقطن الشاطىء الأفريقى .

أرسل جيرونيمو فورا فى طلب عمه الأمير سالم ، وحينما حضر توجه الإثنان يصحبهم دون سباستيان إلى الحصن .. ليجتمعوا بالقائد . وجدوا عنده جماعة من المستعمرين يتناقشون فيما يجب عمله . لقد استولى عليهم الرعب حتى أنهم حضروا إلى الحصن وهم يحملون أسلحتهم مع أن الوقت كان صباحا . قالوا إنهم لم يعودوا يأمنون على أنفسهم فى منازلهم ، وتساءلوا عما سوف يفعل القائد إزاء هذا التهديد الصريح .

تفاوتت الآراء ، فكان من رأى جيرونيمو أنه يجب قتل الرهائن فورا ، لكن المستعمرين صرخوا بأن هذا الاجراء سوف يؤدى إلى أن يقوم المتشح بالسواد بإجراء إنتقامى مضاد ، ومعناه أن بعضهم سوف يقتل . تحير القائد فى إتخاذ قرار . فهو من ناحية لايريد ان يظهر ضعفا باطلاقه سراح الرهائن ، ومن ناحية أخرى كان يخشى على حياة مواطنيه ، ولايستطيع أن يصمد أمام احتجاجاتهم .

أخيرا استقر الرأى على ان يشيع جيرونيمو أنه توسط لدى القائد لاطلاق سراح الرهائن ، وأن القائد قبل شفاعته على ان يبحث الجميع عن أحمد ، المتشح بالسواد ، وأن يذاع الأمر بوجوب الاخطار عنه حيثما كان . وفى الوقت نفسه إتفقوا على أن يتمهد المستعمرون ، والجنـــود مؤقتا عن التحرش بالأهالى ، أو الاعتداء عليهم . تم الأمر على هذا المنوال ورجع الهدوء والأمن إلى المدينة . ولو إلى حين .

إختفى احمد فلم يظهر له أثر بعد ذلك ، وإختفى أيضاً كل خبر عن المتشح بالسواد ، وعادت الأمور إلى مجاريها . لكن شيئاً فى الجو ظل معلقا . لأول مرة إنتصر الأهالى على المستعمرين ، وشاب السكون نوع من التحفز . أيقن الجميع أنه لو قبض على أحمد فإن الحال سوف ينقلب ثانية ، ويخسر الأهالى ماغنموه من أمن وراحة .

على أن جيرونيمو لم ينعم بالهدوء الكامل . حدثت حادثتان فى أقل من شهر أظهرتا مقدار الكراهية التى يكنها له الأهالى . أثناء توجهه ذات مرة إلى الحصن لزيارة القائد أطلق عليه مجهول سهما كاد أن يصيبه لولا أن جفل فرسه فطاش السهم وفر القاتل المزعوم دون أن يتمكن أحد من القبض عليه .

وحدثت الثانية فى قصره . كان قد فرغ لتوه من تناول طعام الغذاء ، أو الافطار بالنسبة له ، حينما دخل عليه أحد العبيد يطلب الإذن لسيدة بالدخول . تعجب جيرونيمو من الطلب لكنه قرر أنه سوف يستقبلها في إحدى القاعات ، ولما توجه إلى القاعة رأى امرأة يختفى وجهها وراء نقاب . سألها عن مبتغاها فاقتربت منه مترددة ، وفى لمح البصر أخرجت يدها من تحت دثارها فإذا بها تحمل خنجرا يلتمع نصله ، وحاولت أن تطعنه .

إنتزع منها الخنجر بسهولة ، وجلس بهدوء على أحد الأرائك يتلاعب به ويستمع إليها وهى تصرخ في وجهه

— إقتلنى ... ماذا تنتظر ؟

— من أنت ؟ ولماذا تريدين قتلى ؟

نزعت النقاب فبدا وجهها الصبوح وقد إلتمعت العينان تحديا .

— هل عرفتنى ؟

خيل إليه أنه رآها من قبل ، وإن لم يستطع أن يحدد الزمان أو المكان .

— اعذرينى إن كنت لا أذكر .

— طبعا لا تذكر ... ومن أنا من ضحاياك ؟ إننى فاطمة أرملة سعيد الذى قتلته غدرا فى جوا ...

عادت إليه الذاكرة . أجل هذه هي المرأة الصغيرة التي كانت بصحبة أحمد .

— هل تظنين حقا أنني قتلت زوجك ؟

— إني لا أظن ... لقد شاهدتك بعيني رأسي وأنت تغمد الخنجر في صدره .

— وإن قلت لك إنني لم أقتله ، وأنه إنتحر حتى لا يقع في ايدي محاكم التفتيش واني كنت احاول ان امنعه من الإنتحار لولا انه رجاني .. هل تصدقين ؟

بان عليها التردد .. ربما كانت عيناها قد خدعتاها ! ربما كان ما يذكره الرجل الهادئ امامها صحيحا ... حاولت ان تكذبه وان تعيد ذاكرة زوجها الراحل الا ان العينين الصريحتين لم تدع لها مجالا للشك في صدق روايته ... تدافعتها الأحاسيس فلم تدر ماذا تفعل ، وشعرت بعظم الجرم الذى اوشكت ان ترتكبه ، إن كان حقا ما يقول . لكن هل ذكر لها الحقيقة ؟ اعادت النظر إلى وجهه تحاول انْ تستشف ما وراء النظرات المباشرة ، ولم تصل إلى نتيجة . إختلطت في عقلها الأفكار والآراء ووجدت نفسها في خضم لا قرار له ، فانخرطت في البكاء .

— إنني آسفة .. كنت واثقة انك قتلته .. بربك هل لم تفعل ؟

— لا يافاطمة لم افعل ..

— هل تقسم ؟ ..

— اقسم

— لم أعد أدرى الحقيقة .. ربما كنت صادقا .. لكنك ربما كنت مخادعا .. ألم تقتل زهيرا ؟ .. ألم تطاردني وأحمد ؟

— .. لن اعطيك شروحا بعد هذا إنني جاوزت الحد حتى حينما شرحت لك موقفي من الجزء الذي يخصك .. والآن عودي إلى دارك .

— داري ! .. اين هي .. إن داري هي دار إبن عمك أحمد .. لقد تزوجني بعد عودتنا إلى ممبسة .. واين هو الآن ؟

إنه هارب من جورك واصدقائك .

— لكن لماذا لم يخطرنى أنه تزوجك ؟

— لأسباب واضحة .

— ربما .. عودى إلى دارك ولا تخشى شيئا .. قد يطول غياب زوجك لكنه سوف يعود .

إستدارت لتخرج وهى مازالت غير مقتنعة ، إلا أنه استوقفها .

— انتظرى .. هل تريدين اللحاق بزوجك . ؟

نسيت كل شئ آخر ، والتفتت إليه وهى تقول بلهفة .

— نعم .. هل تعرف مكانه ؟ .. خبرنى بربك .. أين هو ؟

— كلا .. لن اخبرك .. لكن إذهبى إلى الشيخ على الحضرمى وأخبريه بما حدث ونفذى مايقول ، ولا تخبرى غيره .. ولعل هذا بمفرده يقنعك نهائيا بصدق أقوالى فيما يختص بزوجك الأول .. اذهبى .. رافقتك السلامة .

كان هنالك شئ فى هذا الرجل يحمل على الثقة به . رأته يقتل ، ورأته يطاردها وأحمد ، فى جوا وظنت أنه من الذين يطاردون زوجها الآن ، وتناهت إلى سمعها أفعاله ، تملقه للبرتغاليين ، وزواجه من برتغالية ، وشرب الخمر واكله لحم الخنزير ، ولا يعلم إلا الله ماذا أيضا . ومع هذا كله فلم تستطع أن تمنع نفسها من الثقة فى كلامه . لم تتردد كثيرا قبل أن تيمم شطر باب الخروج وقد أحست بسعادة وثقة لم تكن تشعر بهما حينما دخلت .

الفصل العشرون

المرتد

اليوم هو الثامن عشر من ابريل سنة ١٦٣١ الموافق الخامس عشر من رمضان ١٠٤٠ هجرية . جلست ايوفيميا فى شرفة حجرتها تطل على حدائق القصر الممتد أمامها . استمعت إلى صوت المؤذن ينادى بآذان المغرب وشاهدت بعض الخدم والعبيد يتجهون إلى المطابخ للافطار . غريب هذا الشهر . إن له طابعه الخاص وتأثيره السحرى على النفوس . لقد لاحظت التغير الذى يطرأ على البلدة وسكانها ، بل إن البرتغاليين أنفسهم لم يكونوا على طبيعتهم ، بدوا قلقين غير مستريحين . هنالك هدوء غريب يطغى على الناس حتى الطبيعة نفسها تشارك فى هذا السكون .

يقع القصر فى الجزء من المدينـــة الخاص بالأهالى ، ولهذا كان احساسها بسطوة الشهر المبارك كبيراً . أما أصدقاؤها البرتغاليون ، وأهلها فكانوا ينفردون بجزء آخر بعيد يفصلهم عنها غيضة من الأحراش وسور مرتفع . ومع هذا فإنها لاحظت أن زياراتهم ندرت فى الأسبوعين الماضيين . حتى أخوها الذى كان كثيرا ما يأتى لرؤيتها تملا إمتنع كلية عن الزيارة .

إنتقل تفكيرها إلى زوجها ، وتعجبت أين يكون . لقد إرتحل عن المدينة منذ أكثر من شهر ، وبالتحديد فى الخامس عشر من مارس الموافق الحادى عشر من شعبان مقررا أنه سوف يذهب إلى داخل القارة فى رحلة صيد ، وربما إستغرق غيابه ثلاثة أشهر أو أربعة . ترى هل إبتدع الرحلة ليهرب من هذا الشهر الغريب ؟ هل مازالت هناك جذور عميقة من ديانته السابقة تجعله يفر أمام سطوة هذا الشهر ؟ .. لا إن زوجها ليس جبانا .. أيا قيل عنه فلا يستطيع أحد أن يتهمه بالجبن .. زوجها ؟! .. هل هو زوجها حقيقة .. لقد مضى على زواجهما حوالى ثمانية أشهر ، ومع هذا فلم يلمسها ، وهى لاتدرى إلى متى سيستمر الحال .

رجعت بذاكرتها إلى يوم أن قابلته فى حفل دوم دى ليمسا منذ حوالى السنتين . لقد صادفتها حوادث كثيرة منذئذ وتعلمت الكثير . لم يقتصر علمها على ما شاهدته ، وإنما درست بنفسها العربية والسواحيلية ، والسكونسكانى ، تلك اللهجة المستحدثة التى إبتدعها البرتغاليون المتزوجون من هنود .

ساعدتها اللغات كثيرا فى تفهم الشعب الذى تعيش على أرضه ، والذى يحكمه زوجها ، ولو إسما . لم يكن شعبا من المتوحشين كما أفهموها فى الدير . لم يكونوا مجرد عبيد أرقاء لا يصلحون إلا للإستغلال ، والإستثمار ، والعمل لصالح السادة البرتغاليين . وجدت فيهم سماحة خلق ، ولين جانب وحسن معاملة . أما ذلك الدين البغيض الذى تعلمت أن تمقته ، وتحتقر أكثر من أى شئ فى الوجود فلم تر فيه ما تنكره . بدأت بالاحتقار والمقت كلما وصلت إليها أصوات المؤذن ينادى ، أو رأت الخدم والاماء يعفرون جباههم على الأرض ساجدين ، ثم ألفت تدريجيا الصوت ، وألفت المنظر .

إستمعت أحيانا إلى بعض الخدم يتلون القرآن ، ولم تفهم كلماته فما كانت لغتها ترقى إلى مستواه ، ومع هذا فقد كان له وقع لطيف قريب إلى القلب . حاولت أولا الا تنصت إذا إعتبرت مجرد الانصات خيانة لدينها ، ولملكها ، ولشعبها . ثم مرت الأيام ، والأسابيع ، والشهور فإذا بها تتلصص مستمعة . تفهمت بعض الآيات السهلة ولم تجد فيها ما يعيب . وفاجأها زوجها ذات مرة وهى تجلس فى الحديقة تستمع إلى بستانى يتلو بعض القرآن ، ورأت فى عينه نظرة غريبة لم تستطع أن تفسرها ، تردد قليلا ثم تركها دون كلمة .. وجاء الشهر الغريب لتشعر بوطأته أشد ما يكون . تسمعت إلى آذان المغرب ، وإستيقظت على دق طبول السحور لتبقى مسهدة تنتظر آذان الفجر .

ومضت الأيام تتسابق رجعا إلى الوراء لتختفى فى ظلمات الماضى . وإنقضى الشهر الكريم ، وتلاه العيد . سمعت آذان الفجر يتلى فى مسجد القصر . واستيقظت ثانية على أصوات الجموع تكبر وتسبح . أتتها من مسجد القصر عالية

واضحة تشق الهواء لتصل إلى قلبها مباشرة تغلفه بغشاء ثقيل من الرهبة . حاولت أن تضع الوسادة على رأسها فى محاولة لأن تصم أذنيها ، لكن الصوت الجماعى إستمر يصل إليها . أخيرا إستسلمت وقامت من فراشها لتقف فى الشرفة تستمع إلى السكون يردده . وتتالت الأسابيع بعدئذ ولم تستطع أن تتخلص من سهادها عند الفجر . إعتادت أن تستيقظ مع الأذان لتستمع إليه ثم تعود إلى نومها بعد دقائق . رجعت إلى حياتها العادية تستقبل بنى جلدتها ، وتذهب إلى حيهم ترد زياراتهم . ومع أن الخريف انقضى[1] وبدأت بوادر الشتاء إلا أن زوجها لم يعد ، كما لم ترد منه أخبار .

وقعت فى هذه الأثناء حادثة كان لها أثرها بعد شهور . كانت زوجة احد المزارعين ويدعى سباستيان عائدة إلى حى الأهالى بعد أن حملت الطعام إلى زوجها . وعند الغيضة التى تفصل القسمين ، القسم الذى يقطنه الأهالى والذى يقطنه البرتغاليون ، إنتظرها لورنسو ، واغتصبها بالقوة . شكت المرأة إلى زوجها فتوجه إلى منزل لورنسو يريد قتله إلا أن سباستيان ، والده ، تصادف وجوده فأطلق عليه النار وأرداه . ثار الأهالى وطالبوا بقتل الأب وإبنه لكن الجنود البرتغاليين أطلقوا عليهم النيران ، وقتلوا ثلاثة منهم . وهدأت الثورة . بعد ذلك بدأت غارات غريبة يشنها رجال من قبيلة موزنجولى على الشاطئ الإفريقى ، على الحصن ، والمنازل الثلاثة المتاخمة له . والمتخذة كحصون صغيرة تحمى الطريق الوحيد الموصل إليه .

لم تكن هذه الغارات ذات أثر كبير ، فعلى الرغم من تعددها فإنه لم يقتل أثناءها الا جنديين وجرح ثلاثة . وتوجس البرتغاليون خيفة من عودة المتشح بالسواد الا أنه ظل مختفيا لم يظهر له أثر ، ومع مرور الأيام هدأت الاحقاد ، وعادت الأمور إلى مجراها .

---

(١) اذكر القارئ أن ممبسة تقع جنوب خط الاستواء وشتاؤها يبدأ فى يونيو .

فى منتصف شهر يوليو عاد زوجها والجماعة المرافقة له من رحلة الصيد وامتلأ القصر حيوية . ذهبت إليه تحييه فاستقبلها كعادته بأدب جم ورقة متحفظة . لاحظت أنه أكثر نحافة وان نظرته اكثر صرامة ، وخيل إليها أنه بدا أكبر من عمره بسنوات . اخبرته بقصة أخيها وأبيها اذ لم تكن تريد أن يصله الخبر من غيرها فقطب عن جبينه وظل صامتا حتى اتمت القصة بأمانة ودون اى اعتذار عن أبيها . وحينما انتهت فاجأها بسؤال .

— وأنت مارأيك ؟

— رأيى ؟!.. رأيى أن هذا ظلم .

— ثم .. ؟

نطق الكلمة بلهجة استفهامية . وتلعثمت .

— ماذا تعنى ؟

— هل من رأيك أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ؟

— يبدو أنه انتهى فعلا لكننى أردت فقط أن أخبرك ؟

— هل تعتقدين حقا أنه إنتهى ؟ ..

— ماذا تعنى ..

— لاشيء .. لكن دعينى أذكرك أن للسماء عدالتها ولو ظلم البشر !

كانت هذه أول مرة يخاطبها بمثل هذه اللهجة الجادة ويتكلم فيها عن العدالة . تطلعت إلى وجهه مستفسرة وقد داخلها خوف على أبيها وأخيها ، الا أنه أشاح عنها وصعد إلى حجرته . ظنت أنه وقد عاد سوف يثير الموضوع ثانية ويتمسك بالعقاب للاثنين ، لكن الأيام مضت دون أن يحدث شىء ولم يلبث من ناحيته أن عاد سيرته الأولى ، يذهب إلى الحصن ولا يعود منه إلا ثملا يترنح . وجاء صباح يوم الرابع عشر من أغسطس سنة ١٦٣١ لتنقلب حياتها رأسا على عقب .

إستيقظت عند الفجر كعادتها تستمع إلى الأذان ، تقلبت فى فراشها بضعة دقائق

ثم غالبها النوم إلا أنها استعادت جميع حواسها فجأة واعتدلت فى فراشها . جاءها صوت وقع أقدام خفيفة تهبط الدرج فانصتت ثوانى ثم هبت من الفراش وأسرعت تضع على نفسها دثارا ، وإنطلقت إلى الشرفة تتطلع منها . كان الظلام ما يزال سائدا فلم تستطع أن تتحقق من شخصية الرجل الطويل الذى رأته يعبر الحديقة إلى الباب الخارجى لكن شيئا فى نفسها قطع بأنه زوجها .

تملكتها الدهشة من خروجه فى هذا الوقت خاصة وأنها سمعت صخبة حينما أتى ثملا فى ساعة متأخرة من الليل . أسرعت تخرج من حجرتها وتهبط الدرج ثم تعبر عبر الحديقة . كان المفروض أن يكون هنالك حارس على الأقل عند الباب الخارجى إلا أنها لم تر أحدا ، بل زاد الأمر على ذلك بأن الباب كان مفتوحا على مصارعيه . دافت خارجه ؛ وتطلعت عبر الطريق ، خيل إليها انها رأت اشباحا تتحرك عند إحدى نهايتيه فهرعت فى هذا الإتجاه .

كانت قد نسيت أن تضع حذاء فشعرت بالأرض باردة رطبة صلدة ، وآلمتها قدماها وهما تتعثران فى الحصى والحجارة فلم تأبه . كانت تود أن تعرف أين يذهب زوجها فى هذه الساعة . أحست بأن سرا دفينا سوف يميط عن نفسه اللثام خلال الدقائق التالية فلم تعر إنتباهه لبرودة الجو ، ولا صلابة الأرض . تتبعت الأشباح عن بعد حتى رأت أنها قد خرجت من البلدة واتجهت إلى حيث المقابر ، فبدأت تبطىء فى سيرها وتتحرك بحذر .

بدأت أنوار الفجر تتخلل الظلام ، وإستطاعت أن تتحقق أن زوجها كان أحد الرجال الثلاثة أما الآخران فكانا حارسى باب القصر . رأتهم يتجهون رأسا إلى مقبرة كبيرة يختفون عند بابها فتسللت خلفهم ثم توقفت . إلتقطت أذناها صوت وقع أقدام يحاول صاحبها أن يخفيها ، وعلمت أنها ليست الوحيدة التى تتجسس . قبعت وراء جدار أحد المقابر ، وإنتظرت مترقبة تتسمع إلى دقات قلبها ومضت دقائق خيل إليها أنها ساعات ثم رأت المتلصص .

لم تسطع أن تتحقق منه فى مبدأ الأمر إذ كان بعيدا عنها ولم يكن الضوء كافيا . إقترب الشبح متجها إلى المقبرة التى اختفى داخل سورها الحديدى زوجها ورفيقاه ، وتعرض وجهه إلى الضوء فعرفته . كان نونو باروس أحد المستعمرين البرتغـــاليين .

دارت دورة واسعة حول المقبرة بعيدا عن بابها ، وبعيدا عن المتلصص . كانت تريد ان تعرف لماذا أتى زوجها . داخلها شك فى ان أصحاب المقبرة هم ذووه لكن هذا لم يكف للاجابة على سؤالها . كان البناء ذا طابق واحد من الحجر يحيطه به سور حديدى يفصله عن المبنى مساحة صغيرة من الأرض الفضاء . أدخلت جسدها النحيل بين أعمدة السور وجاهدت حتى مرقت منها ، واقتربت من المبنى تتلصص من النافذة . وصعقت .

شاهدت زوجها ساجدا يصلى وقد إتخذ القبلة وجهته ، ووراءه تبعه الحارسان . لم تصدق عيناها ماراًت ، زوجها يصلى كما يفعل المسلمون ؟! كيف ؟ إنه مسيحى مخلص ، كاثوليكى قبل يد البابا ، ونشأ فى دير الاخوان الأوغسطينيين . كيف يصلى صلاة المسلمين ؟؟ !

كاد رأسها أن ينفجر ، وتتالت الأفكار تزاحم بعضها حتى أنها ودت لو صرخت بأعلى صوتها . ظنت أنها فى حلم ، وان ماتراه لايعدو أن يكون خيالات وأوهاما فتصلبت مكانها وقــد تركزت عيناها على زوجها . رأته يصلى بتؤدة وخشوع وقد نكس رأسه فى الأرض لايرفع طرفه . كان مستغرقا بكل حواسه فى صلاته حتى خيل إليها أنها لو صرخت ماانتبه . ترى هل إرتد إلى اسلامه بعد ان عاد إلى بلدته أم أنه لم يكن مسيحيا قط ؟ هل كانت حياته جميعا خدعــــة ؟ .. لا .. لا يمكن ان يكون هذا .. عليها ان توقف التفكير وإلا جنت .

لاحظت انه شارف الانتهاء فأحنت رأسها تختفى وراء الجدار لكنها رأت قبل ان تنسحب ان رأسا أخرى تحركت عنـــد الباب لتختفى بدورها . قبعت فى مكانها لاتتحرك وقد حبست أنفاسها .. سمعت حركة داخل المقبرة ، وعلمت

أن الرجال قد انتهو مما كانوا فيه ، وأنهم يتجهون إلى الخارج . إستمرت حيث هي دقائق ثم تنبهت إلى أنها يجب أن تسرع فى العودة قبل أن يعود زوجها والحارسان ، كان قد مضى عليها منذ خروجها أكثر من نصف ساعة ، وأضحى الضوء من القوة بحيث يمكن الرؤية على مسافة إلا أنها لم تر أحدا .

هرولت تعبر القبور ، وتقطع الشارع الطويل نحو القصر . رآها بعض المارة فى الطريق ويبدو أنهم كانوا قد فرغوا من صلاة الفجر واتجهوا نحو أعمالهم ، ولم تهتم بنظراتهم المتطفلة . لما وصلت إلى باب القصر حمدت الله أن الحارسين لم يكونا موجودين وانطلقت تقطع الحديقة عدوا راجية ألا يراها أحد من الخدم ، ومع هـــذا فإنها لمحت بعضهم وهو يخرج من مسجد القصر ويقف مبهوتا وهو ينظر إليها .

وصلت إلى حجرتها فى حالة شديدة من الإعياء وقـــد تسلخت قدماها حتى ماتستطيع أن تضعها على الأرض . أسرعت تنظفها وتبللها ببعض الروائح العطرية ، ووجدت أنهما تسلختا إلى درجة ان كل حركة كانت تؤلمها . ألقت بنفسها على الفراش تريد أن تطلق لأفكارها العنان لكنها قبل أن تجمع شتات عقلها سمعت طرقة خفيفة على الباب ، فمدت يدها تسحب الغطاء على جسمها قبل أن تأذن بالدخول . فى اللحظة التالية انفرج الباب عن زوجها .

لم يدخل مباشرة ، وإنما وقف وسط فرجة الباب ينظر إليها ثم تقدم بهدوء وأغلق الباب وراءه . اعتدلت فى الفراش ونظرت إليه . ولم تستطع عيناها ان تثبتا أمام عينيه المتفحصين فأرخت أهـــدابها ، وتظاهرت بإصلاح شأنها . لم يتكلم الرجل حتى اقترب من فراشها وجلس على مقعد يواجهها ، وكعادته جاءت كلماته واضحة لا التواء فيها .

ـ انى عـــدت إلى القصر قبلك ، إن آثار أقدامك واضحة فى الردهة وعلى الدرج بل هنا فى الحجرة . كيف تخرجين دون حذاء ؟ هل جرحت ؟

صعقت من اتجاه تفكيره . لم تتصور ان أعصابه تصل إلى هذا الحد من البرود .

يترك الحديث عما يعلم قطعا أنها تعلمه ليتكلم عن الأحذية والجروح ؟ !
ومع هذا فإنها لم تمالك ان تشعر ببعض الراحة للسؤال ..لا .. إنه يتلاعب بها .
ويريد أن ينأى بتفكيرها عن خداعه وتضليله .. إنه أستاذ فى هذا الفن ..

جابهته بغضب شديد جعل صوتها يتحشرج فى مبـــدأ الأمر ثم يتدرج الى الارتفاع .

ـ أولى بك ان تسأل نفسك ماذا كنت تفعل هذا الصباح ؟

بهدوء زاد عما اعتادته خرجت كلماته تؤكد ماشاهدته .

ـ كنت أصلى على روح والدى وأسألهما ان يدعوا الله ان يوفقنى ويسدد خطاى ويغفر أخطائى ..

زادها هدؤه غضبا .

ـ تصلى صلاة المسلمين .. انك مخادع .. غشاش .. مضلل لادين لك .. كنت مسلما ثم انقلبت مسيحيا وها أنت الآن ترتد مسلما ولا أحد يعلم ماذا ستكون فى الغـــد .. ان حياتك خداع وكذب .. زور وبهتان .. اليوم سيعلم الجميع مافعلت .. وسيرونك على حقيقتك .. بلا زيف أو رياء .. سيعلمون انك تتلاعب بالأديان كما تتلاعب بالناس .. كلها لخدمة مصالحك .. سيعلم الكابتن دى جامبوا حقيقتك .. ويرسلك مكبلا بالحديد الى جوا لتتلقفك محاكم التفتيش تطهر روحك بأسيـــاخ من نار .. لقد انتهت أسطورة البطل المخادع .. وسيطلع العالم على حقيقتك ..

جلس ينصت اليها دون ان يقاطعها ، وحينما ذكرت محاكم التفتيش تلاعبت على شفتيه ابتسامة خفيفة جعلت ذاكراتها تعود الى سنتين خلت حينما ورد ذكرها على لسانه فى صالة الخان الذى كانت وأخوها ينزلان فيه فى لشبونه ، وعلمت ان هـــذه الابتسامة إنما تلاعبت لتذكرها بهذه الواقعة .. وبالرغم منها داخلتها غصة وهى فى أوج احتدامها ..

لما استنفذ الغضب حيويتها سألها بهدوء .

ـ من قال إننى كنت مسيحيا ؟

فغرت فاها وهى تنظر إليه غير مصدقة . شعرت بأن عقلها قد تبلد ولم تعد له القدرة على التفكير ، أو الفهم فتساءلت ببلاهة وهى تبتلع ريقها .

ـ ماذا ؟

ـ من قال إننى كنت مسيحيا ؟

ـ ألم تنشأ فى دير الرهبـــان الأوغسطينيين ؟ ألم تذهب إلى الكنائس كل أحد ؟ .. هل كان كل هذا رياء وخداعا ؟

ـ إننى لم أكن مطلقا غير مسلم . ولم أرتد أبدا عن دينى الأصلى .

ثارت لدينها . هبت من أغوارها تربية دينية قضت حياتها فيها كلها حينما كانت فى الدير ، فصرخت فى وجهه .

ـ أيها المخـــادع .. أيها الكلب .. أيها الكافر المرتد .. لقد آن الأوان لأن يرفع عنك النقاب وتلقى جزاءك الحق .

قام من مجلسه واكتسى وجهه مسحة صارمة ، وتحولت لهجته من الهدوء إلى الخشونة والأمر .

ـ كفى .. إنك لن تبرحى حجرتك حتى آذن لك .

أولاها ظهره واتجه نحو الباب لكنها كانت قد فقدت أعصابها فلم تتوقف .

ـ أتظن أنك بهذا سوف تستطيع أن تستمر فى إخفاء حقيقتك ؟ هل تظن أنك بسجنى تتمكن من الاستمرار فى الخداع ؟ إنك واهم هناك من رآك غيرى ولعله قد أخبر الكابتن دى جامبوا الآن .

لم يكن قد أعارها اهتماما واستمر فى سيره وهى تتكلم حتى وصل الباب ووضع يده على المقبض لكنه حين سمع جملتها الأخيرة تسمر فى مكانه ثم استدار ببطء .

ـ ماذا تقولين ؟

عرفت أن لسانها سبق تفكيرها إذ أعماها الغضب فصمتت تفكر فى مخرج إلا أن صوته لم يدع لها مجالا للانتظار .

— تكلمى يافتاة ؟ .. ماذا تعرفين ؟ .. من رآنى سواك ؟ ..

لم ترد ، ونظرت إليه متشفية .. أجل سوف يلقى جزاءه . لابد ان قائد الحصن قد علم الآن .. بل لعله أرسل ثلة من جنود للقبض على السلطان المخادع .. رأته يتقدم نحوها بخطوات سريعة وامتدت يده لتقبض على ذراعها . أحست بأصابع من فولاذ تنغرس فى لحمها فصرخت متألمة إلا أنه لم يدعها .. وسمعت صوته الآمر يقول بغضب .

— تكلمى يافتاة .. ؟ من رآنى ؟ .. ومتى ؟

— لن أخبرك ولو قتلتنى .

فجأة تركها .. لافائدة على كل حال .. إن من رآه لابد أنه أخبر دى جامبوا .. ولابد ان الأخير فى طريقه إليه الآن . حل به يأس قاتل .. بعد كل هذه السنين من المرارة والحرمان .. وحينما أوشك حلمه ان يتحقق ، تأتى فتاة صغيرة ، ورجل مجهول ، ليقضيا على كل ماخطط له ، وما تحمل من أجله . أولاها ظهره المرة الثانية واتجه إلى الباب .

— إنه نونو دى باروس .. هل تعرفه ؟

توقف ثانيــــة ، والتفت إليها .. غريب أمر النساء . ليس من السهل أن تعلم مايعتمل فى نفوسهن .. ولعلهن لايعلمن أنفسهن .. نظر إليها محاولا أن يتفهمها ثم أدهشتها كلماته التالية .

— أريد أن أخبرك أن حياتى لم تكن كلها خداعا .

أغلق الباب خلفه برفق ، واتجه إلى حجرته ينتظر تطور الحوادث ، وتركها فى فراشها تفكر فى كلماته الأخيرة .. هل يعنى أنه يهواها ، ولم يخدعها ؟

* * *

فى الحصن ، جلس نونو دى باروس ينتظر : لقد جاء من المقابر حيث شاهد جيرونيمو يصلى على والديه صلاة المسلمين ، لكن الحرس أبوا أن يفتحوا له فى هذه الساعة المبكرة حتى يخطروا ضابط النوبة . ومضت ساعة قبل أن يأتى الضابط

الذى أيقظوه من نومه ويسأله متبرما عما يريد ، لكن الرجل لم يقبل أن يبوح له وطلب مقابلة القائد شخصيا . غضب الضابط ورفض أن يأذن له حتى يستيقظ القائد وينزل إلى مكتبه ، ومعنى هذا أن عليه أن ينتظر أكثر من ساعة أخرى . وبإصرار جلس دى باروس ينتظر .

دخل إلى مكتب القائد دى جامبوا ، ومضى يروى له تفاصيل مارأى بلهجة منفعلة . ظل القائد صامتا لا يقاطعه حتى انتهى من سرد روايته ثم سأله .

— هل أنت واثق مما رأيت ؟

— طبعا .. لقد شاهدته بعينى رأسى .

— هل كان معك أحد آخر ؟

— كلا .. كنت بمفردى .

— وماذا كنت تفعل بمفردك عند مقابر المسلمين فى هذه الساعة ؟

بان التردد على دى باروس لكنه لم يلبث أن طرحه جانبا .

— سأقول لك لكن أرجو الا تخبر أحدا فإننى رجل متزوج ، والسيدة إمرأة متزوجة من الأهالى واعتدنا أن نتقابل عند الغيضة . سرت برفقتها حتى أول طريق البلدة ، ولما تركتنى شاهدت جيرونيمو ، ومعه اثنين من حراسه فتعجبت من وجوده فى هذه الساعة ، واقتفيت أثره .

— هل أنت واثق مما رأيت ؟ ومن أن من رأيته هو دون تشنجوليا ؟!

— لماذا تعيد على هذا السؤال ؟ ليس لدى أدنى شك .. قلت إننى رأيته بعينى رأسى ؟ !

تجاهل القائد السؤال واتبعه بآخر .

— وكيف كان حال تشنجوليا ؟

— ماذا تعنى ؟

— أعنى هل كان طبيعيا فى تصرفاته ؟

— لماذا هذه الأسئلة ؟ من البدهى أنه كان طبيعيا ؟

— ألم يبد عليه أى إجهاد ؟ ألم يكن يترنح مثلا ؟

— لا

— هل أنت واثق مما تقول ؟

— أنك مازلت تكرر السؤال ؟ لماذا ؟ قلت إنه لا شك لدى .

— إنى أكرر السؤال لأكثر من سبب . أولها أن دون تشنجوليا كان معى ليلة البارحة ولم يترك الحصن الا فى الساعه الثالثة صباحا، وكان مخمورا تماما ولست أتصور أن فى إستطاعة إنسان بعد هذا أن يتماسك قبل مضى خمس ، أو ست ساعات ، كما أن هنالك مائة شاهد على ما أقول .

— أنا لا يهمنى إن كان هنا أو فى أى مكان آخر . ولا إن كان رآه معك مئات . إنى أقول إن ماأرويه لك هو الحق .

تنهد الكابتن أمام اصرار الرجل

— حسنا سوف أذهب إلى القصر فى زيارة غير رسمية عسى أن استكشف الحقيقـــة .

— إن الحقيقة هى ما أقول . وعلى أى الأحوال ما الذى أجنيه من الكذب ؟

— ربما كانت زوجتك من اللائى وقعن فى حبائل هواه وتريد الخلاص منه ، وربما كان لك مأرب آخر ، وما يدرينى ماذا يدور فى النفوس ؟

بدا الغضب على دى باروس وهم أن يرد بعنف على القائد لكن الأخير قام من مجلسه إيذانا بانتهاء المقابلة وقال .

— سأذهب إلى القصر لأستطلع الحقيقة بنفسى لكن بعد أن انتهى من مهامى الصباحية فى الحصن .

* * *

كان الوقت يقارب الظهر عندما وصل دى جامبوا إلى القصر . أخبره أحد

الخدم ان سيد القصر مازال فى حجرته ، وانه لم يستيقظ إلا منذ اقل من ساعة . وقبل ان يطلب مقابلة السيدة رآها تهبط الدرج وتستقبله باسمه .

— اهلا بالكابتن إننا سعداء بهذا الشرف . هل هناك خدمة استطيع ان أوديها ام انك جئت فى زيارة تتعلق بالامور الرسمية ؟

احنى دى جامبوا رأسه تحيه ثم اعتدل فى وقفته .

— الواقع إنها مجرد زيارة شخصية .. لقد اتيت لاستفسر عن صحة الدون تشنجوليا اذ يبدو انه افرط فى الشراب فى الليله الماضية .

— شكرا .. إنه فى احسن صحة والواقع إنه لم يستيقظ إلا منذ قليل ماذا استطيع ان اقدم لك ؟

سارا إلى احدى قاعات الاستقبال ، وجلسا على مقعدين متقاربين.

— شيء رطب لو سمحتم .

حركت إيوفيميا جرسا صغيرا التقطته من منضدة بجوارها ، وسرعان مالبى احد الخدم النداء . طلبت شرابا للكابتن ثم التفتت إليه ثانية .

— كيف حال السيدة زوجتك ؟ وابنتك ؟

— فى احسن حال شكرا .. هل تسمحين لى ان اسألك سؤالا شخصيا ؟

تبسمت ايوفيميا .

— تفضل .

— هل تنامين مع زوجك فى فراش واحد ؟

رفعت حاجبيها فى انفه وكبرياء .

— كابتن دى جامبوا اظنك قد جاوزت حدك .

— صدقينى ياسيدتى إننى إنما اسألك لصالح الدولة ، والدين المسيحى . ارجوك ان تجيبينى .

ترددت فى الإجابة وبدت كمن يوازن الامر .

— ان علاقتى بزوجى لا تشوبها شائبة .

لم ترق الإجابة للقائد وسألها مباشرا .

— سيدتى هل كان الدون فى فراشك أمس ؟

تملكها غضب حقيقى ، وارتفع صوتها عاليا وهى تجيب .

— كابتن دى جامبوا .. إنك حقا قد جاوزت الحد .. هل هو استجواب عن أمور عائلية ؟ .. ماذا تبغى تماما ؟

رنت ضحكة ظريفه فاجأت الإثنين ، فإلتفتا إلى مصدرها ليشاهدا جيرونيمو يدلف من الباب ويتقدم نحوها .

— أهلا بالقائد .. لماذا أدين بهذه الزيارة الجميلة ؟.. وما هى الأمور العائلية التى تستجوب فيها زوجتى ..؟

قام الكابتن من جلسته مرتبكا وأسرع يقول .

— لا شئ يادون .. إننى فقط جئت أطمئن على صحتك بعد سهرة البارحة .

تقدم السلطان إلى حيث تجلس زوجته ليضع يده رقيقة على كتفها ، وتكلم بلهجة تقطر حنوا .

— عزيزتى .. إن الكابتن هو أب لكل برتغالى هنا .. بل وإفريقى كذلك وبالتالى من حقه أن يتدخل فى الأمور العائلية .. تفضل ياعزيزى بالجلوس .. هل قمت بواجب الضيافة أيتها الحبيبة ؟

دخل الخادم فى هذه الأثناء يحمل أكواب الشراب البارد وقدمها للضيف وسيده بعد أن اعتذرت ايوفيميا عن الشراب . واستطرد جيرونيمو .

— بمناسبة وجودك هنا دعنا نتكلم عن تفاصيل الحفلات الخاصة بعيد رفع السيدة العذراء ، ومناسبة تنصيبى سلطانا .. إننى فهمت أنه سيقام حفل فى المساء فى أحد منازل رابوتزبيرو (الشارع الوحيد فى ممباسة البرتغالية) ولست أدرى عند من هزوجتى هى التى تهتم بهذه الأمور . وماذا عن الغد ؟

ـ لاشىء سوف تأتى مع بعض رجالك الى الحصن لتتسلم المفاتيح فى حفل رسمى وهنالك حفل غذاء ثم ينصرف الجميع بعد أداء التحية للعلم .

ـ هذا حسن متى تريدنى ان أكون موجودا ؟

ـ ستبدأ الاحتفالات والموسيقى فى العاشرة صباحا ولعل أنسب وقت لحضورك هو الثانية عشر قبل افتتاح المطعم وذلك لتوزيع الهدايا على بعض المواطنين .

ـ وهل اصطحب معى زوجتى ؟

تكلمت ايوفيميا لأول مرة .

ـ لا .. انى سأذهب إلى الكنيسة صباحا ثم أعود مع بعض صديقاتى إلى القصر حيث دعوتهن إلى تناول طعام الغداء .

قام الكابتن من مجلسه وقال وهو يؤدى التحية لسيدة القصر .

ـ إذاً فإلى اللقاء ، وأرجو ان تأذنا لى فى الإنصراف . هنــالك الكثير من التفصيلات التى يجب أن أوليها إهتمامى .

صحبه جيرونيمو إلى باب القصر ثم عاد إلى زوجته التى كانت ماتزال جالسة فى مكانها وقد استغرقت فى تفكير عميق .

ـ عزيزتى .. لعلى خطأت إذ لم أخبرك من مبدأ الأمر لكن هل كنت تقبلين الزواج منى لو علمت أننى مسلم ؟

لاتردى الآن . . ربما فى الغد .. أو بعد غد ..

كانت لهجته مليئة بالرقة والحنو .. لهجة شاكرة ، دون حاجة إلى كلمات .. راجية دون خنوع الألفاظ . وفى اللحظة التالية وجدت نفسها بمفردها فى القاعة ، وحينما سألت عنه علمت أنه غادر القصر . ولم يأت عندما حل موعد الغذاء ، وان كان قد أرسل لها من ينبئها بأن أمورا هامة أخرته ، ويرجوها ان تذهب إلى الحفل فى رابوتزيرو إذا لم يحضر قبل ذلك وأنه سوف يلحقها هناك ليعودا سويا .

* * *

توجه الكابتن بدرو ليتاودى جامبوا مباشرة من القصر إلى الحصن وهناك أرسل إلى نونو دى باروس ولما حضر بادره .

ـ دون دى باروس .. إننى مقتنع الآن بأنك على حق . لكن الأمر ليس يسيرا كما تتصور .

فأولا هنالك ماضى ذلك اللعون الملىء بالأمجاد ، وهنالك تربيته فى الدير ، وانقاذه لحياة فخامة الكونت ، وستجد ان عشرات من الجنود البرتغاليين فى الحصن مستعدون لأن يقسموا أنه توجه الى قصره فى ساعة متأخرة من الليل فى حالة من السكر يستحيل معها تصديق ماتدعيه ، وهنالك احجامك عن الشهادة لظروفك الخاصة ، وأهم من لذلك أن اللعون متزوج من برتغالية وأنها معه قلبا وقالبا ، وليست مستعدة لأن تشهد ضده بل ستكون شهادتها لصالحه ، مع كل هذه الظروف فانى أرى أننا لو أقدمنا على أى عمل ضده فلاشك ان مساءلتنا ستكون كبيرة .

ـ إذاً فكيف اقتنعت أنت بأن مارويته لم يكن كذبا ؟

ـ لأن زوجته كذبت .. حينما ذهبت سألت عنه ، فأنبأنى الخادم دون أن يقصد أن سيده فى حجرته لم يكد ان يستيقظ وحينما سألتها أخبرتنى أنه كان معها طوال الليل .. أو على الأقل أجابتنى إجابة لولبية المقصود منها ان أفهم هذا فظنت ان فى الأمر شيئا .

ـ وما العمل ؟ هل سنكتم ماعلمنا ، وندع الأمر وكأن شيئا لم يحدث ؟

ـ فى الوقت الحاضر نعم حتى تتجمع لدينا أدلة كافية .. إن لدى بعض الجواسيس وسأوجههم جميعا لمراقبته ، وحينم تتجمع لدينا الأدلة سنضرب .

ـ ألا توجد وسيلة أخرى للخلاص منه ؟

تظاهر الكابتن بالتفكير ، والواقع انه كان قد فكر قبل ذلك ووضع خطتة ، ولهذا استدعى الرجل إلا أنه لم يشأ أن يفاجئه بالخطة حتى يثق فى أنه سوف يعمل طبقا لأوامره . أظهر تردده كأنما يستبعد التفكير وأخيراً قال .

ـ لاأعتقد .. لاشك ان كل مسيحي مخلص لايمكن ان يقبل هذا المخادع الكافر لكنه للأسف في مركز قوى بحيث يستحيل ان أقدم على عمل رسمي دون أدلة دامغة .

ـ لماذا إذاً لا تقتله بصفة غير رسمية ؟

ـ لا ياصديقي إنني لاأستطيع ان أفعل هذا ، أو حتى ان أتدخل في الأمر .. إنني هنا لحفظ الأمن ولايمكن ان يكون لي حتى مجرد علم بالأمر .

ـ هذا عن الرسمي . ماذا عن غير الرسمي .

ـ انني ككاثوليكي لاشك أرحب بأية حادثة تقضي على الكافر .. ! .، ترى اين المتشح بالسواد الآن ؟

نظر إليه دي باروس مدة حتى استوعب مايريد ان يقول .

ـ تعني ان المتشح بالسواد ربما يظهر ويقتل السلطان على أساس أنه مسيحي ؟

ـ أنا لا أعني شيئا ، لكن هذا يمكن حدوثه .. ولن نكون في حاجة إلى التعليل فمثل هذا العمل هو ما يغرى عادة المتشح بالسواد .

ـ وماذا تستفيد انت من هذا ؟

ـ يبدو أنك لاتفهمني ياصديق إنني لاعلاقة لي بالموضوع برمته وقطعا لاأستفيد شيئا .. إن كل ما أقوله إن هذا ممكن الحدوث ، وربما يستفيد المتشح بالسواد من ذلك .. هنالك امتيازات يمكن ان تمنح ، ومساحات من الأرض الخصبة تقتطع من الغابات وتوهب .. آه هنالك عشرات الأشياء التي يمكن حدوثها إذا كنت أنا المتصرف الوحيد في الحكم هنا ..

نقطة أخيرة . إن السلطان مدعو الليلة إلى حفل ساهر بمناسبة عيد رفع السيدة العذراء وتنصيبه وبذلك سوف يذهب إلى رابوتزيرو ، ولكي يفعل هذا عليه ان يقطع الأحش بين قصره والطريق مرتين إحداهما في الذهاب ، والأخرى في الإياب ، وانني لأخشى على حياته في هـــذه المنقطة الموحشة خاصة وهو شاب جرئ لم يعتد أن يصحب أحدا من حرسه .

فهم دي باروس مايرمي إليه القائد ، وصور له خياله مايمكن ان يحققه إن قتل

السلطان . ان القائد يريد ان يعود إلى انفراده بالحكم فهو لايريد شريكا حتى وإن كان مثل هذا الافريقى الذى يبدو ان لاحول له ولا قوة ، وفى سبيل ذلك سوف يعطى قاتله أية ميزات يطلبها سواء بالنسبة للأرض أو المال ..

* * *

كان الحفل على أشده : عزفت الموسيقى ، ودارت الراح. وتراقص الموجودون ، وتنقل الكابتن دى جامبوا بينهم يهنئ بالعيد ، ويتلقى التهانى . بدا رقيقا هادئا باسما لاينبئ مظهره عما يعتمل فى نفسه من قلق . لم ير بين الموجـــودين نونو دى باروس . لقد تأخر ، وكان يجب ان ينتهى من مهمته منـــذ ساعة على الأقل . صحيح ان جيرونيمو أيضا لم يظهر له أثر وفى هذا دليل على ان دى باروس غلبا مايكون قـــد نفذ مهمته إلا انه ذكر والحسرة ملء قلبه ان السلطان رجـــل شجاع ولايمكن لأحد أن ينكر عليه ذلك ، كما انه جندى خاض الكثير من المعارك ، وحتى مع عامل المفاجـآت ، فإنه لايستبعد ان يكون قد قتل خصمه أو جرحه .

ناح على نفسه باللائمة لأنه لم ينصح دى باروس ان يصطحب معه اثنين أو ثلاثة من رجاله . لوجرحه جيرونيمو فان الأسئلة سوف تثور ولا يستبعد مطلقا أن يزج به فى التحقيق ، وهو آخر شىء يريده . شاهد ايوفيميا وسط حلقـــة من الرجال والنساء ، تحادثهم وتبتسم ، وعلم انها قلقة رغم مايبدو عليها من مرح . حينما لاحظته ركزت نظراتها عليه ثم تركت أصحابها وتوجهت نحوه تحييه وتسأله عن زوجها فأجابها أنه لايعلم . كاد وجهها أن ينطق بالاتهام مما دفع الضابط ان يعيد التفكير فى خطته ، فقد رأى فيها مصدر خطر آخر عليه .

على ان تفكيره توقف حينما بدت حركة عادية عند باب الصالة الواسعـــة التى كانوا فيها . التفت وإيوفيميا ليريا جيرونيمو واقفا يتكلم ، ويحيى مضيفيه ويبتسم وهو فى أبهى حلله ، ولاحظا ان علامات الاهتمام قد بدت على وجه محدثيه ثم سرت فى القاعة همهمات . تقدم جيرونيمو نحوهما معتذرا لزوجته عن التأخير وحييا قائد الحصن .

— ... أتيتكم بأنباء سارة في عيد سيدتنا العذراء .. إن بعض رجالي شاهدوا المتشح بالسواد يختبئ في الدغل المتوسط بين قسمين المدينة فحاصروه وذهبت أنا إلى الحصن لأخبرك ، ولما لم أجدك أخبرت حضرة ضابط النوبة الذي توجه معي إلى هناك وأعتقد انهم إما قبضوا عليه الآن أو قتلوه .. وهذا هو في الواقع سبب تأخيري :

كان يتكلم وهو يبتسم ببراءة ، شأن من يحمل أخبارا سارة بينما تزايد وجه القائد اصفرارا ، وتطلعت ايوفيميا إلى وجهه متفرسة حائرة . تتالت أفكار القائد سوداء قاتمة . لو أنهم قبضوا على المتشح بالسواد حيا ، وعرفوا أنه نونو دي باروس لتوالت الاسئلة والتحقيقات التي لا يعلم أحد إلى أين تؤدي . لاشك ان دي باروس سيحاول أي يدفع التهمة عن نفسه ، ويقحمه شخصيا في الموضوع . وأيا كانت النتائج فإن في هذا القضاء المبرم عليه :. إن أمله الوحيد ان يكون ضابطه قد قتل المتشح بالسواد .

تعجبت إيوفيميا بدورها من موقف زوجها . لم تدر كيف تعلل وشايته بالمتشح بالسواد بينما المفروض ان الأخير يحارب البرتغاليين ، ويدافع عن المسلمين .. وزوجها مسلم .. لا :. إن منطق الأمور لا يستقيم .. هنالك شيء غير مفهوم ، كلما اكتشفت سرا ، وظنت أنها فهمت زوجها وتصرفاته ، كلما ظهر لها شيء جديد يزيد الأمور تعقيدا :. أي رجل هذا ؟ ألن تنتهي هذه الألغاز والأحاجي ؟

راقبت زوجها وقد بدأ يتنقل بين المدعوين يحييهم ويتبادل التهاني معهم . رأت أورورا ، ابنة القائد ، تهرع نحوه وتنفرد به ، يتحدثان باهتمام ، شاهدت ناتاليا تتجه إليهما وتنضم مضفية سحرها على الرجل حتى استخلصته لنفسها . وأكلت الغيرة قلبها فقررت ألا تقف ساكنة وهي ترى الفتاتين تتصارعان على زوجها : تقدمت نحوه معتزمة أن تضع حدا لهذه المهزلة حينما شاهدت رجلا في زي الضباط يندفع مسرعا إلى داخل القاعة ، ويتجه مباشرة إلى القائد الذي لم يكن يبعد عنها بأكثر من خطوتين .

أدى الضابط التحية العسكرية لقائده ، ومال عليه يسرد أقوالا فى أذنه لم تتبينها ايوفيميا الا أنها رأت الاهتمام أولا يبدو على وجه دى جاميوا .. ثم تحول إلى راحة . أحست بيد توضع على ذراعها فالتفتت لترى زوجها إلى جانبها يقودها إلى حيث وقف القائد يحادث ضابطه . بلهجة بريئة مستبشرة تساءل زوجها .

ـ هل قبضتم على المتشح بالسواد ؟

ورد عليه القائد

ـ لقد قتلوه

ـ ومن هو ؟

ـ نونو دى باروس ..؟

لم تتمالك ايوفيميا من أن تنظر إلى زوجها .. دى باروس ...؟ الرجل الذى شاهد زوجها يصلى صلاة المسلمين هو المتشح بالسواد ..؟! ماهذه الاحاجى ؟..

الفصل الحادى والعشرون

حصن يســوع

تم بناء حصن يسوع سنة ١٥٩٤ بناء على أوامر نائب الملك فى جـوا ، ماتياس دى البوكيرك ، أنشىء فوق صخرة تطل مباشرة على شاطىء الرفأ ، له جدار مزدوج ، وعلى قمة الجدار توجد شرفة سورها على قدر قامة الرجل ، ويبلغ سمكها من ثلاثة إلى أربعة أكف . والحصن مستطيل الشكل ، وله أربعة معاقل واحد عند كل زاوية . يطل أثنان منها على البحر والآخران على البر . وفى الداخل يوجد متراس لحمايته من ناحية الشاطىء وحيث يوجد أيضا باب الحصن . ويمتد المتراس على طول حائط الحصن سواء من ناحية الرفأ أو من ناحية البر ، حيث توجد غرفتان للحرس .

ومن الخارج من ناحية البر حفر البرتغاليون خنـدقا فى الصخر يصل عمقه إلى ثلاث قامات واتساعه مثلها ، مما يجعل الوصول إلى الحصن ، أو محاولة تسلقه شاقة جدا ، إن لم تكن مستحيلة .

فى الداخل يوجد منزل قائدى الحصن ملتصقا بجوار المتراس ، كما بنيت أيضا ثكنات الجنود ، وغرفتان تحت الأرض ومخازن البارود ، وحفر بئر المياه العذبة ، وإن لم يكن خالية تماما من الأملاح إلا أنها تكفى فى حالة الحصار .

وبالحصن ستة عشر مدفعا ، خمسة منها من الحديد ، عيارها يتراوح من ستة إلى عشرة أرطال ، والباقى من البرونز عيارها ستة وثلاثون رطلا . وبه أيضا اثنتان وثلاثون بندقية ، ومائة وثلاثة عشر قربينة (بندقية قديمة الطراز) وأربعون صندوقا من الرصاص الصغير للبنادق ، و ١٧١٣ من الدانات الحديدية ، وأخرى من الحجرية للمدافع ، و ٢٣٨ ميلا ، ١٣٨ قنبلة يدوية ، ٣٦ سهما ناريا ، ٧٣٠ ثقابا قطنيـــا ، وتسعة رماح .

وتتكون الحامية من مائة جندي يخضع منهم خمسة وسبعون لقائد الحصن ، أما الخمسة والعشرون الباقون فيخضعون لقائد حصن ماركوبا . والحصن الأخير قائم خارج الحصن الأول ، وفي الطريق المؤدي إليه بحيث لايمكن أن يمر أحد دون أن يراه الجنود . وليس حصن ماركوبا في الواقع حصنا بالمعنى المعروف ، وإنما هو ثلاثة منازل محصنة لايبعد أحدها عن الآخر بأكثر من طاقة بندقية ، ويوجد بها مدفع واحد إلى جانب خمسة عشر جنديا ، من حاملي البنادق .

وهناك أيضا مركبان صغيران يتبعان الحصن بها عشرة جنود مهمتهم حراسة الشواطىء ، ومراقبتها واخطـــار القائد بأية حركة مريبة ، ومنع أية محاولة من الأهالي في القارة من التسلل إلى الجزيرة[١] :

* * *

في صباح الخامس عشر من أغسطس سنة ١٩٣١ حينما انتهت إيوفيميا من زينتها الصباحية طرق باب حجرتها ، ولما أذنت بالدخول دهشت إذ رأت زوجها يدلف من الباب . كان يرتدي حلة عربية من قماش أسود بدا فيها أنيقا وسيما . لم تكن رأته من قبل يرتدي حلة عربية ، ولهذا ظلت تتفرس في الصديري الحريري والحزام العريض المصنوع من القماش الخشن والسروال الواسع الذي ينتهي تحت الركبتين لتدخل نهايته في رقبة الحذاء الجلدي الطويل ، وفي جانبه تدلى سيف ، ذو مقبض ذهبي . ألقى عليها تحية الصباح ثم بادرها .

— ماذا سوف تفعلين اليوم ؟

— ومنذ متى تهتم بما أفعل ؟

— ربما اليوم ، أو منذ أمس ، وربما منذ رأيتك .. ماذا سوف تفعلين ؟

— كما سبق ان أخطرتك .. سأذهب بعد ساعة تقريبا إلى الكنيسة لأصلي ثم أصطحب بعض صديقاتي إلى هنا لتناول طعام الغذاء .

— وإلى متى سيظل أصدقاؤك معك ؟

---

(١) من مذكرات بدور باريتودي ريتزنديه عن رحلته سنة ١٩٣٤ .

— لست أدرى .. ربما إلى الثالثة أو الرابعـــة مساء .. لماذا كل هذا الاهتمام ؟

— حتى أستطيع أن أرتب أوقاتى معك .

قال هـــذا واستدار ليخرج من الحجرة قبل أن تحاول استجوابه ، لكنها استوقفته .

— إلى متى سيظل هذا الخداع ؟

— أى خداع ؟

— ادعاؤك المسيحية حين فى أنك مسلم .

— لن يطول .

— ماذا سوف يكون مصيرى .

رفع حاجبيه ، وهو يسأل .

— ماذا تعنين ؟

— أعنى مامصير علاقتنا ؟

— آه .. هذا متروك لك .

لم يتوان بعد ذلك. فى لحظات قطع الخطوتين الباقيتين إلى الباب ، واختفى وراءه ، وسمعت وقع خطواته السريعة تهبط الدرج . هرعت إلى الشرفة تطل منها، ورأت بعض الرجال يقفون فى الحديقة وقد أمسك أحدهم بلجام فرس عربى أسود جميل ، ورأت زوجها وهو يرتقيه بخفة ويتقدم الرجل الذين ساروا وراءه (١) .

* * *

جلس الكابتن دى جامبوا فى غرفة مكتبه بالحصن وقد ارتدى حلته الرسمية كاملة . أمامه جلس الضابط بدرو شافيز قائد الحصون الثلاثة الخارجيه وهو أيضا فى حلته الرسمية . كان الإثنان يتناقشان فى تفصيلات الإحتفال ، ولما انتهينا منها قال دى جامبوا .

---

(١) كانت الجياد فى كل أفريقيا الاستوائية قليلة نظرا لانتشار مرض النوم .

ـ هنالك نقطة أود ألا تغفل عنها . يحتمل أن ينتهز بعض مثيرى الشغب فرصة الاحتفالات وعدم انتباه الجنود بالكامل لهذا أريد منك أن تضع دائما عشرة جنود بكامل أسلحتهم النارية فى الحصون الخارجية للمركوبا وسأضع ضعفهم هنا داخل الحصن حتى يمكن السيطرة سريعا على أى شغب . واصدر أوامرك الى باقى الجنود ألا يكثروا من الشراب .

ـ حسنا ياسيدى .. لكن هل تظن ان هناك احتمالا للشغب ؟

ـ لا أعتقد فهؤلاء الأفريقيين أخذوا دروسا لن ينسوها بسهولة ولاطاقة لهم بالحرب على أى حال .

دخلت الحجرة فى اللحظة زوجة القائد وابنته فهب بدرو شافيز واقفا يحييها . وتكلم القائد .

ـ ماذا تفعلان هنا ؟

ردت زوجته .

ـ كنا فى كنيسة الحصن وبعـــد أن فرغنا أردنا أن نلقى نظرة على موكب السلطان .

ـ موكب السلطان ؟ ! .. أين هو ؟

ـ إنه مازال بعيدا لكن يمكنك ان تراه بالمنظار المكبر .

تناول القائد منظاره من فوق مكتبه وخرج إلى الشرفة العالية التى تطل على الخليج وتمتد المنظر أمامها من ناحية إلى المحيط ، ومن الأخرى إلى الطريق الوحيد ، المؤدى إلى المدينة . وفعلا رأى جمعــا غفيرا ، ولم يمكنه ان يتبين أية تفاصيل . أعطى المنظار إلى شافيز الذى ألقى بدوره نظرة ثم استأذن من قائده .

ـ أرجو أن تسمحوا لى بالانصراف حتى أنفذ تعليماتكم .

ـ لابأس ، وأرجو ان تحضر بعد ذلك لتناول طعام الغداء معنا .

ـ شكراً ياسيدى .

أدى التحية العسكرية ، وانحنى للسيدة والفتاة ، ثم دار على عقبيه متجها إلى الباب . وتكلمت زوجة القائد .

— أين سوف تستقبل السلطان ؟

— عند الباب الخارجى للحصن لأسلم المفاتيح ثم أصحبه إلى المنزل حيث نتناول طعام الغذاء جميعا .

— إذاً فسأذهب أنا الأخرى لأشرف على إعداد المائدة ، تعالى يا أوروا .

خرجت السيدة وابنتها واستعاد القائد المنظار ووجهه إلى القادمين . بدأت تصله أصوات الطبول والمزامير ، وتدريجيا تميزت الأشخاص والوجوه . شاهد السلطان فى زيه العربى الفخم وهو يمتطى صهوة جواد لاتكاد قوائمه أن تستقر على الأرض حتى مع سيره الوئيد . رأى ان هناك جوقه موسيقية كبيرة بين ضاربى دفوف ، وطبول ، وعازفى الناى ، والزمار كانوا يتقـدمون الموكب بموسيقاهم يتوسطهم بعض الراقصات والبهلونات . ثم وراء جواد السلطان مباشرة سارت بعض صفوف مشايخ القوم ووجهائهم فى أزياء براقة الألوان ، وخلفهم جموع من الشعب تلوح بالرايات البرتغالية والإسلامية المختلفة .

تبسم عندما لاحظ الرايات .. أجل إن السلطان على مابه من بساطة يستطيع أن يجذب إليه جموع الشعب . لـكن هل ياترى حقيقـة ما أدلى بة دى باروس من أنه إرتد عن المسيحية ليصبح كافرا مسلما ؟ ترى هل ارتدى الزى العربى ليعلن إسلامه أم أنه فعل ذلك بمناسبة عيد تنصيبه لـكى يجذب حوله قلوب الشعب ؟ ! إذا كانت الأخيرة فإنه سياسى ماهر . طرح عنه التفكير حينما لاحظ أن الموكب إزداد اقترابه ، ودخل يصلح من هندامه قبل ان يهبط إلى فناء الحصن الداخلى ليلقى بعض الأوامر ويشدد على الحراس بزيادة الانتباه ، ثم ليستقبل السلطان .

وصل الموكب ، وتوقفت الجوقة الموسيقية عن العزف وتراجعت لتفسح مجالا للسلطان يتقدم بجواده . ترجل عند الباب الخارجى للحصن ، واسلم قياد الجواد إلى أحد التابعين ، وسار فى زيه الأسود البراق ليستقبله القائد بالتحية العسكرية وسار

الإثنان يستعرضان حرس الشرف الذى اصطف فى كامل عدته الحربية . عند نهاية الحرس وقف السلطان إلى جانب القائد ليبدا التحية ، وليسلم القائد السلطان مفاتيح الحصن . ارتفع صياح الجماهير وهتافاتهم .

بدأت الجوقه الموسيقية تعيـــد العزف بحماس ، وتبارت الراقصات ، وقفز البهلوانات ، وقدم بعض المشعوذين أبرع مالديهم من حيل ، وصعد السلطان والقائد إلى منزل الأخير ليقدم السلطان التحية إلى السيدة ثم يقف الجميع في الشرفة المطله على الفناء يشاهدون أنواع الألعاب والرقص .

فجأة دوى صوت ثلاث طلقات نارية ارتفعت على جميع الأصوات ، وتوقفت الموسيقى عن العزف وساد السكون لحظات . رفع القائد رأسه إلى الناحية التى ورد منها الصوت قلقا متعجبا وجاءه صوت السلطان هادئا هامسا .

— ياعزيزى دى جامبوا . هذه الطلقات الثلاث إشارة من أحمد بن الأمير سالم ليخبرنى أنه استولى على الحصون الثلاثة حصن ماركوبا كما تطلقون عليه .
التفت القائد إليه وقال فى غضب .

— مامعنى هذا يادون جيرونيمو ؟

— يوسف ياعزيزى القائد .. يوسف بن حسن .. إن جيرونيمو مات مع الطلقات الثلاث . ومعناها ان الحصن أصبح فى يدى .

جاءت من فناء القصر أصوات خلعت فؤاده والأم وابنتها . كانت صرخات موت ، وطلقات نارية تتالى . لم تصدر أصوات قتال ، ولا طلقات نارية أخرى أو قعقعه سلاح .. مجرد طلقات قليلة ، وصرخات موت ترتفع إلى عنان السماء . إندفع القائد نحو الشرفة ليشاهد رجاله وقد اخترقت سهام أفريقيه صدورهم . لم يشاهد أحدا من الحراس فى مكانه على سور الحصن إنما شاهد جثث بعضهم فى أرض الفناء . وقد رشقت صدورهم السهام .

ترك الشرفة كالمجنون وقد استل حسامه يهدف القضاء وعلى الأفريقى اللعين ، وقابله حسام ذو مقبض ذهبي . انتحت المرأة والفتاة ركنا قريبا من الشرفة ووقفتا

هامتين تنظران إلى القتال الدائر أمامها . شاهدتا دى جامبوا يهاجم بشراسة وغضب .. لقد خدعه الأفريقى .. بل وخدع نائب الملك ، والامبراطورية البرتغالية بأسرها ولابد أن يموت جزاء له .

بهـــدوء واجهـــه يوسف .. يرد هجماته دون عناء . جاء المرأتان صوته هامسا .

— سأعطيك ياعزيزى دى جامبوا فرصة لم يعطها أحد من قومك لأحد من قومى .. لماذا لاتعتنق الإسلام فتنجو بحياتك ؟ !

إزداد غضب القائد وهتف بين أنفاسه المتلاحقة .

— إنك مجنون .. أتظن نفسك قادرا على مناهضة الامبراطورية البرتغالية .. إن المستعمرين أكثر من مائتى رجل .. وكلهم مسلحون ومعهم من الذخيرة مايكفى لابادتك وقومك ولابد أنهم سمعـــوا الطلقات النارية وهم فى طريقهم الآن إلى الحصن .. سيمزقونك وقومك الملاعين ..

هز يوسف رأسه نفيا .

— كلا ياعزيزى إنك واهم .. لو أمكنك النظر من الشرفة لرأيت دخان النيران يتصاعـــد من رابو تزيرو .. اننى أمرت فريقا من اتباعى أن يحرقوا منازل المستعمرين ..

لم تتمالك المرأتان من أن تنظرا إلى الشرفة ، فشاهدتا دخان الحرائق يتطاول . ندت من المرأة شهقة وأعادت نظرها إلى القتال الدائر فى الحجرة فى حين ظلت الفتاة تنظر بهدوء عجيب إلى الدخان المتصاعد .

— مارأيك ياصديقى ؟ .. هل لك أن تعتنق الإسلام ؟ إستمع إلى التهليل والتـكبير لأول مرة فى فناء حصنك . إنهم يـكبرون الله شاكرين ما أنعم عليهم من نصر .

لم يرد دى جامبوا وصر على أسنانه وهو يشدد الضغط فى هجمته . لـكنه لم يـكن ندا لغريمه الذى لو شاء لقضى عليـــه فى الدقائق الأولى من القتال :

بحركات مضادة سريعة انتقل يوسف من الدفاع إلى الهجوم وتراجع القائد يقلب المقاعد ويحتمي بالمناضد، حتى التصق بأحد الجدران . وعلت صرخة المرأة وهي ترى السيف يخترق صدر زوجها . هرعت إليه تساعده أن يصل إلى الأرض في رفق . وأجهشت بالبكاء .

ـ لقد قتلته أيها القاتل .. أيها الكافر .. لن تفلت من العقاب .

نظرت إليه من خلال عينين أعماهما الجنون ، وسمعت صوته حنونا رؤوفا يخاطب ابنتها .

ـ انني آسف يا أوورورا .. لقد أعطيته فرصته .. ولم يقبلها؟!

إنتقلت عينا المرأة من قاتل زوجها إلى إبنتها . رأت دموعها تنساب على خديها إلا أنها كانت هادئة هدوءا عجيبا وهي تجابه الرجل ، ثم سمعت صوتها غير مؤنب أو زاجر .

ـ أجل يا يوسف .. اني آسفة كذلك .

صرخت المرأة في ابنتها وهي ماتزال تحتضن جثة زوجها .

ـ ما معنى هذا ؟ .. آسفة لهذا القاتل .. قاتل أبيك ..

اقتربت منها الفتاة في محاولة لانهاضها .

ـ أجل يا أماه إنني أعتنقت الإسلام منذ مدة .. هلا أسلمت أنت الأخرى .

لاشك أن المرأة كان قد مسها خبال . نظرت إلى إبنتها بعينين زائغتين ثم إنتقلت إلى يوسف ثم إلى باب الحجرة حيث كان قد تجمع عدد من الأفارقة ينظرون . بسرعة مذهلة سحبت سيف زوجها الملقى إلى جواره ، وصرخ بعض الواقفين محذرين يوسف. إلا أنها لم تهاجمه ، وإنما غرزت السيف بأقصى قوتها في صدر الفتاة ..

صرخت الفتاة من الألم . وانبثقت الدماء غزيرة تلوث ملابسها والأرض حولها ، ومدت يديها تقبض بها على نصل السيف كأنما تبغى إنتزاعه ، ونظرت إلى أمها متعجبة متسائلة . وفي اللحظة التالية تخلت ركبتاها عن حمل جسمها

تهاوت على الأرض . تسمرت المرأة مكانها تنظر إلى ما اقترفته بهلع ، ثم اندفعت تحتضن ابنتها صارخة مولولة تهتف باسمها وتعيد الهتـــاف .. تـكرارا . لم تتغير النظرة المتعجبة التى ارتسمت على العينين الذى بدأ الموت يغشاها ، وتحركت الشفتان ببطء ومشقة تهمسان .

— أماه .. سامحك الله .

تجمدت النظرة تخترق حجب الماديات . وعجز العنق عن تحمل ثقل الرأس . عم الوجوم الجميع فلم يحاول أحد أن يتحرك ، وتعلقت عيونهم بالأم الولهى تنادى إبنتها من وراء الـكون ، تحتضنها وتدهدها كما لو كانت تدهده طفلا لترسل النعاس إلى عينيه . تقدم يوسف هيابا يريد أن يأخذ بذراعها فنفضت نفسها عنه ، ودفعت الجسد المسجى عنها . وقبل أن يعرف أحـــد ماستفعل إندفعت عدوا إلى الشرفة تتخطى سياجها ، وكأنه لم يكن . لم يسمع لها حتى صرخة الموت ، وإنما التقطت الآذان الصوت الرهيب لارتطام جسدها بالصخور الصلدة ..

تقدم يوسف ينحنى ويلتقط جثة الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا .. التى احتملت قتل أباها بصبر واحتساب ، وقتلتها أمها .. أن تقول ربى الله .. أفسحو له الطريق ثم تبعوه صامتين إلى حيث يأخذ الجثـة ليصلى عليها صلاة الجنـــازة .. صلاة المسلمين .

* * *

وفدت الأنباء عن المستعمرين . لقد تجمعوا فى الدير وحصنوه . حملوا معهم ماخف حمله وغلا ثمنه . تزودوا بما يكفيهم أياما وربما أسابيع ، ونقلوا كل الأسلحة والذخائر ، واستعدوا للحصار . إستمع يوسف دون أن يتـكلم . لاح وجهه حزينا مهموما متعبا .. لم تبرح صورة أوروروا مخيلته منذ أن وأرى جثتها التراب ، وود لو أن له الخيرة لترك لمواطنيه الأمر وإنزوى بعيدا يتعبد لله ، لـكنه كان يعلم أن ما فعله لم يزد على خطوة واحدة فيما إعتزمه وكرس له حياته ! وعليه أن يسير فيه إلى آخر المدى .

جاءه صوت أحمد متحمسا كعادته .

— هيا نهاجم الدير .. إن لدينا من الأسلحة والرجال ما نستطيع بهم أن نقتحمه في ساعات .

حول إليه عينيه الحزينتين .

— لا يا أحمد .. دعنى أحقن الدماء ما استطعت .. إنهم يأملوا أن يقاوموا السهام والبنادق حتى تأتيهم النجدة .. دعنى أعطيهم إنذارا ان الأمر على غير مايظنون .

قام من مجلسه واتجه إلى أسوار الحصن ، ومضت عشرة دقائق وهو يعد أحد المدافع ثم أطلقه . جاءت القذيفه على بعد لا يزيد على عشرين مترا من سور الدير . تناثرت قطع من الأحجار والتراب فوصلت إلى الفناء ، وإنهلع قلب المستعمرين . لم يكونوا قد فكروا في المدافع ، ولا خطر فى أذهانهم أن من أعدائهم من يحسن، إستعمالها وتصويبها ، بل إنهم حتى هذه اللحظات لم يكونوا يعرفون ماحدث تماما .. كان كل ماعرفوه هو أن منازلهم أحرقت ، وأن طلقات أتت من الحصن ، ولما لم يأت الجنود إلى نجدتهم أيقنوا أنهم لا يستطيعون الحركة ، إما لأنهم قتلوا أو لأنهم محاصرون . وبعد أن إنطلق المدفع تأكدوا أن الحصن قد سقط فى أيدى أعدائهم ، وأن من به لابد وأنهم قتلوا .

— تستطيع الآن أن تذهب إليهم يا أحمد ، ليس كمقاتل لكن كرسول سلام . انبئهم بتفاصيل ماحدث وأخطرهم بأننا لن نمس امرأة أو طفلا ، لكن الرجال عليهم إما أن يعتنقوا الإسلام أو يقاتلونا ولن أبقى على أحد منهم حيا .

— حتى أبا زوجتك وأخاها .. ! ؟

لم يزد يوسف على أن نظر إليه قائلا .

— ماذا تظن .. ؟

نكس أحمد رأسه فى الأرض خجلا ، ودار على عقبيه متوجها إلى الدير .

* * *

كانت إيوفيميا تتناول مع لداتها طعام الغداء فى القصر حينما تناهت لهن أصوات طلقات بنادق تأتى من بعيد . لم يعرن الأمر إهتماما ، واستمر صخبهن وكلامهن

حتى حانت من إحداهن التفاته إلى ناحية المستعمرة ، ورأت دخانا يتصاعد منها ويعلو أشجار الغيضة . صرخت فيهن أن ثمة شيئا رهيبا قد حدث ، فتركن الطعام واندفعن إلى الشرفة والنوافذ يتطلعن إلى ناحية المستعمرة .

رأين أن المسألة ليست مجرد بعض دخان يتصاعد من مكان واحد فيها ، وإنما تكاثفت سحابة سوداء لتحيط بالمستعمرة برمتها . لثوان عمهن الهرج ، والصياح ثم بدأن يتناقشن فى أى السبل يتخذن . هل يذهبن لاستطلاع ماحدث، أو يبقين في القصر حتى ترد الأنباء ؟ لم يطل ترددهن . من الأزقة والطرقات سمعن الزغاريد ، والطبول ، والمزامير . تناهت إليهن أصوات المؤذنين يكبرون من جميع مآذن المدينة ..

رغما عن الضوضاء فى الخارج إلا أن ايوفيميا لاحظت ان السكون يخيم على القصر . نادت على إحدى الإماء ، ولم تتلق ردا . أمسكت بأحد الأجراس تهزه بشدة ، ولما لم يجبها أحد خرجت من الحجرة تطوف فى القصر الفارغ تنادى على الخدم والعبيـــد والاماء . بدأ الرعب يداخل قلبها فأسرعت عائدة إلى صاحباتها لتراهن وقـــد انكمشن على المقاعد يبكين ، ويصلين ، ويبتهلن . لم تفهم السبب في مبدا الأمر ثم لاحظت أن أصوات الجموع تعلو عند الباب القصر مهددة مناديه بقتل الكفار البرتغاليين وعملائهم .

طار تفكيرها إلى زوجها .. لقد تركها آمنة وهو واثق ان لاخوف فقد كانت البلدة هادئه .. لابد أنه يعلم الآن ، وسيهرع إلى نجدتها .. إن الجماهير المجنونة تعتقد أنه كافر .. لكنه مسلم .. وهى تعلم هذا .. لكن من غيرها يعلم ؟ .. لن يصدقوها إن هى أخبرتهم .. سوف يسخرون منها .. ويقتلونها وصاحباتها . صرخ قلبها ينادى .. جيرونيمو .. لا .. يوسف .. أين أنت ؟

اقتلوا الكفرة .. احرقوهم .. رجالا ونساء وأطفالا .. وتلقت نوافـــذ القصر وابلا من الحجارة تتساقط .. تراجعت النساء بعيدا يقبعن فى حماية الجدران ، والأثاث والرعب ينشر أجنحته السوداء عليهن .. جاءتهن الأصوات مختلطة ..

تدنو .. تدنو .. ارتفعت أصوات أخرى ناهية .. آمرة .. وأطل خيط أبيض دقيق من الأمل .. انكم لاتدرون ماتعملون .. إنه قصر أميركم .. ومنقذكم .. ذلك الذى تهاجمونه .. عودا إلى الوراء .

كانت الأصوات تزداد علوا . وتأتى مختلطة يضيع الكثير منها وسط زمجرات الشعب وهتافاته . لم تستطع ايوفيميا صبرا . أرادت أن تشاهد بنفسها ما يحدث . اقتربت من النافذة بحيث يمكنها أن ترى دون أن يلحظها أحد . رأت جما غفيرا يتجمهر عند الدرج المؤدى إلى الباب الداخلى للقصر وفى مواجهتهم وقف بعض الجنـــود لايزيدون على عشرين عدا ، بعضهم يحمل بنادق قديمة ، وآخرون مدججون بالسيوف .

لاح أن قائد الفرقة يحاول جاهدا ان يقنع الجموع ان سيد القصر معهم ،لا أنها سمعت كلمات نابية تقاطعه .. ملفى (سكير) .. مينانجانيوا .. (لص) .من وسط الجمهور تقدم رجل طويل القامه إلى حد غير عادى وصل من النحافة حدا برزت معه العظام عارية من اللحم . أخذ يدفع الناس حتى واجه الجند ثم رفع ذراعه الهواء ملوحا بقوس وسهم .. وصل إلى ايوفيميا صوته واضحا يعلو على الجميع .

— أنا بكيه .. لقد إغتصب أخو البرتغالية زوجة أخى إمبامبا .. وقتل أبوها أخى .. ولم يوقع عليها جزاء .. من منكم من لم يفقد حياة واحد من أهله .. أو شرفه .. من منكم لم يعامل معاملة متوموااوا (العبد) .. اليوم لنا .. تشنجانى.. اقتلوا .. واكانى .. احرقوا ....

لسبب ماجاءتها كلمات زوجها حينما روت له القصة .. إن هنالك عدالة الله تعلو على ظلم البشر .. شاهدت الجموع تتدافع وتضغط على ثلة الجنود .. ويبدو أن ضابطهم كانت عنده أوامر ألا يستعمل السلاح إلا فى آخر لحظة ، وعند الضرورة القصوى .. تراجع وجنوده إلى الوراء أمام الأجساد البشرية مهددين بالسيوف إلا ان الجماهير كانت قد فقدت عقلها إثر كلمات الرجل النحيل . ترك لفيف منهم الباب وبدأوا يحطمون النوافذ ويدلفون إلى الداخل بينما أمطر آخرون

آخرون نوافذ الطوابق العليا بوابل من الحجارة اضطرهن جميعــا الى الاحتماء بالأثاث ، والجدران .

أمر الضابط جنوده بالتراجع ووقف بهم عند أول الدرج يسدونه تماما في حين راحت الجموع تتدفق الى الداخل من كل منفذ تحطم كل ما صادفها . وصلت أصواتهم الوحشية الى النساء المرتعبات .. تشنجانى .. اقتلوا .. واكانى .. احرقوا ..

أصبح الضغط رهيبا على الجنود ، فأمر قائدهم أن يطلق بعضهم نيران البنادق فوق الرءوس مهددين .. ودوت أصوات الطلقات عالية يتردد صداها في القصر . للحظات ترددت الجماهير وعمهم السكون .. ثم ارتفع صوت .. تشنجانى .. أقتــلوا .. واكانى .. احرقوا .. وعادت الهتافات تتعالى .. اقتلوا .. احرقوا ..

أضحى لا مندوحة أمام الضابط فهو إما أن يترك جنوده تطأهم أقدام الشعب الثائر أو أن يأمرهم بالقتل . وأصدر أوامره بالأخيرة ، ارتفعت السيوف تصد كل من حاول التقدم ووقف جنود الصف الثانى على درجة أعلى يصوبون بنادقهم إلى صدور الشعب ولاح أن القتال حتمى لا مفر منه .

من وسط الجموع ارتفع صوت امرأة .. قفوا .. انتظروا .. اسمعونى .. ضاع صوتها في مبدأ الأمر بين الهتافات والصخب . إلا أن من حولهما عرفوها فصمتوا وأفسحوا لها الطريق نحو الدرج .. شيئا فشيئا صمتت الجموع ، وراحت تنتظر كلمات المرأة . ارتقت الدرج ووقفت ظاهرة للعيان ، وصاحت بأعلى صوتها يرن في أرجاء القصر .

— أنا فاطمة .. زوجة أحمد بن سالم .. ليس فيكم من لا يعرفنى .. هل منكم من يشك في وطنيتى أو اسلامى ؟

سرت همهمات مستنكرة بين جموع الشعب وتناهى إلى سمعها أصوات تستبعد الشك .. انه اميرهم وسيدهم .. انه قائدهم .. إنه المتشح بالسواد حامى الإسلام ..

— لا .. لا .. انصتوا .. كنت اظن مثلكم ان زوجى هو المتشح بالسواد ..

لكن الحقيقة ليست كذلك ؟ ..؟ اتدرون من هو الشخص الذى قضى حياته يدافع عنكم ..؟ أتدرون ؟ .. إنه يوسف بن حسن ، سلطانكم الذى يعمل زوجى تحت امرته .. إنه هو المتشح بالسواد .. هو الذى تشرد بعيدا عن أهله ، وناسه وعاش ناكرا دينه ، منكورا من عشيرته .. مخاطرا بحياته فى كل لحظة .. إنه يوسف بن حسن ذلك الذى تهاجمون قصره ، وتريدون قتل زوجته ، وضيفاتها . اهذا جزاؤه منكم .. ؟

عادت الهمهمات لكنها لم تكن جميعا مستنكرة ، كانت ايضا متعجبة .. يوسف بن حسن عميل البرتغاليين ؟؟ ذلك السكير طاعم لحم الخنزير .. هو المتشح بالسواد .. وهو الذى استولى على الحصن !

كانت هنالك شائعات تتردد قبل ان تعلن فاطمة فيهم النبأ لكن معظمهم لم يأخذها على محمل الجد وطرحوها جانبا .. والآن وزوجة قائدهم أحمد تقول هذا فلاشك فى صحته . ظهر عليهم التردد والتراجع .

إلا أن الأمر لم ينته بهذه السهولة .. من وسطهم قفز بكيه ملوحا بقوسه وسهامه ..

— إن المرأة كاذبة .. مايدرينا أنها تقول الحق ؟ .. مايدرينا ان ليس لها أصدقاء من البرتغاليات ؟ .. وحتى لو كان ماتقوله هو الواقع ، هل تذهب دماء رجالنا وشرف نسائنا هباء بلاعقوبة ؟ .. إننى أقول اقتلوا .. احرقوا ..

وتأرجحت مشاعر الجموع مرة أخرى .. كانت الدماء تجرى حارة فى عروقهم بردتها كلمات فاطمة ، .. وأشعلتها كلمات بكيه . تعالت أصواتهم صاخبة ساخطة وبدأوا يضغطون بأجسامهم ويلوحون بأيديهم .. ولم تتحرك المرأة الشجاعة . صمدت فى مكانها على أول الدرج تواجههم .. إذا كانوا سيصعدون فعليهم ان يطأوها بأقدامهم اولا .

— إنى لست كاذبة .. إن يوسف بن حسن هو المتشح بالسواد .. وهو قائدكم الذى استولى على الحصن .. أليس من حقه أن تتركوه يتصرف فى اهل واضيافه

بما رواه حقا ؟ أم هل تدعوا يكيه وأمثاله يتصرفون على هواهم ؟ وأنت يا يكيه ..
يا من لا تفتر تلوح بقوسك وسهامك .. إنك رجل قوى طالما تشدقت بدقة
إصابتك وبعد مرمى سهامك .. لماذا أنت هنا .. ؟لماذا لم تذهب مع الجنود
لتحارب فى الحصن .. ؟ لماذا لا تذهب الآن وتقاتل البرتغاليين فى مستعمراتهم .. ؟
أم تراك أتيت تظهر شجاعتك ودقة أصابتك مع نساء لا حول لهن ولا قوة ؟!..
هل أتيت لتشعل المسلمين لتحقيق انتقامك الشخصى ..؟

كانت حركة بارعة نقلت الرجل من الهجوم إلى الدفاع عن نفسه وأخمته فلم
يستطع ردا .. ارتفعت ضحكة تلتها آخريات .. وأصوات غضب من آخرين .. إن
المرأة على حق و .. ومع هذا ..!! ترددوا فى الانصراف .. لقد نالوا من ظلم
البرتغاليين الكثير ومن العسير عليهم أن يتركوا نساءهم دون اذى ..! وجاء صوت
يقطع التردد .. صوت الشيخ على الحضرمى الذى وصلته الأنباء فجاء على عجل ليقف
إلى جانب المرأة .

ـ ان فاطمة على حق .. وليس فيكم من يجرؤ على تكذيبى . ان يوسف بن حسن
هو المتشح بالسواد .. انه لم يكن مطلقا كافرا .. وما شرب الخمر وطعم الخنزير
إلا ليتم بذلك خطته .. إنه سيدنا وقائدنا .. له الأمر وعلينا الطاعة .. قصره وماله
ونساؤه وأضيافه حرام علينا ..

قطعت النبرات القوية كل شك وابتدأت الجموع فى الانصراف . ومن خارج
القصر علت هتافات تنادى بحياة السلطان يوسف منقذ المسلمين .. حامى الاسلام ..
هازم الكفار .. وانفرجت الجموع ليظهر يوسف يتبعه بعض الجنود .. كان الشيخ
على حينما علم بما تعتزمه الجماهير قد أرسل إليه من يناديه خشية ألا يفلح فى
إيقافها .

تقدم يوسف من الشيخ على وقال بصوت هادئ

ـ شكرا يا سيدى الشيخ .

ـ بل شكرا لله .. والسيدة فاطمة زوجة أحمد فهى التى أوقفتهم حتى أتيت

التفت إليها ممتنا .

ـ لست ادرى كيف اوفيك حقك .. ان اذنتما .

لم يزد ، وصعد الدرج تاركا الجنود تدفع باقى الرجال خارج القصر . فتح باب الحجرة ووقف ينظر إلى زوجته متجاهلا النساء . كن قد سمعن ما دار من مناقشات على الدرج وفهمن الموقف على حقيقته . وهبت اعاصير من العواطف والانفعالات تعصف بقلب ايوفيميا وعقلها .. زوجها هو المتشح بالسواد .. زوجها ..!! لقد استولى على الحصن .. وسيقتل جميع البرتغاليين .. قومها وعشيرتها .. سيقتل أباها وأخاها .. زوجها الذى تهواه .. ذلك الخدعة الكبرى .. ماذا تفعل ؟!

جاءها صوت زوجها كأنما من اغوار بعيدة .

ـ أرجو الا تخشين شيئا أيتها السيدات .. لن تمتد يد إليكن .. إننى أعرض عليكن الاسلام فمن أسلمت فهى منا .. ومن أبت فسوف نقوم بترحيلها إلى باتى .. أما أنت أيتها الزوجة فأرجوك البقاء فى القصر حتى أنتهى من أمورى .

إرتفع صوت من بين النساء .. صوت جاء مليئا بالحقد والكراهية .. كما كان فى وقت ما مليئا بالحب والاغراء .. صوت ناتاليا دى سا .

ـ أيها الخائن الطاغيه الا تكفيك ذنوبك لكى تسألنى أن أصير مسلمة ؟.. إننى اقدر احقر عبيدى أكثر مما اقدرك .. أيها المارق ، الكلب .. الخائن .. عدو المسيحية .. يمكنك ان تقتلنا جميعا هنا ولن تصير واحد منا مسلمة ..

كانت تتكلم وهو ينظر إليها بهدوء وصبر ، ولما إنتهت ارتفع صوته حازما .

ـ قلت ان لن تمس أحدا كن .. أما وهذا رأيكن فهلا تفضلتن معى إلى أعددت سفينة لحملكن وباقى النساء والأطفال إلى باتى .

دار على عقبيه فهرعت النساء خلفه وخاطبت ناتاليا صديقتها .

ـ هل تأتين معا ؟

ـ لا .. انه زوجي وقد طاب منى أن انتظر .. ربما الحق يكن .. ربما .. !

* * *

ذهب أحمد إلى الدير رافعا الراية البيضاء . قابلوه فاخبرهم بشروط يوسف .. النساء والأطفال يمكنهم أن يستقلوا السفينة المعدة إلى باتى .. أما الرجال فلهم الخيرة بين الاسلام والقتل . استمهلوه فمنحهم ساعتين على أن يصطحب معه النساء والأطفال . ترددوا فلم تكن لهم ثقة فى وعود أحمد الا أن رئيس الدير انبأهم بأنه لو بقيت النساء فان مصيرهن قد يكون اسوأ من الموت ، وكذلك الأطفال .

عاد أحمد يصطحبهن وهن جزعات يرتجفن من مصيرهن . والتقوا بالنساء الأخريات يأتين من قصر يوسف . ولم تصدق النساء انهن حقا سوف يرحلن إلى باتى .. ولم يصدق الرجال فى الدير ذلك حتى رأوا دهشين أن الجميع قد ارتحلوا .. واقلعت السفينة .. ولا يدرى أحد هل تذكروا مافعلوه ، وما فعله اجدادهم بنساء وأطفال المدينة والمدن الاسلامية الأخرى حينما غزوها وحينما ثارت لكرامتها . وهل قارنوا وهم يذكرون ؟!

لدى بعضهم ظن أن مافعله يوسف انما يرجع إلى تربيته المسيحية فاقترحوا أن يرسلوا له أحد الآباء الاوغسطينيين الذين نشأ بينهم . وفعلوا . وعاد الأب ينبئهم بأنه فشل فى مهمته .. فإما الاسلام أو القتل .

ظن سباستيان ولورنسو أنهما بنأى عن الجماعة لتفردهما بصلة اقربى لزوجة السلطان فانسلا هاربين وأسرعا عدوا يقطعان طريق رابوتزيرو إلى الحصن مستنجدين ، وقابلهما سهمان صوبا بأحكام إلى القلبين فسقطا مضرجين بدمائهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة . ومن دغل قريب خرج بكيه حاملا قوسه وسهامه يراقبهما يصارعان ملاك الموت وقد ارتسمت على وجهه القبيح علامات التشفى والسرور . لقد انتقم لشرفه ولمقتل أخيه .. ورضيت نفسه .

تجمع البرتغاليون فى الدير .. كانوا قرابة المائة وخمسين رجلا . تجمعوا بكامل

أسلحتهم وذخائرهم . لم يكن فيهم من لا يحمل بندقية ويتمنطق بغدارة . عقدوا مجلس حرب يناقشون فيه خططهم المستقبلة تجاه أعدائهم . انقسموا فريقين ، أحدهما يرى أن يستمر فى الدير ، ولديهم ماء من بئر عذب . كما أن لديهم غذاء يكفيهم أسابيع عدة خاصة بعد أن ارتحلت النساء ، والأطفال ، واحتج مؤيدو هذا الرأى بأن عددهم قليل ، وأن الأنباء لابد سوف تصل من باتى إلى جوا ، وإن هى إلا أسابيع قليلة ؛ أو حتى شهر أو اثنين وتصلهم النجدة .

وارتأى فريق آخر أن أحسن خطة للدفاع هى الهجوم ، وأن عليهم أن يخرجوا من الدير متجهين إلى المرفأ ومعهم من البنادق والغدارات والذخائر مايكفى لأن يضمن لهم الوصول والاستيلاء على إحدى السفن . صحيح أن بعضا منهم لا بد سيلاقى حتفه ، لكن أغلبهم سينجو نظرا لأن البندقية أبعد مدى بمراحل من السهام التى لا يستعمل أعداؤهم غيرها . تناقشوا مدة طويلة وعجبوا أن أعداءهم لم يهاجموهم فى هذه الأثناء .

فجأة دوى طلق مدفع وتهدم جزء من الجدار الخارجى وتلته طلقات أخريات كل منها يهدم جزءا من الدير ويقتل بعض الرجال . ولم يعد هنالك مجال للمناقشة . اضحى لزاما عليهم أن يتركوا الدير ويحاولوا الوصول إلى احدى السفن . اندفعوا إلى الخارج حاملين بنادقهم ، وما أمكنهم من ذخيرة لتقابلهم طلقات نارية وسهام . لم يكونوا يتصورون أن فى الأهالى من يستطيع أن يستعمل بندقية ، فوجدوا أنهم يحسنون الاستعمال كما يحسنون الاصابة .

مالت الشمس نحو المغيب ، والقت نظرة أخيرة على البلكون لتشاهد آخر معارك اليوم . لم يبق من البرتغاليين رجل واحد لم يخسر حياته .. لا .. بقى شخص واحد اسمه ما سيدو وأعلن اسلامه . وحينما ذهب يوسف إلى الدير لينتزع التمثال الذى إصطنعوه للسيد المسيح عليه السلام إلتقط ما سيدو الرداء الذى دثروه به ليصنع لنفسه معطفا .. نظر إليه يوسف باحتقار .

ــ اتصنع معطفا من رداء مسيحك ؟

وأجاب الرجل والابتسامة الصفراء تعلو شفتيه .

ـ وما الضرر الذى يمكن أن يصيبك به المسيح ؟

وازداد احتقار يوسف له .

ـ انى أرى أنك تفعل كل ماتستطيعه لتبقى على قيد الحياة .

وتقدم أحمد يريد أن يقضى عليه مقررا أن الرجل منافق ، ولا يستحق أن يعيش إلا أن يوسف أوقفه .

ـ كلا يا أحمد .. إن لنا الظاهر .. لنا الشهادتان ، أما باطنه فلله .. دعه ينعم بحياته إن إستحقها .

أدوا صلاة المغرب فى الدير ، وصلى يوسف صلاة الشكر .. لقد انتهى الجزء الأول من مهمته وعليه أن يتابع .. أما الآن فيجب أن يواجه مشا كله الشخصية .. صدرت منه تنهيدة عميقة وهو يتجه إلى القصر .

* * *

الفصل الثانى والعشرون

هيبة الامبراطورية

جلست ايوفيميا تستمع إلى يوسف .

— حتى تستطيعين تقدير الظروف التى أحاطت بى سأروى لك القصة كاملة ..
كان والدى سلطان بمبسة . ولما بلغت السابعة من عمرى ختمت القرآن على يد الشيخ على *
وأقيم حفل بهذه المناسبة .. وفى الحفل دخل قائد حصن يسوع فاتهم والدى بالخيانة للبرتغال وقتله ، وحينما حاولت والدتى التدخل قتلها بدورها . وأطلق جنوده النار على الشيخ على إلا أن إصابته لم تكن قاتلة ، ثم أخذنى القائد قسرا ليرحلنى إلى جوا .
أتدرين من كان القائد ؟ .. سيمادل ميلو بريرا .. أجل لهذا قتلته حينما قيض الله لى الفرصة .

فى دير الآباء الأوغسطينيين تناولونى بأيدى مهرة مدربة ، وكان من الممكن نظرا لسنى أن أنسى ما حدث لولا وصية الشيخ على .. القرآن .. لقد طلب منى أن أتلو ما تيسر منه كل ليلة .. ولم أخلف وعدى له ليلة واحدة .. حتى حينما كنت أضطر إلى شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير .. كنت أتلو بعض القرآن .. سامحنى الله ..

لم أنس مقتل أبى وأمى .. ولا نسيت دينى .. فلم أكن برتغاليا ، ولا كنت كاثوليكيا .. لست أدرى متى بدأت فكرة الجهاد للإسلام تتبلور فى عقلى .. قطعا ليس وأنا صبى .. كان كل ما أفعله هو أن أردد القرآن فى سرى قبل أن أنام .. ولا شىء غير هذا .. ثم مرت السنون وابتدأ عقلى فى النضوج ، وراودتنى أحلام بالبطولة .. شأن كل يافع .. ألحقونى بالجيش وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى .. وبدأت أرى الأشياء على حقيقتها .. رأيت القسوة التناهية التى يعامل بها

بى جلدتى .. رأيت الكراهية والحقد اللذين يملآن صدور البرتغاليين تجاه المسلمين ، حقد أعمى .. لايقل عما كان يكنه الصليبيون . وخطر فى بالى ان المسيحيين حينما لم تفلح حروبهم الصليبية فى الشمال أتوا من الجنوب . كانت كراهيتهم لاتعرف معنى للإنصاف أو الحق أو العدل ... لقد سمعت عن الحروب الصليبية من والدى .. ومن الشيخ على الحضرمى وأنا صبى .. ولم أكن حقا أعى معناها .. حتى كبرت ونضج تفكيرى .

بدأت الخطة تتبلور بصورة جدية ... ولم أتوان عن العمل على تحقيقها .. تعلمت كل مايؤهلنى بدنيا .. المبارزة ، والقتال بالأيدى .. والخناجر .. والبنادق ، والمدفعيات .. وجميع أنواع المدافع .. اهتممت بأن أعرف كل مايؤهلنى لما كرست نفسى له .. سقوط الامبراطورية البرتغالية .. وانتصار المسلمين . كان لابد أن أنال فى خطواتى الأولى الحظوة لدى السادة البرتغاليين .. لم أتوان عن التزلف لهم .. على قدر إحتقارى لطرق حياتهم وأعمالهم لم أتردد ان أتبعهم .. طالما سمعت منهم الفاظا نابية ، وسخرية لاذعة كانت تثير الدم فى عروقى .. إلا أننى تعلمت أن أضبط شعورى .. واخفى إحساساتى .

على ان أكثر ما حز فى نفسى هو ان أهلى وعشيرتى أنكرونى .. ولهم الحق فى هذا فلم يكن مظهرى يوحى بغير مايظنون .. بل ان الظروف نفسها كأنما تكالبت على ليزدادوا سوء ظن .. كتلك المرة التى صادفت فيها سعيدا .. زوج فاطمة الأول .. كان الجنود يطاردونه وخشى ان يقع فى أيديهم أسيرا ليقدم إلى محاكم التفتيش فانتحر .. وبدا لفاطمة وأحمد وهما يرقبان كأنما أنا الذى قتلته وحينما حاول أحمد الفرار بفاطمة اضطررت ان أقتل زهيرا أعلمنى انه خائن وانه يقودهما إلى حتفهما حيث ينتظرهما ثلة من الجنود البرتغاليين .. وحتى بعد ذلك حين حاولا الهرب ، إتجها إلى الميناء ، وكنت أعلم ان ثمة فخا منصوبا للايقاع بهما ، فتظاهرت بنفسى لهما لكى يغيرا إتجاههما ، وفعلا ذلك ، وإن ظنا اننى كنت أعترض سبيلهما .

ابتدعت فى هذه الأثناء شخصية المتشح بالسواد .. كانت متنفسا لإحساسى وشعورى .. لم أستطع الصبر على إطلاقه دون ان أفعل شيئا وأنا أرى قومى يظلمون ، ويعذبون ، ويقتلون .. ولما تقرر رحيلى طلبت من قوات المقاومة أن ينتشر الزى فى كل البلاد لسببين : أولهما ألا يربط أحد بينى وبين المتشح بالسواد إذ قد يلاحظ أنه إختفى بمجرد سفرى .. خاصة وأنى راقبت الكابتن داندرادى وشعرت بأنه بدأ يشك فى . السبب الثانى أنى كنت أعلم انى سوف أعود إلى ممبسة إن عاجلا أو آجلا ، وربما أستفيد من شخصية المتشح بالسواد .

سافرت إلى لشبونة .. والتقيت بك .. لم أكن أتصور ان يأتى يوم أقع فيه فى هوى برتغالية .. لكننى أحببتك بكل مافى قلبى من قوة ، وبكل مالدى من وجدان .. احببتك حبا يائسا لا أمل فيه ، فلم أكن أطمع ان يأتى يوم تبادلينى فيه عاطفة بعاطفة .. وحتى لو جاء هذا اليوم فكيف أتصور ان يستمر حبك بعد ان تعلمى عنى ما اعلم .. وماتعلمين الآن .. ليس هذا فحسب بل كانت أمامى مهمة كرست لها حياتى ، وما كنت أسمح لهواى ان يوقفها أو ينهيها ، أو يضعف منها .. جربت كل الوسائل لانتزع هذا الهوى من فؤادى .. ابتعدت عنك .. وتشاغلت بشتى الأعمال .. وتركت ناتاليا تطاردنى الغرام .. وعاملتك بجفاء .. ولم أستطع ان أزعزع حبك فى قلبى .. على العكس .. كان يزداد إيغالا مع مرور الأيام ..

وجاء ذلك اليوم حينما وقفنا على السفينه فى طريقنا إلى جوا .. سيطر قلبى على سيطرة تامة . ولم أستطع ان أكتم هواى .. أمسكت لسانى ان يبوح .. وامتنعت ان اضمك إلى صـــدرى .. ومع هذا فقد فضحت عيناى ، وحركاتى مايكنه قلبى .. وظننت انى رأيت فى عينيك الحب فكاد ان يطيش صوابى .. إلا انى تمالكت نفسى فى آخر لحظة ..

هل هنالك مايدعونى إلى رواية انواع العذاب النفسى الذى لاقيته حينما طردنى أخـــوك ثم أبوك ؟ .. هـل يلزمنى ان أصف الغيرة التى كانت تملأ قلبى من كاستلبرانكو .. بل ومن ديوجو .. ؟ هل أذكر لك الليالى التى قضيتها

مسهدا انقلب على جمر الغيرة ؟ هل أروى كم قاسيت وأنا أرغم نفسى على الإبتعاد عنك منذ أن تزوجنا ، وكل قطرة فى دمى تناديك ؟

أتدرين لماذا بعدت عنك ؟ .. لأننا تزوجنا فى كنيسه وأنا مسلم ؟ لأننى لم أدفع لك مهرا ؟! .. إننى فى نظرك زوجك .. أما فى نظرى فلا .. لست زوجتى حتى الآن. لهذا رفضت ان أمسك رغما عما يعتمل فى قلبى حتى أضع الأمور أمامك على حقيقتها . رفضت أن يحتويك ذراعاى على خـــداع .. حتى تعلمين ، وتقررين .. لم أجرؤ ان أبـــوح لك بسرى لأنه لم يكن سرى بمفردى .. بل سر المسلمين اجمعين .. جازفت بأن أفقد حبك .. مفضلا ذلك على ان أعرض الآمال التى انعقدت حولى للضياع ..

أخيراً هنالك رحلة الصيد .

قبل رمضان أعلنت أننى سأذهب إلى رحلة صيد ، وما كانت كذلك . استهدفت أولا ان أصوم الشهر الكريم دون رقيب أو حسيب ، كما انتهزت الفرصة لأضع الأمور فى نصابها مع أحمد وأترابه . وقد ساعدنى عمر بن الشيخ على الحضرمى على ذلك إذ تعرف على صوتى من فوره . وأردت ان أضع أسسا جديدة للعلاقة مع زعماء القبائل المجاورة حتى أستطيع الإطمئنان إليهم حينما يحين الجد وأخيرا قمت بإعداد جماعتى ، وتدريبهم عسكريا ، ومرانهم على كل خطوة من الخطوات التاليـــة .

أعتقد ان هذا كل مالدى .. ولك ان تقررى الآن .. لا .. ليس هذا كل ماعندى .. دعينى أحذرك .. إن اخترت جوارى فإنك لن تلقين إلا عنتا .. سوف أظل أحارب حتى ينتصر المسلمون .. أو أمـــوت دون ذلك .. إن ماأبشرك به هو الشقاء والعذاب .. هو الجوع والحرمان .. هو قتال وقتل أهلك وعشيرتك وأرباب ديانتك .. سوف أستمر فى حربهم طـــالمـــا زالوا فى ديار المسلمين . وإن أنكرت جوارى فسوف أرسلك معززة مكرمـــة إلى باتى ومعك أموالك

من مال تعويضا لك عما فاتك ، وأحسب أنك تستطيعين الحصول من البابا على إنفصال جسمانى .. أو حتى طلاق نظرا لظروفك الخاصة .

لاتتخذى قرارا الآن .. لقد مضى علينا يوم عسير وهذا قرار يحتاج إلى روية .. دعى الأمر إلى الغد .. أو بعد غد .. ليس ثمة مايدعو إلى العجلة .

لم تكن ايوفيميا قد حادت بنظرها عن وجهه طوال حديثه . كانت تعرف معظم ماقاله . وفكرت .. فيه وحينما إنتهى خفضت من بصرها .

ـ فماذا أفكر ؟ إن الأمر فى نظرى بسيط لايحتاج إلى تفكير .. إن كنت مازلت كاثوليكية فأنت فى نظرى زوجى بل وتستطيع ان تتزوجنى ثانيـــة .. وان كنت قد أصبحت مسلمة فما الذى يمنعك من زواجى ؟ .. هذا طبعا إذا رغبت .

لاول مرة لم يستوعب يوسف الكلام فوراً . لم يستطع عقله ان يصدق ماسمعت أذناه .. بقى لحظات لايفهم ثم إندفع يأخذها بين أحضانه وهو يهتف .

ـ ايوفيميا .. حبيبتى ...

* * *

فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٦٣١ اجتمع فى قصر نائب الملك فى جوا مجلس حرب ، كانت الأنباء قد وصلت من يأتى فى اليوم نفسه عن الثورة التى قام بها يوسف بن حسن فى ممبسه . لم يسموها ثورة وإنما تمردا فالخاضع المستعمر لايحق له الثورة ، وأى إعتراض هو تمرد وعصيان .

ضم مجلس الحرب ، بالاضافة إلى نائب الملك ، الجنرال دوم فرنسيسكو دى مورا ، والنبلاء فرناندودى نورونا بن نائب الملك ، ودوم رودريجو بوتلهو أمير البحر ودون أندروفيلو قبطان ستة مراكب ودوم بورال رئيس المهندسين ثم الضابطين بدرو الفاريز دى كاستلبرانكو ، ودوم ديوجودى ليما ، والربان جاو

الفاريزى دى مورا ، ثم انضم إليهم نائب الجنرال الدوم جونزو لادى باروس دى ليما ، كقائد ثان ، وكابتن أنطونيودى باروس ضابط المخابرات .

كان الكونت دى ليتارس حانقا غاضبا يصيح فى الموجودين بأعلى صوته . شعر بأن جزءا من المسئولية عن ثورة ممبسة يقع على عاتقه حيث أنه هو الذى أمر تعيين يوسف سلطانا ، لهذا تضاعف غضبه وحنقه ، وصبه أولا على ضابط المخابرات .

ـ . . كيف لم أخبر بأن هذا الشخص هو المتشح بالسواد ؟ ماذا تفعل يا حضرة الضابط ووراؤك كل ماطلبت من ضباط وجنود ومال ؟ هل أنتم أغبياء أو خونة ؟ . خائن يستمر بيننا سنوات يقتل ، ويسرق ، ويدمر ، ولايعرف عنه شيئا ! سوف أقدم للمحاكمة كل شخص ظهر منه إهمال فى الموضوع . .

تخبث رد الكابتن .

ـ سيدى الكونت إن الرجل ماكر جدا . . لقد خدعنا جميعا بل إنه ظل سنوات يعمل مع الجنرال داندرادى دون أن يفطن إلى حقيقته .

ـ أين هو الجنرال داندرادى ؟ لماذا لم يحضر الاجتماع ؟

قال الجنرال دى مورا .

ـ لقد أمرتموه فخامتكم بالقيام بجولة تفتيشية واعتقد أنه الآن فى مكان ما فى الساحل الأفريقى .

ـ ولماذا لم يقم بالهجوم مباشرة على الخائن ؟

ـ لست أدرى فربما خشى أن يتحرك دون أوامركم أو لعله رأى أن القوة التى معه غير كافية لإستعادة الحصن .

ـ على أى حال إن الحصن يجب إستعادته . بأى ثمن ؛ كما يجب قتل هذا الشخص جيرونيمو . . لقد تزعزعت هيبة الإمبراطورية وسوف نجد أن التمرد ينتشر فى كل مكان . . يجب أن يكون أمثولة لغيره كما يجب أن يعاقب كل فرد فى المدينة الملعونة . . رجلا أو امرأة أو طفلا . كل

ـ شخص .. هل فهمتم ياسـادة ..؟ كم سفينة تحت إمرتك فى جوا ؟
يادوم بوتللو ؟

ـ ثمانية وخمسون يافخامة الكونت .

ـ وكم سفينة يلزمك يادوم دى مورا ؟

رد الجنرال متباهيا .

ـ أستطيع أن أستولى على الحصن بخمس سفن .

ـ خذ عشرة إذاً .. يجب أن تتأكد من الإستيلاء على المدينة ، وتدميرها
وإلا فان هيبة الإمبراطورية ستزول نهائيا .

هنا تدخل ديوجو .

ـ سيدى الكونت هل تأذن لى ؟

ـ من أنت ؟ .. آه أنك الكابتن ديوجو . ألم تكن صديقا للمارق المتمرد ؟

ـ أجل يا سيدى .. لكن لم يبد عليه أى مروق أو خيانة ، بل إنه كان
كاثوليكيا مؤمنا وبرتغاليا مخلصا .

ـ إيه . ماذا تريد أن تقول ؟

ـ إن جيرونيمو ياسيدى يضع احتياطاته لكافة الظروف وليس من اليسير
التغلب عليه .

ـ ماذا تقول ؟ .. هل تعنى أن نتركه يمرح ويفعل ما يشاء . هذه خيانة ..
كيف تجرؤ أن توجه لى مثل هذا الكلام .

لم يتراجع ديوجو عن موقفه .

ـ سيدى أنا لا أعنى هذا ، وأنما إذا أمكن التوصل إلى اتفاق ودى معه فربما
يكون من صالح الجميع دون اراقة دماء .. لن تجدوه عدوا سهلا :

ـ إتفاق ؟! .. مع هذا الخائن المتمرد .. إنك مجنون .

ـ سيدى إننى فقط انظر لصالح الطرفين .

ـ الطوفان .. هل وصلت بك الفجة أن تقرر أمامى أنك ترعى مصلحة هذا التمرد ؟ .. هذا الكتاب .. إنك لا تستحق سوى محاكم التفتيش .

هنا تدخل صوت ناعم خبيث .. قال كاستبرانكو .

ـ إن سيدى الكونت يجب أن يلتمس عذرا للدون ديوجو فقد كان صديقا للخائن لمدة تزيد على خمسة عشر عاما ، ونحن نحيي فيه هذا الوفاء : فقد ديوجو أعصابه .

ـ إننى أدافع عن الإمبراطورية أكثر منكم .. إنكم لا تفكرون سوى فى سفك الدماء ، واستئصال شأفة المسلمين ، أو ما أقول إن أسلوبكم هذا لن يأتى منه سوى هدم الصرح الذى بناه أجدادكم ، بل لقد بدأ فعلا الإنهيار .. ماذا عن هرمز ؟ .. وماذا عما يحدث فى عمان .. ماذا عن الصلح مع السلطان ناصر بن مرشد ؟ ألم نضطر إلى هدم الحصون فى صحم وقريات ؟ ماذا عن مركزنا فى أندونيسيا ؟ ..

قاطعه الكونت دى لينارس بلهجة صارمة .

ـ كفى يا كابتن ديوجو .. ماذا تظن نفسك ؟ هل تنتقد سياستى ؟ عليك أن تنسحب من الحجرة ولا تخرج من مسكنك لحين صدور أوامر أخرى .

هب ديوجو من مكانه وأدى التحية العسكرية ثم انسحب من الحجرة وسط صمت الآخرين . حينما أغلق الباب خلفه التفت نائب الملك إلى الموجودين وتساءل .

ـ أتشهدون ياسادة على ماقال ؟ إنه مارق يجب أن يقدم إلى محاكم التفتيش .

من الغريب أن الجميع لم يردوا عليه . كانوا يعلمون أن فى كلمات ديوجو الكثير من الصحة ، وأن انشغالهم بجمع المال قد ألهاهم عن أعمالهم الحقيقية . لهذا لم يجرؤ واحد فيهم أن يقرر قبوله الشهادة ضد ديوجو . إستمروا فى أعمالهم يضعون الخطط ثم إنسحبوا إلا كاستبرانكو فانه تلكأ قليلا ، وحينما لم يبق فى الحجرة سواه خاطب الكونت .

ـ سيدى الكونت إن لى رأيا لو أذنتم فيما يتعلق بديوجو .

قطب دى ليناريس ما بين حاجبيه ، لم يتكلم ورفع عينيه ينظر إلى وجه الرجل مباشرة .

ـ ان ديوجو من عائلة قوية وهو وحيد والده الكونت دى سيا فإذا قدم للمحاكمة قد يطلب إرساله إلى لشبونة وربما هناك يجد آذانا صاغية لأكاذيبه .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ اعنى ياسيدى أن من المستحسن الا يقدم الضابط ديوجو إلى المحاكمة ، وأن يعتبر ما حدث منه مجرد طيش شباب .

صاح الكونت غاضبا .

ـ هل تهددنى يا كابتن كاستليرنسكو ؟

سارع الرجل إلى نفى ما فهمه نائب الملك .

ـ مطلقا ياسيدى .. إننى فقط أشرح لفخامتكم رأيا إن وافقتم عليه ؟

ـ ما هذا ؟ تكلم فإنى أكره الاحاجى ..

ـ ألا يكون من المستحسن أن يرسل الكابتن ديوجو إلى قتال صديقه جيرونيمو فى ممباسة .. وربما لايعود فيكفى الجميع شره .

ـ وإذا رفض ؟!

ـ لن يستطيع الرفض لأنه بذلك يعرض نفسه للمحاكمة العسكرية .

بدأ الكونت يفكر .

ـ وإذا عاد ؟!

ـ لن يعود .. أنا أضمن لسيادتكم هذا ..

ـ آه فهمت .. وماذا تطلب لقاء خدماتكم ؟

ـ لاشىء ياسيدى سوى رضاكم .. إن حصن يسوع سوف يحتاج إلى قائد .. ولا شك أن فخامتكم يهمكم أن يتولاه شخص موثوق فيه ، كما أن زوجة

جيرونيمو كما تذكرون فخامتكم كادت أن تكون خطيق .. وسوف تصبح أرملة .. ! (*)

ـ آه .. أجل .. طبعا .. سأرسل أوامرى معك بالعفو عن الكابتن ديوجو على أن يذهب ضمن الحملة على ممبسة .

* * *

بعد الاستيلاء على الحصن عقد فى ممبسة إجتماع حرب من نوع آخر . فى القصر إجتمع يوسف مع الشيخ على الحضرمى ، وابنه عمر ، وأحمد بن الأمير سالم ، وعبد الله عوذارى . كانوا يتناقشون فى مستقبل البلاد . قال يوسف .

ـ لاشك لدى فى أن ثائرة البرتغاليين ستوجه نحونا .. وسيرسلون أسطولا ضخما معززا بجيش كبير .

رد أحمد بحماس .

ـ سوف نقاومهم ونهزمهم .

ـ إلى متى ؟ ربما فى موقعه فمن حسن الحظ توجد لدينا كمية كافية من الذخيرة وبعد ذلك ماذا ؟

يرتفع صوت الشيخ على الحضرمى يسأل بتؤدة .

ـ هل أنت واثق يابنى أنك سوف تهزمهم ؟ حتى فى موقعة واحدة ! إن لديهم أساطيل ضخمة وتحت إمرتهم ما يشاءون من ذخائر .

ـ هذا صحيح ، لكن موقفهم فى الشرق الأقصى لا يحسدون عليه ، كما أن الهولنديين والانجليز يقفون لهم بالمرصاد .. وموقفهم فى عمان كذلك فسلطانها ، سلطان بن سيف ، لم يدع لهم فرصة يستريحون فيها . كل هذا يجعلنى آمل الا يستطيعوا ارسال اسطول قوى بدرجة كافية .

على أن مايؤرقنى ليس هذه الموقعة فإن لدى فيها أسلحة وذخائر تكفى ، وأيا كانت الأوضاع فلا مناص من قتالهم فلن أقف دون قتال ولدى أسلحة وذخائر . إن مايؤرقنى هو ما بعد هذه الموقعة .

قال عمر مؤملا .

— ربما يطلبون الصلح .. !

— لا أعتقد .. فليست لديهم العقلية السياسية الكافية .

تدخل عبد الله هوداري في الحديث .

— إذا فما فائدة كل مافعلناه ؟ هل نسلم لهم فقط ؟

— كلا يا عبد الله .. دعني أوضح نفسي .. إن مبدأ القتال لاشك فيه . إننا لن نتركهم يهنأون بسيادتهم .. إن ما أفكر فيه هو مصير شعبي بعد المعركة الأولى .. أما المعركة في حد ذاتها فلا مجال لمناقشتها .

للمرة الثانيــة تدخل الشيخ على .

— إن لي رأيا .. لماذا لا نرسل الرسل إلى شيوخ وسلاطين البلاد المجاورة ، مالندى ، وباتى وغيرها ربما يريدون الإنضمام لنا .

هز يوسف رأسة نفيا .

— إن آفة المسلمين الفرقة . سوف يرفضون المساعدة ، والانضمام لنا لأنهم سيعتقدون أنني أبغي تكوين إمبراطورية لنفسي وهم للأسف يفضلون ذل البرتغال على عز الاسلام .

— إذا فلنحاول ربما كان منهم من لديه نخوة كافية .

— آه لا بأس من المحاولة وإن كنت أعتقد أنها غير مجدية إلا أن مما لاشك فيه أنه يجب إعطائهم فرصة القبول .

— حسنا سأتولى أنا هذه المهمة .

— إنها مهمة شاقة خطرة يا شيخ على دعها لعبد الله وعمر .

أعتقد ياسادة أن مناقشاتنا قد إنتهت مؤقتا وعلينا أن نؤجل البت في مصيرنا ومن تابعنا حتى يعود الأخان عبد الله وعمر من رحلاتهما .

إنصرف الموجودون وبقي يوسف مكانة يفكر . دخلت عليه ايوفيميا فلم يلحظها حتى أضحت على قيد خطوة منه . جلست على الأرض عند

قدميه ووضعت رأسها على ركبتيه فداعب شعرها بأنامله . استكانت للمساتة راضية لا تحاول أن تتحرك حتى لاحظت أن حركة أصابعه رتيبة . فرفعت رأسها تحدق في وجهه وقالت .

— إن زوجي الحبيب مهموم يفكر !

— هل تعلمين أن الحرب وشيكة الوقوع ؟

— أنا أعلم أنك بجانبي . وأنك تحبني كما أحبك وبعد ذلك لايهمني شيء . وكل ما يزعجني هو أنك تقضي أوقاتا طويلة في الحصن وددت لو قضيتها معي :

— آسف ياحبيبتي لكن لابد من إعداد المدافع ، والأسلحة ، والذخائر ، وتمرين الضباط والجنود ، ولست اطمئن دون أن أقوم بتفتيش دوري .

— ومتى تتوقع أن يحدث الهجوم ؟

— ليس بعيدا .. ربما بعد شهر ، أو اثنين على الأكثر .. لكن لا تتعبي رأسك الجميل في التفكير .. وليقضي الله أمرا كان مفعولا .

* * *

في الثالث عشر من أكتوبر أبحرت من جوا ثمانية عشر سفينة حربية في حملة ضخمة تهدف تدمير حصن يسوع وهدمه على رؤوس من فيه ، وحرق مدينة ممبسة وقتل وتعذيب جميع أهلها جزاء وفاقا لهم على اجترائهم على رفع راية التمرد والعصيان . وفي السابع والعشرين منه إكتشف الأسطول الضخم جزيرة وسط المحيط أسموها سنتا ، ومنها أبحروا إلى باتي حيث علموا أن الجنرال روي فريري داندرادي قد أرسل إليهم ثلاث سفن حربية أخرى لمساندتهم في الاستيلاء على الحصن والمدينة ، وأن السفن ألقت مراسيها عند مصب نهر كارنو تحت قيادة جاودي فونسيكا ، قائد ثلاث سفن .

من باتي أبحر الأسطول إلى لامو ، ثم مالندي ، ومنها إلى ممبسة ليصل إليها في صباح اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٦٣٢ وأضحى الحصن على مرمى البصر

يقف شامخا متعاليا فوق الصخور . من الحصن صدرت طلقة مدفع واحدة لتقع على مسافة لا تزيد على مائتى متر من موقع السفن . لم يطلق غيرها ، وكأنما صاحب الحصن قد ارسل إليهم بها انذارا ان هذه حدودكم ، لا تعدوها .

أصدر الجنرال دى مورا أوامره فورا فألقت السفن مراسيها عند فم الخليج ، بعيدا عن مرمى المدافع ، ووقفت فى خط مستقيم تسد المدخل تماما . عقد الجنرال مجلس حرب لوضع خطة الهجوم ، وإستقر الرأى على أن يهاجم الأسطول الحصن بكل مايستطيع من قوة وعلى أن يحاول القبطان أندروفيلو قبطان ستة سفن ، إنزال رجاله إلى البر فى خليج صغير أسفل الكنيسة .

إعتمد الجنرال فى خطته أساسا على أن يوسف ورجاله لا خبرة لهم باستعمال المدافع ، وأن مناوشة الأسطول لهم ستلهيهم عن أندروفيلو ورجاله الذين كان عليهم أن يستولوا على المدينة أولا ، ثم محاصرة الحصن وقطع التموين عنه ثم نقل بعض المدافع الى البر لاتمام الحصار . وإنطلقت المدافع من الأسطول القوى تهز أصواتها مبانى المدينة ، لكن الطلقات نفسها كانت تهبط على مسافة من الحصن لا تصيب حتى جدرانه .

تقدمت السفن ، وانفصل اندروفيلو وسفنه الست ليتخذ طريقه إلى الخليج ، بعيدا عن مرمى المدافع . مع كل هذا لم تصدر من الحصن طلقة واحدة وكأنما كان من فيه نياما أو أمواتا . اقترب اندروفيلو بسفنه من الخليج بالقدر الذى يسمح به الغاطس وأنزل قواربه مليئة بالرجال والأسلحة ، وبدأ الجنرال يهنئ نفسه على الخطة التى وضعها .

وصلت القوارب إلى الشاطئ . وهنا بدأت أول متاعب البرتغاليين . كان الشاطئ صخريا يرتفع عموديا بحيث لم يستطع الرجال تسلقه وهم يحملون بالأسلحة والذخائر . وفجأة من أعلى الربوة إنطلق مدفع لتسقط طلقاته على السفن الراسية ، وتصاب أول السفن إصابة مباشرة . ومن مراكز مختلفة فى التل الصغير مرقت سهام تخترق الهواء تصيب الرجال وهم يحاولون الصعود .

توالت طلقات المدافع تسقط من أكثر من جهة على السفن الست ، وتتالت السهام تلتقط الرجال . حاول البرتغاليون أن يردوا عن أنفسهم الموت باطلاق بنادقهم ، لكن عدوهم لم يكن يظهر له أثر . مجرد سهام تخترق الهواء فى أزيز مخيف لتستقر فى الصدور ، والرقاب ، والأجساد . أمر أندروفيلو باطلاق مدافع سفنه على المراكز التى رأى أن الطلقات تصدر منها فى محاولة يائسة لإسكاتها إلا أن المدافع استمرت فى قذف حممها من أماكن مختلفة بدقة أصابه متناهية .

لأكثر من ساعتين تحملت السفن الست ضربات قاسية حتى أن إحداها بدأت تدخلها المياه مما إضطر فيلو إلى سرعة الأمر بسحبها من المعركة . وكان الرجال على البر من ناحية أخرى يتساقطون بين صريع ، وجريح تحت وابل السهام المتساقطة من السماء لا يرون عدوا . تلقوا كل ما يستطيعون إحتماله ، فعمهم الهرج وهم يتسابقون نحو القوارب فى محاولة يائسة للنجاة بحياتهم . واستمرت السفن تتلقى بدورها عقابا صارما وهى تنتظر أوبة من نجا من الرجال .

فى الناحية الأخرى تقدم الأميرال رودريجو بوتللو بسفنه الخمس عشرة يناوش من بالحصن لتغطية القتال الدائر مع سفن فيلو . ولم يرد الحصن حتى دنت السفن بدرجة كافية ثم فتحت ست مدافع أفواهها تقذف حمما تتساقط . تتطايرت قطع الأخشاب ، وإرتفع صراخ الجرحى والقتلى وإهتزت الصوارى ، وقبل أن يتدارك الاميرال الأمر أنطلقت أفواه ست مدافع أخرى تصيب السفن إصابات مباشرة . كان التصويب من الدقة بحيث أن كل طلقة تقريبا أصابت هدفها ، وقليل منها ماطاش .

استدارت السفن سريعا فى محاولة للابتعاد عن مرمى المدافع . وإنطلقت المدافع تلاحقها . لم يكن من بالحصن يبددون الذخائر ، فلم تنطلق طلقة واحدة دون أن يكون لها هدف . وانسحبت السفن بعيدا ، لتلتقى مع سفن اندروفيلو عند المدخل .. بعيدا عن مرمى المدافع . وعم السكون السكون .

كانت جماعة مبتئسة تلك التى إجتمعت مساء فى غرفة القبطان فى سفينة القيادة

إلى ذا. وجوههم وهم يستمعون إلى تقرير الخسائر التى لحقت بهم من مغامرة النهار ، بينما لم يستطع واحد فيهم أن يؤكد أية خسائر لحقت بالعدو . ربما أصاب جدران الحصن بعض طاقات لكن المسافة كانت بعيدة لدرجة أن من المشكوك فيه أن تكون القذائف قد أثرت تأثيرا فعالا فى الجدران السميكة . إن بناة الحصن كانوا من نوابغ المهندسين البرتغاليين ، وقد بنوه ليبقى .

تناقشوا فى خطواتهم القادمة وكان من رأى ربان السفن المصابة أنهم يلزمهم ثلاثة أسابيع ليتمكنوا من اصلاح الاعطاب التى حدثت فى سفنهم حتى تكون صالحة لدخول معركة أخرى . ولم يتصور الجنرال دى مورا كيف يمكن أن يستمر واقفا بسفنه أمام الحصن دون قتال طوال هذه المدة بعد اللطمة التى تلقاها .

احتدم الجدال بين الجنرال ، ورجال البحر حينما دخل أحد البحارة يستأذن لواحد من أهالى ممبسة .

نظروا إلى بعضهم بدهشة لكن سرعان ماصدر الإذن . وفى اللحظة التالية دخل الأمير سالم بخطواته المترددة الحذرة . دارت عيناه فى الموجودين ثم استقرت على الجنرال دى مورا وتمتمت كلماته وهو يوجهها إليه .

— سيدى الجنرال لقد أتيت لأضع تحت إمرتكم خدماتى خاصة بعد حوادث اليوم المؤسفة .

نظر إليه الجنرال بصرامة ، ولم يطلب إليه الجلوس ، وحينما تكلم ظهرت الغطرسة بأجلى معانيها .

— من أنت ؟

— إننى الأمير سالم .. عم يوسف بن حسن سلطان ممبسة الحالى .

— وماذا تريد ؟

— جئت ياسيدى أقدم خدماتى كما قلت .

تدخل الاميرال بونللو فقال بلهجة ناعمة تغاير تماما لهجة الجنرال .

— تفضل ياسيدى الأمير بالجلوس .. هل نستطيع أن نقدم لك شرابا .

ـ شكرا . إن وقتى ضيق ولا أود المكوث طويلا حتى لا يلاحظ غيبتى أحد . وإنى أجازف بحياتى بمجرد المجئ .

يرتفع صوت الجنرال حادا

ـ ولماذا أتيت ؟ هل جئت تلتمس العفو ؟ دعنى أخبرك أننا لن نقبل سوى إستسلامكم دون شرط ..

ـ لا ياسيدى .. إننى لم آت نيابة عن يوسف .. إنه لن يستسلم بل سيقاتل .. إنه خبيث ماكر .

ـ اذا لماذا أتيت ؟

ـ أتيت بالاصالة عن نفسى لأعرض عليكم خطة قد يكون فيها المخرج من هذا القتال .

ـ إذا فإنك تضيع وقتك ووقتنا .. إقبضوا عليه .. ؟

للمرة الثانيـــة تدخل الأميرال بهدوء .

ـ سيدى الجنرال إن الأمير جاء إلينا كصديق ولا يجوز أن نعامله بقسوة .. إنه يعرض خدماته فلا أقل من أن نستمع إليه .

ـ تكلم إذا .

ـ انكم لن تستطيعوا هدم الحصن ، ولا إنزال جنودكم إلى البر عند الخليج وأرى إن وافق سيدى الجنرال أن تنزلوا فى الناحية الأخرى حيث الغابة كثيفة ولا يستطيع من فى الحصن رؤيتكم .

ـ وماذا لو وضع جيرونيمو بضع مدافع في الغابة ؟

ـ لا .. لا .. إنه لن يستطيع إذ هى كثيفة بحيث يستحيل أن يكون للمدافع أى تأثير .

ـ هل هذا هو كل مالديك ؟

ـ كلا ياسيدى .. انى أعلم أيضا أن اريفو زعيم الوزونجلى لا يحب يوسف ، وكانت قواته تهاجم المدينة وتستولى على المحاصيل طوال المدة الماضية وهو

صديق مخلص لى وللبرتغاليين ولو اتفقتم معه على أن يهاجم برجاله من ناحية الغابة في الوقت نفسه الذى ينزل رجالكم إلى البر لأضحى يوسف بين نارين ولكان من السهل الاستيلاء على المدينة أولا ثم الحصن .

ـ وما يدريك أننا لانستطيع انزال رجالنا إلى البر فى الخليج ؟

ـ لقد حاولتم اليوم وفشلتم .. أن لدى يوسف عددا وفيرا من الرجال وهم يتفانون فى خدمته والامتثال لأوامره وقد ازدادوا تفانيا بعد حوادث اليوم ولهذا فانه يسهل عليه جدا أن يحرك مدافعه بسرعة فائقة بحيث لا يمكنكم تحديد مواقعها ، كما أن معظم الشاطىء البعيد عن مرمى مدافع الحصن صخرى لا يسهل ارتقاؤه .

ـ ومن أين لى أن أعلم أنك صادق وأن اريفو يقف إلى جانبنا ؟

ـ أننى انسللت من المدينة في قارب يقوده سبعة من رجال موزونجلى كما تستطيع فخامتكم التأكد بسؤالهم .

ـ وما مصلحتك أنت فى كل هذا ؟

ـ إننى صاحب الحق الشرعى فى العرش الذى إغتصبه منى يوسف وكل ماأطمع فيه هو أن يعود العرش لى .

ـ حسنا يمكنك الانتظار فى الخارج حتى نستقر على رأى .

ـ لا ياسيدى لا بد أن أعود فورا وإلا اكتشف يوسف تغيبى ولن يصعب عليه الاستنتاج ..

كان من الجلى أن الرجل ترتعد فرائصه لمجرد ذكر إسم يوسف . وأنه حقا خائف على حياته . لهذا كان صوت الاميرال هادئا لينا وهو يقول .

ـ لن نؤخرك طويلا .

لم يبد على الأمير سالم أنه إقتنع بالرد إلا أنه لم يكن لديه مندوحه من الإنسحاب . تبادلوا الرأى وتشاوروا فى مدى صدق رواية الأمير وفاعلية خطته . ولم يجد واحد منهم بديلا عنها . أخيرا إستقر رأيهم ، واستدعوه . بدا

قلقا مرتعبا ينظر حوله كأنما يتوقع أن يبرز إليه يوسف من أى ركن فى الحجرة الفسيحة . وبما بدأ يأسف على مجيئه ويتمنى لو أنه بقى فى منزله آمنـــا بعيدا عن المطامع السياسية .

تلقاه الجنرال مورا بلهجته الصارمة المتغطرسة .

— لقـــد استقر رأينا على قبول التماسك وتنفيذ الخطة على أن تلقانا فى الثامن والعشرين من هذا الشهر عند الغابة لتسهل لنا مأموريتنا ، ولنطمئن إلى عدم خداعك .

— لماذا كل هذه المدة الطويلة ؟

— هذا شأننا ، تذكر ان عليك أن تنتظرنا عند الشاطئ فى صباح الثامن والعشرين .

* * *

فى صباح اليوم التالى رأى من بالحصن أن السفن تحركت وغيرت مواقعها . بقيت بعيدة عن مرمى المدافع لكنها انتشرت بحيث غطى جزء منها مدخل الخليج والتف جزء آخر حول الجزيرة من ناحية الغابة . ووقف يوسف فى أعلى برج المراقبة يرقب المناورات ، وإلى جانبه أحمد وعبد الله . كان عبد الله قد عاد مع عمر من رحلاتهما يستنفرون فيها سلاطين وأمراء البلاد ، ولم يصادف أيها النجاح . تعلل الملوك بحجة أو أخرى معتذرين ، بل إن أحدهما ذهب إلى محاولة القبض على عبد الله ، وتسليمه إلى البرتغاليين لولا أن أنبأه صديق مخلص ففر هاربا .

وقال يوسف .

— هنالك شىء غريب . إن الأسطول يبدو أنه يزمع البقاء لحصار طويل .

وتساءل أحمد .

— وما الغريب فى هذا بعد الدرس الذى لقناه لهم البارحة ؟

— الغريب هو أن الرياح الموسمية يقترب ميعاد تغير إتجاهها إلى الهند ؛

وكنت أظن أن الجنرال يود أن ينتهى من القتال قبـل ذلك إلا أنه لا يبدو فى عجلة من أمره .

— ربما يريدون إصلاح الأعطاب التى حلت بسفنهم !

هز يوسف رأسه متشككا ولم يزد على أن قال .

— ربما .. !

* * *

مرت الأيام دون تغير يذكر . لم تحاول سفن الأسطول الإقتراب ، ولا مجرد المناوشة حتى ظن الجميع ان البرتغاليين عقدوا العزم على حصار طويل المدى . واستقرت الأحوال فى المدينة تسير سيرها العادى ، ولولا هجمات قبيلة موزونجلى المستمرة واستيلائها على المحاصيل ، والحيوانات الأليفة ، لكانت المعيشة هادئة . وطلع صباح اليوم السادس والعشرين على تغير فى المواقف . دخلت ست سفن بقيادة اندرو فيلو للمرة الثانية الميناء . وبدأت تصب نيرانها على التلال كأنما لتطهرها من المدافع تمهيدا لغزو جديد . فى هذه المرة لم يرد العدو واستمر الاطلاق من جانب واحد

تكرر المشهد نفسه فى السابع والعشرين ، وازدادت سفن فيلو جرأة فاقتربت من التلال الصخرية تقصفها قصفا شديدا ، ومع هذا فقد ظل العدو صامتا لا يرد حتى أن الجنرال دى مورا بدأ يفكر جديا فى تغيير خطته والرجوع إلى ما سبق أن حاوله ، لولا أن أقنعه رجاله بعقم المحاولة مذكرين إياه بأحداث اليوم المشئوم . مسحت مدافع السفن الست التلال مسحا منظما فلم تدع مكانا إلا صبت عليه نيرانا حامية ، واستمر العدو فى صمته .

جاء صباح اليوم التالى بمفاجأة . ما كاد أول ضوء النهار أن يبدو وإلا وانطلقت من التلال قذائف متتالية تسقط على السفن الرابضة لا تخطئها . وردت السفن النيران لكن الضوء لم يكن كافيا ليحدد البرتغاليون أماكن خصومهم ، فجاءت نيرانهم بعيدة عن الأهداف . واشتد تبادل النيران بين الفريقين حتى اضطر فيلو أن يأمر

ربابنة السفن بالإنسحاب بعيداً عن المرمى . لاحظ أن المدافع تغير مواقعها بسرعة غريبة حتى أنه أيقن ان العدو كان يستخدم عشرات الرجال لنقلها .

على أن كل هذا كان يخدم فى الواقع الخطة التى وضعها الأمير سالم بالاتفاق مع الجنرال دى مورا . رأى الجنرال أن عدوه يركز جميع جهوده لمنع سفن فيلو من الاقتراب من الشاطئ بدرجة تكفى لأن يرسل رجاله بالقوارب لبداية غزو جديد . وهذا ما كان يهدف اليه الجنرال . لم يكن فى نيته أن يعاود تنفيذ خطته ، وإنما مجرد الإيهام بذلك ، ويبدو أن العدو قد خدع .

تحركت السفن الأخرى مقتربة من الشاطئ تجاه الغابة الكثيفة بعيدة عن أنظار من بالحصن . وعند الشاطئ رأى الجنرال خلال منظاره المكبر الأمير سالم وهو يقف منتظرا ، وإلى جـــواره وقف مارد أسود لم يشك فى أنه إريفو ، ملك الموزونجلى .

أصدر أوامره بإنزال الجنود ، وبدأت العملية فعلا . كان الجنرال أول الذين هبطوا من القوارب ، والتقى بالأمير سالم وتأكد أن من يصاحبه هو إريفو ، واطمأن إلى أن الخطة يصير تنفيذها بدقه . لم تحل الساعة الثانية إلا وكان جميع رجال الجيش قد استقروا على الشاطئ تحميهم الغابة الكثيفة . لكن الغابة من ناحية أخرى كانت من الكثافة بحيث لم يكن فى إستطاعة الجيش أن يتبين طريقه إلى الحصن ، وللمرة الثانية أتى الأمير سالم لنجدتهم .

جاءهم فى اليوم التالى ليخبرهم بأقصر الطرق إلى غيضة نخيل بها منزل يطل على الحصن . وأمر الجنرال الكابتن بور رئيس المهندسين أن يتخذ إلى الغيضة سبيلا . بسرعة وكفاءة أدار الكابتن دفة العمل . وتساقطت الأشجار الواحدة تلو الأخرى لتفسح طريقا للجيش . كون فرقا من الرجال يعمل كل منها ساعة تحت وطأة شمس الصيف المحرقة[1] ليستريح بعدها ويتولى فريق آخر العمل .

---

(١) أعود فاذكر القارئ أن يناير من أشهر الصيف فى الجزء الجنوبى من الكرة الأرضية .

مضت خمس ساعات رصاوا فيها إلى الغيضة ، ورأوا المنزل . لم يتوقف رئيس المهندسين النشيط عن العمل . حفر خنادق ، وسوى أماكن لتنقل إليها المدافع ، ووضع المتاريس ، ولم يحل الظلام إلا كان قد أتم الجزء الأكبر من عمله . لم يتوان الجنرال بعد ذلك . بدا له النصر قريبا ، حتى انه تعجل الوصول .

أمر الكابتن بدرو الفاريز دى كاستابرانكو أن يتقدم بسرية من رجاله . كما أمر أن يرافقه ديوجو كقائد ثان تحت إمرته . وتحركت السرية فى الظلام الدامس وسط الغابة . كان الرجال منهكون من إثر الأعمال التى قاموا بها فى اليومين الماضيين ، والحر الشديد الذى ساد الجو ، ولم يطق الجنرال صبرا . بمجرد أن جاءته الإشارة بأن السرية وصلت سالمة إلى حيث المنزل وسط الغيضة حتى إنتقل مع جزء كبير من رجاله ليلحق بها .

وصل الجنرال إلى المنزل ليجد أن كل شىء قد أعد ، فمضى يهنىء نفسه على نجاح خطته ، ويعدها بأن يهدم الحصن على رؤوس من فيه فى اليوم التالى . وضع الجنود أسلحتهم واستلقوا على الأرض ، وتحت حمى أشجار النخيل . وبدأ النعاس يراودهم .

فجأة هبوا مذعورين يلتقطون مايستطيعون من أسلحة في متناول أيديهم . انطلقت من الغابة المحيطة عشرات البنادق ، والقدرات . وتساقطت السهام كأنما تمطرها السماء . إندفع مئات الرجال من الأحراش يتصايحون ويلوحون بأسيافهم ، وخناجرهم وينقضون على البرتغاليين يعملون فيهم القتل والجرح . وجد الجنرال نفسه وسط ثلاثة من المهاجمين فأخذ يدافع عن نفسه ببسالة بسيفه ودرعه . أصابته سهام في أماكن متفرقة من جسده . وتكالب الجنود يريدون الدخول إلى المنزل للاحتماء بين جدرانه من الوابل المتساقط . لم يكن المنزل كبيرا فلم يستطع أكثر من عشرين شخصا الدخول فيه ، وسحبوا معهم الجنرال بينما تساقط عشرات القتلى فى الخنادق وعلى الأرض الفسيحة المنبسطة .

وقف ديوجو يدافع عن نفسه يعمل سيفه فى أجساد أعدائه ، واستطاع بمهارته

أن يردهم عنه . أصابه سهم فى كتفه لكنه لم يجرحه جرحا خطيرا ، سمع صوتا يعرفه جيـــدا يتكلم بالسواحيلية ولم يدر أن يوسف رآه وأمر رجاله بالابتعاد عنه . على أنه سرعان ما استنتج ذلك حينما لاحظ أن مهاجميه قد إنفضوا عنه ، وهربوا مبتعدين عن حد حسامه . ثم دوى صوت طلق نارى . وشعر كأنما سهم من نار إخترق ظهره ليستقر فى صدره . تراخت يداه وسقط السيف ، وتهاوى جسده على الأرض . خيل إليه أنه سمع الصوت يهتف باسمه بلهفة إلا طنينا فى أذنيه منع الصوت أن يصل .

كان كاستلبرانسكو ذكيا فلم يحاول أن يدخل المنزل يحتمى به بعد قتل ديوجو ، وإنما شهر سيفه مهددا واندفع إلى الغابة الكثيفة يحتمى بظلامها متجها إلى الشاطىء ، بعيدا عن المعركة . تسمعت أذناه وقع أقدام تعـــدو خلفه فضاعف من سرعته . فجأة إلتف حوله شبح طويل القامة يسد عليه الطريق . تعرف على الشبح من فوره . كان غريمه القديم جيرونيمو تشنجوليا .. يوسف بن حسن ..

وقف يوسف صامتا وحسامه يتـــدلى فى يده ، وحينما رأى أن خصمه لازال مندفعا نحوه وقد مد حسامه أمامه تحركت يده بالسيف لتحيد حسام خصمه بسهولة ، وبرة طم الجسد المندفع به . بسرعة فائقة دفعه بعيدا دفعة بالغت من القوة بحيث حملت كاستلبرانسكو أمتارا إلى الخلف ، وحينما تمالك نفسه رأى سيف خصمه على بعد شعيرات منه وجاء الصوت الأجش .

— أيها القاتل غدرا سوف أمزقك .

لم يكن كاستلبرانسكو جبانا ، أو غير ماهر فى المبارزة فقد كانت الجندية مهنته لكنه سرعان ما تبين أنه كالطفل يلهو به مارد جبار . راح سيف خصمه يداعبـــه بسرعة عجيبة . أحس بأول طعنة فى كتفه الأيسر ، وتلتها ثانية تمزق جلد خده ، واخترق سيخ ملتهب ذراعه الأيسر ، ثم أعلى صـــدره ، بينما ظل يتخبط بحسامه يحاول أن يدفع عنه سيلط النار تنهال من كل جانب . فى أقل من دقيقتين كان جسده قـــد تسربل بالدماء ، وكان يتراجع دون إنتظام أمام النصل الذى إستمر يمزقه . وجاءه الصوت البغيض ثانية .

— والآن أنظر إلى داخلك السكريه .

إستقام ذراع خصمه بعد هذا ليدخل النصل عند أسفل معدته ويشق طريقه طوليا . صرخ كاستلبرانكو وهو يرى احشاءه تتدلى . سقط سيفه من يده ، وأمسك امعاءه فى محاولة أن يمنعها من الخروج . إمتلأت يداه بالدماء ، وراح ينظر بذهول إلى بطنه المفتوحة وهو يترنح فى محاولة الإستمرار فى الوقوف . رفع عينيه إلى خصمه لكنه لم يكن موجودا . سار خطوات كأنما يبحث عمن يساعده فى إرجاع أحشائه إلى مكانها الطبيعى ، ثم أحس بضعف شديد إنتابه . تراخت يداه وتهاوى على الأرض يرفسها بقدميه .

كان القتال مازال دائرا حينما عاد يوسف إلى ديوجو . لم يبال بالطلقات الصادرة من التل وإنحنى يرفع صديقه برفق بين يديه ويسير به إلى حمى الأشجار . أصابته طلقة نارية فى كتفه ، وشعر بدمائه تسيل إلا أنه لم يأبه للإصابة ، وإستمر فى سيره حتى وصل إلى أول الغابة . وضع صديقه بحنو على الأرض ، وركع إلى جانبه يسنده إلى صدره . أن ديوجو أنينا خافتا حينما سمع إسمه يتردد . وتحركت شفتاه بهمسات .

— جيرونيمو ..!؟

— أجل ياصديق .. أنا

إرتفع الجفنان كأنما بجهد جهيد ، وظهرت من تحتهما عينان عليهما غمامة الموت لا تبصران ، وجاء الصوت ضعيفا واهنا

— خبرنى .. هل كانت حياتك كلها خدعة ؟

إنسابت الدموع من عينى الرجل الحديدى ، وغالب نفسه الا يجهش ، وحينما تكلم خرج صوته اجشا متحشرجا .

— كلا ياصديقى .. لم تكن كلها خدعة .

إنفرجت الشفتان الباهتتان عن شبه إبتسامة رضا ، وتحركتا بضعف شديد حتى أن الرجل الراكع اضطر أن يزداد إنحناء ليستمع .

— أعدنى .. أريد أن أدفن كاثوليكيا ..

وسقطت الرأس تتدلى أن ناءت بثقلها العنق .

* * *

فى الصباح جاءت النجدة لمن بقى حيا فى المنزل عند الفيضة . تساءل الجنرال الجريح عما منعهم من القدوم ليلا ، ولا بد أنهم سمعوا أصوات تبادل النيران ، فأجابوا بأنهم لم يستطيعوا حيث أن الموزونحلى هاجموهم وقتلوا منهم عددا وفيرا . هنا عرف الجنرال لماذا لم يأت الموزونحلى إلى نجدته كما إتفق مع رئيسهم . لقد خدعه الأمير سالم ، وخدعه إرينفو .. وفوق ذلك كله خدعة يوسف ، وإستدرجه إلى مصيدة الموت .

حملوا الجنرال وسائر الجرحى إلى سفينة القيادة ، وتولى مكانه نائبه جونزولا دى بايروس ، ولم يستطع أن يفعل شيئا سوى دفن الموتى ، وإتمام الانسحاب . كان جيشا بائسا محطما ذلك الذى عاد إلى السفن ظهر يوم الثلاثين من يناير سنة ١٦٣٢ . تحطمت معنوياته ولم تبق لديه روح قتالية . واضطر جنزولا إلى الأمر بإنسحاب المراكب بعيدا عن مرمى مدافع الحصن فوقفت فى مدخل الخليج لتلتقى بسفن أندروفيلو التى انسحبت بدورها بعد أن فقدت سفينتين من الست .

إستعاد الجنرال بعض قوته بعد مرور أسبوعين ، وبالرغم مما لاقاه فإنه قام بعدة هجمات دفعته إليها مرارة الهزيمة . لم يصب نجاحا فى أى من هذه الهجمات فى كل مرة كان يضاف إلى خسائره خسائر جديدة ، فقد ثلاث سفن أخريات ، راحت فى اليم مع معظم رجالها ، وأصابت معظم السفن الأخرى خسائر تفاوتت آثارها . أخيرا إضطر إلى الإنسحاب فلم تعد لديه القوة الكافية ، أو الذخائر التى يتمكن بها من شن هجوم آخر . شاهد من بالحصن السفن تنشر شراعاتها ، وتقلع ميممة شطر المحيط ، وأرسل عابث طلقة وراءها كأنما يذكر الرجال بهزائمهم المتكررة . وإرتفعت فى إرجاء الحصن أصوات تهلل وتكبير ، وأذن

المؤذنون في المساجد ، وسار الناس فى شوارع المدينة وطرقاتها يكبرون ويتصايحون من نشوة الانتصار .

وفى القصر جلس يوسف بن حسن يحادث زوجته .

— لم تبق لدينا ذخيرة كافية لصد هجوم آخر وقد أصدرت أوامرى أن على الجميع أن ينسحبوا إلى داخل القارة فى مكان إخترته أثناء رحلة الصيد بعيدا عن متناول البرتغاليين ويجب أن يتم الانسحاب قبل موسم الرياح الموسمية القادمة من الهند .

— وأنت وأنا ؟ ماذا سوف نفعل ؟

— إن لدى من الذخيرة ما يكفى لتدمير الحصن ، وسأفعل .. ثم بعد ذلك سأسافر إلى اليمن ، وعمان لأطلب معونة الأتراك أو العمانيين أو لأعرض عليهم خدماتى فى قتالهم مع البرتغال . لقد أنذرتك بأن حياتك معى لن تكون سوى سلسلة من المتاعب ، والجهاد .

— مايهمنى إلا أن أكون إلى جوارك .

* * *

فى شهر سبتمبر سنة ١٦٣٢ عاد البرتغاليون ليجدوا أن ممبسة مدينة الأشباح ليس فيها سوى رجل عجوز واحد . لقد إرتحل جميع أهلها إلى داخل القارة . بعيدا عن متناول أيديهم وسمعوا أن يوسف بن حسن سافر إلى اليمن ، وعمان ليبدأ صفحة جديدة من الجهاد .

ملحق رقم (١)

من مذكرات مانويل دى فاريا أى سوسا

تنبأنا فيما ذكرنا سابقا أن البرتغاليين سوف يدفعون يوما ما ثمن التعالى فى تصرفاتهم فى عمباسة على ملوك ذلك المكان . والآن أتى يوم تحقق فيه ما توقعنا . فى الخامس عشر من أغسطس ، عيد رفع السيدة العذراء وهو يوم فأل سيء البرتغاليين ، وان لم يؤد إلى انهيار كامل لهم ، إذ يبدو أن الرب حينما يريد أن يعاقب شعبا فإن التنفيذ يكون عندئذ فى يوم عيد . كان قائد ذلك الحصن (حصن يسوع) وهو بدرو ليتاودى جامبوا الذى إذ عامل الملك كأنما هو عبد دفعه إلى الثورة ، وإلى أن ينفض هذا التحكم غير المحتمل .

كان الملك دون جيرونيمو تشنجوليا ، وهو رجل ، لا يسعنا إلا الاعتراف باكين ، تربى فى جوا فى الدير[1] الكاثوليكى وعلمه الآباء الأوغسطنيون وقدم خضوعه للحبر الأعلى فى سنة ١٦٢٧[2] . وكان ماسبب العصيان المسلح هو ذكرى قتل والده ظلما على يد الكابتن سيماذل ميلو بريرا الذى اتهه زورا بالخيانة[3] .

كان من عادة دون جيرونيمو أن يزور قبور أسلافه . ويبدو أنهم خاطبوه عن أحداث الماضى محذرين إياه أن من الممكن أن يلاقى مثل مصيرهم .. وفى إحدى المناسبات كان هنالك حينما رآه أحد البرتغاليين وهو ينشد ويصلى لوالديه تبعا للطقوس الاسلامية رغما عن أنه كان كاثوليكيا . مما أقنع المراقب أن اعتناقه

---

(١) من هذه الجملة إستقيت الفصل الثانى .

(٢) من هذه الجملة والتى تليها كتبت الفصلين العاشر والحادى عشر

(٣) من هذه الجملة كتبت الفصل الأول ، والحادى عشر

للكاثوليكية لم يكن إلا ستارا خارجيا[١] . أنذر سرا الكابتن جامبوا الذى وكل إليه بأن يتولى هذا الأمر وأمر بأنه يجب اعتقال جيرونيمو على أن يرسل إلى جوا فى تاريخ لاحق[٢] .

وكان مما يؤسف له أن سمع هذا الرجل بالخطة لأنه حينما ذكرها للملك ، أظهر له إمتنانه جدا ثم تسبب فى أن يلقى العقاب الذى كان الكابتن يطبقه لمثل هذا الجرم الخطير ، أعنى أنه طبقا لأوامره قتله بعض الإفريقيين فى الغابة التى تقع فى الطريق إلى الجزء الآخر من المدينة (كان العرب والبرتغاليون يعيشون فى حيين يفصلهما حائط ، وأرض فضاء فى مدينة ممباسة القديمة وتوضح خريطة ريزيرو غابة بين جزئى المدينة حيث يمكن أن يكون القتل حدث) .

حينما واجه تشنجوليا ، وكان حينئذ شابا فى الخامسة والعشرين ، مثل هذا الخطر ولما كان قد إحتمل أكثر مما يستطيع البشر ، وكانت خططه قد نضجت ، رسم خطة مفصلة للانتقام . وحتى لا يذكر المخبر البرتغالى للقائد أن تشنجوليا يعلم نواياه ، إستدرج ذلك الرجل بعيدا عن أصدقائه ، ثم قتله ليتأكد من صمته الأبدى .

تبع ذلك بأن جمع ثلاثمائة من الإفريقين إختارهم بعناية وبعد أن إستعد دخل الحصن فى ذلك اليوم (١٥ اغسطس سنة ١٦٣١) كأنما ليزور القائد . دون عناء قتله بيديه فى حين قتله اتباعه الجنود . وهكذا دون أن يلاقى أية مقاومة حرر نفسه من الخطر الذى جابهه ، واستولى على الحصن تماما . حاول اقناع زوجة القائد أن تعتنق الدين الاسلامى وعرض عليها أن يجعلها مليكته إذا قبلت ذلك . وحينما هجمت عليه كالنمرة تحول بعرضه إلى الإبنة . وأخبرا قتلهما كلتيهما ، الإبنة أولا ، وقالت المرأة عندئذ بشجاعة إنها الآن سوف تموت بسلام لأنه قتل أولا

---

(١) على هذه الجملة قامت الخدعة التى إستمرت منذ انتقاله إلى جوا حتى إستيلائه على الحصن .

(٢) الفصل العشرون .

الشيء الوحيد الذى كان يمكن أن تتركه لرعايته . ومات معهم أحد أهالى جوا ، وكاهن كان يتلو القداس لهم(١) .

ترك الحصن وقد ملأه حب الدماء . أولا قتل كل البرتغاليين الذى أمكنه العثور عليهم . ثم دخل عندئذ جزء المدينة الخاص بهم . أشعل النيران فى الباقى وهدمها حتى لم يبق فيها حجر على حجر . وفر الذين إستطاعوا إلى الدير الأغسطينى حيث قاوموا الهجوم(٢) لسبعة أيام حتى نفذت مؤنهم . وحينما دنا يوم موتهم وعد دون جيرونيمو أن يبقى على حياتهم إذا تركوا المبنى دون أسلحتهم . وحينما خرجوا عزلا أمر برميهم بالسهام . وجرجر إلى الخارج النساء والأطفال الذين بقوا فى الداخل ليلاقوا المصير نفسه(٣) . ثم اعلن عندئذ أنه كان مسلما ، مؤكدا أنه منذ أيام عدة كان يحتقر إسم المسيحيين .

---

(١) الفصل الحادى والعشرون .. ولقد غيرت من تصوير كاتب المذكرات للحادث حتى يتمكن أن يستقيم الوضع مع ما كتبه زميله فى المخطوطة الثانية من أنه أرسل النساء جميعا إلى سفينة أبحرت إلى باتى . وحتى تستقيم مع ماذكر فيها أيضا من أن ابنه القائد مالت نحو الإسلام .

(٢) لابد أن الكاتب خلط هنا إذ أنه نسى أن يوسف كان قد استولى على الحصن ، ومن اليسير جدا عليه إطلاق مدافعه على الدير وهدمه . فلا يمكن أن يستغرق الإستيلاء أكثر من ساعات قلائل .

(٣) يتنافى هذا أيضا مع ماورد فى المخطوط التالية من أن يوسف أرسل النساء إلى باتى فى سفينته .

ملحق رقم (٢)

مقتطف من مخطوط فى كاساناتير ، قام بترجمته للإنجليزية س . ر . ولشن

« بعض مخطوطات غير منشورة تتعلق بتاريخ جنوب وشرق أفريقيا سنة ١٦٣٠ »

تقرير عن التمرد الذى قام به فى ١٥ أغسطس سنة ١٦٣١ . دون جيرونيمو تشنجوليا ، ملك ممباسة ، مسيحى تعلم على أيدى الآباء سانت أوغسطين ، وتابع لجلالة الملك الكاثوليكى .

أرسل الملك إلى قائد الحصن . بدرو ليتاودى جامبوا ، ليقول إنه يريد أن يزوره . أتى ، وسلمه القائد مفاتيح الحصن طبقا لأوامر الملك . وحينما جلس الملك ، وخلع قبعته ، سحب سكينا ، وهاجم القائد المسن البرىء وجز رقبته دون أن يعطيه فرصة الصراخ . ودخل أتباع الملك أبواب الحصن ، وقتلوا كل برتغالى فيه .

عندئذ ذهب الملك إلى جدران الحصن ، وأعطى إشارة لأتباعه بالخارج ليقتلوا كل البرتغاليين عن طريق إشعال النيران فى منازلهم . وأثناء محاولتهم إطفاء النار أسقطتهم سهام البرابرة الخونة . الذين بهذه الطريقة أشعلوا النيران فى كل منازل المسيحيين فى الأرض .

لما رأى البرتغاليون أن من الحكمة ألا يذهبوا لمساعـــدة الحصن جمعوا كل ما استطاعوا من منقولاتهم ومؤنهم وأسلحتهم ، والجواهر ، والنقود ، والتجأوا مع أطفالهم ، وزوجاتهم إلى دير سانت أنطونيـــو لآباء سانت أوغسطين ، منتظرين التطورات .

ولما كان الملك يريد إخراجهم بالخديعة فقد أرسل خبرا بأن قائد الحصن قتل لأنه أهانه لكن لم تكن هنالك نيـــة لإيذاء الآخرين الذين لا يقع عليهم لوم ، وانه إذا جاء البرتغاليـــون إليه . فردا فردا دون سلاح وسألوه عفوه فإنه سيعمل على ترحيلهم إلى باتى . وإذ رأى البرتغاليـــون المساكين أنهم بدون مؤونة .

وبدون سفن ، ومحاصرين ، إستقروا على إرسال الأب رئيس الكنيسة آمبير بأن الملك ، وقد كان تلميذا لهؤلاء الآباء سوف يوليه بعض الاحترام ، وإذا ما وضح أنه لن يؤذى الأشخاص الذين لم يرتكبوا جريرة ، وأنه مادام قد قتل القائد فيجب أن يعفو عن الباقين ، وأن يدعهم يرحلون ، وأنه يستطيع أن يأخذ أموالهم وجواهرهم إذا كان يريدها . وحينما سمع الخائن ذلك أمر بمصادرة الجواهر والنقود ، ثم أخطر القسيس بوجوب اسلامه ، وحينما رفض بإصرار كبير ، شنقوه فوق جدران الحصن .

ثم أرسل بعدئذ إلى حمية ، وأخى زوجته ، وأمر بقتلها بالسهام[1] وهما فى الطريق إليه ، وفصل أطرافها . وقام بفعل هذا لكل الموجودين فيما عدا أجنبيا يدعى دى ماسيدو الذى أضحى مارقا حينما هدد بفصل رقبته ، وكذلك سبعة وأربعون من الأهالى معه .

فى اليوم التالى ، كانت الملكة زوجته ، ونساء أخريات وأطفال ، زنجيات قلقات على تأخر رئيس الدير ، والرجال حيث أنهن لم يكن قد علمن بقتلهم وقررن الذهاب إليهم ومخاطبة الملك ولو أنهن كن جد خائفات من خداع الخائن وفى الطريق أخذت إحدى النساء ، تدعى ناتاليا دى سا ، الصليب فى يدها ودعت الأخريات صلاة أن يتمسكن بدين المسيح حتى الموت وأن يتذكرن أنهن بنات برتغاليات .

بهذا الإصرار ذهبن إلى فأمر الطاغية بسجن زوجته[2] .وأمر ناتاليا دى سا أن تصير مسلمة . أجابت « أيها الخائن الا تكفيك ذنوبك لكى تسألنى أن أصير من العرب ؟ إننى أقدر أحقر عبيدى أكثر مما أقدرك ، أيها المارق الكلب الخائن .

---

(١) من هذه الجملة استنتجت ان زوجته كانت برتغالية كاثوليكية ، وصورت قتل الأب والأخ .

(٢) من هذه الجملة استقيت علاقته بزوجته وصورت الحوادث السابقة .

عدو المسيحية . يمكنك أن تقتلنا جميعا هنا ، ولن تصير واحدة منا مسلمة »
وهكذا أرسلهن جميعا إلى سفينة أغرقت إلى باتى[١] .

ولما رأى الأطفال الذين تخلفوا فى مات أنطونيو أن أمهاتهم لم يعدن قالوا لبعضهم « إن الملك الذى قتل الضابط لابد أنه قتل أيضا آباءنا وأمهاتنا[٢] . وإنما نخشى أن يفعل ذلك أيضا بنا ويحاول إغراء الضعفاء ليكروا إيمانهم . ألا نموت فى سبيل عقيدة المسيح كما فعلوا ؟ دعونا نخرج فى استعراض ومعنا آلاتنا الموسيقية منشدين مديح الرب » وهكذا خرجوا مع القسيس الثانى وساروا نحو الحصن يمدحون الرب . وقتلوا جميعا ، وفصلت رأس القس ، وقد أكد بعض العبيد الهاربين أن جثته تحمت ثانية وفاح منها عبير عطرى جميل . وألقى النساء والأطفال فى النهر ، وماتوا واحدا بعد الآخر[٣] .

وبعد يومين أحضر الملك أمامه كاهن الحصن ، وزوجته ، وبنات القائد . وأخطر الكاهن أنه سيبقى على حياته إذا صار مسلما فرد عليه ردا شديدا ناصحا إياه بالديانة المسيحية مما كلفه حياته .

وبينما هو يقترح لابنه القائد ان تصير مسلمة بدأت تتردد[٤] خائفة من الموت وهى ترى جثة والدها عند قدميها ، لكن الأم أتت فورا إلى مساعدتها قائلة للملك الخائن . « أيها الطاغية . لقد قتلت زوجى البرئ والآن ماذا تريد من ابنتى ؟ اقتلها ، واقتلنى ، وأرجو الرب هكذا أن ينقذنا » . وغضب الطاغية فقتل الفتاة تحت

---

(١) استنتجت من هذه الجملة كذب الرواه حتما فى ما ادعوه من أنه قتل زوجة القائد وابنته فمن يفعل هذا لا يقتل النساء والأطفال .

(٢) هذا يتعارض مع الملحوظة السابقة .

(٣) هذا أيضا يتعارض من الملحوظة رقم (١)

(٤) هذه الجملة تؤكد الإتجاه الذى ذهبت إليه فى القصة وهى كذلك تؤكد طيبة الرجل كما فى الملحوظة السابقة .

بصرها ، وعرض عليها مرة ثانية أن تتحول إلى مسلمة ، فأجابته رافعة عينيها « اقطع هذه الرقبة لأن الرب هو خلاصى » . ولتوه فصل رأسها وكل البرتغاليين ، والمسيحيين فى الحصن ، والبلاد تاركا مدفعيا واحدا فقط ، لكنه لم يستطع أن يرغمه على توجيه مدافع الحصن إلى كنيسة سانت أنطونيو حتى إذ رأى أخيرا إصراره فصل رأسه .

وأخيرا أطلق الملك نفسه مدافع الحصن على كنيسة سانت أنطونيو إذ أنه كان قد قاتل لسنين كثيرة فى الأساطيل البرتغالية ، وكان جنديا باسلا ، ومدفعيا ماهرا[1] .

بعد ذلك ذهب الملك إلى الكنيسة الرئيسية ، وإنتزع التمثال المقدس ، ووطأه بقدمه قائلا « هذا هو الرب الحى للمسيحين ، لماذا لايقتلنى ؟ » وأخبر شعبه أنهم لصوص ، وخونة ، وتافهون ، وأن صلواتنـــا زائفة وأن ربهم فقط ، ودياناتهم هى الجيدة . وإذ رأى المارق المذكور بعاليه ماسيد وقد صنع من دثار تمثال المسيح رداء له ، سأله « هل تصنع معطفا من رداء مسيحك ؟ وأجاب المارق « وما الضرر الذى يمكن أن يصيبه به المسيح ؟ وأضاف الطاغيـــة » إننى أرى أنك تفعل كل ماتستطيعه لتبقى على قيد الحياة » .

وصلت أنباء هذه الخيانة إلى جوا فى ٢٨ سبتمبر ١٦٣١ ، عن طريق بعض التجار الذين كانوا فى جزيرة باتى . وساعدهم ملك الجزيرة على إرسال سفينة إلى نائب الملك ، فجمع أسطولا من ثمانيـــة عشر سفينة تحت قيادة الجنرال دوم فرنسيسكو دى مورا ، وابن نائب الملك دوم فرناندو دى نورونا ، الذى التحق كجندى عادى ، ودوم روديجو بوتلو ، كأميرال الأسطول . أبحر فى ١٣ أكتوبر سنة ١٦٣١ ، وفى ٢٧ منه اكتشف جزيرة سستا ، حتى وصل إلى باتى . حيث وصلته الأخبار أن فى نهر كارنو توجد ثلاثة سفن أرسلها الجنرال روى فريرا دى اندرادى ، مشكلة مماثلة تحت قيادة جادودى فونسيـــكا .

---

(١) على هذه الجملة إستندت فى كل ماذكرته فى فصول الرواية المتعلقة بحياته فى الجندية لدى البرتغاليين .

وهنا نمى إلى الجنرال مورا أن المتمرد لم يتلق أية من مساعدة من الملوك المجاورين ، وأنه كان فى الحصن مع زنوجه ، وقاطنى المدينة الآخرين من الجزيرة .

فى ٨ يناير سنة ١٦٣٢ وصل الأسطول إلى جزيرة ممباسة ، وأضحى الحصن على مرمى البصر ، وأطلقت من الحصن طلقة ، لكنها لم تصب أحدا بمكروه . ولما دخلنا فم الميناء أنذر الجنرال بأن الملك قد وضع مدفعا فى مركز أضر فعلا ببعض السفن ، وقتل جنديا وبحارا ، لكن لما كانت سفينة حربية ومركبين قد وضعت بحيث تحطم مكان المدفع فإن العدو وقد خشى الأسطول القوى سحب المدفع حتى لا يفقده .

تحت هذه الظروف أرسل الجنرال إلى موزونجولى للنجدة فأجاب بأنه سوف يأتى بنفسه إذ أنه لم يكن صديقا للخائن ، وأنه كان مخلصا جدا للبرتغال ، لكن هذا فى الواقع كان فقط لخديعتنا . وحينما أتم الجنرال كل الترتيبات للنزول على أرض الجزيرة دعى مجلسا من القباطنة ، وذكر أنه استقر على تقسيم قواته لكى يربك العدو ، وبعد أن فعل هذا أرسل أمرا إلى اندرو فيلو قبطان ستة سفن كانت على مرمى البصر من مدينة العرب أنه حيث أن لديه القوارب عليه إنزال جميع رجاله إلى البر حتى يتمكن لباقى الرجال من سائر السفن ان ينزلوا بدورهم بسلام إلى البر . وهذا ماحاولوا فعله فى ٢٨ يناير فى خليج صغير أسفل كنيسة سيدتنا الهاديه حيث أن هذه كانت أقرب نقطة إلى الحصن . واتضح ان البحر هناك ينتهى بشكل لا يمكن معه النزول إلى الشاطىء . ولما رأى الجنرال هذا ، إقترب بالأسطول ، وأنزل كل رجاله فى حين كان أندريه فيلو يتقاتل مع العدو . لكن النزول إلى البر تم فى مكان كانت فيه الغابة من الكثافة بحيث أنه لم يكن من المستطاع رؤية أى طريق إلى القلعة . ومع هذا فإن الجنرال بدأ من فوره فى حفر خنادق ووضع متاريس، ووسائل تمويه لتغطية الهبوط إلى الأرض ، والكل يعمل بهمة دون أن يلاحظ أحد العدو حتى الساعة الثانية بعد الظهر حينما اندفعوا ضدنا بصياح هائل بالرغم من أننا لم نكن نراهم بسبب الغابة الكثيفة ، ولكن حينما رأونا متأهبين بالسلاح لم يجرؤوا على الاقتراب .

وفى اليوم التالى أنذر الجنرال أن غيضه النخيل التى كان المدفع المذكور قد وضع فيها يوجد أيضا بعض المنازل حيث يمكن للرجال أن يجدوا بعض الراحة، وحيث يمكن التوغل إلى الحصن . وعليه فإنه أرسل ثلاثين من الزنوج ومعهم ستين أو سبعين من الفرسان حاملى البنادق لقطع الأشجار حتى يمكن رؤية المنازل ، وهذا ماقاموا به. عندئذ أمر الجنرال الضابط بورال رئيس المهندسين ان يستكشفها وان يحصنها إذا أمكن . ابتدأ الضابط فورا فى عمل أماكن المدافع ، وحفر خنادق ، وإقامة متاريس . فى الوقت نفسه كان الجيش يتقدم نحو المنازل دون ان يلاحظ أن بعض الأعداء يستترون بالظلام حينما إحتلت سرية فقط من الجند وضابطهم المنازل حيث ان كل الرجال كانوا سوف يصلون فى اليوم التالى (هذا الخلط موجود فى الأصل) . لكن هذا لم يسمح به الجنرال حتى يفحص بنفسه المنازل ليرى ماتم عمله .

حينئذ أرسل أمرا إلى الكابتن بدرو الفاريزدى كاستلبرانكو أن يتقدم ثم أتى نحو المنازل مع رجاله وسرية من الزنوج الموالية لنا ، وقسى ، وسهام .

كان الجنرال هناك فعلا ووضع الجميع أسلحتهم حيثما اتفق وهم يشعرون بالسعادة لتفكيرهم بأنهم قريبون من الحصن . لكن فى هذه الأثناء كان الأعداء مختفين ومنتظرين ، ويرقبون البرتغال وهم يعملون فى التحصينات ، ثم اندفعوا هاجمين عليهم لجأة لدرجة أن رجالنا بالكاد استطاعوا أن يصلوا إلى الأسلحة القريبة منهم وتفرقوا فى الخنادق دون نظام . وحاول الكثيرون دخول المنازل التى لم تكن تسع سوى عشرين . ولما حاول العدو اقتحام المنازل دافع الجنرال بشجاعه بسيف ودرع وتلقى سبعة سهام خطيرة جدا ذات رؤوس مسمومة وكان من الممكن ان يقتلوا جميعا لولا أن أحد الزنوج إندفع يقول « حذار حذار ان بعض رجال قادمون لمساعدة الجنرال » . ولما رأى الأعداء هذا انسحبوا نحو الغابة تاركين إثنين وأربعين قتيلا من بينهم دوم ديوجو دى ليما ، وبدرو الفاريز كاستلبرانكو وكابتن جاودى فونسيكا وجاو الفاريز دى مورا وآخرين لا أعلم أسماءهم كما قتل وجرح كثير من الزنوج .

ولما رأى الجنرال أن جراحه خطيرة فى حوادث اليوم المؤسفة . أمر بإلقاء كل الجثث فى الحفر فيما عدا جثة نيلين ، وانسحب إلى مكان الجيش الرئيسى حيث أزدادت جراحـــه سوءا من آلام الحر والبرد فاضطر إلى الانسحاب إلى سفينته الحربيـــة ، وترك القيادة إلى جونزولادى بايروس دى ليما حتى يأتى الأميرال .

وحينما تحسنت صحة الجنرال قام بعدة هجمات على القلعة وتمكن من إكتشاف الدفعية مما مكنه فقط من الابتعاد المسافة الكافية . ولكنه من جهة أخرى تلقى خسائر كبيرة من العدو حتى أنه بدأ ييأس من الاستيلاء عليها ، وإزداد الملك الخائن جرأة خاصة وأنه كان يعلم أن الأسطول لا يمكنه البقاء هنالك حيث ان موسم الرياح الموسمية إلى الهند اقترب .

لهذا السبب وبسبب الخسائر الفادحة فى الرجال دعى الجنرال مجلسا من الربابنة استقر الرأى فيه على تنفيـــذ أوامر الملك بأن على الأسطول سواء تم الاستيلاء أم لا أن يتجه رأسا فى الرياح الموسمية إلى رأس روزالجيت (رأس الحد) حيث يجدون الجنرال روى فريرى فأبحر الأسطول فورا ورفع الحصار بالرغم من أن بعض الرجال والنساء الذين فروا إلينا أكدوا لنا أن الجوع ضارب أطنابه بين الذين بداخلها كما أنه لا يوجد سوى أربعون برميلا من البارود . وأثناء ترك الأسطول للمرفأ اتبعه الملك ببعض طلقات المدفعية إذ كان مخـــورا جدا فى حين ان رجالنا فى حالة شديدة من التعاسة للنتيجة السيئة التى حدثت . فى ٢٨ مارس وصل الأسطول إلى امبوجيـــا (فازا) حيث أرسات مركبان إلى زنزبار لقضاء فصل الشتاء حتى يمكنهما مع ثلاثة أخريات بقيت فى باتى ان يأخذوا مواقعهم عند ميناء ممباسة عند بداية الربيع ومنع الملك من إرسال أية سفينة إلى الخارج . وحينما تم تموين سفينتنا بالمياه ، والخشب والضروريات الأخرى أبحرت فى التاسع من أبريل على طول الساحل إلى رأس جواردافوى حيث وصلت إليها فى نهاية الشهر نفسه ومنذ المرور على روزالجيت حيث أنه كان مايزال هنالك ٢٠٠ فرسخا يجب

قطعها دعا الجنرال مجلسا من الربابنة وقرروا الإبحار إلى الهند حيث أنه لم يكن هنالك وقت للوصول إلى روزالجيت . وتم هـــذا ووصل الأسطول إلى جوا فى ٣٠ مايو سنة ١٦٣٢ .

وبعد ذلك بمدة وصلت الأخبار إلى نائب الملك أن العربى الثائر قد دمر الحصن وأخذ كل شعبة وأسلحته وبضائعه إلى داخل القارة ، وذهب بنفسه إلى بلاد العرب ليطلب هنالك معونة حكامها أو معونة الأتراك[1] .

بهذه المعلومات أرسل نائب الملك سفنا وأسلحة لاسترداد الحصن وتعميره ثانية بالناس . بعد أن عرض لهذا الغرض على كثير من النساء وأقاربهن ، ولكن لمـا علم بعد ذلك بأن ثلاثة عشرة سفينة هولاندية قد غادرت سورات خشى أن تكون لها نفس الهدف وأن تكون قد وصلت قبلنا .

---

(١) ممـا تقدم استقيت الفصل الثانى والعشرين .

بسم الله الرحمن الرحيم

أشخاص الرواية التاريخية

---

١ — السلطان محمد

٢ — السلطان يوسف

٣ — كونت دى ليناس

٤ — الكابتن سبادل ميلو بربرا

٥ — الكابتن بدرو ليتاودى جامبوا

٦ — زوجتـــه

٧ — ابنتـــه .. اوروورا

٨ — قبلة موزونجل (اريفو)

٩ — الآباء الاوغسطنيون .. سانت فرانسيس

١٠ — ناتاليا دى سا

١١ — دى ما سيدو

١٢ — رئيس الدير

١٣ — زوجة يوسف البرتغالية .. ايوفيميا

١٤ — حماه البرتغالى سباستيان فورينو

١٥ — أخو زوجته البرتغالى .. لورنسو

١٦ — دوم فرنسيسكو دى مورا

١٧ — دوم فرناندو ده نورونا

١٨ — دوم رودريجو بوتلو

١٩ — جنرال روى فرير داندرادي

٢٠ — اندروفيلو

٢١ — الكابتن بورال

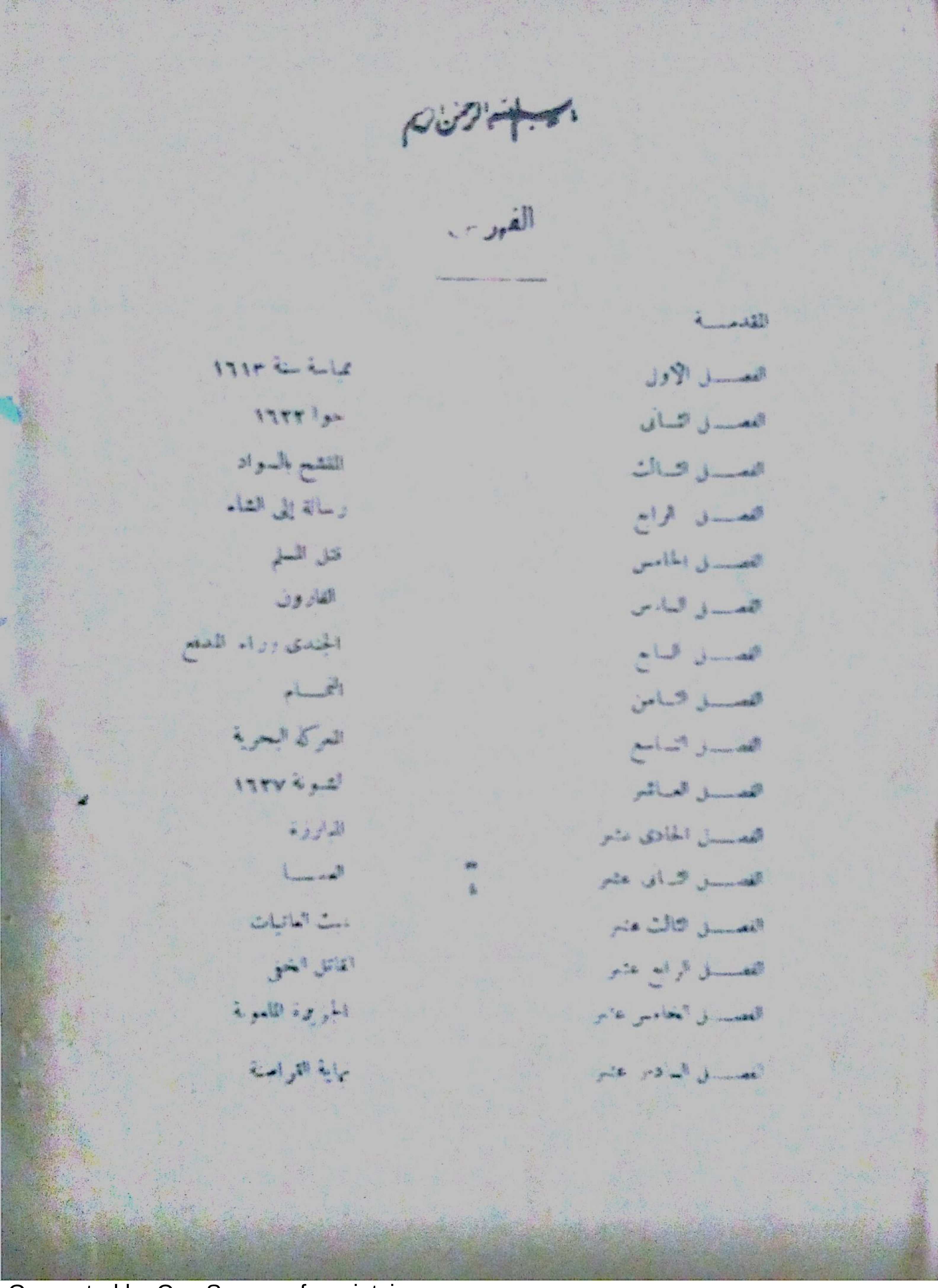
٢٢ — جونزولا دي باروس دي ليما

٢٣ — دوت ديوجو دي ليما

٢٤ — كابتن بدرو الفاريز دي كاستلبرانكو

٢٥ — جاو دي فونسيكا

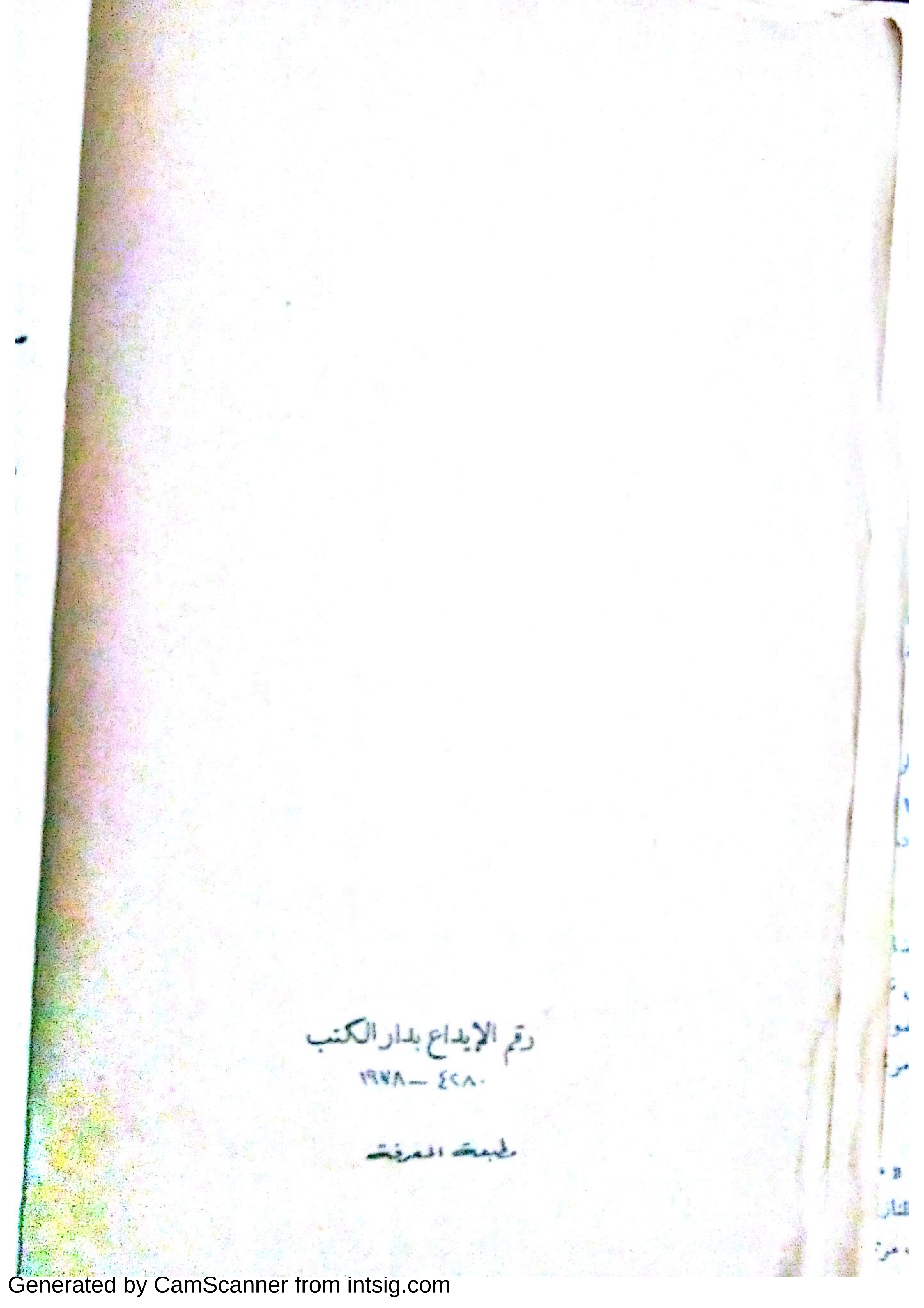
٢٦ — كابتن جاو الفارز دي مورا



بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

• • •



رقم الإيداع بدار الكتب
٤٢٨٠ — ١٩٧٨

مطبعة المعرفة

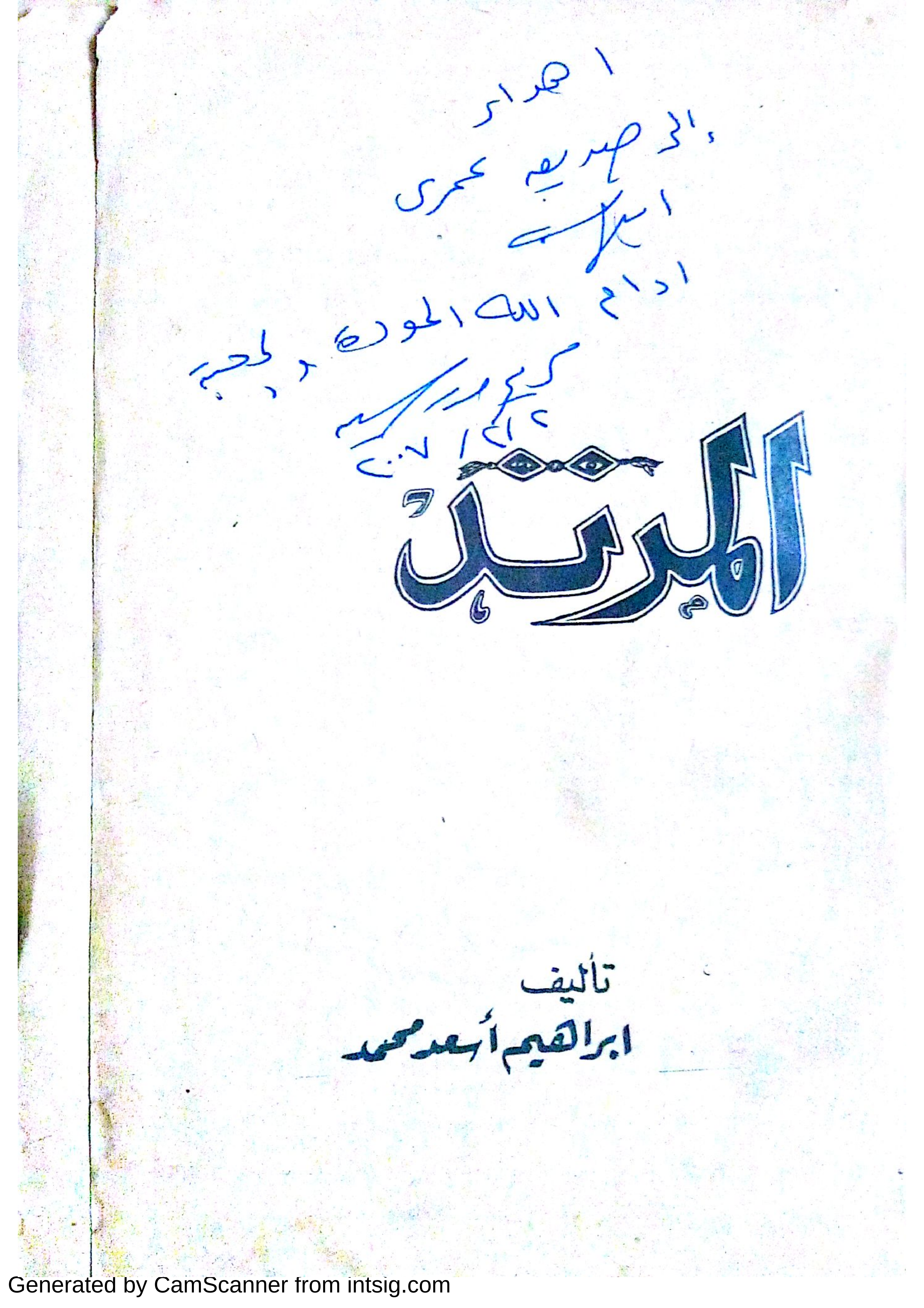
بسم الله الرحمن الرحيم

استدراكات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٨	سبعة وثلاثين	سبع وثلاثون
٦	٢٤	استولى	استولوا
١٨	٧	شفتين	شفتاه
٣٦	٧	الحراس	الحارسين
٤٠	٢٠	ينتبه	يتبينه
٤٢	١٢	ستتأكدوا	ستتأكدون
٥٠	١٤	الجدهر	الجدار
٥٠	١٩	البارد	البارود
٥٢	١٨	أمتار	أمتارا
٧١	١٢	يريد يظهر	يريدأن يظهر
٧٤	١٣	بتعبنا	بتعقبنا
٧٥	٨	وراءه	وراؤه
٧٩	١٣	متعجره	متعرجة
١٠٩	١٢	احتجاجه	احتجاجاته
١١٢	—	الفصل الثامن	الفصل التاسع
١١٢	١٢	انهم يكونوا	انهم لم يكونوا
١١٤	٦	بها إذا	بها إلا إذا
١١٦	٢٠	فارين	فاريز
١١٨	٥	أبقوا	رأوا
١٢٠	٦	عدد	عددا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤٢	١١	مقت دفين	مقتا دفينا
١٤٣	١٨	تستطيع	تستطعن
١٤٤	٥	الوقع	الوقح
١٦٢	٢٤	السمار	الدوار
١٦٥	٥	ينقصى شيئا	ينقص شيء
١٧١	١٤	وحلقت فى عقول	وحلقت عقول فى
١٨١	١٠	يدع	تدع
١٨١	١٥	عن	على
١٨٢	١٤	متلصبا	متصلبا
٢٠٠	٩	الأصبع	الأصابع
٢١٣	١٣	نحن الإثنين	نحن الإثنان
٢١٥	٩	دوام	داوم
٢٢١	١	تداران	تدوران
٢٣٠	٢٤	قدمتها	قدميها
٢٣١	٢١	واء	وراء
٢٣٦	٨	يعود ليها	يعود إليها
٢٧٥	٣	الجنونية	الجنوبية
٢٩٣	١	فهو أصل	فهو من أصل
٢٩٧	١٤	أوررا	أورورا
٢٩٩	١١	يصحبهم	يصحبهما
٣٠٤	٩	تحتقر	تحتقره
٣٠٨	١١	ووراءه	ووراؤه
٣٠٩	١	انتهو	انتهوا
٣١٠	١٩	ذا كراتها	ذا كرتها
٣١٦	١٢	اطئن	اطمئن
٣١٩	٢١	الأحش	الأحراش

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٢١	٢١	قسمين	قسمى
٣٢٣	٢٣	ميلا	برميلا من البارود
٣٢٤	٥	أحدها	أحدهـا
٣٢٥	١٦	وراءه	وراؤه
٣٢٧	٧	ووجهه	ووجهه
٣٣٢	٥	يأملوا	يأملون
٣٣٢	١٠	وانهلع قلب	وانهلعت قلوب
٣٣٥	١٤	الجوع	الجـوع
٣٤٤	١٣	اسمـع	اسمـع
٣٤٤	١٤	جرت	جربت
٣٤٥	٢٤	أما ملك	ما أملك
٣٤٧	٩	عنه شيئا	عنه شيء
٣٥٠	١	يعلق	يتعلق



المرتد

تأليف

ابراهيم أسعد محمد


"ليعلم أبناءنا أن أباءهم وأجدادهم
كانوا رجالا ، لايقبلون الضيم
ولا ينزلون أبدا على رأي الفسدة
ولايعطون الدنية أبدا من وطنهم
أوشرعيتهم أو دينهم"
د. محمد مرسي رئيس الجمهورية - ٢ يوليو ٢٠١٣
inspiron
عباقرة الأسلاف
المرتد
تأليف

وطن الراشدين



عمرو عبد العزيز

دار القمري
للنشر والتوزيع

وطن الراشدين

عمرو عبد العزيز

دار القمري

وطن الراشدين هو محاولة لبعث حالة عصر الخلفاء الأربعة الذهبي لمعالجة الواقع الحالي قدر الإمكان. فكانت البداية عند مناقشة و نقد أشهر نظام سياسي معاصر، ألا و هو الديمقراطية. و حجم قدراته الواقعية على تحقيق آمال مجتمعات المسلمين في كامل وطنهم. ذلك الوطن الذي نحاول تحديده و بعث مبادئه مجتمعيا في الفصل الثاني حتى نجعله شديد الصلابة في وجه أعدائه الذين يتم تعيينهم و تحديد مراتبهم في الفصل الثالث.

في الفصل الرابع نستعرض كيفية تحويل هذه المفاهيم المجتمعية المطلوب نشرها إلى صيغة مشروعة و مرئية يسهل على الناس تلقيها و تشبعهم بها. ثم يجيء الفصل الأخير ليحدد شكل الدولة الإسلامية الجديدة من الناحية السياسية، و التي تستلهم مبادئ و أحكام عصر الخلفاء الراشدين في مؤسساتها و حكوماتها.

وطن الراشدين.

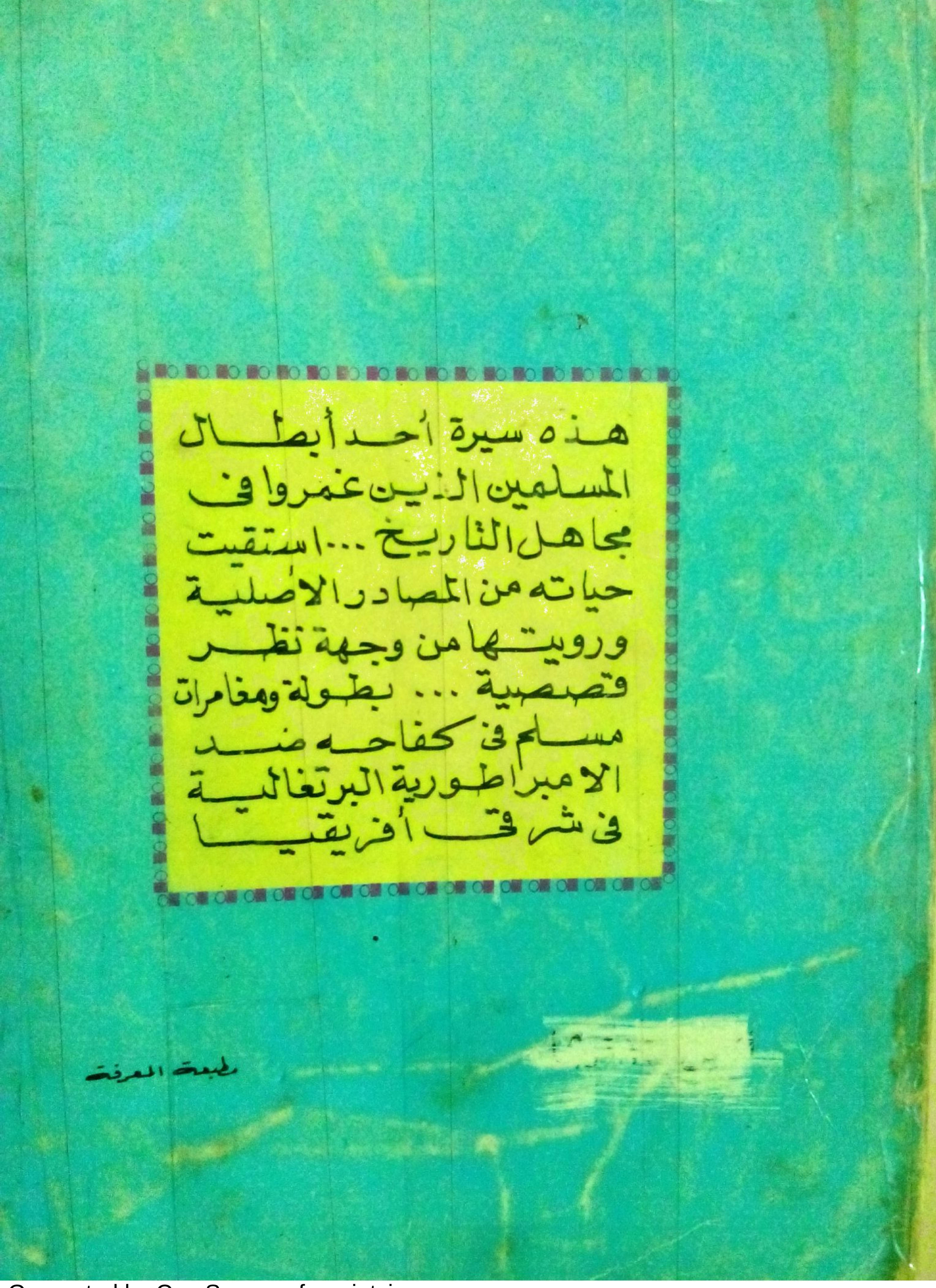
محاولة لزرع نواة مجتمع الخلافة.. على منهاج الصحابة المهديين.

و محاولة لزرع نواة دولة الخلافة.. على منهاج الخلفاء الراشدين.

عمرو عبد العزيز

دار القمري





هذه سيرة أُحد أبطال
المسلمين الذين غمروا فى
مجاهل التاريخ ... استقيت
حياته من المصادر الأُصلية
ورويتها من وجهة نظر
قصصية ... بطولة ومغامرات
مسلم فى كفاحه ضد
الامبراطورية البرتغالية
فى شرق أفريقيا
مطبعة المعرفة